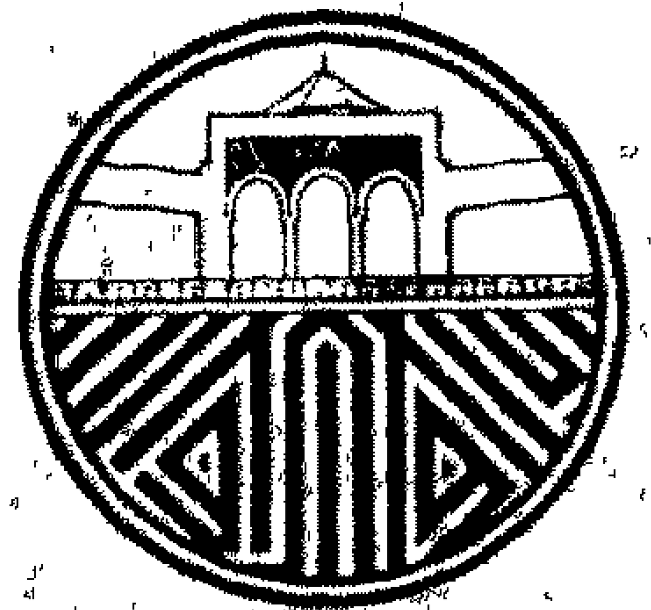
المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 52



محمد المبكر

شمال إفريقيا القديم

حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية

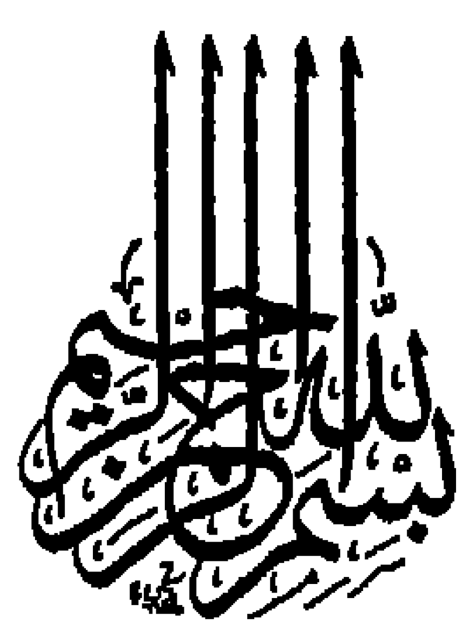
305 م – 429 م

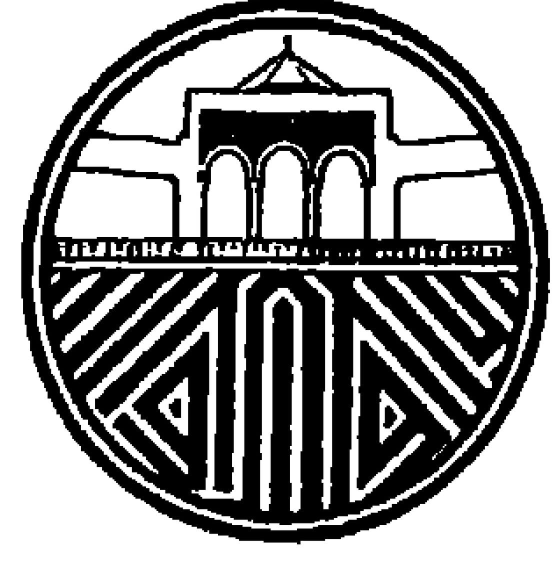


إهــــــــداء2005
جمعية أصدقاء المكتبة
المغرب

شمال أفريقيا القديم

حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية





منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 52

شمال إفريقيا القديم

حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية

305 م ـ 429 م

محمد المبكر

صـورة الغـلاف

* **قرطاج** ــ جزء من «**فسيفساء السيد بوليوس**» الشهيرة. وتبرز مشهد جني الزيتون الذي كان من الأنشطة التي اشتغل فيها العمال الموسميون المتنقلون. تصوير : **أندريه مارتان**، من كتاب «**الفسيفساء في تونس**»، دار سيراس للنشر، تونس، 1986، ص 38

الكتـاب	:	**شمال إفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية (305م-429م).**
المؤلف	:	محمد المبكر.
سلسلة	:	رسائل وأطروحات رقم 34.
منشورات	:	كلية الآداب بالرباط.
الغلاف	:	إعداد عمر أفا.
الخطوط	:	بلعيد حميدي
الحقوق	:	محفوظة للكلية بمقتضى ظهير 1970/7/29.
الطبع	:	مطبعة النجاح الجديدة ــ الدار البيضاء.
ردمك	:	ISBN 9981-59-058-4.
التسلسل الدولي	:	1113/0334
الإيداع القانوني	:	2001/1805.
الطبعة	:	الأولى 2001.

طبع هذا الكتاب ضمن
الحساب خارج الميزانية

الإهداء

إلى روح والدي

أصل هذا الكتاب

هذا الكتاب في الأصل رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقشت سنة 1982 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس أمام لجنة مكونة من الأساتذة :

- د. محمد التازي سعود، رئيسا
- د. فوزي مكاوي مشرفا ومقرراً
- د. مصطفى كمال عبد العليم عضواً

ونالت درجة «حسن جداً».

تصدير

لم تكن أرض المغارب خلاء و لم تكن تعيش جاهلية جهلاء لما دخلها الرومان غازين مستعمرين. لقد سبق للحضارة الفينيقية الشرقية أن تغلغلت بعمق في شمال أفريقيا وتفاعلت طيلة عدة قرون تفاعلا بيِّنا مع قيم الأهالي خاصة في المنطقة الشرقية من البلاد (شمال تونس الحالية) حيث تأسست قرطاج كقوة عظمى فينيقية — أفريقية طاولت القوتين العظميين آنذاك : إغريق صقلية وروما الصاعدة.

وبعد تدمير قرطاج (146 ق.م) واستيلاء روما على البلاد تدريجيا إلى أن استتب لها الأمر، تفاعل الأهالي مع الحضارة الجديدة و«ترومنوا» تدريجيا وبدرجات متفاوتة حسب انتمائهم الجغرافي والطبقي، محافظين في ذات الوقت على بعض سمات الحضارة الأفريقية القرطاجية. وتطورت عشرات المدن وانبعثت قرطاج من رمادها حتى أصبحت المدينة الثانية في الإمبراطورية الرومانية؛ ونشطت الحياة الحضرية وبرزت «نخبة» محلية متلتننة شاركت أحيانا على أعلى المستويات في حياة الإمبراطورية، فانحدر منها الكاتب الموهوب والطبيب الذائع الصيت والإمبراطور... فليس من المجازفة أن يتحدث الدارسون عن «حضارة رومانية أفريقية».

ودخل بعض الأفارقة في دين المسيح وأسهموا في تطوره إسهاماً شهد لهم به تاريخ الكنيسة : فكان أول أثر مسيحي مكتوب باللاتينية مؤلفات الأفريقي «طرتليانوس» Tertullianus (150–220 تقريباً)، وأقدم مجمع كنسي وصلنا مفصلا مجمع قرطاج برئاسة «القديس قبريانوس» Sanctus Cyprianus (خريف سنة 256)، وأغزر آباء الكنيسة القدامى إنتاجا وأعظمهم تأثيراً — بدون شك — القديس أغسطين Sanctus Augustinus (354–430) أسقف «هيبو ريكيوس» Hippo Regius (عنابة بالجزائر).

هذه بعض التجليات «المشرقة» للترومن والتنصير بشمال أفريقيا، وهي التي يركز عليها البعض لإبراز الحصيلة «الإيجابية» للتدخل الروماني. وقد يرى فيها البعض الآخر، قبل كل شيء، دليلا على استعداد قديم متجدد لدى سكان المنطقة

للاندماج في الحياة المتوسطية (أي العالمية آنذاك). وأيّاً كان الأمر، فإنها لا تمثل إلا وجهاً من أوجه أفريقيا الشمالية في ذلك التاريخ، ولا ينبغي أن تكون اختزالاً لسياق تاريخي عرف المد والجزر، والوئام والتنافر، والقبول والرفض، والنجاح والفشل. على أرض الواقع، عاشت البلاد كذلك توترات وصراعات على مستويات عدة ينبغي استحضارها لكتابة تاريخ «شامل» يبرز أيضاً مواقف الفئات الاجتماعية المناوئة و«الثقافات المضادة» والمذاهب الدينية المنشقة. ولعل مرحلة ما يعرف بالعصر الأخير من الإمبراطورية الرومانية (284م ـــ 495م) تمثل المرصد الأنسب للوقوف على مثل هذه الجوانب، وبالأخص على تداخل الوقائع الاجتماعية والدينية.

تشكل هذه الحقبة في التاريخ الروماني العام وحدة زمنية متميزة شهدت تحولات خطيرة وتبلورت خلالها «حضارة جديدة» همت أيضا الولايات الأفريقية حيث كان لها وقع هام على الظاهرتين المشار إليهما سابقاً، أي ظاهرتي الترومن والتنصير :

فعلى مستوى الترومن، شهد هذا الشوط الزمني (الذي ينتهي في شمال أفريقيا بالغزو الوندالي سنة 429) تغييرا في الإطار الجيوسياسي[1]، وتراجعاً للوجود العسكري الروماني إلى ما وراء الحدود السابقة في بعض المناطق (في موريطانيا الطنجية على الأقل)، كما عرف نشوب ثورات واضطرابات متعددة. وبصورة عامة، فإن ظاهرة الترومن نفسها بدأت تعرف انحساراً أو بالأحرى تحولا كيفياً، على اعتبار أن الترومن تزايد حيث كان قوياً وتراجع حيث كان هشاً.

وأما على مستوى التنصير، فبعد أن عانت المسيحية من اضطهادات عنيفة على يد الدولة الرومانية الوثنية ـــ كان آخرها في عهد الإمبراطور «ديقليديانوس» ما بين سنتي 303 و305 ـــ، أصبحت ابتداء من «قسطنطين» تحظى برعاية الأباطرة الذين حاولوا بواسطتها تحقيق الوحدة الدينية للدولة الرومانية. وهذا التحول هو ما سمح لها بأن تنتشر انتشارا واسعا في وضح النهار، بالرغم من بزوغ مشاكل

(1) يتعلق الأمر بما يعرف عند المؤرخين بـ«إصلاحات ديقليديانوس» التي أدت إلى تقسيم إداري جديد للإمبراطورية بما في ذلك الولايات الأفريقية، حيث قسمت الولايات الأربع السابقة إلى سبع ولايات جديدة.

جديدة ومخاطر من نوع آخر اتضحت في صعوبة تأسيس علاقات جديدة متناسقة بين السلطة الزمنية (الدولة المسيحية) والسلطة الكنسية، وداخل هذه الأخيرة، بين الباباوات والكنائس الإقليمية.

وفي الولايات الأفريقية نفسها، اتسمت هذه الفترة بانتشار كبير للمسيحية، لكنها عرفت أيضا الانشقاق الكنسي الخطير الذي قسم الكنيسة الأفريقية إلى كنيستين متصارعتين : الكنيسة الكاثوليكية التي حظيت بدعم الدولة، والكنيسة الدوناتية التي عانت من اضطهاد السلطة.

حول هذا الصراع الكنسي، تمحورت مجريات الأحداث بشمال أفريقيا خلال تلك الحقبة، حتى إن تاريخ ذلك العصر يكاد يتلخص في تاريخ الدوناتية. وقد نفسر هذا جزئياً بنوعية المصادر المتوفرة، إذ هي في أغلبها ذات طبيعة دينية. ومع ذلك، فإن فيها ما يشير بقوة إلى أن الصِّدام الكاثوليكي ـــ الدوناتي لم يكن لاهوتياً فقط، بل كان متعدد التجليات، متداخل الأبعاد، ومن ثم فإنه يستلزم من الباحث استقصاء تلك التجليات والأبعاد، لكشف الغموض وتحديد الأدوار.

من غير شك أن تاريخ الدوناتية يمكن أن يكون نفسه موضوع تأريخ. فمن مؤلف القديس أبطاتوس Sanctus Optatus ـــ الذي هو أول مجادل كاثوليكي وأول مؤرخ للدوناتية وصلتنا كتاباته ـــ إلى أطروحتي «فرند»[(2)] و«بريصون»[(3)]، تطورت كتابة هذا التاريخ بطرح أسئلة جديدة على النصوص، أي بمحاولة إعطاء تأويلات تستعمل مفاهيم العصر وتعبر عن انشغالاته. فالتفسير «الأبطاتي» (نسبة إلى القديس أبطاتوس) ـــ بغض النظر عن انحياز صاحبه وانشغالاته الدينية ـــ يركز بالأساس على ما يسميه المحدثون أحياناً «الأسباب المباشرة»، أي على «الأحداث» التي أدت إلى الانشقاق والتي تنحصر برأيه في صراع بين بعض الأشخاص يتحركون بدوافع الحسد والغيرة والتآمر. أما المحدثون ـــ ابتداء من القرن 19 على الأقل ـــ، فإنهم استشعروا أن رواية أبطاتوس ومن تبعه بعد ذلك لا يمكن أن «تفسر» استمرار الانقسام بعد اختفاء تلك الشخصيات وصمود

---

(2) - FREND (W.H.C), **The Donatist Church. A Movement of protest in roman North Africa,** London, Clarendon Press, 1952.

(3) - BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale,** Paris, de Boccard, 1958.

الدوناتية وحيويتها لعدة قرون بالرغم من اضطهاد السلطات إياها. فلا مناص من البحث عن «الأسباب العميقة» والدلالات الكامنة وراء الحركة الدوناتية. ومن ثم أدخل المحدثون في الاعتبار مقولات تفسيرية جديدة: إثنية ـــ ثقافية، سوسيولوجية، اقتصادية، إلخ. عموماً، قد نختزل أهم التأويلات التي أعطيت للدوناتية في ثنائية تفسيرية: حركة مقاومة «وطنية» / حركة «نضال» اجتماعية اقتصادية، مع التركيز ـــ حسب الباحثين ـــ تارة على التجليات الاجتماعية (باعتبار حركة «الدوارين»[4] Circumcelliones حركة مناهضة للاستغلال «الطبقي») وتارة على التجليات الدينية (بالتركيز على التوجهات والممارسات الدينية لدى الدوناتيين، بمن فيهم «الدوارون»).

ومع أنه عيب على الأطروحتين معاً استعمالهما لقوالب منهجية جاهزة، وأنهما مجرد «تركيب» يحلل أحداثا وقعت في التاريخ القديم بمفاهيم القرن العشرين (لكن، هل التأريخ عموماً غير ذلك ؟)، فإنه أصبح الآن من غير الممكن دراسة الدوناتية بدون أخذ موقف من تنازع التأويلات بصددها.

لقد حاولنا في هذا البحث أن نضع حركة الدوارين «تحت المجهر» على ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة لطرح الأسئلة الآتية: من هم الدوارون ؟ (هل هم «عمال موسميون» أم «زوار الأضرحة» أم «رهبان جوالون»...؟) ما هي طبيعة حركتهم (دينية أصلاً أم اجتماعية ـــ اقتصادية أساساً) ؟ ما هي علاقاتهم بالدوناتية (هل كانوا دوناتيين متحمسين أو دوناتيين بـ«المصادفة»...)؟ هذه أسئلة اختلف الباحثون في الإجابة عنها اختلافاً حاداً يفسر إلى حد كبير تضارب تأويلاتهم للدوناتية، وفي تقديرنا أن بحثها يمكن أن يساهم في مقاربة متجددة للدوناتية وإثراء دراسة الظواهر الدينية والاجتماعية بشمال أفريقيا في هذه الحقبة الهامة من تاريخها القديم.

استفدنا في هذا العمل من عدد من المراجع معظمها إن لم نقل كلها ـــ للأسف ـــ بلغات أجنبية، وذلك لندرة المراجع باللغة العربية، وهو ما يطرح إشكالات متعددة، منها ما يتصل بالترجمة وتعريب المصطلحات، ومنها ما يرتبط بالتعامل مع «الهسطوريوغرافيا الكولونيالية». ومع أن أغلب هذه المشاكل تعترض

(4) عن هذا التعريب لكلمة Circumcelliones انظر هامش رقم 30 من الفصل التمهيدي.

الباحث في تخصصات أخرى، إلا أن بعضها يستحق وقفة خاصة ــ ولو قصيرة ــ بالنسبة إلى التاريخ القديم.

لم يحظ تاريخ شمال أفريقيا القديم بما يستحقه من اهتمام لدى أبناء المنطقة أنفسهم، وبقي إلى حد كبير حكراً على اختصاصيين أجانب معظمهم من الضفة الشمالية للمتوسط. ولاهتمام أولئك وقلة اهتمام هؤلاء أسباب «موضوعية» و«ذاتية» لا مجال هنا للخوض فيها. وإذا كان الأوربيون بعد استقلال البلدان المغاربية قد قل اهتمامهم نسبياً[5] ببعض قضايا التاريخ القديم لمستعمراتهم السابقة، فإن البحث «الوطني» لم يملأ ــ بعدُ ــ هذا الفراغ، ولم يقل قولته في هذا الشطر الهام من تاريخ البلاد. ثم إن الجميع ــ مغاربيين وغربيين ــ ورثوا عن الحقبة الاستعمارية ركاماً هاماً من الأبحاث في التاريخ القديم وعلومه المساعدة (الأركيلوجيا خاصة). ومن البديهي أن معظمه (لا كله) انطبع بتأويلات و«مستبقات» إيديولوجية عنصرية واستعمارية تنم عن روح العصر الذي كتب فيه. كما أنه ــ كأي إنتاج آخر ــ تضمن الغث والسمين. وإذا كان الجميع ــ على ما يبدو ــ متفقاً على أنه ذو قيمة وثائقية، وأن لا مناص من التعامل معه (ومع ما يصدر الآن أيضاً) بروح نقدية، لكن بدون تشنج ولا إقصاء مسبق، فإن الهدف ــ طبعاً ــ هو تجاوزه علمياً قصد الرقي بالبحث الوطني المغاربي إلى مستوى رصين يفرض نفسه على الساحة العلمية، وفي ذات الوقت إثراء الخزانة العربية بما يغني القارىء العربي شيئاً فشيئاً عن أطروحات استعمارية متجاوزة.

وهنا يبرز مشكل تعريب هذا التخصص مع الحرص الشديد على المستوى «العالمي» للبحث. ولا نتوفر ــ بعد، للأسف ــ على رصيد مصطلحي متين وموحد يشمل ميادين التاريخ القديم وعلومه «المساعدة» (أركيلوجيا، إبغرافيا، إلخ). وفي انتظار أن يتحقق ذلك مع تراكم الأبحاث، اعتمدنا قدر المستطاع المعاجم المتوفرة واجتهادات السابقين لمد الجسور، واقترحنا أحياناً اجتهادنا الخاص. كما أننا

(5) فيما يخص بالذات تاريخ المسيحية القديمة بشمال أفريقيا، فإن اهتمام البحث الغربي قديم متجدد، نظراً لأهمية الإسهام الأفريقي في التاريخ الكنسي برمته (الدراسات الأغسطينية، على وجه الخصوص). هناك إذاً تاريخ مشترك يظل مجالاً مشتركاً بين الباحثين الأوربيين والمغاربيين، وإن اختلفت الرؤى والزوايا المنظور منها إلى هذا النصيب المشترك.

حرصنا ما أمكن على الحفاظ على المصطلح اللاتيني الأصلي دون «المرور» بشكله الأجنبي (الفرنسي أو الإنجليزي). و لم يتم كل هذا بدون صعوبة ولا تردد. وعلى سبيل المثال، كان علينا أن نختار بين رسمين لكلمة Donatista : دوناتي / ضوناتي، فاخترنا رسم الكلمة بالدال بدل الضاد بالرغم من النطق الأصلي. وأبقينا على اللواحق اللاتينية في أسماء الأعلام إلا المشهور منها كأسماء بعض الأباطرة («قسطنطين»، مثلا)، أو كاسم القديس «أغسطين» اعتباراً لرواجها في الإنتاج العربي القديم والحديث. واعتبرنا من هذا الصنف ــ بعد تردد مضن ــ كلمة «دوارين» التي اجتهد في وضعها المعربون المحدثون (ووفقوا برأينا) كترجمة لكلمة Circumcelliones («كركمكيليونات»). على أننا لم نستطع التمادي في محاولة مد الجسور بين الحديث والقديم، وخاصة مع ابن خلدون الذي أتى بـ«تعريب» غريب وأحياناً بتشويه لبعض الأعلام اللاتينية والإغريقية انطلاقاً من ترجمة (أو ترجمات) لكتاب «هروشيوش» (P. Orosius)، إذ لا فائدة في الاحتفاظ بهذه التحريفات لمجرد أنها وردت عند السلف.

وقد استفدت في إنجاز هذا العمل من مساعدات سخية وعديدة، أتوجه بخالص الشكر لكل من قدمها إلي. وذوو الفضل فيها كثر لن أستطيع تعدادهم. أخص منهم بالذكر من لهم علي دين خاص قديم لا أنساه : الأستاذ «بريصون» (J.P. BRISSON) من جامعة باريس 10، الذي شجعني على الاستمرار في البحث وأفادني بتجربته في الموضوع، والأستاذ «فوشيه» (L. FOUCHER) من جامعة «تور»، الذي أجاب عن تساؤلاتي بصدر رحب وعلم واسع، والراحل الأب «مونديسير» (C. MONDESERT)، مدير «معهد المصادر المسيحية» (Institut des Sources Chrétiennes) بمدينة «ليون» الذي ساعدني في الحصول على ما احتجت إليه من المصادر، والأستاذ «كَريفاطون» (GRIFFATON)، أستاذي في اللغة اللاتينية، الذي وجهني وساعدني في كل ما يتعلق بالنصوص اللاتينية، وأستاذي د. فوزي مكاوي الذي أشرف على هذه الرسالة فأدى الأمانة، وتابع بدون كلل ــ رغم بعد الشقة بيننا في مراحل البحث الأخيرة ــ كل خطوات العمل. كما أقدم الشكر إلى أستاذي د. محمد التازي سعود، الذي أسدى إلي ــ بأريحيته المعهودة ــ التوجيه والنصح والرأي المنير، وتفضل بالمشاركة في

مناقشة هذه الرسالة، وإلى العالم الجليل د. مصطفى كمال عبد العليم الذي تفضل بقراءة الرسالة وقبول المشاركة في مناقشتها. وأشكر الأستاذ محمد الشاد قيدوم كلية الآداب بفاس على تشجيعاته المتواصلة ودعمه لهذا العمل إبان إنجازه.

وما كان لهذا العمل أن يجد طريقه إلى النشر ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط لولا تشجيع أستاذي د. إبراهيم بوطالب، الذي يرجع إليه الفضل أيضاً في التصويبات التي ألحقتها بالعمل.

وأتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي، قيدوم كلية الآداب بالرباط، الذي تفضل بإدراج هذه الرسالة ضمن منشورات الكلية.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ عمر أفا والأخ أحمد ابن علي وإلى كل العاملين بمصلحة النشر بكلية الآداب بالرباط، على ما أبدوه من عناية في التعامل مع النصوص اللاتينية بالخصوص. أرجو أن أكون قد وفقت بعض الشيء إلى ما هدفت إليه، والله ولي التوفيق.

المختصرات المستعملة

1) الدوريات والمجموعات وبعض الكتب المحال عليها بكثرة :

- A.C. = **Antiquité Classique**, Paris, C.N.R.S.
- Ant. Afr. = **Antiquités Africaines**, Paris, C.N.R.S.
- A.E.S.C. = **Annales, Economies, Sociétés, Civilisations**, Paris.
- A.H.E.S. = **Annales d'Histoire Economique et Sociale**, Paris.
- B.A. = **Bibliothèque Augustinienne**, Paris, Desclée de Brouwer.
- B.A.A. = **Bulletin d'Archéologie Algérienne**, Paris puis Alger.
- B.A.H. = **Bulletin de l'Académie d'Hippone.**
- B.A.M. = **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, Paris, C.N.R.S. puis Rabat.
- B.C.T.H. = **Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques.**
- B.S.N.A.F. = **Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France.**
- B.S.G.A.O. = **Bulletin trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran**, Oran.
- C.C. = **Corpus Christianorum**, series latina, Turnhoult, Belgique.
- C.I.L., VIII = **Corpus inscriptionum Latinarum**, tome VIII.
- C.R.A.I. = **Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres**, Paris.
- C.S.E.L. = **Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum**, editum consilio et impensis Academiae Scientiarum Austriacae, Vindobonae.
- C.T. = **Les Cahiers de Tunisie**, Tunis.
- C.U.F. = **Collection des Universités de France**, Paris, Les Belles-Lettres.
- H.A.A.N. = **St. GSELL, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, Paris, 8 vol., 1913-1928 (réimp. Osnabrück, 1972).
- H.L.A.C. = P. MONCEAUX, **Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne des origines à l'invasion vandale**, Paris, 7 vol., 1901-1923 (réimp. Bruxelles, 1966).
- J.R.S. = **Journal of Roman Studies**, London.
- J.S. = **Journal des Savants**, Paris, Klincksieck, puis De Boccard.
- J.T.S. = **Journal of Theological Studies**, London.
- M.E.F.R. = **Mélanges d'Archéologie et d'Histoire de l'Ecole Française de Rome**, Rome.

- P.L. = J.P. Migne, **Patrologiae cursus completus**, series latina, 1844-1866, (217 vol. et 4 d'index).
- R.A. = **Revue Archéologique**, Paris, A. Leroux, puis P.U.F.
- R.A.F. = **Revue Africaine**, Alger.
- R.E.A. = **Revue des Etudes Anciennes**, Bordeaux.
- R.E.Aug. = **Revue des Etudes Augustiniennes**, Paris, Institut des Etudes Augustiniennes.
- R.E.L. = **Revue des Etudes Latines**, Paris, Les Belles-Lettres.
- R.H.C.M. = **Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb**, Alger.
- R.H.R. = **Revue de l'Histoire des Religions** (trimestrielle), Paris, Leroux.
- R.H. = **Revue Historique** (trimestrielle), Paris, P.U.F.
- R.S.A.C. = **Recueil des notices et mémoires de la Société de Constantine**, Constantine, Alger, Paris.
- R.T. = **Revue Tunisienne**, Tunis.
- S.C. = **Sources Chrétiennes**, Paris, Editions du Cerf.
- T.A.D. = **Traités anti-Donatistes de Saint Augustin** (= B.A. 28, 29, 30, 31 et 32).

2) عناوين المؤلفات اللاتينية :

تم اختصار عناوين المؤلفات اللاتينية لطولها، وفقاً لما جرت به العادة. وهذه لائحتها :

- Aug., Ep. ad Cath. = Augustin, **Epistula ad Catholicos de secta donatistarum.**
- Aug., Ep. = Augustin, Epistulae.
- Aug., C. Ep. Parm. = Augustin, **Contra epistulam Parmeniani libri tres.**
- Aug., C. Gaud. = Augustin, **Contra Gaudentium donatistarum eiscopum libri duo.**
- Aug., Ps. c. Part. Donati = Augustin, **Psalmus contra partem Donati.**
- Aug., Bapt. = Augustin, **De Baptismo libri VII.**
- Aug., C. lit. Petil. = Augustin, **Contra litteras Petiliani libri tres.**
- Aug., Breu. col. cum Donat. = Augustin, **Breuiculus collationis cum Donatistis.**
- Aug., Ad Donat. post col. = Augustin, **Ad Donatistas post collationem liber unus.**
- Aug., Sermo ad Caes. pleb. = Augustin, **Sermo ad caesariensis ecclesiae plebem.**
- Aug., Gesta cum Emerito = Augustin, **Gesta cum Emerito Donatistarum episcopo.**

- Aug., C. Gaud. = Augustin, **Contra Cresconium grammaticum et donatistam libri quatuor.**
- Aug., Vnic. bapti. = Augustin, **De unico baptismo liber unus.**
- Aug., Ennar. in Psalm. = Augustin, **Enarrationes in Psalmos.**
- Optat = Optat, «Aduersus Ecclesiam Traditorum» (?) = «Contra Parmenianum» (?).
- Aug., Retract. = Augustin, **Retractiones.**
- Aug., Conf. = Augustin, **Confessiones.**
- Cod. Theod. = **Codex Theodosianus.**
- Capit. Gest. = **Capitula Gestorum,** (Capitulaion des Actes de la conférence de Carthage, éd. S. LANCEL, S.C., 195, pp. 420-556).
- Gesta, = **Gesta conlationis Carthaginiensis.**

مقدمة : الإشكالية والبيبليوغرافيا

تكاد تتلخص معلوماتنا عن تاريخ شمال أفريقيا[1] من بداية القرن الرابع الميلادي إلى غزو الوندال للبلاد ابتداء من سنة 429 في ما وصلنا من أخبار عن الصراع المتشعب الذي دار في هذه الجهة من الإمبراطورية الرومانية بين الكنيستين الأفريقيتين : الدوناتية والكاثوليكية[2]. ويرجع ذلك جزئياً إلى كون معظم

---

(1) أذكر هنا باختصار بمراحل احتلال روما لشمال إفريقيا :

أ ـــ تم إنشاء إقليم «أفريكا» Africa على أنقاض الممتلكات القرطاجية في الشمال الشرقي لتونس الحالية تقريباً، في ربيع 146 ق.م : GSELL (St.), **H.A.A.N.**, t. VII, p. 1

ب ـــ أنشأ قيصر بإزائها من الجهة الغربية إقليماً جديداً في سنة 46 ق.م، أصبح يدعى «أفريكا الجديدة» Africa Noua، تمييزه عن «أفريكا القديمة» Africa Vetus، لكن «أفريكا الجديدة» ظلت تدعى أيضاً «نوميديا» Numidia : GSELL (St.), **H.A.A.N.**, t. VIII, p. 162

وتم ضم الإقليمين على عهد أوغسطس، فأصبح هناك إقليم واحد، «أفريكا البروقنصلية» Africa Proconsularis، التي يحكمها وال من درجة «نائب قنصل» Proconsul ومعين من لدن مجلس الشيوخ Senatus الروماني : GSELL (St.), **ibid**, t. VIII, p. 196

ت ـــ في سنة 42م. على أكثر تقدير، أنشأ الإمبراطور «كلاوديوس» Claudius إقليمين جديدين في غرب أفريكا البروقنصلية، هما «موريطانيا القيصرية» Mauretania Caesariensis و«موريطانيا الطنجية» Mauretania Tingitana :

BENABOU (M), **La résistance africaine à la romanisation**, Paris, Maspéro, 1976, p. 92

ث ـــ تم الاستيلاء بالتدريج على أراض جديدة إلى غاية القرن الثالث حيث بلغت إفريقيا الرومانية أكبر اتساع عرفته طيلة تاريخها :

PICARD (G.CH), **La civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, 1958, p. 4

ولكن الإضافات كانت تدخل في الولايات سابقة التكوين.

ج ـــ كذلك الحال بالنسبة إلى الولايات التي أنشئت فيما بعد، عند نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، فإنها كانت عبارة عن تجزئة للولايات الأصلية. (انظر أدناه، هـ. 3).

(2) انظر مثلا «شارل أندريه جوليان» الذي لم يتناول هذه الحقبة إلا من خلال الدوناتية :

JULIEN (Ch.-A), **Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie - Algérie - Maroc, t. I : Des origines à la conquête arabe (647 ap.J.-C.)**, Paris, Payot, 2ème éd., 1951, pp. 213-232.

الكتاب الأفارقة[3] الذين وصلتنا كتاباتهم كانوا في هذه الفترة من رجال الكنيسة في معظمهم، وكان اهتمامهم مركزاً قبل كل شيء على القضايا الدينية[4]. ولكنه يرجع أيضاً ــ بدون مراء ــ إلى المكانة البارزة التي احتلها هذا الصراع في تطور مجريات تاريخ تلك المنطقة في الفترة المذكورة. ذلك أن أبرز الأحداث ــ سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية ــ كان لها ارتباط وثيق بذلك الصراع.

ففي الميدان السياسي، اتخذت الكنيستان الأفريقيتان موقفاً مختلفاً من السلطة الرومانية، ومن الثورات التي عرفتها البلاد في تلك الحقبة، خاصة ثورة «فيرموس» Firmus (372–375) وثورة «كَيلدو» Gildo (396–397)[5]. وفي الميدان الاجتماعي، انقسم سكان أفريقيا إلى فئات مؤيدة وفئات مناوئة لإحدى الكنيستين. وفي الميدان الثقافي، أدى الصراع إلى تطور جدل كلامي بين مفكري الكنيستين،

---

(3) في الفترة التي نحن بصددها (305–429)، كان شمال إفريقيا مقسماً إلى سبع ولايات :
ــ البروقنصلية (عاصمتها قرطاج Karthago بتونس حالياً).
ــ بيزاكينا (المزاق) Byzacena (عاصمتها «هادروميتوم» Hadrumetum (حضرموت) : سوسة بتونس حالياً).
ــ الطرابلسية Tripolitana (عاصمتها «لبتس ماكَنا» Lepcis magna : لبدة بليبيا حالياً).
ــ نوميديا (عاصمتها قرطة / كنسطنتينا Cirta / Constantina : قسنطينة بالجزائر حالياً).
ــ موريطانيا السطيفية Mauretania Sitifensis (عاصمتها سيتيفيس Sitifis : صطيف بالجزائر حالياً).
ــ موريطانيا القيصرية (عاصمتها قيصرية Caesarea : شرشال بالجزائر حالياً).
ــ موريطانيا الطنجية (عاصمتها تنكَيس Tingis : طنجة بالمغرب حالياً).
وكانت الولايات الست الشرقية تكون «دوقية أفريكا» Diocoesis Africae، أما موريطانيا الطنجية فقد ألحقت بـ«دوقية الإسبانيات» Diocoesis Hispaniarum. ساد إذاك استعمال اسم «أفريكا» Africa (أفريقيا) لنعت الولايات الست جغرافياً، واسم «أفري» / «أفريكي» Afri / Africi (أفارقة) لنعت سكانها.

COURTOIS (Chr.), **Les Vandales et l'Afrique**, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1955, p. 68, n. 1.

وفي هذا السياق أيضاً، يدخل استعمال الكلمة ومشتقاتها في هذه الرسالة (بدل «بربر» أو «أمازيغ»، مثلاً).

(4) على عكس أقاليم أخرى عاش بها كتاب «دنيويون» تركوا معلومات مهمة عن الأوضاع العامة في أقاليمهم، كالكاتب «أوصونيوس» Ausonius في «غاليا» Gallia و«سيماخوس» Symmachus في إيطاليا (وإن كان من أصل أفريقي إلا أنه لم يعش في عين المكان).

(5) انظر أدناه، ص ص 137–138.

جديدة ومخاطر من نوع آخر اتضحت في صعوبة تأسيس علاقات جديدة متناسقة بين السلطة الزمنية (الدولة المسيحية) والسلطة الكنسية، وداخل هذه الأخيرة، بين الباباوات والكنائس الإقليمية.

وفي الولايات الأفريقية نفسها، اتسمت هذه الفترة بانتشار كبير للمسيحية، لكنها عرفت أيضا الانشقاق الكنسي الخطير الذي قسم الكنيسة الأفريقية إلى كنيستين متصارعتين : الكنيسة الكاثوليكية التي حظيت بدعم الدولة، والكنيسة الدوناتية التي عانت من اضطهاد السلطة.

حول هذا الصراع الكنسي، تمحورت مجريات الأحداث بشمال أفريقيا خلال تلك الحقبة، حتى إن تاريخ ذلك العصر يكاد يتلخص في تاريخ الدوناتية. وقد نفسر هذا جزئياً بنوعية المصادر المتوفرة، إذ هي في أغلبها ذات طبيعة دينية. ومع ذلك، فإن فيها ما يشير بقوة إلى أن الصِّدام الكاثوليكي ـــ الدوناتي لم يكن لاهوتياً فقط، بل كان متعدد التجليات، متداخل الأبعاد، ومن ثم فإنه يستلزم من الباحث استقصاء تلك التجليات والأبعاد، لكشف الغموض وتحديد الأدوار.

من غير شك أن تاريخ الدوناتية يمكن أن يكون نفسه موضوع تأريخ. فمن مؤلف القديس أبطاتوس Sanctus Optatus ـــ الذي هو أول مجادل كاثوليكي وأول مؤرخ للدوناتية وصلتنا كتاباته ـــ إلى أطروحتي «فرند»(2) و«بريصون»(3)، تطورت كتابة هذا التاريخ بطرح أسئلة جديدة على النصوص، أي بمحاولة إعطاء تأويلات تستعمل مفاهيم العصر وتعبر عن انشغالاته. فالتفسير «الأبطاتي» (نسبة إلى القديس أبطاتوس) ـــ بغض النظر عن انحياز صاحبه وانشغالاته الدينية ـــ يركز بالأساس على ما يسميه المحدثون أحياناً «الأسباب المباشرة»، أي على «الأحداث» التي أدت إلى الانشقاق والتي تنحصر برأيه في صراع بين بعض الأشخاص يتحركون بدوافع الحسد والغيرة والتآمر. أما المحدثون ـــ ابتداء من القرن 19 على الأقل ـــ، فإنهم استشعروا أن رواية أبطاتوس ومن تبعه بعد ذلك لا يمكن أن «تفسر» استمرار الانقسام بعد اختفاء تلك الشخصيات وصمود

---

(2) - FREND (W.H.C), **The Donatist Church. A Movement of protest in roman North Africa,** London, Clarendon Press, 1952.

(3) - BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale,** Paris, de Boccard, 1958.

و330[10]. والراجح أن بعض رجال الدين الكاثوليك قاموا بجمع مختلف تلك الوثائق في ملف خاص، بغرض المساجلة الكلامية مع الدوناتيين، وذلك منذ ما قبل سنة 347[11]. وقد توفر هذا الملف بيد أول مجادل كاثوليكي وصلتنا كتاباته، وهو «القديس أبطاتوس الميلي» Sanctus Optatus mileuitanus الذي انطلق من تلك الوثائق لرواية بداية الانشقاق والرد على الزعيم الدوناتي «بارمينيانوس»، حوالي سنة 366[12]. وقد طال نقاش المؤرخين حول صحة بعض تلك الوثائق وأصالتها، باعتبار أنها تخدم قضية الكاثوليكية بصراحة، وتبرز أن المنشقين لم يكونوا إلا خليطاً من مغامرين وأدعياء حاولوا خدع الأمة المسيحية بأكاذيب وادعاءات ملفقة[13].

ومهما يكن من أمر، فإن الشيء الذي يبرز بوضوح من مختلف الشهادات التي وصلتنا عن بداية الانشقاق[14]، هو أن اضطهاد «ديقليديانوس» للمسيحيين في أفريقيا (303-305) أدى إلى ارتداد عدد كبير منهم. وعلى الخصوص، ضعفت همة كثير من رجال الدين أمام التهديد، حتى إنهم سلموا نسخ الكتاب المقدس إلى السلطات الرسمية المنفذة للاضطهاد، فكانوا من «المتخاذلين». وعلى العكس من أولئك المرتدين (Lapsi)[15] و«المتخاذلين» (Traditores)[16]، صمد

(10) DUCHESNE (L), **Ibid**, p. 627

(11) ما بين سنتي 330 و347 على رأي «دوشين» : DUCHESNE (L), **ibid**, p. 649

(12) عن القديس أبطاتوس الميلي وكتابه، أنظر أدناه، ص ص 37-40.

(13) يرد «دوشين» على عدد من المتشككين في صحة تلك الوثائق، ويبدو أن معظم الباحثين اقتنعوا بعد ذلك برأيه :

BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., pp. 124-125 : «Les polémistes catholiques n'ont sans doute pas produit de faux documents, ni même des documents erronés, **ils ont produit des documents authentiques**, au moins pour la plupart,...».
FREND (W.H.C), **The Donatist Church. A movement of protest in Roman North Africa**, London, Clarendon Press, 1952, p. XII, n. 3 : «... and with the exception of the letter» Aeterna et religiosa, «**I have accepted Duchesne's findings in their entirety**».

(14) هي بصفة أساسية مؤلف أبطاتوس الميلي الذي يتضمن في ملحقه بعض وثائق «ملف الدوناتية»، وبعض الوثائق التي نعرفها عن طريق أغسطين، وإشارات عابرة إلى وثائق لم تصل إلينا بالنص. وقد درسها «دوشين» ورتبها ترتيباً كرونولوجياً في دراسته : DUCHESNE (L), **ibid**, p. 627-640

(15) حرفياً : «الذين سقطوا» أو «الذين أخطأوا» (من الفعل اللاتيني Labor, lapsus sum).

(16) من الفعل اللاتيني Trado (transdo). didi, ditum, ere, بمعنى «سلّم (إلى)». وعملية «تسليم» =

عدد من المسيحيين بشجاعة إبان تلك الأزمة، فأودعوا سجون قرطاج، بل أعدم بعضهم. وهؤلاء «المقرون بعقيدتهم» Confessores اتخذوا موقفاً متطرفاً من المرتدين و«المتخاذلين»، ورفضوا التعامل معهم بأي شكل من الأشكال بعد انتهاء الاضطهاد (سنة 305)[17]. وأثارت فضيحة «تسليم الكتاب المقدس» traditio غيظاً كبيراً في الأوساط المسيحية الأفريقية وأصبح تصريح «شهداء أبثينا»[18]

= (الكتب المقدسة إلى السلطة المضطهدة) عرفت في النصوص بـTraditio و«المسلّم» بـTraditor. (احتفظت اللغة الفرنسية بالفاعل (Traditeur)، و لم تحتفظ بالمصدر (Traditio [n]) في هذا المعنى).

(17) سبق لمثل هذا المشكل أن سبب في خلافات بين المسيحيين الأفارقة، وذلك بعد اضطهاد «ذقيوس» Decius (249–250)، بحيث أن المرتدين Lapsi أرغموا آنذاك على التزود بتزكية أحد «المقرّين بعقيدتهم» Confessores لكي يقبلوا ثانية في الكنيسة. لكن القديس قبريانوس S. Cyprianus — أسقف قرطاج وقتذاك — نجح في تجنيب الكنيسة الأفريقية انقسامات خطيرة :

WARMINGTON (B.H), **The North african provinces from Diocletian to the Vandal conquest**, Cambridge, 1954, p. 78.

(18) أبثينا Abithina / Auitina كانت مدينة صغيرة في حوض المجردة. هي حالياً خرائب «شهود الباطن» قرب مدينة مجاز الباب بتونس، كما أثبته مؤخراً عز الدين بشاوش اعتماداً على نقيشتين جديدتين :

A. BESCHAOUCH, «Sur la localisation d'Abitina, la cité des célèbres martyrs africains», **C.R.A.I.**, 1976, pp. 255-266.

يتعلق الأمر بأربعة وأربعين شهيداً من تلك المدينة، وعلى رأسهم الكاهن «ساتورنينوس» Saturninus وأربعة من أبنائه، سيقوا جميعهم إلى قرطاج قصد استنطاقهم، ثم أودعوا السجن (بتاريخ 12 فبراير 304). وهناك منعهم «كايكيليانوس» Caecilianus — وكان إذاك مجرد شمّاس لدى «منسوريوس» Mensurius، أسقف قرطاج — من الطعام حتى ماتوا جوعاً، حسب ما ورد في «قصة آلامهم» (Passio sanctorum Datiui, Saturnini presbyteri et aliorum). التصريح جاء كالتالي : «كل من دخل في اتصال مع «المتخاذلين» لن يشاطرنا العيش في ملك السماوات» :

Passio Saturnini, 21 : «Si quis traditoribus communicauerit, nobiscum partem in regnis caelestibus non habebit». (ap. RAYNAL (D), «Culte des martyrs et propagande donatiste à Upenna», **C.T.**, t. XXI, n° 81-82, 1973, pp. 46-47).

انظر أيضاً :

DELEHAYE (H), «Contribution récente à l'hagiographie de Rome et d'Afrique», **Annalecta Bollandiana**, t. 54, 1936, pp 293-296.
BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit, pp. 126-127.

القائل بضرورة انفصال الشهداء martyres عن «المتخاذلين» بمثابة قانون[19] على كل المسيحيين الأطهار الالتزام به وتطبيقه.

عن هذه الضرورة وهذا الالتزام بالانفصال تمخضت الدوناتية، ووجدت تبريرها التاريخي في آن واحد[20]، فكان الدوناتيون فيما بعد يدعون أنهم خلف

(19) ظل الدوناتيون يعتبرون ذلك التصريح قانوناً كما يتجلى من إثارتهم له في مناظرة قرطاج سنة 411، أي بعد أكثر من قرن من اضطهاد ديقليديانوس : «وبذلك، فإنهم (الكاثوليك) لا يشتمون قانون القديسين والشهداء فحسب...»

Gesta, III, 58, ed. LANCEL (S), S.C. 224, p. 1214, L. 241 : «Hoc loço non solum sanctorum martyrum decretis insultant...».

(20) BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op.cit, pp. 128-129

هذا ــ بطبيعة الحال ــ هو التبرير الديني والتاريخي الذي كان الدوناتيون والكاثوليك يرجعون إليه. ولكنه :

أ ــ لا يكفي لتفسير حيوية الدوناتية، وهيمنتها في بعض المناطق كأرياف نوميديا، ولدى بعض الفئات الاجتماعية كالمزارعين بالحصة Coloni و«الكورياليين» Curiales (البرجوازية البلدية)، خاصة وأنها ــ من حيث العقائد ــ لم تأت بأي جديد يذكر (لم تكن هرطقة Haeresis، وإنما انشقاقاً Schisma)، بل إن ميزتها الرئيسية كانت طابعها المحافظ، كما أبرزه مختلف الباحثين، (لكن هذا «الطابع المحافظ» نفسه قد يكون ــ في نفس الوقت ــ عاملا تفسيرياً هاماً) :

BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit, pp. 130 ss.
WARMINGTON (B.H), **The North african provinces...**, op. cit, p. 79-80.
FREND (W.H.C), **The Donatist Church...**, op. cit, pp. 125-140.

ب ــ لا يمنع من البحث عن أسباب أخرى مباشرة، ربما تقنعت بقناع انشقاق ديني منذ البداية. فقد تطابقت فترة مخاض الانشقاق (305–312) تطابقاً مثيراً للانتباه مع أزمة عرفتها السلطة المركزية الرومانية، وكان لها صدًى كبير في افريقيا. فخلال هذه الفترة ــ حسب ما يبرز من دراسة بعض النقود التي عثر عليها في قرطاج وقرطة Cirta ــ، يبدو أن أفريقيا خضعت بالتتالي لعدد من القياصرة و«الأغسطسات» والمتسلطين الذين كانوا جميعا يتناحرون على العرش. كما خضعت أيضاً لـ«ضوميتيوس الاسكندر» Domitius Alexander الذي كان والياً على أفريقيا من قبل السلطة المركزية، والذي استطاع إقامة حكم منفصل بولايته من 308 إلى 311.

SAUMAGNE (Ch), «La crise de l'autorité en Afrique du début de IVème siècle de notre ère. Observations relatives à quelques monnaies frappées à Carthage entre 305 et 312 ap. J.C», **R.T.**, 1921, pp 133-142.

وإذا ما اتبعنا تحليل هذا الباحث، فإن أفريقيا كانت منقسمة إلى حزبين : حزب يحبذ الولاء للإمبراطور الشرعي أو ممثله في أفريقيا (الاسكندر)، ويضم المدن الكبرى الإدارية (قرطاج، قرطة،...) والساحلية، وحزب ناصر الإمبراطور المتسلط «ماكسنتيوس» Maxentius، =

الشهداء وكنيسة الصامدين، وأن خصومهم «أبناء المتخاذلين»[21].

لم تتضح معالم الانشقاق في الكنيسة الأفريقية إلا بعد انتهاء الاضطهاد ببضع سنوات (311–312)، عندما توفي أسقف قرطاج «منسوريوس» Mensurius، وعين مكانه «كايكيليانوس» Caecilianus الذي كان شماساً (diaconus) لديه. غير أن هذا التعيين («السيامة» Ordinatio) تم في غياب كبير أساقفة نوميديا، مما كان يعتبر خرقاً للأعراف والتقاليد الأفريقية. فما كان من «جثليق» (Episcopus primae sedis) نوميديا — «سيكَنْدينوس» Secundinus آنذاك — إلا أن شد رحاله إلى قرطاج للاحتجاج على هذا الخرق، وتبعه عدد من زملائه النوميديين. لكنهم بدل أن يدلوا بهذا الاحتجاج طعنوا في سيامة «كايكيليانوس» لكونها تمت — حسب قولهم — على يد شرذمة من الأساقفة «المتخاذلين» إبان الاضطهاد، ووجهوا اتهامهم على الخصوص إلى «فيليكس» Felix أسقف مدينة «أبثوكَني» Abthugni[22]. عندئذ عينوا أسقفاً منافسا له، هو «مايورينوس» Maiorinus الذي لم يلبث أن قضى نحبه، فخلفه «دوناتوس» Donatus الملقب بالأكبر، والذي

= ويشمل النوميديين والأرياف بصفة عامة، أي العناصر التي أصبحت من بعد مناصرة للدوناتية. ولا نستبعد تحليل «صوماني» هذا، إذ من شأنه أن يساعد على إدراك أحد الأسباب التي ربما جعلت قسطنطين يتخذ موقفاً مناوئاً للدوناتية مباشرة بعد انتصاره على «ماكسنتيوس» وإدخاله أفريقيا تحت طاعته عند أوائل سنة 312. فقد يكون موقفه «المسبق» من الدوناتية نوعاً من تصفية حساب مع أنصار خصمه السابق.

(21) في مناظرة قرطاج مثلا : «... عندما نعيب عليهم اضطهاداتهم وتعنيفاتهم المنكرة التي ألحقوها — هم وآباؤهم — بنا نحن وبآبائنا لمدة مائة عام فأزيد، وبدون انقطاع...».

Gesta, III, 258, ed. LANCEL (S), S.C., 224, p. 1216, L. 269-272 : «... cum nos eis obiciamus persecutiones et immanes crudelitates quibus ipsi et maiores eorum nos patresque nostros per annos centum et amplius sine cessatione adflixerint...».

(22) من غير شك أن تركيزهم على هذا الأسقف بالذات كان يرتكز على حجج دامغة — في رأيهم على الأقل —، ولكن التحقيق الذي أمر قسطنطين بإجرائه في شأن تهمة «التسليم» الموجه ضده «برأ ساحته» سنة 314 أو 315 حسب محضر التحقيق الذي وصل إلينا عن طريق الكاثوليك (عن ملحق «أبطاتوس»، أنظر أدناه، دراسة المصادر). عن قضية «فيليكس الأبتكَني»، أنظر :

E. LAMIRANDE, Note complémentaire 8 : L'enquête sur Félix d'Aptonge, B.A. 32, pp. 698-699.

(خرائب «أبتوكَني» Abthugni هي «هنشير السوار» حالياً جنوب مدينة زغوان بتونس).

أعطى اسمه للدوناتية[23].

وفي مدينة قرطاج نفسها، لم يكن الإجماع تاماً على اختيار «كايكيليانوس»، بحيث اتهمه المتطرفون بسوء معاملته للمسيحيين السجناء خلال الاضطهاد، ومنعه لإخوانهم في الدين من زيارتهم ومواساتهم في سجون قرطاج[24]. والتقت مصالح هذا الحزب القرطاجي المناوئ لـ«كايكيليانوس» مع ادعاءات الأساقفة النوميديين، فتكرس الانشقاق في الكنيسة المسيحية الأفريقية.

كتل كل فريق قواه في مواجهة الفريق الآخر، وأصبحنا نسمع عن الكنيسة «الكاثوليكية» برئاسة «كايكيليانوس»[25] والكنيسة «الدوناتية» بزعامة «دوناتوس»[26]. وسرعان ما دعمت الدولة الكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة[27]، واضطهد معظم الأباطرة الكنيسة الثانية[28].

---

(23) في مناظرة قرطاج، أكد الدوناتيون أن هناك شخصين يدعيان «دوناتوس» : دوناتوس، أسقف «الديار السوداء» Casae Nigrae بنوميديا، وهو الذي صدر في حقه أول حكم ضد الدوناتية سنة 313، ودوناتوس «الأكبر»، الزعيم الدوناتي المشهور الذي قاد كنيسته بعدئذ وإلى غاية حوالي 355. لكن المحدثين يتفقون على شخص واحد يحمل هذا الاسم :

BRISSON (J.P), **Autonomisme et christianisme...**, op. cit, pp. 237.
WARMINGTION (B.H), **The North african provinces...**, op. cit, p. 78-79.

(24) حسب ما جاء في قصة آلام شهداء «أبشينا». انظر أعلاه، هـ 18 و19.

(25) ظل على رأس أبرشية قرطاج إلى غاية وفاته (قبل سنوات 340/337) وخلفه «روفوس» Rufus (توفي قبل سنة 343/342). عن تتابع أساقفة قرطاج، يمكن الرجوع، مثلاً، إلى :

J.L. MAIER, **L'épiscopat de l'Afrique romaine, vandale et byzantine, Bibliotheca Helvetica Romana, XI, Institut Suisse de Rome, 1973, pp. 453 p. 95,**

(26) ظل على رأس أبرشية قرطاج إلى غاية 347 حيث نفي، وبقي في منفاه إلى غاية وفاته (حوالي 350 أو 355)، وظلت الأبرشية شاغرة حتى خلفه «بارمينيانوس» Parmenianus (ما بين 363/362 و392/391). وكان «بريميانوس» Primianus — الذي أتى بعده مباشرة — آخر أسقف دوناتي بقرطاج، وهو الذي شارك في مناظرة 411 التي انتهت بتحريم الدوناتية، كما هو معروف.

(27) مباشرة بعد انتصاره على «ماكسنتيوس» Maxentius سنة 312، بعث قسطنطين برسالتين إلى بروقنصل أفريقيا وإلى «كايكيليانوس» يبلغهما فيها قراره بتصفية اضطهاد المسيحيين وبإرجاع الممتلكات إلى الكنيسة التي يتزعمها «كايكيليانوس». هذه الرسائل الثلاث لم ترد في ملحق «أبطاتوس»، ولكنها وردت عند «أوصيبيوس» في تاريخه الكنسي :

EUSEBIOS, **Histoire ecclésiastique**, X, 5, 15-17; X, 7, 1; X, 6, 1-5; cf. BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit, pp. 247.

(28) إذا ما استثنينا بعض الفترات القصيرة (من 361 إلى 363 على عهد «يوليانوس المرتد»، =

ونشط كل فريق في الدفاع عن وجهة نظره. فالكاثوليك سعوا بكل الوسائل إلى وصم الدوناتيين بكل الصفات التي تجعلهم خارجين عن الكنيسة، وسعى الدوناتيون من جهتهم إلى إلصاق التهم بالكاثوليك. وقد أدى هذا الصراع إلى كثير من الصدام الفكري خاصة بالتأليف، لأن الدوناتيين كانوا في أغلب الأحيان يرفضون المناظرة المباشرة مع من كانوا ينعتونهم بالمتخاذلين والمضطهدين(29)، و لم يقبلوا الحضور في مناظرة قرطاج ــ التي قرر الإمبراطور نفسه عقدها بينهم وبين خصومهم ــ إلا مرغمين وتحت التهديد.

في خضم هذا الصراع، برز عنصر جديد فرض نفسه على أحداث ذلك العصر، وسرعان ما أصبح مادة في ذلك الجدل الفكري بين الدوناتيين وخصومهم. هذا العنصر الجديد هو ظهور مجموعة من الناس عرف أصحابها في التاريخ باسم «الدوارين»(30). هذه المجموعات من البشر ساهمت في الصراع بين

= ومن 364 إلى 371 تقريباً في عهد «والنتينيانوس Valentinianus»، وفي سنة 378 على عهد «والنس Valens»، وفي سنة 410 على عهد هنوريوس، فإن الكنيسة الدوناتية كانت معرضة للاضطهاد، مبدئيا على الأقل. ولكن فترات الاضطهاد الحقيقي كانت قصيرة (316، 347، وبعد 411). عن «سياسة الأباطرة الدينية في أفريقيا»، من الوجهة القانونية :

Martroye, F., La répression du Donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses Successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., 1914, pp. 23-140.

(29) حاول أغسطين عدة مرات أن يعقد مناظرات أو مساجلات شفوية أو كتابية مع بعض الأساقفة الدوناتيين، ولكنه في غالب الأحيان لم يتمكن من ذلك. عن تلك المحاولات، أنظر :

LANCEL (S), Actes de la conférence de Carthage en 411, t. I : Introduction, S.C, n° 194, Paris, 1972, pp. 9-25.

(30) فضلنا الاحتفاظ بهذه الترجمة التقريبية لكلمة circumcelliones اللاتينية، لأنها لا تزيد عن كونها مطابقة لفكرة «الدوران» (circum) حول شيء معين : «cella»» التي تحتمل معاني مختلفة، كما سوف نرى. وبالتالي، فإنها لا تحمل أي معنى مسبق عن نشاط الدوارين وطبيعة حركتهم. كما أنها لا تتضمن أي شحنة تحقيرية (على عكس «جوالين» أو «متطوفين»، مثلا). وربما كان من الممكن الرجوع إلى الكلمة اللاتينية نفسها «كيركومكيليونات» ــ على طولها وصعوبة النطق بها ــ، إلا أن استعمال كلمة «الدوارين» في بعض المراجع العربية المتداولة فرض نفسه، فآثرنا مد الجسر مع هذا الاجتهاد السابق. وقد استعملها لأول مرة (فيما وقفنا عليه) أحمد صفر في **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، الجزء الأول، تونس، 1959، ص 367، وإن أردف ذلك بتعريف تحقيري : «جماعة من اللصوص من نوع «الفلاقة» كانوا يعرفون باسم «الدوارين» أي الذين يدورون ويحومون حول الضيعات». وتبعه في استعمال الكلمة مترجما كتاب شارل أندريه جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية : تونس، الجزائر، المغرب**=

الكنيستين مساهمة اختلفت عن ذلك الجدل الكلامي بين مثقفي الفريقين، وأعطت للصدام أسلوب العنف والقهر البدني، لدرجة أن السمة التاريخية التي طبعت الصراع بين الكاثوليكية والدوناتية، والتي أثارت انتباه القدامى والمعاصرين على السواء، كانت بالذات ذلك العنف وذلك العمل المسلح.

أصبح الجدل القائم بين الدوناتيين والكاثوليك يتمحور في نهاية المطاف حول ذلك العنف. فالكاثوليك يرون في عمل الدوارين اضطهاداً لكنيستهم، والدوناتيون يرون في تدخل الدولة إلى جانب خصومهم اضطهاداً لفريقهم[31]. وتبعاً لذلك، اختلف الجمعان حول تقييمهم العام لدور الدوارين. فبينما رأى فيهم الكاثوليك عصابات من اللصوص «لا إيمان ولا قانون لهم»[32]، وأنهم كانوا أداة قهر في خدمة الدوناتية[33]، اعتبرهم معظم الدوناتيين في أغلب الأوقات ـــ واعتبروا أنفسهم ـــ «مناضلين» agonistici و«قديسين» sancti[34]. أما الدولة، فقد اعتبرتهم عنصر شغب يهدد الأمن في تلك الولايات الأفريقية الغنية، حتى إن أمرهم وصل إلى الأباطرة الذين سنوا القوانين لكبح جماحهم، وتطلب ردعهم تدخل الجيش عدة مرات بنوميديا خاصة.

لكن عمليات الدوارين لم تكن تنحصر في مهاجمة الكنائس واغتيال رجال الدين الكاثوليك. فالدوارون كانوا ـــ حسب نفس المصادر الكاثوليكية ـــ يوجهون أيضاً عملياتهم ضد الملاك والأسياد والمرابين، فيرهبونهم، ويهاجمون الضيع وينهبونها، ويحمون العبيد والمزارعين والمدينين[35]. والواضح أن مثل هذه التصرفات كانت تهدد الأمن في البلاد، لأنها كانت تهدف الإطاحة بالنظام الاجتماعي والاقتصادي القائم على هيمنة الطبقات المالكة للعبيد والأرض، والمستفيدة من الظروف الاقتصادية المتردية لممارسة القرض الربوي وإفقار الفقراء.

= **الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي : 647م**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، النشرة الثالثة، 1978، ص 297 وما بعدها.

(31) نصوص أغسطين تظهر ذلك بوضوح (مثلا : النص 2 في الملحق).

(32) أغسطين، النص 42 في الملحق.

(33) أغسطين، النص 35 في الملحق.

(34) أبطاتوس، النص 1 في الملحق.

(35) المصدر نفسه.

فهل معنى ذلك أن الأمر كان يتعلق بثورة على النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد ؟ وهل كانت الكنيسة الدوناتية من وراء هذه المحاولة الثورية ؟ وإلى أي حد ينبغي أن نعزو تصرفات الدوارين إلى تأثرهم بالدوناتية واعتناقهم إياها ؟

لا تكتمل المعطيات عن الدوارين إذا أغفلنا السمات والممارسات الدينية التي تنسبها المصادر الكاثوليكية إليهم. فقد كانوا يتلقبون بألقاب دينية : «القديسين» sancti و«المناضلين» agonistici / agonistae و«عساكر المسيح» milites Christi[36]، بل يطلقون على هراواتهم لقب «إسرائيلات» Israeles، أي «عساكر الرب»[37]. وتروي الكتابات الكاثوليكية أنهم كانوا يميلون إلى الاستشهاد بكل الوسائل، ولو عن طريق الانتحار[38]. وترتبط ظاهرة «الاستشهاد الإرادي» عند الدوارين بتعاطيهم زيارة أضرحة الشهداء حيث كانوا — على قول الكاثوليك — يقضون مدة طويلة في الترحم عليهم والتبرك برفاتهم، ويغتنمونها فرصة لإقامة ولائم وحفلات صاخبة لا يستنكفون خلالها عن التصرفات الشائنة كالسكر ومصاحبة العذارى المنذورات sanctimoniales لخدمة الكنيسة الدوناتية[39]. هل كان الدوارون يشكلون، إذن، نوعاً من فرقة دينية ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو ارتباطها بالدوناتية ؟

إن تنوع هذه المعطيات — وتناقضها أحيانا — أدى إلى تضارب كبير بين الباحثين في تحديد ماهية الدوارين وطبيعة حركتهم وعلاقتهم بالدوناتية، مما جعلها نوعا من لغز يثير فضول المهتم بالتاريخ الديني والاجتماعي لشمال افريقيا في هذه الحقبة.

---

(36) المصدر نفسه. كذلك :

Aug., **Enarr. in Psalm**, 10, 5 : «... milites Christi agonistici appellantur»

(37) أغسطين، النص 3 في الملحق. الاشتقاق «إسرا» — «إيل» من اقتراح «سيمون» الذي يرى للكلمة أصلاً فينيقياً :

SIMON (M), Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne, **Revue d'Histoire et de Philosophie religieuse**, XXV 1946, p. 21 (repris dans **Recherches d'histoire judéo-Chrétienne**, Paris - LaHaye, 1962, p. 46).

(38) الإشارات كثيرة، أنظر مثلا : أغسطين، النصين 27 و43 في الملحق.

(39) أنظر مثلا : أغسطين، النصين 12 و27 في الملحق.

فمن الباحثين من اعتبر أن الدوارين كانوا مجرد عصابات من العبيد الآبقين والمزارعين المتمردين والخارجين عن القانون[40]. ومنهم من رأى أنهم كانوا نوعاً من عمال فلاحيين يشتغلون حسب الفصول في مناطق متفرقة من البلاد[41]. وهناك من يعتقد أنهم كانوا فرقة دينية مرتبطة بالدوناتية يقضي أفرادها أوقاتهم في زيارة أضرحة الشهداء[42]. وأخيراً، يرى البعض أنهم كانوا نوعاً من رهبان متنقلين من دير إلى آخر[43].

وتبعاً لذلك، يختلف الباحثون عندما يتعلق الأمر بتحديد طبيعة حركة الدوارين وعلاقتهم بالدوناتية. فمنهم من اعتبرها ثورة اجتماعية ناجمة عن تردي الأوضاع الاقتصادية في القرن الرابع[44]، وأن دراستها تدخل في التاريخ الاقتصادي لشمال أفريقيا أكثر مما تدخل في تاريخه الديني[45]. ومنهم من ينكر الطابع «الثوري» للحركة، ويرجع عنف الدوارين إلى الصراع الديني بين الدوناتيين والكاثوليك، فلا يرى في الدوارين إلا دوناتيين متعصبين[46].

وتعتبر المصادر التي وصلتنا عن الدوارين مسؤولة بالدرجة الأولى عن هذا التباين بين الباحثين. فهذه المصادر تتكون أساساً من الكتابات الكاثوليكية، وبصفة ثانوية من إشارات عابرة هنا وهناك في محضر مناظرة قرطاج أو في بعض الوثائق الكنسية أو القوانين[47].

أما الكتابات الدوناتية التي وصلتنا فلم تتحدث عن الدوارين إسمياً، بحيث لم يرد على لسان الدوناتيين أبداً اسم «الدوارين»، إذا ما استثنينا إشارة واحدة في

---

(40) MONCEAUX (P), **H.L.A.C.** t. IV, pp. 180, 190

(41) SAUMAGNE (Ch), «Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? Les Circoncellions d'Afrique», **A.H.E.S.**, 1934, p. 259 ss.

(42) FREND (W.H.C), **The Donatist Church...**, op. cit, pp. 173

(43) CALDERONE (S), «Circumcelliones», **Parola del Passato**, XII, 1967, p. 99 ss

(44) BRISSON (J.P), **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit, pp. 340-341

(45) VANNIER (O), «Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat», **R.A.**, t. LXVII, 1926, p. 28.

(46) FREND (W.H.C), «Heresy and schism as social and national movements», **Studies in Church History**, vol. 9, 1972, p. 47.

(47) انظر أدناه، دراسة المصادر.

«ملخص ماركيلوس» لمحضر مناظرة قرطاج، حيث يشير الكاتب إلى أن ممثلي الكنيسة الدوناتية أجابوا على اتهامات الكاثوليك لهم بصدد أعمال الدوارين، أن ما يفعله هؤلاء لا دخل للأساقفة الدوناتيين فيه(48). والحال أن هذا كلام «ماركيلوس»، ولا يمكن أن نتأكد مما قاله الدوناتيون بالضبط في تدخلهم وهل ذكروا اسم «الدوارين» أم عبروا عنهم بكلمة أخرى. ونفس الملاحظة يمكن أن تنطبق على ما رواه أغسطين من كون الأساقفة الدوناتيين كانوا يردون على اتهامات الكاثوليك بأنهم «لا يعرفون شيئاً عن الدوارين»(49).

ولكننا نعرف أن أغسطين رد على عدد من الدوناتيين، وأورد نص رسائل أو كتب بعضهم، وكذلك نجد بالنص تدخلات الممثلين الدوناتيين في مناظرة قرطاج، ووثائق أخرى حرروها لتقرأ في الجلسات(50). وفي كل هذه الأعمال والكتابات والرسائل، لا نعثر ولو مرة واحدة على ذكر كلمة «الدوارين».

ويمكن تفسير غياب الدوارين في كلام الدوناتيين بشيأين : أولا، أنهم كانوا لا يرغبون في أن تلصق بهم تهمة التعامل مع الدوارين أو تحريضهم على القيام بأعمال العنف، والنصوص الكاثوليكية تشير إلى ذلك بدون غموض(51). لكن تفسيراً آخر يمكن أن يدخل في الاعتبار، هو أن هذا الاسم كان تحقيريا في رأي الدوارين والدوناتيين(52). ويكتفي أغسطين بالإشارة إلى أن الدوارين سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يدورون حول «الكيلات الريفية» (cellae rusticanae) «بحثاً عن القوت»(53). ومع أن المعنى الأقرب لكلمة cellae هو «مخازن المؤن» من حبوب وخمور وزيوت، فإن بعض الباحثين أولوها في معنيين آخرين (بيوت الرهبان، أو أضرحة الشهداء).

---

(48) النص 54 في الملحق.

(49) النص 22 في الملحق.

(50) انظر أدناه، دراسة المصادر.

(51) النصوص 7 و22 و38 في الملحق.

(52) **Aug., Enarr. In Psalm**, 10, 5 : «Nostri non uocantur circumcelliones : uos illos ita appellatis contumelioso nomine...».

«ذوونا لا يسمون بـ«الكيركومكيليونات» : أنتم الذين تطلقون عليهم ذلك الاسم القدحي...».

(53) النص 48 في الملحق.

يتضح إذن أن إشكالية الدوارين تتلخص في ثلاثة إشكالات مترابطة، وهي التي حاولنا الإجابة عنها في هذا البحث : من هم الدوارون ؟ ما هي طبيعة حركتهم ؟ وما هي علاقتهم بالدوناتية ؟

إن قضية العلاقة بين الدوارين والدوناتية تمثل في الواقع محور هذا الموضوع، لأن دراستها قد تمكن من إدراك طبيعة حركة الدوارين نفسها. والملاحظ في هذا الصدد أن الكتاب الكاثوليك كانوا يمزجون بين حركة الدوارين وحركة الدوناتيين لدرجة أن الباحث يصعب عليه أن يفرق بينهما خاصة في عهد أغسطين وفي كتاباته. فالدوارون ـــ حسب ما يبدو من تلك الكتابات ـــ كانوا «عساكر» الدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكاثوليكية. ولكن النصوص الكاثوليكية نفسها تشير إلى أن العلاقات بين الدوارين والكنيسة الدوناتية لم تكن دائماً علاقات ود ووئام، بل إنها ابتدأت ـــ حسب ما وصلنا من شهادات ـــ بـ«سوء تفاهم» أدى إلى مقتل عدد كبير من الدوارين بسبب تدخل الجيش ضدهم بطلب من الأساقفة الدوناتيين. كما أن مهاجمة الملاك والأسياد لم تكن في «برنامج» الأساقفة الدوناتيين. ومن ثم يجوز القول بأن أهداف الدوارين لم تكن دائما مطابقة لأهداف الدوناتيين.

ومن جهة أخرى، كانت الدوناتية ظاهرة أفريقية عرفت انتشاراً متفاوتاً في مختلف البقاع الأفريقية من الولاية الطرابلسية إلى موريطانيا القيصرية، بينما تركزت حركة الدوارين ـــ على ما يبدو ـــ في نوميديا وخاصة في المناطق الموجودة شمال الأوراس. وبينما تشيع للدوناتية أفراد من مختلف الطبقات الاجتماعية، كانت حركة الدوارين لا تهم إلا فئات ريفية مستضعفة وفقيرة.

من كل هذه الاعتبارات (عدم التطابق في الأهداف والتوزيع الجغرافي والسوسيلوجي)، تتجلى مشروعية الحديث عن الدوارين كحركة متميزة عن الحركة الدوناتية، أو على الأقل عن سياسة الإكليروس الأعلى والزعماء الدوناتيين أي أولئك الذين يمثلون الدوناتية سواء في مؤلفاتهم أو في مواقفهم التاريخية.

وإذا كان معظم الباحثين لم يروا في دراسة الدوارين إلا جانبا من تاريخ الدوناتية، فمن المثير حقا أن يحاول المرء دراسة الدوناتية كجانب واحد من حركة الدوارين. طبعا، إن النصوص المتوفرة لا تساعد في معظمها على هذا المشروع،

طالما أنها عبارة عن كتابات يغلب عليها الطابع الديني والمساجلة اللاهوتية بين الكنيستين المتناحرتين وأنها لا تتناول الدوارين إلا في إطار الصراع الدوناتي ـــ الكاثوليكي[54]. ومع ذلك، فما من شك أن حركة الدوارين ـــ كما يظهر من بعض النصوص ـــ كانت لها خصوصيات لا تتطابق تماما وخط الحركة الدوناتية. وإذا كان تاريخ الدوارين قد تأثر كثيرا بالدوناتية، فإنهم لعبوا كذلك دورا هاما وربما رئيسيا في تطور التاريخ الدوناتي. وهذا الدور يحتاج إلى تفسير.

(54) كما سنرى في دراسة المصادر أدناه.

دراسة لأهم المصادر والمراجع

اعتمدت في دراستي على مجموعة من المصادر والمراجع وضعت قائمة مفصلة لها في نهاية الرسالة، وأود في هذه الدراسة التحليلية المختصرة أن ألقي نظرة على أهم المصادر وعلى المشاكل التي تطرحها عموما، وأحاول أيضا إعطاء نظرة على أهم الدراسات السابقة حتى أضع محاولتي هذه في إطار تلك الدراسات.

أولا : المصادر :

إن معرفتنا للدوارين وحركتهم لا تخرج عن إطار ما وصلنا من أخبار عن الدوناتية، فالمصادر التي تتحدث عن الدوناتية هي في نفس الوقت تلك التي تتحدث في الغالب عن الدوارين. ويمكن تقسيم المصادر التي ورد فيها ذكر الدوارين إلى ثلاثة أقسام :

أولا الكتابات المعاصرة للدوناتية، وتشمل ما كتب في إطار الجدل الكلامي الذي كان رائجا بين الدوناتيين والكاثوليك خلال القرنين الرابع والخامس، وتكاد تنحصر تلك الكتابات في ما ألفه أبطاتوس وأغسطين في حربهما الكلامية مع الأساقفة الدوناتيين أو كبار شخصياتهم.

ثانيا محضر المناظرة التي تمت بين الكاثوليك والدوناتيين في قرطاج في عام 411م.

ثالثا بعض النصوص الرسمية والقوانين المتعلقة بالدوناتية.

على أن أهم هذه المصادر جميعا تبقى كتابات أبطاتوس وأغسطين.

1 ـــ أبطاتوس Optatus لا نعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته بالضبط (حوالي 320–392م). كل ما نعرفه هو أنه كان أسقفا في مدينة Mileu بنوميديا (حاليا ميلة بالجزائر، على بعد 50 كلم شمال غرب القسنطينة)، على الأقل منذ 366، وأنه كتب مؤلفا يرجع إلى أواخر تلك السنة (أكتوبر 366) أو بداية

السنة التالية (غشت 367)[1]. لم يكن أبطاتوس من غير شك أول كاتب كاثوليكي دخل في المساجلة الفقهية مع الدوناتيين[2]، ولكنه بالتأكيد أول واحد وصلتنا كتاباته، عندما ألف كتابه حوالي 366–367 كان قد مر على الانشقاق ما يربو على نصف قرن. وكانت عدة أحداث مهمة قد جرت. كان الدوناتيون قد تعرضوا لفترتين من الاضطهاد : الأولى بعد صدور حكم قسطنطين ضدهم سنة 316، والثانية بعد صدور قانون للوحدة بين الكنيستين في عهد قنسطنس سنة 347. كان الزعيمان الأولان للكنيستين المتناحرتين قد قضيا نحبهما : كايكيليانوس Caecilianus الكاثوليكي في سنة 346 ودوناتوس Donatus «الأكبر» بعده في المنفى ما بين : 350 و355. وقد وجد أبطاتوس ــ على غرار العديد من زملائه الأساقفة الكاثوليكيين ــ أسقفا مناوئا له في نفس المدينة، ولكل منهما أتباعه. أما الزعيم الدوناتي، فكان آنذاك بارمينيانوس Parmenianus، أسقف قرطاج الذي خلف دوناتوس الأكبر، واستفاد من السلم الذي نعمت به مختلف العقائد في الإمبراطورية ــ ومن جملتها الدوناتية ــ ما بين 361 و363، على عهد الإمبراطور يوليانوس Julianus المعروف «بالمرتد». قوى بارمينيانوس كنيسته وأعاد تنظيمها ودافع عنها بكتاباته[3] وفي تلك الفترة على الخصوص ألف كتابا (حوالي 362–363) هاجم فيه كنيسة الكاثوليكيين التي كانت في اعتبار الدوناتيين كنيسة «المتخاذلين» Traditores.

لم يصلنا كتاب بارمينيانوس[4]، ولا نعرفه إلا من خلال رد أبطاتوس عليه، شرع هذا الأخير في دحض كتاب بارمينيانوس نقطة بنقطة على شكل محاورة. ورجع في ذلك إلى بدايات الانشقاق الدوناتي، مستخدما عددا من الوثائق الإدارية والكنسية التي ألحقها بنهاية كتابه. ثم تعرض للأحداث التالية إلى غاية السنين

---

(1) Monceaux, H.L.A.C., t. V, p. 248-249

(2) Duchesne, le dossier du Donatisme, M.E.F.R., 1890, p. 590

(3) ألف كتابين نعرفهما عن طريق رد أبطاتوس على أحدهما، ورد أغسطين على الكتاب الآخر. عن رد أغسطين، انظر أدناه ص ص 274–275.

(4) تضمن مؤلفه خمسة كتب Libri، كلها هجاء للكنيسة الكاثوليكية. والراجح أن المؤلف كان يحمل عنوان : Adversus ecclesiam traditorum.

القريبة منه[5].

تضمن كتاب أبطاتوس نقاشا حول عدة مسائل دينية معلقة بين الكاثوليك والدوناتيين كمسألة التعميد وقداسة الكنيسة ووحدتها، إلخ... ولكنه تضمن على الخصوص تاريخ الانشقاق والأحداث التي رافقته وتصرفات الطرفين، فهو بالتالي عمل ذو قيمة وثائقية جمة عن تاريخ الدوناتية. ولم يكن أبطاتوس بالطبع يتوخى عملا تاريخيا ــ بالمعنى العلمي للكلمة، لأن الرجوع إلى الأحداث لم يكن بالنسبة إليه وسيلة لإفحام خصمه بارمينيانوس بالحجج التاريخية التي كان يعتبرها حججا دامغة. لذا، فالكتاب عبارة عن مرافعة[6] ضد الخصم أكثر مما هو شيء آخر. ومع ذلك، فإن أبطاتوس ــ على ما يبدو ــ اعتمد في غالب الأحيان في استدلالاته التاريخية على مستندات ووثائق يتفق العلماء على صحة معظمها[7]. وقد استقى تلك المعلومات من ملف جمعه سابقوه من الكاثوليك ما بين سنتي 321 و347، حسب ما يرى «دوشين» Duchesne[8]. ويتضمن «ملف الدوناتية» هذا مجموعة من الوثائق الإدارية والكنسية يتراوح تاريخها ما بين 314 و330[9]. على أن ابطاتوس لم يعتمد في تأريخه للانشقاق على ذلك الملف فقط، بل إنه استقى معلوماته من الرواية الشفوية، وهو يعترف بذلك في بعض الفقرات[10]. ومع كل هذه التحفظات، فإن أبطاتوس يبدو أكثر نزاهة من

(5) انظر تحليلا مفصلا للكتاب في : Monceaux, H.L.A.C., V, p. 241-263.

(6) Vannier, O., R.A. 1926, p. 13

(7) هذا ما يتجلى من دراسة «دوشين» لـ«ملف الدوناتية» وردوده على تشككات O. Seek بخصوص بعض وثائق الملف (رسائل قسطنطين) : Duchesne, op. cit, stt, p. 607 ss
إلا أن هذه الوثائق ــ وإن كانت أصيلة في معظمها ــ فإنها كانت لا تمس صلب الموضوع، ولكنها تبدو وكأنها منتقاة لكي تظهر أن الانشقاق كان من عمل مغامرين ومخادعين. وتحاول بالتالي أن تحصره في منافسات شخصية وصراعات بين الأفراد. وبالتالي لا تحاول الولوج إلى قلب الموضوع، وهو لماذا اتبع العديد من الأفارقة أولئك «المغامرين» ؟ ومن ثم يمكن التشكك في نزاهة الملف، وبالتالي في موضوعية كتاب أبطاتوس.

(8) Duchesne, p. 625

(9) ibid, p. 624

(10) مثلا، في روايته لأحداث 347 (أدناه، الفصل السادس)، يقول : «إننا لم نر بالعين ذلك، ولكننا سمعناه...» : (النص في الملحق).
كذلك استعمل الكاتب أحيانا تعبير : «على ما يقال» (في نفس النص).

العديد من الكتاب الكاثوليك اللاحقين، إذا ما حكمنا عليه انطلاقا من كون الدوناتيين استشهدوا بكتابه في مناظرتهم الحضورية بقرطاج مع ممثلي الكنيسة الكاثوليكية سنة 411[11].

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن أبطاتوس كان يستعمل وثائقه بشيء من العفوية وعدم التصنع[12] متوخيا ما كان يعتبره بأمانة حقيقة تاريخية، وانطلاقا من وثائق رسمية[13]. لقد كان لأبطاتوس تأثير كبير على لاحقيه من الكاثوليك وبصورة خاصة على أغسطين الذي يمكن اعتباره التلميذ المكمل لأبطاتوس، سواء في التأريخ للدوناتية[14] أو بلورة المسائل العقائدية اعتمادا على الكتاب المقدس بغرض متابعة الجدل مع الدوناتيين وإفحامهم بالحجج التاريخية والفقهية[15].

2 ـــ **أغسطين Augustinus** : ولد القديس أغسطين بمدينة تاكَست بنوميديا (سوق أهراس بتونس حاليا) في سنة 354. وعلى عكس أبطاتوس، ترك أغسطين عدة كتابات ـــ وخاصة اعترافاته confessiones ـــ[16] تعرفنا عن حياته وشخصيته، ولا يهمنا هنا أن نعرض بتفصيل لحياة أغسطين وأعماله الأدبية المتنوعة الهائلة العدد[17]. نشير فقط إلى ما يمكن أن يفسر تصرفاته ودوره في مسألة الدوناتية التي لها ارتباط بقضية الدوارين.

ينتمي أغسطين إلى تلك «البورجوازية» الحضرية التي عرفت عصرها الذهبي

---

(11) **Capitula**, III, 476-488; 530-537; Ed. Lancel, S., S.C. 194, p. 536 ss

(12) يرى «دوشين» أنه لم يستعمل وثائقه بحذق وأنه لم يستفد منها استفادة كاملة في الدفاع عن قضيته Duchesnes, op. cit, p. 600.

(13) Monceaux, **H.L.A.C.**, V, p. 267-268

(14) Duchesnes, op. cit, p. 599-602
بعض الوثائق الهامة لم يكن ابطاتوس على علم بها، من أهمها : المجمع الكنسي الذي انعقد بمدينة أرلس Arles. والذي صدر فيه أول حكم على الدوناتية (314)، كذلك الحكم الأخير الذي أصدره قسطنطين على الدوناتية والذي بعث به إلى والي افريقيا (316).

(15) Congar, Y.M.J., **B.A.** 28, pp. 74-80

(16) **B.A.** n° 13 et 14

(17) تشغل تلك الأعمال 16 جزءا من «جامع كتابات آباء الكنيسة» (Patrologiae Latinae) (85 جزءاً من سلسلة «المكتبة الأغسطينية» («Bibliothèque augustinienne»).

في العهود الأولى للإمبراطورية، (طبقة «الديكوريين» Decuriones، أي أعضاء المجلس البلدي) والتي أصابها الوهن في القرنين الثالث والرابع بسبب الأزمة والإصلاحات الجبائية التي تمت على عهدي ديقليديانوس وقسطنطين.

كان باتركيوس Patricius، أب أغسطين، يملك بعض الأراضي في ناحية ثاكَست، ولكنه كان يعرف صعوبات مالية، خاصة في توفير التعليم الكافي لابنه أغسطين. نال هذا الأخير عطف ورعاية أكبر مالك عقاري في ثاكست : رمانيانوس Romanianus، الذي أقرض باتريكيوس المال الكافي ليكمل الشاب أغسطين دراسته العليا في قرطاج، ثم استغل نفوذه في تلك المدينة ليحصل لأغسطين على كرسي تدريس البلاغة Rhétorique، ثم ساعده بالمال وأرسل إليه التلاميذ (حوالي سنة 374). وفي سنة 383، غادر أغسطين قرطاج متوجها إلى روما بعد أن حصل على حماية أكبر من حماية رومانيانوس ذلك أن زعيم الحزب المحافظ في مجلس الشيوخ الروماني : Symmachus ــ وهو من أصل أفريقي أيضا ــ حصل له على كرسي مدرس للبلاغة في مدينة ميلانو التي كانت إذ ذاك مقر الإمبراطور فلنتيانوس Valentinianus(18) (384م).

كان أغسطين نموذج الرجل حديث العهد بالمسيحية. كانت أمه «مونيكا» Monica مسيحية متحمسة، ولكن أباه كان مشركا. أما هو فلم يعتنق المسيحية إلا في سن الثانية والثلاثين بعد أن مر بفترة مراهقة وشباب مضطربة فلم يحرم نفسه من الملذات التي كان يتعاطاها مع أقرانه في قرطاج. واتخذ له خليلة أنجبت له ولدا (أديوداتوس Adeodatus). كما عرفت حياته الفكرية تقلبات كثيرة، فدرس الفلسفة، وانساق إلى الأفلاطونية، ثم إلى المانوية التي أصبح أحد كهانها، واهتم كذلك بقراءة أفلوطين، وأخيرا وقع تحت تأثير القديس «أمبروسيوس»(19) Ambrosius واعتنق المسيحية (في سنة 387) ولما رجع إلى أفريقيا استقر مدة قصيرة بقرطاج ثم بثاكَست (388–391)، وأخيرا هتف به شعب Hippo

(18) Picard, G.C., **La Carthage de Saint-Augustin**, Paris, 1965, p. 132-33

(19) أمبروسيوس (330–397م) أسقف ميلانو ومستشار لعدد من الأباطرة : Gratianus وفلنتيانوس Valentinianus II، وثيدسيوس Theodosius، كان له تأثير كبير على رجال عصره. واستطاع أن يرغم ثيدسيوس على الاعتراف بذنبه أمام الكنيسة بعد أن كان قد أمر بتقتيل عدد كبير من السكان في ملعب مدينة ثيسلونيكا.

Regius (عنابة حاليا بالجزائر) كاهنا مساعدا لأسقف المدينة ثم خلفا له بعد وفاته (395)، وبقي على رأس أبرشيات «هيبو» إلى غاية وفاته في 28 غشت 430.

كان أغسطين على علم بأحوال أفريقيا، وقد قام بعدة أسفار في مختلف أرجاء البلاد (نوميديا الجنوبية، موريطانيا القيصرية، إلخ...)، ومن جهة ثانية كان رجلا نشيطا اهتم بكل المسائل المتعلقة برعيته وأدار أملاك الكنيسة فيها وعقد جلسات المحكمة، إلخ... وأهم من هذا كان أغسطين رجل قلم ولسان دافع عن الكاثوليكية بكل ما أوتي من قوة، ودخل في جدل كلامي مع ممثلي المعتقدات غير الكاثوليكية، فهاجم المشركين واليهود والنحل المسيحية والهرطقات على اختلافها[20].

لعب أغسطين دورا طلائعيا في القضاء على الدوناتية وكان عمله على عدة مستويات. بلور استراتيجية للجدل الكلامي مع الدوناتيين، مكملا في ذلك عمل أبطاتوس ومضيفا إليه، فرجع إلى ملف الدوناتية والوثائق التي كانت غير متوفرة لدى أبطاتوس ليعزز بها حججه التاريخية، كما حاول إفحام خصومه بالحجج الفقهية والرجوع إلى نصوص الكتاب المقدس. واستعمل بطريقة حذقة تناقضات خصومه وخاصة في قضية انشقاق المكسميانيين[21] عن الدوناتية.

وعلى الخصوص بلور نظرية اللجوء إلى السلطة الدنيوية في ردع المنشقين عن الكنيسة، وبذلك برر عمل الدولة القسري ضد الدوناتيين. وقد بذل أغسطين نشاطا وحركة مستمرتين للوصول إلى هدفه، فحاول عقد المناظرات واللقاءات مع أبرز خصومه بحضور رعية الطرفين، ولعب دورا طلائعيا في المجامع التي عقدها الكاثوليك لكفاح الدوناتية. وأخيرا كان له دور حاسم في مناظرة قرطاج التي عقدت بين ممثلي الكنيستين المتناحرتين بأمر من الإمبراطور سنة 411.

---

(20) اهتم أغسطين كثيرا بهذا الميدان وألف كتابا عن «البدع» De Haersibus عدد فيه ثمانية وثمانين بدعة. ولكن هذه البدع لم تكن كلها موجودة بافريقيا. وفي عهد أغسطين، كانت البدع الرئيسية كالأريوسية والمانوية والبلاجيانية قليلة الأهمية في أفريقيا إذا قورنت ببعض الأقاليم الأخرى. وكان المشكل الأساسي بالنسبة للكاثوليك الأفارقة هو مكافحة الدوناتية التي كانت تعتبر انشقاقا وليس هرطقة.

عن مختلف البدع في افريقيا، هناك دراسة مقتضبة لـZeiller.

Zeiller, J., Les hérésies en Afrique entre la paix constantinienne et l'invasion Vandale, Mélanges F. Martroye, 1940, pp. 101-106.

(21) عن هذا الانشقاق داخل الدوناتية، انظر أدناه، هـ. 26، ص 235-236.

يمكن القول بأن أغسطين يمثل المصدر الرئيسي لمعرفتنا للدوناتية وللدوارين. إلا أنه لم يتحدث عن الدوارين إلا من خلال ما كتبه ضد الدوناتية وترجع أهم تلك الكتابات إلى الفترة المتراوحة ما بين 393 و420 تقريبا. ومن نافل القول أن هذه الكتابات ـــ على غرار كتاب أبطاتوس ـــ ينبغي أن نتناولها بكثير من الحذر، لا لكون أغسطين لم يكن بالضرورة محايدا (طالما أنه يمثل وجهة نظر الكاثوليك) فحسب، ولكن لأن كتاباته كانت بالطبع وقبل كل شيء جدلا فقهيا وذات طابع ديني بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن المعلومات «الدنيوية» التي يمكن أن تلقي الأضواء على نشاط الدوارين الاقتصادي ووضعيتهم الاجتماعية لم تنل من الكاتب كامل الاهتمام. وأيضا كانت «ضرورة» الجدل والمساجلة الكلامية تؤدي من غير شك بأغسطين إلى التضخيم والمغالاة. وذلك ما سوف يلاحظ في كثير من الأحيان.

لم تصلنا كل كتابات أغسطين ضد الدوناتية[22]، ومع ذلك فما وصلنا منها يمثل حصيلة مهمة[23]، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نقوم هنا بمحاولة تحليل كل كتاب على حدة، وربما لم يكن ذلك ضروريا طالما أن تلك الكتابات مقولبة على نفس الشكل تقريبا، لدرجة أنها أحيانا مملة لكثرة التكرار[24]. فالكاتب يستعرض في العادة ظروف الانشقاق (الحجج التاريخية)، ويستدل على سوء نية خصومه بتصرفاتهم «الشائنة» (تحالف أبطاتوس، أسقفهم بتمكَاد مع الكونت «جيلدو» Gildo عدو روما اللذوذ[25]، انشقاق المكسميانيين عن الخط الدوناتي ومعاملة الدوناتيين «الأرثذكسيين» للمنشقين[26]، إلخ...) وينتقل إلى أعمال الدوارين

---

(22) نعرف وجودها من كتاباته الأخرى، وخاصة «المراجعات» Retractiones التي هي نوع من فهرس مستقل وضعه أغسطين لأعماله :

Bardy, G., les Révisions, Bibliothèque augustinienne, n° 12, Paris, des clés de Brouwer, 1950 (666 pages : texte et trad).

(23) انظر عناوين تلك الكتابات المفقودة في : **Congar, Y.M.J., B.A. 28, p. 21, n. 2**.

(24) يقول «مونصو» بأن التكرار إحدى خاصيات كتابات أغسطين ضد الدوناتية.

Monceaux, H.L.A.C, VII, p. 264

(25) أنظر النص 14، في الملحق.

(26) انظر أدناه، هـ. 34، ص 244–245.

الثورية ومساندتهم للدوناتية وتهديدهم الأمن ليبرر في نهاية المطاف تدخل الدولة بالقوة ضد الدوناتيين لحماية الكاثوليك.

ونشير فيما يلي إلى أهم الكتابات مرتبة ترتيبا زمنيا كما صدر معظمها في سلسلة «المكتبة الأغسطينية» Bibliothèque augustinienne (B.A)[27]، ومقابلها — إذا كان — في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية». C.S.E.L

1 — حوالي 392 : «المزمور ضد حزب دوناتوس».

Psalmus contra Partem Donati, **B.A.** 28, Paris, Desclée de Brouwer, 1963, (traduction : G. Bouissou; Introduction et notes : Y.M.J. Congar) pp. 150-191.

2 — حوالي 400 : «ثلاثة كتب في الرد على رسالة بارمينيانوس».

Contra epistulam Parmeniani libri tres; **B.A.** 28, 1963 (Trad. G. Finaert) pp. 208-481 = **C.S.E.L.** 51, pp. 19-141.

3 — حوالي سنة 400 : «سبعة كتب في التعميد».

De baptismo libri septem; **B.A.** 29, 1964 (Traduction : G. Finaert, introd. et notes : G. Bavaud), pp. 56-575 = **C.S.E.L.** 51, pp. 145-375.

---

(27) هي آخر نشرة علمية لأعمال القديس أغسطين. صدر منها حتى الآن 37 جزءا على مجموع 85، ولازالت تتابع نشرها لبقية أعماله. أما النشرات الأخرى السابقة فهي على الخصوص :
— نشرة «البندكتيين» Bénédictins (1679—1700) التي نسخها الأب Migne في «جامع كتابات آباء الكنيسة» Patrologiae latinae (1844—1864) : 16 جزءا، من الجزء 32 إلى الجزء 47. ونشرت مؤخرا إضافات P.L.S., t. II, par Hamman, A.G
— نشرة في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية»

Corpus scriptorum Ecclesiasticorum latinorum (C.S.E.L)

التي نشرت على الخصوص رسائل أغسطين، التي نشرها Goldbacher من سنة 1888 إلى 1923 : الجزء 34 في مجلدين (المجلد الأول يضم الرسائل من 1 إلى 30، والمجلد الثاني من 31 إلى 123)، والجزء 44 (من الرسالة 124 إلى الرسالة 184) والجزء 57 (من الرسالة 185 إلى الرسالة 270) والجزء 58 يضم الفهارس. أما كتابات أغسطين ضد الدوناتية فقد نشرها M. Petschenig ما بين 1908 و1910 وهي عبارة عن الأجزاء 51 و52 و53 من جامع الكتابات الكنسية.
وتمتاز نشرة «المكتبة الأغسطينية» باعطائها النص اللاتيني وترجمته للفرنسية في الصفحة المقابلة، وتشير إلى متغيرات النص في المخطوطات وفي النشرات السابقة (P.L. وC.SE.L. على الخصوص). وقد اعتمدت في هذه الرسالة على الترجمة الفرنسية الواردة في هذه السلسلة. وفي الملحق أوردت النص اللاتيني وترجمته إلى العربية.

4 ـــ ما بين 400 و403 : «ثلاثة كتب في الرد على بيتليانوس».

Contra litteras Petiliani libri tres; **B.A.** 30, 1967 (trad.: G. Finaert; introd. et notes : B. Quinot); pp. 32-745 = **C.S.E.L.** 52, pp. 3-227.

5 ـــ حوالي 405–406 : «أربعة كتب في الرد على كريسكونيوس، النحوي والدوناتي».

Contra Cresconium grammaticum et donatistam libri quattuor; **B.A.** 31, 1968 (Trad. G. Finaert; introduction et notes de A.C. de Veer, pp. 70-643 = **C.S.E.L.** 52, pp. 325-582.

6 ـــ حوالي 410–411 : «كتاب في التعميد الوحيد».

Liber de unico baptismo; **B.A.** 31, 1968, pp. 664-737 = **C.S.E.L.**, 53, pp. 3-34.

7 ـــ نهاية سنة 411 : «ثلاثة كتب في تلخيص المناظرة مع الدوناتيين».

Brevicus collationis cum Donatistis libri tres; **B.A.** 32, 1965 (traduction : G. Finaert, introduction et notes de E. Lamirande), pp. 94-243 = **C.S.E.L.** 53, pp. 39-92.

8 ـــ حوالي 411–412 : «كتاب إلى الدوناتيين بعد المناظرة».

Ad donatistas post collationem liber unus; ibid, pp. 248-393, **C.S.E.L.** 53, pp. 97-162.

9 ـــ بداية 417 : «في عقاب الدوناتيين»، أو الرسالة 185.

Epistula CLXXXV. De correctione donatistarum, **C.S.E.L.** 57, pp. 1-44.

10 ـــ 18 سبتمبر 418 : «خطبة في رعية كنيسة القيصرية».

Sermo ad Caesariensis ecclesiae plebem; **B.A.** 32, 1965, pp. 416-445 = **C.S.E.L.** 53, pp. 167-178.

11 ـــ 20 سبتمبر 418 : «محضر المناظرة مع أمرتوس، أسقف الدوناتيين».

Gesta cum Emerito donatistarum episcopo; ibid, pp. 450-486 = **C.S.E.L.** 53, pp. 181-196.

12 ـــ حوالي 420 : «كتابان في الرد على كاودنتيوس، أسقف الدوناتيين».

Contra Caudentium donatistarum episcopum libri duo : ibid, pp. 510-685 = **C.S.E.L.** 53, pp. 201-274.

بالإضافة إلى هذه الأعمال الرئيسية هناك إشارات عابرة هنا وهناك، في رسائل

أغسطين[28]، وفي خطبه الوعظية[29]، وفي كتب أخرى[30].

3 ــ **الكاتب الكاثوليكي المجهول** لـ«رسالة إلى الكاثوليك في موضوع فرقة الدوناتيين»[31] Epistula ad Catholicos de Secta donatistarum.

تشكك «البندكتيون» (الرهبان الذين نشروا أعمال أغسطين ما بين 1679 و1700) في صحة نسب هذه الرسالة إلى أغسطين نظرا لأنه لم يذكرها في «مراجعاته» Retractiones (التي هي عبارة عن فهرس مفصل وضعه أغسطين لكتبه)، وأيضا للمفارقات الموجودة بين هذه الرسالة وكتابات أغسطين الأخرى سواء في أسلوب التقديم أو في المضمون أو في أسلوب الكتابة (أقل تنميقا من أسلوب أغسطين العادي)، أو في نصوص الكتاب المقدس التي يستشهد بها أغسطين في العادة. وقد تبنى بعض المتخصصين رأي «البندكتيين»[32]، ورأى آخرون ــ ومن أهمهم مونصو[33] ــ أن أغسطين هو صاحب الرسالة : ذلك لأن الرسالة كتبها رجل دين بمدينة هيبو Hippo. (إذن في أبرشية أغسطين)، وفي نهاية سنة 401 (أي في أوج المساجلة الكلامية مع الدوناتيين). ويعترف Y.M. CONGAR أن القول بنسب الرسالة أو عدم نسبها إلى أغسطين شيء صعب في الواقع، ولكنه يرجح في نهاية المطاف صحة نسبها إليه[34].

4 ــ **الكتابات الدوناتية** : لم يصلنا من كتابات الدوناتيين الأوائل إلا النزر اليسير[35]، بالرغم من أنهم على ما يبدو كتبوا الكثير دفاعا عن قضيتهم، وخاصة دوناتوس الأكبر الذي كتب عدة رسائل على قول «القديس جيروم»

---

(28) ست عشرة رسالة عدها مونصو Monceaux, **H.L.A.C**, VII, p. 132

(29) ibid, pp. 196-188

(30) مثلا كتابه «في البدع» (428–429). De haersibus, 69; **P.L.** 42, pp. 43-44

(31) **B.A.** 28, pp. 501-507 = **C.S.E.L.** 51, pp. 231-322

(32) انظر مناقشة مختلف الآراء في : Congar, Y.M.J., ibid, pp. 485-494

(33) Monceaux, **H.L.A.C.**, VII, p. 105

(34) Congar, Y.M.G., ibid, p. 493-494

(35) Monceaux, **H.L.A.C.** V, pp. 31-35 et 99-165

Saint-Jérôme[36]. وفي الواقع لم يصلنا عن الفترة ما بين ظهور الانشقاق (312) وتاريخ صدور كتاب أبطاتوس (366–367) أي عمل أدبي يذكر ــ لا من جهة الكاثوليك ولا من جهة الدوناتيين ــ على أن هناك أربعة «كتب آلام» Passiones دوناتية تخلد سقوط بعض الشهداء.

ــ كتاب آلام «ساتورنينوس» يخلد ذكرى القس ساتورنينوس ومعه بعض الشهداء الذين سقطوا إبان اضطهاد ديقليديانوس للمسيحيين في افريقيا بين 303 و305 أي قبل ظهور الانشقاق الدوناتي. كان كاتبه دوناتيا حسب ما يبدو من تهجماته على كايكيليانوس Caecilianus الذي أصبح فيما بعد الأسقف الكاثوليكي بقرطاج وزعيم الكنيسة الكاثوليكية الافريقية.

ــ كتاب آلام دوناتوس Passio Donati يخلد شهداء أول اضطهاد عرفه الدوناتيون (317–318)، ويعتقد أن الكتاب كان خطبة وعظية ألقاها دوناتوس الأكبر نفسه في رعيته.

ــ كتاب آلام ماركلوس Passio Marculi.

ــ كتاب آلام ماكسميانوس وإسحاق[37] Passio Maximiani et Isaac.

ويخلد هذان الكتابان الأخيران شهداء الاضطهاد الثاني الذي عانى منه الدوناتيون بعد صدور «قانون الوحدة» سنة 347 على عهد قنسطنس.

أما في فترة ما بعد 366، فإن عددا من الكتابات الدوناتية وصلتنا :

أ ــ مقررات مجمعين كنسيين دوناتيين : المجمع الذي انعقد بـ Cabansussa في إقليم «بيزاكينا» (24 يونيو 383) والذي كرس انشقاق ماكسميانوس Maximianus وأتباعه عن الخط الدوناتي «الأرثدكسي» الذي كان يتزعمه بريميانوس Primianus (خلف بارمينيانوس Parmenianus الزعيم الدوناتي الثاني بعد دوناتوس الأكبر)، والمجمع الذي عقده «البريميانيون» ــ أتباع بريميانوس، أي الخط الأرثدكسي ــ لإدانة الماكسميانيين (24 أبريل 394 بمدينة باغاي

---

(36) Jerom., **De Viris**, 93 (cité d'après Duchesne, L., Le dossier du Donatisme, **M.E.F.R.**, 1890. p. 590).

(37) **P.L.** VIII, col. 689-703 تحليل هذه الكتب في : Monceaux, **H.L.A.C.** V, pp. 48-98

.(Bagaï[38]

ب ــ تدخلات الدوناتيين في مناظرة قرطاج[39].

ت ــ كتابات الأساقفة وكبار الدوناتيين (بارمينيانـوس Parmenianus، بتيليانوس Petilianus، Cresconius، Gaudentius، إلخ...). ولا نعرفها إلا من خلال ردود أبطاتوس وأغسطين عليها. وهذا الأخير على الخصوص أورد بعضها بالنص الكامل فقرة فقرة للرد عليها : (الـرد على Petilianus، وعلى .(Gaudentius[40]

ث ــ كتابات تيكونيوس Tyconius[41] ــ الفقيه الدوناتي الذي انفصل عن الدوناتيين حوالي 370، ولم يلتحق بالكاثوليكية. لم تصلنا كل تلك الكتابات، ولكننا نعرف بعضها عن طريق الكتاب اللاحقين، وخاصة «بياتوس» Beatus (من القرن التاسع الذي اقتبس عنه في تعليقه على «رؤيا يوحنا»)[42].

5 ــ **وثائق مناظرة قرطاج** : هي محاورة كلامية قرر الإمبراطور هنوريوس عقدها بين الكنيستين الافريقيتين المتصارعتين. وعين لرئاسة تلك المناظرة قاضيا خاصا هو «الوكيل» (Tribunus)، «ماركلينوس» Marcellinus وقد نظم هذا الأخير كل الترتيبات المتعلقة بعقد تلك المناظرة فأصدر قرارا يدعو فيه كل الأساقفة الدوناتيين والكاثوليكيين في مجموع افريقيا للمشاركة في المناظرة (19 يناير 411). ثم أصدر قرارا آخر في شهر ماي من نفس السنة ينظم فيه سير المناظرة، ويطلب من كل فريق أن يختار من بين أساقفته سبعة ممثلين عنه في المناظرة، إضافة إلى سبعة آخرين يلعبون دور مستشاريهم. وتحدد يوم المناظرة بتاريخ فاتح يونيو 411. دارت المناظرة في ثلاثة أيام (1 و2 و8 يونيو) وفتح المجال لكل طرف كي يعبر عن وجهة نظره وأن يقدم حججه. وأخيرا أصدر القاضي حكمه بتحريم الدوناتية في 26 يونيو من نفس السنة.

---

(38) P.L. XI, col. 1185-1189 et 1189-1191

(39) Edition Lancel, S., S.C. n° 194, 195, 224, Paris, 1972-1975

(40) اللائحة أعلاه، ص 44–46.

(41) P.L. t. XVIII; P.L.S., t. 1 انظر أيضا أدناه، في الملحق.

(42) Monceaux, P., H.L.A.C., V, pp. 165-219

وصلتنا وقائع تلك المناظرة عن ثلاث طرق :

ـــ ملخص لأغسطين، سبقت الإشارة إليه Brevicus collationis.

ـــ ملخص لـ«ماركيلوس» Marcellus، أحد الكتاب المكلفين بنقل وقائع المناظرة في المحاضر.

ـــ نشرة ماركيلوس للمحضر الرسمي نفسه ولكنها وصلتنا غير كاملة.

آخر نشرة علمية لملخص ماركيلوس ومحضر المناظرة هي التي نشرها S. Lancel في سلسلة «المصادر المسيحية» وتتضمن ثلاثة أجزاء : الجزء الأول خصصه الناشر لتقديم المناظرة ووثائقها، والجزء الثاني يتضمن ملخص ماركيلوس ومحضر الجلسة الأولى للمناظرة (اليوم الأول) والجزء الثالث يحتوى على محضر الجلسة الثانية والثالثة :

Lancel : S., **Actes de la Conférence de Carthage,** Coll." Sources chrétiennes, n° 194, 195, 224, Paris, le Cerf (1972-1975).
tome I, **Introduction générale,** 1972.
tome II, **Capitulation générale et actes de la 1ère séance,** 1972.
tome III, **Actes de la 2ème et de la 3ème séance,** 1975.

(ولم يصدر لحد الساعة الجزء الرابع، المخصص لدراسة بعض «النقط التكميلية»).

6 ـــ مصادر ثانوية : نعثر على إشارات عابرة إلى الدوارين عند بعض الكتاب المتأخرين الذين استقوا معلوماتهم من سابقيهم وبصفة أساسية من أغسطين. ونذكر من بينهم «بياتوس» Beatus من القرن التاسع الذي اقتبس «تعليقه على رؤيا يوحنا» من تيكونيوس الدوناتي، وكذلك أزيدور الاشبيلي (636-570).

ثانيا : المراجــع :

لم يدرس الدوارون ـــ حسب علمي ـــ في دراسة مستقلة ومتكاملة، وجل المراجع تناولت الموضوع من زاوية التأريخ للدوناتية. ولم تر في الدوارين إلا جزئية واحدة من دراسة الحياة العقيدية في شمال أفريقيا في القرنين الرابع والخامس. وإلى غاية «مونصو» P. Monceaux كان مؤرخو الدوناتية لا يرون في الدوارين إلا

نوعا من لصوص أو مغامرين أو متعصبين شكلوا في كثير من الأوقات رؤوس رماح الدوناتية.

انطلقت مختلف الدراسات الحديثة عن الدوارين والدوناتية من عمل مونصو، الذي يعتبر بحق عملا موسوعيا لازال يحتفظ بقيمة كبيرة. فلقد كان مونصو على اطلاع مباشر بمصادره يعرفها معرفة جيدة. غير أن عمله كان بالضرورة وقبل كل شيء تاريخا للأدب الافريقي المسيحي[43].

لم يغفل «مونصو» الجوانب الاجتماعية والسياسية للدوناتية ووقف في بعض الأحيان عند الدوارين. ونجده يقول مثلا بصدد حركتهم : «ان هذا التمرد الدوري شبه المستمر اتخذ منذ الفترة المبكرة طابع حركة «يعقوبية» Jacquerie (ريفية)، وثورة اجتماعية حقيقية، واحتفظ بهذا الطابع خاصة في نوميديا»[44]. لكنه يرى في النهاية أن الأمر لا يتعلق بمحاولة ثورة اجتماعية، وأن «التعصب الديني كان يدخل في هذا التمرد وهذه الفوضى بنصيب مماثل لحزازات البؤس (هكذا !)، وأن الحرب الدينية هي التي أعطت إشارة الانطلاق للمطالب الاقتصادية»[45]. لم يبتعد مونصو إذن كثيرا عن رؤيا الدوناتية من الوجهة الدينية أساسا : ويمكن الحديث بعد ذلك عن خطوتين هامتين خطتهما دراسة الدوارين على يد بعض الباحثين :

1 ــ الابتعاد أكثر فأكثر عن رؤيا الدوناتية من الزاوية الدينية فقط.

---

(43) جاء عمله في سبعة أجزاء تناولت التاريخ الأدبي لافريقيا المسيحية من الأصول إلى غزو الوندال :

Monceaux, P., Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion vandale :
I - **Tertullien et les origines**, Paris, 1901.
II - **Saint-cyprien et son tepms**, 1902.
III - **Le IV[ème] siècle. d'Arnobe à Victorin**, 1905.
IV - **Le Donatisme**, 1912.
V - **Saint-Optat et les premiers écrivains donatistes**, 1920.
VI - **La littérature donatiste au temps de Saint-Augustin**, 1922.
VII - **Saint-Augustin et le donatisme**, 1923.

(44) Monceaux, P., L'Eglise donatiste. Organisation et caractères, **R.H.R.**, t. 64, Paris, 1911, p. 44

كذلك : idem. **H.L.A.C.**, IV, p. 35 ss et 193 ss

(45) Monceaux, **R.H.R.**, t. 64, p. 46

2 ــ محاولة فصل الدوارين عن الدوناتية.

منذ عهد مونصو، بل قبله بقليل، بدأ بعض الباحثين يركزون على الطابع السياسي والاجتماعي للدوناتية، ملاحظين أن المناطق الحيوية للدوناتية كانت تتطابق مع المناطق الحيوية للغة «البونيقية»، وأن ثورتي الزعيمين الافريقيين «فيرموس» (372-375) و«جيلدو» (396-398) لقيتا تجاوبا وتعاطفا لدى الدوناتيين. وهكذا، أثار W. Thümmel مشكلة الأرضية الاجتماعية والعرقية للدوناتية، منذ سنة 1893(46). ولم يلبث F. Martroye أن طرح بوضوح الجوانب الاجتماعية والثورية للدوناتية في سنة 1904(47).

وفي سنة 1926، كانت الخطوة الثانية، بحيث صدرت دراسة للباحثة الفرنسية O. Vannier، وصلت فيها إلى نتيجة أن حركة الدوارين ينبغي فصلها عن حركة الدوناتية، وأن دراسة الحركة الأولى تدخل في إطار التاريخ الاقتصادي لافريقيا الشمالية أكثر مما تدخل في تاريخ الدوناتية(48).

وفي سنة 1934، أتت مساهمة جديدة في هذا الاتجاه، كان لها دور حاسم في دراسة الدوارين، بحيث أنه أصبح على كل باحث أن يتخذ منها موقفا إما بالتأييد وإما بالرفض. وهذه المساهمة كانت الدراسة التي قام بها Ch. Saumagne على الدوارين في قانون هنوريوس الصادر سنة 412، والذي يذكر الدوارين من بين الفئات الاجتماعية المعترف بها من طرف الدولة، الأمر الذي كان يفند افتراض أن الدوارين كانوا مجرد لصوص وقطاع طرق(49).

وفي الخمسينات، تزايد الاهتمام بالدوناتية لدى الباحثين الأوربيين. وقد ساقهم اهتمامهم هذا إلى المزيد من البحث في موضوع الدوارين. وصدرت بعض المقالات وخصص بعض الباحثين جزءا مهما من أطروحاتهم عن الدوناتية لمشكلة الدوارين.

---

(46) G. Thümmel, W., **Zur beurteilung des Donatismus**, Halle / Saale, 1893; ap. Congar, Y.M.J., **B.A.** 28, p. 27.

(47) Martroye, F., Une tentative de révolution sociale en Afrique. Donatistes et circoncellions, **R.Q.H.**, t. 32, Paris, 1904, p. 353-416 et t. 33, 1905, pp. 5-53.

(48) Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste, d'après le texte d'Optat, **R.A.**, t. LXVII, Alger, 1926, pp. 13-28.

(49) Saumagne, Ch., Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers. Les circoncellios d'Afrique, **A.H.E.S.**, t. 6, 1934, pp. 351-64.

وقد تعرضت في خلال هذه الرسالة لأهم ما قيل عن الدوارين في تلك الدراسات. ويمكن القول عموما، بأن هناك تيارين رئيسين :

1 ــ التيار الذي يركز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لحركة الدوارين، ويفصلها (بدرجة تتفاوت حسب الباحثين) عن الدوناتية.

2 ــ التيار المضاد لهذا الاتجاه، والذي رجع من جديد إلى التركيز على التعصب الديني، بل رأى في الدوارين فرقة دينية أو حركة رهبان.

ويمكن الإشارة إلى أهم الدراسات حسب تاريخ صدورها، كالتالي :

1) Frend, W.H.C., The cellae of the african circumcellions, **J.T.S.**, New Series, III, 1952, pp. 87-90.

في هذا المقال اقترح Frend تفسيرا جديدا لكلمة circumcelliones (cella = ضريح الشهداء) وبالتالي فالدوارون كانوا «زوار الأضرحة». ورجع إلى ذلك الاقتراح في كتابه عن الدوناتية :

2) Idem, **The Donatist church. A movement of protest in Roman North Africa**, Oxford, Clarendon Press, 1952, p. 171 ss. (p. 173).

3) Warmington, B.H., **The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest**, Cambridge, 1954.

تناول الدوارين في الفصل الذي خصصه للدوناتية : الفصل السابع : ص ص 76–103 (الدوارين، ص ص 84–88). يعتبر الدوارين عمالا فلاحين، على غرار ما رآه «صوماني».

4) Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1995.

يعتبر الدواوين عمالا فلاحين، على غرار ما رآه «صوماني» (ص 144، هـ. 1، وصفحة 147).

5) Cacic, P., En Afrique romaine, classes et luttes sociales d'après les historiens soviétiques, **A.H.E.S.**, 12, 1957, pp. 651-61.

يلخص الكاتب المقالات والأبحاث التي صدرت في الاتحاد السفياتي في «دورية التاريخ القديم» : «Vestnik Drevnèj Istorii» حول افريقيا الشمالية في هذه الفترة. ويعرض بالمناسبة مقالا عن الدوارين صدر بالروسية.

Dmitrev, A., Sur le problème des Agonistiques et des Cįrconcellions, **V.D,I.**, Fasc. II, 1948, pp. 66-78.

يرى «دمتريف» ـــ حسب الكاتب ـــ أن حركة «الدوارين» كانت منفصلة تماما عن حركة الدوناتية ـــ كما رأت ذلك Vannier منذ 1926 ـــ ويرى إضافة إلى ذلك أن هناك فرقا بين «المناضلين» Agonistici و«الدوارين» Circumcelliones وأن «المناضلين» كانوا يشكلون حركة ثورية، أما «الدوارون فكانوا رهبانا بجانب الدوناتيين. وعلى هذا الأساس، فقد كانت هناك ثلاث حركات متباينة : الدوناتية التي تهم كل الفئات الاجتماعية، و«المناضلون» الذين يشكلون «بروليطاريا» مناهضة للاستعباد والممارسات الربوية، وأخيرا «الدوارون» الذين كانوا رهبانا متنقلين يرفضون نظام المكوث في الأديرة. ويرى أن الكتاب الكاثوليك كانوا يخلطون بين هذه الحركات الثلاث : (Gacic, P., op. cit, pp. 658-660).

6) Brisson, J.P., **Autonomisme et christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sevère à l'invasion Vandale,** Paris, De Boccard, 1958.

هي أطروحة تقدم بها الباحث لنيل شهادة الدكتوراه في جامعة «الصربون» الفرنسية سنة 1952، ولكنها لم تنشر إلا في سنة 1958. وتشكل بجانب كتاب Frend المشار إليه سابقا والصادر في نفس السنة (1952) أحد الأبحاث الحديثة الرئيسية عن الدوناتية.

تناول «بريصون» الدوارين في جزء مهم من دراسته (ص ص 325–356). ويرى أن الدوارين كانوا عمالا فلاحين، على غرار ما رآه صوماني (ص 338)، وأنهم انتموا إلى الدوناتية لأنهم رأوا فيها «كنيسة الفقراء» (ص 358 وما بعدها).

7) Picard, G. Ch., **La civilisation de l'Afrique romaine,** Paris, Plon, 1958.

رغم أن الكتاب عبارة عن دراسة عامة لحضارة افريقيا على العهد الروماني، فقد أشار الكاتب إلى الدوارين (ص 68، وص 375، هـ. 52). ويتبنى الكاتب نظرية «صوماني»، ويرى على الخصوص أن السبب في حركة الدوارين يرجع إلى تزايد السكان، وبالتالي تزايد العمال الفلاحين (الدوارين) الذين أصبحوا يشكلون خطرا على البلاد. رجع إلى هذه الفكرة في كتاب آخر :

8) idem, **La Carthage de Saint Augustin,** Paris, 1965, pp. 140-141.

9) Tengström, E., **Donatisten und Katholiken, wirtschaftliche und politische aspekte einer Nordafricanische Kirchenspaltung**, Gotebörg, 1964.

لم أتمكن من الاطلاع على هذا الكتاب، واطلعت فقط على ملخص وتحليل له في تقرير : Lancel, S., **R.E.L.**, 1965, pp. 637-640

تتجلى أهمية الكتاب في كون الكاتب خصص جزءا مهما منه للدوارين، وأبدى اقتراحا جديدا لتفسير حركتهم. وحسب تحليل «لانسيل»، فإن الكاتب السويدي يرى أن «الدوارين» كانوا عمالا فلاحيين يشتغلون في زياتين نوميديا، وأنهم كانوا في نفس الوقت يكونون فرقة دينية تتعاطى زيارة أضرحة الشهداء. فأطروحته إذن نوع من توفيق بين نظرية «صوماني» ونظرية «فرند». ولكنه لا يرى أن حركة الدوارين كانت ثورة اجتماعية.

10) Lancel, S., Originalité de la province ecclésiastique de Byzacène aux IV[ème] et V[ème] siècles, **C.T.**, t. XII (n° 45-46), 1964, pp. 139-153.

يتبنى الكاتب رأي «صوماني» بأن الدوارين كانوا عمالا فلاحيين (ص 148.146). ويفترض أن الكلمة ربما كانت لها معان مختلفة حسب السياقات التي وردت فيها. ولكنه يرى أن وجود الدوارين كعمال فلاحيين سابق عن كونهم «رؤوس رماح الدوناتية» حسبما وصفتهم به المصادر الكاثوليكية (ص 148، هـ. 25).

11) Calderone, S., Circumcelliones, **Parola del Passato**, XXII, 1967, pp. 94-109.

اقترح هذا الباحث الإيطالي تفسيرا آخر لماهية الدوارين وكنه حركتهم. يرى أنهم كانوا رهبانا متنقلين من cella إلى cella (cellae بمعنى بيوت الرهبان، وليس بمعنى «ضريح الشهداء» كما رآه Frend، ولا بمعنى «مخازن للمؤن» كما رآه معظم الباحثين حتى الآن).

12) Lancel, S., Aux origines du donatisme et du mouvement des circoncellions, **C.T.**, XV, (Mélanges, Ch. Saumagne), Tunis, 1967, pp. 183-88.

حاول الكاتب الرجوع إلى ينابيع الدوناتية للعثور على إشارة إلى الدوارين.

13) Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, **J.T.S.**, XX, 1969, pp. 542-549.

رجع «فرند» في هذا المقال إلى رأيه القائل بأن تسمية «الدوارين» تعني زوار

الأضرحة، وأضاف إلى ذلك أن بعض الاكتشافات الأثرية الحديثة تؤكد رأيه (نقش نشره Févrièr, P.A يتحدث عن cella بالمعنى الذي اقترحه فرند :

(Février, P.A., **M.E.F.R.**, 1964, p. 158).

14) Lorenz, R., circumcelliones - Cotopitae - Cutzupitani, **Zeitschrift für Kirchengeschichte**, LXXXII, 1971, pp. 54-59.

يفسر هذا الباحث كلمة Cotopita (الواردة عند بعض القدماء على أنها مرادفة لكلمة الدوارين) بأنها مشتقة من البونيقية، بمعنى «الذين يقطفون». فيلتقي في ذلك مع طنكشتروم الذي رأى أن الدوارين كانوا يقطفون الزيتون.

الفصل الأول
الظروف العامة في الأرياف الافريقية
على عهد الدوارين

إذا كانت المصادر المتوفرة عن الدوارين ترغم الباحث بالضرورة على رؤيتهم من خلال الدوناتية، فإنه من اللازم البحث عن الظروف الأخرى التي نشأت فيها حركة الدوارين قصد الوصول إلى ماهيتهم وكنه حركتهم. ولا نقصد في هذا الفصل نوعا من تقديم عام لتلك الظروف بقدر ما نبحث فيه عن الإجابة على بعض الأسئلة الدقيقة التي تطرح نفسها بحدة : ان الدوارين حسب كل الشهادات التي وصلتنا كانوا من سكان الأرياف و لم يكونوا من سكان الحواضر، وحركتهم كانت منذ البداية حركة ريفية، بحيث كان مجالهم مركزا في البوادي وفي ضواحي المدن، وفي الأسواق الريفية (nundinae). ومن ثم ينبغي البحث عن مكانة الدوارين من بين سكان تلك الأرياف، والنشاط الاقتصادي الذي كانوا يقومون به. ومن جهة ثانية، فإن حركة الدوارين كانت موجهة ضد الملاك والأسياد والمرابين، لصالح العبيد والمزارعين coloni والمديونين. ومن ثم، فالمطلوب التعرف على تلك الطبقات والبحث في العلاقات التي كانت تربطها ببعضها البعض ومكانها في الإنتاج الاقتصادي للوقوف على الأسباب التي جعلت الأرياف في القرنين الرابع والخامس مجال اضطرابات كان الدوارون المحرك الرئيسي لها.

ينبغي إذن محاولة التعرف على الظروف الاقتصادية والاجتماعية في تلك الأرياف : كيف كان الإنتاج الفلاحي منظما ؟ ما هو نظام ملكية واستغلال الأراضي ؟ ما هي الطبقات المستفيدة والطبقات المتضررة من ذلك النظام الاقتصادي ؟

من المعروف أن نهاية القرن الثالث مثلت منعرجا مهما من تاريخ الامبراطورية الرومانية، وتاريخ شمال افريقيا كجزء من تلك الامبراطورية. فبصعود ديقليديانوس

إلى العرش سنة 284م وانتهاء ما يسمى عند المؤرخين بـ«أزمة القرن الثالث»[1] (235–284م)، عرفت الدولة الرومانية عهدا جديدا اختلف في حضارته اختلافا مهما عن العهود الأولى للامبراطورية المعروفة بالامبراطورية المبكرة (من 27 ق.م إلى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث)[2]. وقد جاءت تلك التطورات نتيجة للاصلاحات الشاملة التي قام بها ديقليديانوس (284–305م) وقسطنطين (305–337) والتي سار على نهجها الأباطرة اللاحقون، وكان الهدف من هذه الاصلاحات التي شملت على الخصوص إعادة النظر في سلطة الامبراطور[3]

---

(1) أبرز محاولة لتحليل تلك الأزمة هي محاولة «روستوفتزف» Michel Rostovtzeff الذي رأى فيها صراعا بين «برجوازية» المدن من جهة، والفلاحين والجيش من الجهة المقابلة (رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، القاهرة د، ت (1957) ص 530 وما بعدها). والجدير بالذكر أن تلك الأزمة انطلقت من افريقيا (من مدينة Thysdrus : «الجم» بتونس الحالية)، حيث أدت إلى صعود «كورديانوس Gordianus — أحد النبلاء من مدينة قرطاج — إلى عرش الامبراطورية سنة 238. ولكن الفوضى لم تلبث أن أصابت الأقاليم الأخرى، فكثرت اغتصابات الحكم وتزايد دور الجيش في دواليب الحكم وفي الحياة العامة، وتقوضت الهياكل القديمة، وعرفت الامبراطورية أزمة مالية وسلطوية خطيرة. ويرى «رستوفتزف» أن نظام القرن الرابع كان «الابن الشرعي» لأزمة القرن الثالث (نفس المرجع، ص 605). تعرضت نظرية «رستوفتزف» لانتقادات وتصحيحات. مثلا :

- Gagé, J., **Les classes sociales dans l'Empire romain**, Paris, N^lle éd., 1971, pp. 292-297.

كذلك Picard الذي يرى بخصوص افريقيا أن «طائفة» الجيش لم تكن تنحدر من الفلاحين بل من الطبقة المتوسطة من الملاك الذين كانوا يعيشون في المدن.

- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, Plon, 1959, pp. 160-162.

(2) ليس هناك اتفاق بين المؤرخين حول نهاية «الامبراطورية المبكرة» : فهناك من ينهيها في سنة 161م (بداية حكم «ماركوس أوريليوس»).

- Rémondon, R., **La crise de l'Empire romain de Marc-Aurèle à Anastase**, Paris, N^lle Clio, P.U.F., 1964.
- Petit, P., **Histoire générale de l'Empire romain**, Paris, Seuil, 1974.
- t. I : **Le Haut-Empire** (27 av. J.C. - 161 ap. J.C.).
- t. II : **La crise de l'Empire** (des dernier Antonins à Dioclétien : 161-284).
- t. III : **Le Bas-Empire** (284-395).

وهناك من يذهب إلى نهاية حكم «السفيريين» Severus (235م) :

- Chastagnol, A., **Le Bas-Empire**, Paris, U², 1962, p. 7.

أما الكتب «الكلاسيكية»، فتقف بها عند صعود «سبتيمون سفيروس» إلى العرش (192م).

(3) روستوفتزف، المرجع السابق، ص ص 606–609.

وتنظيم الجيش[4] والإدارة[5] وجباية الضرائب[6] هو محاولة تمتين السلطة المركزية في الأقاليم، والزيادة في موارد الدولة عن طريق جباية الضرائب، والقضاء على الفوضى الناتجة عن الثورات واغتصابات الحكم والأخطار الخارجية. لقد كان لهذه الاصلاحات نتائج خطيرة على المجتمع الذي أصبح ينقسم أكثر فأكثر إلى طوائف حقيقية مغلقة أو تكاد، بسبب امتيازات بعضها أحيانا أو بسبب الأعباء والمسؤوليات الملقاة على عاتق بعضها أحيانا أخرى. وفي نفس الوقت، حل الخراب بالفئات المالكة التقليدية (أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان و«برجوازية» المدن)، وحل مكانها أغنياء جدد اعتمد معظمهم في امتلاكهم العقار على مراكزهم القيادية ونفوذهم في الدولة، أو استحوذوا بوسائل شتى على أراضي غيرهم[7].

ومن أكثر الفئات تضررا الطبقة الأرستقراطية في المدن التي كانت تملك الأراضي في ضواحي مدنها، والتي كانت تمثل الهيأة الحاكمة في تلك المدن بحيث كانت تهيمن على المجالس البلدية (curiae التي كانت بمثابة نظير مصغر لمجلس شيوخ روما) وتحتكر مناصب «الحكام» magistratus بها. أما في القرن الرابع، فقد فقدت المدن كل حقوق الحكم الذاتي تقريبا، وأصبحت خاضعة لمراقبة موظفين معينين من لدن السلطة المركزية، فأصبح أفراد تلك الأرستقراطية («الكورياليون» curiales)[8] يرون في مهامهم تكليفا لا تشريفا، إذ القيت على عاتقهم مسؤولية جباية الضرائب واقتسام مختلف الأعباء التي كانت تقع على سكان المدن والمناطق الفلاحية التابعة لها وفي حالة فشلهم في القيام بذلك، فإنهم يتعرضون لمتاعب من قبل الدولة. والواضح أن مثل هذه المسؤولية غير المكافأ عليها لم تكن تجذب أحدا للقيام بها بل أصبحت تعتبر نوعا من عقوبة كان الناس يتملصون

(4) نفس المرجع، ص ص 610–612.

(5) نفس المرجع، ص ص 612–616.

(6) نفس المرجع، ص ص 616–617.

(7) نفس المرجع، ص ص 634–635.

(8) كانوا يسمون بـdecuriones (المفرد decurio : عضو «المجلس البلدي» curia المكون من مائة عضو). ولكن هذا الاسم أصبح يعوض شيئا فشيئا خلال القرن الرابع باسم curiales (المفرد curialis : أي عضو من أعضاء المجلس البلدي : curia). انظر :

- **Gagé, J., Les classes sociales..., op. cit, p. 377.**

منها. ولكن الدولة عممت شيئا فشيئا مبدأ المناصب الوراثية، فأصبح «الكوريالي» curialis مشدودا إلى منصبه ومسؤوليته تماما كما كان المزارع في حقله والجندي في فرقته والحرفي في صناعته[9]. وفي الوقت الذي انهارت فيه الحياة الحضرية التجأ كثير من الملاك الكبار إلى الأرياف حيث أقاموا لهم قصورا محصنة، وعاشوا مع أتباعهم وعبيدهم في اكتفاء ذاتي واستقلال نسبي عن الحكومة المركزية، وبسطوا هيمنتهم على الفلاحين المقيمين بأراضيهم، وعلى سكان المدن أنفسهم.

ويبقى التحليل الذي أعطاه رستوفتزف للتطورات الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع مقبولا في خطوطه العريضة، وإن كانت النظرية القائلة بخراب المدن في القرن الرابع تحتاج ــ على ما يبدو إلى بعض التلطيف، خاصة فيما يتعلق بأفريقيا[10]، أو على الأقل في إقليم «البروقنصلية» الذي كان عريقا في الحياة الحضرية وانتشار المدن. لقد أظهرت الحفائر الأثرية أن عدد السكان الحضريين كان في تزايد خلال القرن الرابع في بعض المدن الافريقية[11]، كما أن أعمال البناء والترميم لم تتوقف في عدة مدن إلا عند حوالي سنة 370[12]، كذلك يستفاد من قوانين تيودوسيوس أن «الكورياليين» في المدن الافريقية لم يتهربوا كثيرا من مسؤولياتهم، بل كانوا أحيانا يحتجون على اسناد بعضها إلى موظفي الحكومة[13].

---

(9) رستوفتزف، نفس المرجع، ص ص 625–626.

(10) استمرت الحياة الحضرية نشيطة بأشكالها الاقتصادية والسياسية مدة أطول في المناطق الاغريقية والشرقية من الامبراطورية التي كونت فيما بعد الامبراطورية البيزنطية. فبنيت هناك عاصمة جديدة : القسطنطينية، وكانت المدن القديمة مزدهرة (انطاكية، الاسكندرية). وحتى في الجزء الغربي من الامبراطورية، يبدو من الحفائر الأثرية الحديثة أن ظاهرة انهيار المدن لم تكن عامة.

- Gagé, J., **Les classes sociales...**, op. cit, pp. 367-368.
- Petit, P., **Histoirev générale de l'Empire romain**, t. III, p. 197.
- Picard, G.C., **La Carthage de Saint-Augustin**, Paris, Fayard, 1965, p. 28.

(11) تشييد دور جديدة في الأماكن العمومية، وحتى في الأزقة : Picard, G.C., op. cit, p. 28 -

(12) ترميم «البازليكا» basilica والفوروم forum في مدينة «لبتس ماكنا» Leptis Magna (لبدة بليبيا حاليا) على عهد قسطنطين، ترميم «الفورم» والحامات في Thubursicu Numidarum (خميسة بتونس)، إعادة بناء Cirta التي أصبحت القسنطينة، إلخ...

- Picard, G.C., ibid, p. 27.

(13) مثلا، مهمة إدارة «المخازن العمومية» horreae publicae (التي كانت عبارة عن مستودعات =

غير أنه لحقيقة واضحة كون الكثير من أرستقراطيي المدن الإفريقية غادروا بلدتهم وتخلوا عن مهامهم ومسؤولياتهم في مجالسها البلدية. ففي رسالة بعث بها الامبراطور قسطنتيوس الثاني إلى Celsinus بروقنصل أفريقيا في سنة 338، يقول الامبراطور: «لقد اشتكيتَ من كون مجلس شيوخ قرطاج البديعة بدأ يفرغ (من أعضائه)، وأن القليل من «الكوريالين» يقطنون (بالمدينة)، بينما يشترون كلهم شارات المناصب العليا بدون استحقاق، فيبدرون أموالهم بهذه الطريقة المنكرة»[14].

يبدو إذن أن وضعية «الكوريالين» لم تكن موحدة، وأن أغنياءهم كانوا يبحثون عن وسائل التسلق إلى مصاف الموظفين الكبار حتى يتسنى لهم الحصول على امتيازات، من أهمها الإعفاء من «الخدمات» munera الإجبارية التي كانت ملقاة على كواهل «الكوريالين»[15]. وحتى أولئك الذين لم يصلوا إلى مصاف الفئات العليا، فإنهم تملصوا من الأعباء البلدية، وأسقطوا ثقلها على كاهل غيرهم من «الكوريالين» ذوي الوضعية الأقل شأنا. ذلك أنه ليس من المستبعد ــ كما يعتقد «كورطوا»[16] ــ أنهم التجأوا إلى الغش الجبائي لجعل الآخرين يؤدون الضرائب مكانهم. فإذا كان تحديد مقدار الضريبة المفروضة على كل مدينة من اختصاص والي الإقليم، فإن كل مدينة كانت تكلف أعضاء من بين الكوريالين يضعون لوائح الضريبة (يسمون tabularii) وآخرون يقومون بجمعها (suspectores) تحت مراقبة الموظفين الحكوميين. وهؤلاء المكلفون بجمع الضرائب كانوا لا يتورعون أحيانا عن إرغام الملتزمين على تسديد الضريبة مرتين في السنة، مما أدى إلى صدور قانون يعاقب هذا الغش عقابا صارما (بالموت والغرامات) في سنة 412[17].

= للمواد الفلاحية المأخوذة كضريبة عينية في الإقليم (في إقليم «بيزاكينا» Byzacena، أحد الأقاليم الثلاثة التي انقسمت إليها البروقنصلية إثر إصلاحات ديقليديانوس).

- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, Paris, 1955, p. 134.

(14) - ap. Picard, G.C., **La Carthage...**, op. cit, p. 29

(15) رستوفتزف، المرجع السابق، ص 635.

(16) - Courtois, Chr., op. cit, p. 135

(17) - **Cod. Theod.**, XXI, 20; ap. Courtois, Chr., ibid

يمكن القول إذن أن أرستقراطية «جديدة» برزت من بين طبقة الكوريالبين، ظلت تعتمد في غناها على الثروة العقارية، وربما أيضا على تصدير المنتجات الفلاحية (زيت، حبوب)[18] وأصبح أفراد هذه الطبقة يلعبون الأدوار الطلائعية في مدنهم، حيث كانوا يشكلون الفئة المسماة بـ«الأعيان» principales، وفي أقاليم الولاية الافريقية حيث كانوا يشكلون الفئة المسماة بـ sacerdotales[19] وكانت تضم نوعا من ممثلين عن المدن لدى والي الإقليم ونجد ذكر هاتين الفئتين من بين الفئات التي كانت تخضع للغرامة النقدية المفروضة على الدوناتية (في قانون هنوريوس لسنة 412)[20]. ويتجلى من قيمة الغرامة النقدية أنهما كانتا تحتلان مكانة مرموقة من بين الفئات الأخرى، بحيث أن القانون ذكرهما مباشرة بعد «اللامعين» clarissimi (أفراد الفئة السيناتورية). بل إننا إذا ما اعتبرنا أن قيمة الغرامة كانت تناسب مع غنى المغرمين، فمن الممكن القول بأن امكاناتهما الاقتصادية كانت تعادل امكانات الفئة السيناتورية clarissimi على الأقل، وتفوق بكثير امكانات «الكوريالبين» (decuriones)[21].

بجانب أعيان المدن والأقاليم، نجد الملاك الذين ينتمون إلى هيأة Clarissimi (حرفيا «اللامعون») أي إلى مصاف أعضاء مجلس الشيوخ الروماني، وإن كانوا في معظمهم لم ينالوا البتة مقعدا في ذلك المجلس، وإنما تفرغوا لإدارة أراضيهم[22]، وغالبا ما كانوا يعيشون في قصور محصنة في ضياعهم الشاسعة، على

---

(18) - Picard, G.C., La Carthage..., op. cit, p. 141

(19) كان هذا الاسم يطلق على أولئك الذين كانوا منذ القرن الأول يتكلفون بتمثيل أقاليمهم في الشعائر المقامة سنويا على شرف روما وأغسطس (حفلات وثنية). وقد ظلت الكلمة مستعملة حتى بعد أن تبنت الدولة الديانة المسيحية، ووقع نقاش في الكنيسة حول ما إذا كان يصح للمسيحيين أن يمارسوا هذا المنصب. وفي فترة متأخرة (أواخر القرن الرابع)، كان للمنصب مدلول عام هو الولاء لروما وأباطرتها. عن هذه الفئة انظر :
- Gagé, J., Les classes sociales..., op. cit, p. 425.

(20) Cod. Theod., xvi, 5, 52، (النص 57 في الملحق).

(21) Clarissimi (الفئة السيناتورية) : 20 رطلا من الذهب، Sacerdotales (أعيان الإقليم) : 30 رطلا من الذهب، Principales (أعيان المدن) : 20 رطلا من الذهب، Decuriones (الكوريالبين» : 5 أرطال من الذهب.

(22) لم تعد الطبقة «السيناتورية» («اللامعون» : Clarissimi) تتكون بالضرورة من أعضاء مجلس =

غرار ما يظهر في الفسيفساء المعروفة بفسيفساء «السيد يوليوس» La Mosaïque du seigneur Julius التي عثر عليها بقرطاج، والتي تصور حياة مالك كبير في قصر محصن وسط أراضيه، على نمط أشبه ما يكون بالذي عرفته أوربا الاقطاعية في العصر الوسيط[23].

والواقع أن معرفتنا بهؤلاء الملاك تبقى أقل دقة من معرفتنا بأسلافهم الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث للميلاد، والذين تركوا كتابات منقوشة تخلد كل العطاءات والخدمات التي قدموها إلى مواطنيهم في المدن[24] أما أغنياء القرن الرابع، فقد كانوا أقل اهتماما بمدنهم الأصلية، وأكثر ميولا إلى الانزواء في قصورهم الريفية. وتأتي المصادر الأدبية لتلقي بعض الأضواء عليهم، وإن كانت تلك الأضواء خافتة، لأن الكتاب الأفارقة في القرن الرابع كانوا من رجال الكنيسة، ولم يعيروا النشاطات غير الدينية إلا اهتماما عابرا[25]. ومع ذلك، فإننا نعرف بعض الملاك الكبار من رسائل القديس أغسطين، ومن خطبه الوعظية (Sermones) ومن «اعترافاته». ذلك أنه ربط الاتصال مع بعضهم، وكان على الخصوص يراسلهم في شأن فلاحيهم الدوناتيين ليحثوهم على اعتناق الكاثوليكية. وهكذا نعرف «باماخيوس» Pammachius الذي نجح في إرجاع مزارعيه (coloni) ــ بحقوله في نوميديا ــ للوحدة الكاثوليكية[26]، و«فيستوس» Festus الذي تردد في القيام بنفس المحاولة مع مزارعيه في ضيعة قرب مدينة Hippo Regius (عنابة)[27].

= الشيوخ الروماني (السناتو) أو أسرهم، بل أصبح هذا اللقب تشريفا يمنحه الامبراطور لمن يشاء من الأغنياء. ويمكن للمرء أن يصبح «سيناتورا» دون أن يمارس عضويته في مجلس الشيوخ.
- Gagé, J., **Les classes sociales...**, op. cit, p. 366.

(23) - Picard, G.C., **La Carthage...**, op. cit, pp. 148-151 (Photo p. 149)

(24) الكتابات المنقوشة المخلدة لأعمال الأغنياء في المدن أصبحت قليلة بعد الامبراطور «كَاليانوس» Galianus المتوفى سنة 268م.
- Picard, G.C, ibid, p. 134.

(25) وذلك على عكس أقاليم أخرى حيث عاش كتاب «دنيويون» تركوا معلومات مهمة عن الأوضاع العامة في أقاليمهم : مثلا الكاتب أوصنيوس Ausonius في غاليا، وسيماخوس Symmachus في إيطاليا. - Picard, G.C., ibid.

(26) - Aug., **Ep.** LXXXIII; C.S.E.L. xxxiv^2, pp. 216-218. Ap. Courtois, Les **Vandales...**, op. cit., p. 133.

(27) - Aug., **Ep.** CIX, 8, C.S.E.L. XXXIV^2, pp. 424-425. Ap. Courtois, Chr., ibid.

على أن أكبر الملاك في افريقيا لم يكونوا من هذا النوع القاطن في عين المكان، والذي كان يدير شؤون ضيعته مباشرة. لقد كانت الملكيات الكبرى اما بيد الامبراطور واما بيد أشخاص آخرين هم أيضا لم يكونوا ــ في الأعم الأغلب ــ مقيمين في أفريقيا. كان هؤلاء الملاك ينتمون أيضا إلى الطبقة «السيناتورية»، لكنهم كانوا أعلى درجة من الفئة التي رأيناها قبل قليل، فئة Clarissimi. كان الهرم الاجتماعي والإداري يخصص لقبين تشريفيين إضافيين إلى أنبل النبلاء، بحيث كانت هناك فئة Spectabiles «الاشراف» وفوقها حظوة فئة Inlustres «المشاهير»[28]. وكان هؤلاء النبلاء اما من أعرق الأسر الشريفة الرومانية التي نجت من الخراب، واما من أولئك الذين ارتقوا إلى أعلى المناصب في إدارة الامبراطورية، وخاصة في مكاتب الولايات، وجمعوا ثروة طائلة بشتى الوسائل وخاصة بالطرق اللامشروعة كالابتزاز والرشوة.

وقد كانت ضيعتهم الشاسعة (Saltus) متناثرة في عدة أقاليم وعلى الخصوص في افريقيا التي كانت على الدوام الأرض المفضلة للملكيات الشاسعة Saltus سواء منها تلك التي كانت للامبراطور أو لكبار النبلاء. وعلى عكس النوع السابق من الملاك، كان أصحاب هذه الأراضي لا يعيشون في أفريقيا، بل لا يزورونها إلا نادرا، ويكتفون بإدارة شؤونها من روما. وإلى هذا الصنف من الملاك ينتمي «سيماخوس» Symmachus الذي حصل لأغسطين على كرسي مدرس للبلاغة في ميلانو. وكان سيماخوس ــ وهو من أصل أفريقي ــ زعيم «الحزب» المحافظ على السيناتو الروماني. وإلى نفس الصنف أيضا ينتمي «بينيانوس» Pinianus وزوجته القديسة ميلانيا S. Melania، اللذين لم يزورا أفريقيا، رغم أن أسرة Valerii التي ينتميان إليها كانت لها أملاك في أفريقيا وخاصة أراض قرب مدينة Thagaste (سوق اهراس بتونس الحالية)[29]. وكانوا يعينون لمباشرة إدارتها أمناء أو وكلاء، أو يؤجرونها «لاكارين» Conductores، حسب نظام استغلال سنرجع إليه بعد قليل.

ونفس الاستغلال غير المباشر كان قائما في الأراضي التي كانت بحوزة

(28) - Gagé, J., Les classes sociales..., op. cit., p. 355

(29) - Courtois, Chr., Les Vandales et l'Afrique, op. cit, p. 132-133

الامبراطور. كان الامبراطور من غير شك أكبر مالك عقار في الامبراطورية الرومانية[30]. وفي افريقيا على الخصوص، كان الأباطرة قد استحوذوا على أراض شاسعة خاصة في عهد نيرو (54-68م) و«الفلافيين» (69-96م) الذين قاموا بمصادرة أراضي كبار الملاك من طبقة الشيوخ. ويذكر بلينيوس أن نصف مساحة افريقيا كانت بيد ستة ملاك من أعضاء مجلس الشيوخ، فما كان من نيرو إلا أن قتلهم وصادر ملكياتهم[31]. ويبدو أن أملاك الامبراطور في افريقيا ظلت شاسعة حتى بداية القرن الخامس، كما يتجلى من أحد قوانين هنوريوس الصادر في سنة 422[32]. وذلك القانون يتعلق باعفاء المستغلين لبعض الأراضي غير المنتجة في إقليمي «البروقنصلية» و«بيزاكينا» Byzacena من الضريبة المفروضة عليهم جورا، كما يحث والبي الإقليمين المعنيين أن يعملا جهدهما لإسناد الأراضي غير المنتجة لمن يريد إعادة استغلالها مقابل امتيازات معينة، وبنفس المناسبة، يحدد القانون بدقة متناهية مساحة كل الأراضي المعفاة من الضريبة التي تخضع لها. وإذا ما أضفنا هذه الأراضي إلى بعضها البعض، فإن مساحتها العامة تصل إلى 15.052 كلم²، أي سدس مساحة الإقليمين تقريبا[33] (91.000 كلم²). والغالب على الظن أن تلك المساحة لم تكن مساحة مجموع الأراضي القابلة للزراعة في الاقليمين ولكن فقط مساحة الأملاك الامبراطورية[34]، إذ لو صح أن تلك المساحة كانت

(30) - Finley, M.I., **L'économie antique**, Paris, Minuit, 1973, p. 118

(31) - Plin., **Naturalis Historia**, 18, 35

انظر : رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية**... مرجع سابق، ص 396.

- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, 1959, p. 60

(32) - Cod. Theod., XI, 28, 13

(33) - Courtois, Chr., **Les Vandales...**, op. cit., p. 132, n° 9.
- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, op. cit, p. 60 et n° 29, p. 370.

(34) انقسم المؤرخون حول هذه النقطة. لكن أحدث الدراسات وأهم المتخصصين في تاريخ شمال افريقيا يذهبون إلى أن القانون يتعلق بمساحة الأراضي الامبراطورية فقط (انظر : الهامش أعلاه : Courtois وPicard). كذلك، انظر المعلومات البيليوغرافية عن هذا الاختلاف في أحدث دراسة عن هذا الموضوع :

- Lepelley, Cl., Déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ? A propos d'une loi d'Honorius, **A.A.**, t. I, 1967, pp. 139-140.

يركز Lepelley على العامل الجغرافي أكثر من الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في تفسير رقعة الأراضي غير المنتجة (نفس المرجع، ص 142 وما بعدها).

مساحة الأراضي الاجمالية، فإن ذلك سوف يكون معناه أن الأوضاع بالإقليمين كانت رديئة للغاية وان افريقيا لم تكن قادرة البتة على تموين روما بالقمح الكافي لاطعام سكانها، على عكس ما نعلم من أنها كانت ممونها الوحيد بعد أن أصبحت مصر توجه قمحها إلى العاصمة الجديدة : القسطنطينية[35]. وإذا كان قانون هنوريوس هذا يعطينا فكرة دقيقة عن اتساع رقعة أراضي التاج في إقليمي البروقنصلية وبيزاكينا، فإننا نعرف أن إقليم نوميديا هو الآخر كان مجال الضيع الكبرى Saltus بعضها كانت في ملك الامبراطور، ولكننا نجهل نسبة الأراضي الامبراطورية والأراضي التي كانت بيد الخواص[36]. على أن قطاع الأراضي الامبراطورية لم يكن يتزايد في القرنين الرابع والخامس، كما كان الحال في عهد «نيرو» و«الفلافين» بل كان يتراجع اما ببيع بعض الأراضي واما بتوزيعها بطريقة جديدة للكراء : Emphytheosis[37] الذي كان كراء لأجل غير محدد (حكر)، وبامتيازات خاصة، كما يظهر مثلا من مقتضيات قانون هنوريوس الذي ذكرناه قبل قليل (قانون سنة 422) والذي يقضي باعفاء المستفيدين من أداء الضريبة لمدة معينة لم يحددها القانون)[38].

لم يحتفظ الامبراطور في نهاية المطاف إلا بالأراضي الجيدة التي كان يديرها على غرار الملاك الكبار «السيناتوريين»، أي بواسطة «أمناء» : Procuratores أو Actores[39].

---

(35) - Lepelley, Cl., ibid, p. 142 ss.
- Picard, Ch, **La civilisation...**, op. cit, n° 29, p. 370.

(36) - Warmington, B.H., **The North African provinces...**, op. cit, p. 100

(37) - Piganiol, A., **L'Empire Chrétien** (325-395), Paris, P.U.F., N^lle^ éd., 1972, pp. 310-311
(كان المشترون يسمون بـ Perpetuarii، والمكترون لأجل غير محدد Emphytheoticarii).

(38) - Lepelley, Cl., op. cit, p. 138

(39) - **L'Empire Chrétien...**, op. cit, pp. 311-312
كان مجموع أملاك التاج يعرف في البداية باسم «الأملاك الخاصة» Respriuata وهي ما صارت إليه «الأراضي العامة» Ager publicus سابقا. إلا أن أملاك الامبراطور «الفردية» وأملاك الأسرة الحاكمة، بدأت تحتكر أكثر فأكثر تلك التسمية (الأملاك الخاصة). وللتمييز بينها وبين بقية أملاك الدولة، دعيت هذه الأخيرة أكثر فأكثر باسم «الميراث» Patrimonium وهي التي أصبحت تؤجر للمحتكرين emphyteoticarii في القرنين الرابع والخامس.
- Piganiol, A., ibid.

وقد كان المستفيدون من بيع أو كراء «أملاك التاج» ينتمون إلى الطبقة «السيناتورية»، أي إلى طبقة الملاك الكبار[40].

وهكذا، يمكن أن نخلص إلى أن طبقة من الملاك الكبار كانت تحتكر معظم الأراضي في افريقيا في القرن الرابع، اما بالشراء واما بالكراء لأجل غير محدد. وقد كان أولئك الملاك متفاوتين في غناهم ومراتبهم في الهرم الاجتماعي والإداري المعقد الذي وجد في الامبراطورية آنذاك، ولكن الظاهرة الأساسية ـــ حسب ما يظهر من مختلف الشهادات ـــ هي تركيز الملكية العقارية بيد عدد قليل من الملاك، أكبرهم لا يقطنون بعين المكان والآخرون خرجوا شيئا فشيئا عن إطار المدينة وأقاموا في قصورهم الريفية.

لم تختف الملكية الصغرى بطبيعة الحال، ونعرف مثلا أن «باتركيوس» Patricius، أب أغسطين، كان يملك بعض الأراضي في ضاحية «تاكَست» Thagaste (سوق أضراس)، غير أن «اعترافات أغسطين» تصور المتاعب التي كان يلاقيها «باتريكيوس» في توفير العيش والتعليم لأسرته[41]. أضف إلى هذا أن السياسة الجبائية الثقيلة التي فرضتها الدولة في القرن الرابع أرغمت كل الذين لم يكن في وسعهم مقاومتها أو مسايرتها على اللجوء إلى من هو أقوى منهم ووضع أنفسهم وأرضهم تحت حمايته بشكل من الأشكال. وكانت الدولة نفسها ترى في هذه الظاهرة إفادة لها في بعض الأحيان، طالما أن المالك الكبير كان يعفيها من عناء مطاردة الملتزمين غير القادرين على تسديد ضرائبهم. غير أن التطور أدى في نهاية المطاف إلى بسط الملاك نفوذهم الفعلي ـــ لا القانوني ـــ على الذين يتوسطون بينهم وبين الدولة في تأدية الضرائب[42].

وهناك أخيرا أراض كانت مستغلة من طرف السكان الأصليين أي «الشعوب» Nationes و«العشائر» Gentes الافريقية[43]. وقد تقلص مجال هذا النوع من

(40) - Piganiol, A., ibid, p. 311, n. 1

(41) - Aug., **Confessa**, II

(42) - Picard, G.C., **La Carthage...**, op. cit, pp. 133-134

(43) هكذا كان الكتاب الكلاسيك يصنفون مجموعات السكان في شمال افريقيا. ومن الصعب التأكيد بوجود تنظيم قبلي بالشكل الذي كان للقبيلة في افريقيا ما بعد الفتح الإسلامي. فليس من دليل على أن القبيلة كانت مؤسسة متحجرة لم تتطور من عصر ما قبل الرومان إلى =

الأراضي بالتدريج كلما توسعت روما في شمال افريقيا، بحيث نهجت روما سياسة إيواء الشعوب الأصلية في مناطق محددة[44]. واستحوذت بالطبع ـــ وفي القاعدة العامة ـــ على أخصب الأراضي، بينما تركت بعض المناطق الوعرة أو السهوب للشعوب المحلية. وتلك الأراضي المصادرة أسندت اما إلى مستعمرة رومانية مجاورة Colonia، واما منحت لملاك كبار، واما أصبحت جزءا من أراضي التاج، وأحيانا كانت تعرف هذه الأنواع الثلاثة من التقسيم كما وقع لأراضي «المسلاميين» Musulames[45]. أصبح كل شعب من تلك الشعوب مرتبطا بأرضه. غير أن السكان لم يستقروا كلهم على تلك الأراضي المخصصة لهم من طرف الإدارة الرومانية. فمنهم من وجد شغلا في المدن، أو التحق بالجندية، ومنهم كذلك من اجتاز حدود الامبراطورية الجنوبية[46]. على أن جزءا مهما منهم استقروا كمزارعين في الملكيات الكبرى[47] أو عملوا كمستأجرين في تلك الضيع،

= الفتح الإسلامي. لذا، من الأفضل استعمال المصطلحين القديمين : gens (عشيرة) وnatio (شعب). انظر ملاحظات عبد الله العروي في هذا الشأن :

- Laroui, A., **L'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse**, I, Paris, Maspéro, 1970, pp. 59-60.

الذي يرى أن «ظاهرة» القبيلة في تاريخ شمال افريقيا كانت عبارة عن رد فعل السكان «التاريخ موصد» «... la conséquence et l'expression d'une Histoire bloquée»

- Laroui, A., ibid, p.60.

انظر أيضا بنعبو الذي يستعمل مصطلحي : «قبيلة» و«نظام قبلي» بتحفظ :

- Benabou, M., **La résistance africaine à la romanisation**, Paris, Maspéro, 1976, p. 427.

(44) عن هذه السياسة (Limitatio) انظر : - Benabou, M., ibid, p. 429-445

(45) - Benabou, M., ibid, p. 431

شعب المسلاميين كانت له أراض شاسعة في حوض نهر Muthul (واد الملاك حاليا، يصب في نهر المجردة بتونس). لكن روما حدت بالتدريج من مساحة أراضيهم مما حذا بهم إلى الثورة منذ عهد أغسطس وخاصة من سنة 17م إلى 23م وهذه الثورة الأخيرة التي قادها طاكفاريناس Tacfarinas اكتست خطورة كبيرة على الوجود الروماني في افريقيا، نظرا لتحالف عدة عشائر وشعوب مع المسلاميين. عن ثورة طاكفاريناس، انظر :

- Rachet. M., **Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien**, Coll. Latomus, Vol. IIO, Bruxelles, 1970, pp. 84-126.
- Benabou, M., op. cit., pp. 77-83.

(46) - Benabou, M., ibid, p. 445

(47) - Kolendo, J., Le problème du développement du colonat en Afrique romaine sous le Haut-Empire, dans : **Terre et paysans dépendants dans les sociétés antiques**. (Colloque International tenu à Besançon les 2 et 3 Mai 1974), Paris, C.N.R.S., 1979, p. 396.

يتنقلون من ملكية إلى أخرى، ومن منطقة إلى منطقة تبعا لحاجة تلك الحقول إلى اليد العاملة في مختلف المواسم الفلاحية (حصاد، جني الزيتون أو الكروم...)، كما سنرى بعد قليل[48].

وفي الواقع، لم يكن تركيز الملكية العقارية ظاهرة جديدة[49] ولا خاصة بافريقيا، ولكنها اتخذت في القرن الرابع طابع الحدة، فقد أصبح المالك يتحكم بالتدريج في مصير فلاحيه وأيضا في سكان بلدته من الملاك «البرجوازيين» («الكورياليين» curiales)، بل امتد نفوذه ليشمل أولئك الذين لم تكن حرفتهم تربطهم بالأرض ربطا مباشرا أي بعض التجار والصناع وأصحاب المهن الحرة[50].

وثمة حدث كبير عرفه نظام ملكية الأراضي في القرن الرابع، وهو تزايد أهمية العقار الذي أصبح بيد الكنيسة المسيحية. اتسعت تلك العقارات بفضل الهبات التي كانت تتلقاها من المؤمنين الأثرياء، أو ترثها منهم، وأيضا بسبب دخول بعض الأغنياء في سلك رجال الدين وتقديمهم بعض أملاكهم وثرواتهم هبة إلى الكنيسة. وقد اعترفت الدولة شيئا فشيئا بحقوق الكنيسة في امتلاك العقار، بل واستفادت هذه الأخيرة من هبات الامبراطور، كما يتجلى مثلا في بناء قسطنطين كنيسة للكاثوليك حوالي سنة 330 بمدينة القسنطينة (بالجزائر)[51]، ومن الهبات التي أرسلها قسطنس إلى الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية لتوزيعها على الفقراء في سنة 347[52]. كما كانت الكنيسة تطالب باعفائها من أداء الضرائب، ومن الأعباء البلدية (munera). فحصلت على إعفاء رجالها من الضريبة الفردية (ضريبة الرأس

(48) أدناه، ص 76–77.

(49) منذ نهاية القرن الثاني يتحدث الكاتب Apuleius من مدينة Madaourous (مادوروش بتونس) في قصة «التحولات» (Métamorphoses) عن مالك كبير يستحوذ بالخدعة أو بالعنف على أراضي جيرانه، ويخضعهم لجبروته. وفي أواسط القرن الثالث، يؤكد القديس «قبريانوس» ان «الأغنياء يضمون الضيع إلى الضيع، ويطردون الفقراء من حدود ملكياتهم، ويتوسعون بدون حد ولا قيد».

- Picard, G.C., **La Carthage...**, op. cit., p. 134.

(50) - Picard, G.C., ibid, pp. 136-137

(51) أدناه، ص 207.

(52) أدناه، ص 213 وما بعدها.

capitatio)، ومن أعباء البلديات (munera)، ولكن الدولة رفضت إعفاء الكنيسة من الضريبة العقارية. وربما بدأ الأباطرة يتخوفون من تزايد نفوذ الكنيسة وثرائها، إذ أصبحت تكون نوعا من «دولة داخل الدولة»، ولذلك حاولوا أحيانا الحد من هذا الثراء، فحظر Valentinianus عليها قبول الهدايا والارث من النساء، ومنع على الأغنياء الالتحاق بسلك رجال الدين(53).

إذا كانت الملكيات الكبرى تشغل مساحات مهمة من أراضي أفريقيا فإن ذلك لا يعني انعدام طبقة من المزارعين. فقد كان الملاك ــ أو من يقوم مقامهم ــ لا يقومون باستغلال مباشر إلا في جزء صغير من أراضيهم. أما الجزء الأكبر، فكانوا يسندونه إلى مزارعين بالحصة coloni حسب نظام نعرفه جيدا بفضل ما يسمى بـ«الكتابات المنقوشة الكبرى» «Les Grandes Inscriptions» وهي كتابات عثر عليها في حوض المجردة (بتونس) تتعلق بوضعية أولئك المزارعين في ضيعات الامبراطور بتلك الناحية خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد(54). ويستفاد من

(53) Piganiol, A., **L'Empire Chrétien...**, op. cit., p. 406 -

عن ثروة الكنيسة الافريقية، وقوتها الاقتصادية، انظر :

- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, op. cit., pp. 138-141.

في ابرشية Hippo (ابرشية أغسطين) تطلبت إدارة أملاك الكنيسة إنشاء هيأة من «المحاسبين» Praepositi ينتمون إلى سلك رجال الدين (نفس المرجع، ص 139).

(54) تم اكتشاف هذه الكتابات ما بين سنتي 1880 و1906. والكتابات أربعة :

1 ــ نقش هنشير مطيش : يرجع إلى سنتي 116−117 (C.I.L., VIII, n° 25902) وهو عبارة عن تسوية قانونية أصدرها الوكيل الامبراطوري (procurator) في شأن فلاحي إحدى الضيعات الامبراطورية Villa Magna Varianae، وذلك حسب قانون «مانكيانا» Lex Manciana.

2 ــ نقش عين الجمالة : يرجع إلى عهد «هادريانوس» (C.I.L., VIII, n° 25943) وهو عبارة عن مراسلة بين وكلاء الامبراطور (procuratores) وفلاحي ضيعتي : Blandianus وUdensis.

3 ــ نقش سوق الخميس : يرجع إلى سنة 182 (C.I.L., VIII, n° 10570) : ملف لمراسلة بين مزارعي ضيعة Burunitanus والامبراطور «كمودوس» يشتكون إليه من جور الوكلاء و«اكار الضيعة» conductor وينصفهم في حقوقهم حسب قانون «مانكيانا».

4 ــ نقش عين واسل : يرجع إلى حوالي 198−211 (C.I.L., VIII, n° 26416) يتضمن تسوية في نفس الموضوع.

الدراسات التي تمت حول هذه الكتابات عديدة. انظر في نهاية المطاف مختصرا لتلك الدراسات عند : =

تلك الكتابات أن نظام الاستغلال في تلك الأراضي كان يخضع لتنظيم هرمي نجد في قمته المالك أي الامبراطور، وفي قاعدته المزارعين الذين يباشرون العمل في الحقول. ويشرف على إدارة كل الأملاك الامبراطورية في مجموع الإقليم وكيل Procurator عام مستقر بقرطاج ومعين من قبل الامبراطور. أما إدارة كل ضيعة، فتسند إلى وكيل procurator أقل شأنا، يشرف على السير العادي للإنتاج وتطبيق قوانين العمل في ضيعته. أما الاستغلال، فيسند إلى «أكارين» Conductores يكترون من الامبراطور حق استغلال الضياع لمدة معينة : خمس سنوات[55]. غير أن هؤلاء الأكارين لا يستغلون مباشرة سوى جزء من الضيعة، ويسندون الباقي إلى مزارعين بالحصة : coloni[56].

وكانت وضعية هؤلاء المزارعين محددة بقانون «مانكيانا» Lex Manciana[57] الذي يخول لهم بعض الحقوق ويفرض عليهم بعض الواجبات. فقد كان عليهم أن يسلموا إلى «اكار الضيعة» Conductor أثاوات متنوعة[58]، وبصفة خاصة

=

- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, op. cit., p. 371-72; n. 2.

ومن أبرز المهتمين في السنوات الأخيرة : J. Kolendo

- Kolendo, J., Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine, **R.E.L.**, 1963, pp. 80-103.
- Idem, Le problème du développement du colonat en Afrique romaine sous le Haut-Empire, dans : **Terre et paysans dépendants dans les sociétés antiques**, Paris, 1979, pp. 391-417.

(55) - Kolendo, J., Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine, **R.E.L.**, 1963, p. 83.

(56) رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية...**، مرجع سابق، ص 397.

(57) لا يعرف بالضبط الأصل في هذه التسمية. ويفترض أنها مشتقة من اسم T. Curtilius Mancia الذي ربما كلفه الامبراطور «فسباسيانوس» Vespanianus (70–79م) بمهمة تنظيم «أراضي الدولة» (Ager publicus) في افريقيا.

- Saumagne, Ch., et autres, **Tablettes Albertini. Actes privés de l'époque vandale** (Fin du V^{e} s.), Paris, Arts et Métiers Graph., 1952, p. 141.

كان اصطفيان كزيل يعتقد أن «القانون المنكياني» يرجع إلى عهد قيصر.

- Gsell, St., **H.A.A.N.**, t. VII, p. 86 et t. VIII, p. 167.

أما رستوفتزف فأرخه من عصر «تريانوس» Trajamus (98–117). **تاريخ الامبراطورية الرومانية...**، مرجع سابق، ص 274).

(58) بالإضافة إلى الحصة وأعمال السخرة (انظر الهامشين التاليين) كانت هناك : =

قسطا معلوما من المحصول الفلاحي : Partes يكون في القاعدة العامة الثلث[59]، وكان عليهم أيضا أن يعملوا مجانا لعدد معين من الأيام في الجزء المخصص من الضيعة (السخرة : Operae)[60]. وفي مقابل ذلك، كان لهم حق التمتع بقطعهم الأرضية والمساكن التي أسندت إليهم فيها، بل كان في إمكانهم أن ينقلوا هذا الحق إلى طرف آخر اما بالبيع وإما بالإرث. وتكمن أهمية هذا «القانون المنكياني» (Lex Manciana) في كونه لم يكن ينظم استغلال أراضي الامبراطور فقط، ولكنه كان معمولا به أيضا في أملاك الخواص[61]. كما ترجع أهميته إلى أنه استمر في الوجود حتى وقت متأخر، كما يبدو من «ألواح البرتني» «Tablettes Albertini» التي عثر عليها في ناحية طبسة (بالجزائر) والتي تتحدث عن فلاحين «مانكيانيين» cultores manciani

---

= أ ـــ أثاوات تؤدي نقدا: مثلا في نقش «هنشير مطيش» (C.I.L., VIII, n° 25902, III, 17 ss) تؤدى 4 «آسات» (as) على كل رأس من الماشية ترعى في الضيعة.

ب ـــ «هدايا» تقدم إلى المالك أو إلى اكار الضيعة كما يظهر في «فسيفساء السيد يوليوس» (عن هذا الفسيفساء، انظر أعلاه، ص 51)، حيث نرى المزارع يسلم إلى السيد «هدية» عبارة عن فواكه وخروف ودواجن.

- Kolendo, J., in **Terre et paysans dépendants...**, op. cit., pp. 403-404.

(59) - Kolendo, J., ibid, p. 401

كانت هناك استثناءات على ما يبدو :

أ ـــ حسب نوع المحصول : مثلا : ربع أو خمس الإنتاج من الفول، «سكتاريوس» واحد Sextarius (= 0،55 لتر = 0،78 كغ) من العسل على كل خلية من النحل.

- Kolendo, J., ibid, p. 402 et n. 39, p. 415.

ب ـــ حسب نوعية الأرض. - Kolendo, J., ibid, p. 402

(60) لم يكن عدد أيام السخرة موحدا في كل الضيع التي نعرفها من النقوش، ولكنه كان ـــ على ما يبدو ـــ يتراوح ما بين ستة واثني عشر يوما في السنة :

أ ـــ في ضيعة Villa Magna Varianae (نقش هنشير مطيش) وفي ضيعة Saltus Burunitanus (نقش سوق الخميس) : 6 أيام : 2 في إبان الحرث، و2 في الحصاد، و2 في العزق (اقتلاع الأعشاب الرديئة).

ب ـــ في ضيعة أخرى (نقش قصر مزوار : C.I.L., VIII, n° 14428) : 12 يوما : 4 في الحرث، و4 في الحصاد، و4 في العزق.

- Kolendo, J., ibid, p. 402.

(61) - Kolendo, J., ibid, p. 404.
- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, op. cit., p. 63.

في تلك المنطقة على عهد الوندال (نهاية القرن الخامس)[62].

يبدو إذن أن وجود ملكيات شاسعة لم يكن يتنافى مع بقاء استغلاليات صغيرة بيد طبقة من الفلاحين الصغار. وربما تعززت هذه الاستغلاليات الصغيرة بمنح الدولة تسهيلات وامتيازات للمزارعين الذين يرغبون في استغلال المناطق التي لم يشملها المسح بسبب عدم ملاءمتها للزراعة كالمستنقعات والأدغال والسهوب (Subscessivae)، أو المناطق التي استنزفتها زراعة كثيفة للحبوب، أو التي أهملها أصحابها لقلة خصبها أو بعض أراضي الرعي. ففي تلك الأراضي، كانت مقتضيات القانون الذي أصدره «هادريانوس» : Lex Hadriana تنص على أن المزارعين كان بإمكانهم القيام بالزراعة في تلك البقاع، وخاصة غرس الأشجار (الزيتون والكروم)، وتعطيهم حق التمتع في تلك القطع المستصلحة مع امكانية توريثها أو بيعها، وتعفيهم بالإضافة إلى ذلك مع دفع الضرائب والحصة طيلة المدة اللازمة لأثمار الشجر[63]. لكنها تربطهم بالمالك الكبير (الامبراطور أو الخواص) أو اكار الضيعة الذي توجد قطعتهم الأرضية بملكيته أو بجوارها، فيكون عليهم ما على المزارعين بالحصة حسب «القانون المنكياني»[64].

غير أن وضعية المزارعين الأفارقة لم تلبث أن تدهورت في القرن الرابع، شأنهم

---

(62) هي ألواح خشبية كتبت بالمداد (45 لوحة) تم العثور عليها في سنة 1928، جنوب طبسة ونشرها العالم الفرنسي E. Albertini، لأول مرة، ومن ثم عرفت باسمه.

- Albertini, E., Actes de vente du V^{e} siècle trouvés dans la région de Tebessa (Algérie), J.S., 1930, pp. 23-40.

هذه الألواح ترجع إلى فترة ما بين 493 و496 على عهد الملك الوندالي كنتمند Gunthamund (485-496). وهي عبارة عن عقود بيع وشراء تتعلق باستغلالية كبيرة كانت في ملك رجل يدعى : Flavius Geminius Catullinus وكانت هذه الملكية تتكون من عدد من الضيعات fundi (أربعة على الأقل)، كل ضيعة مجزأة إلى عدد كبير من القطع الصغيرة (أصغرها لا تضم إلا شجرة زيتون واحدة، وأكبرها لا تتعدى 36 شجرة). ونظرا لصغر حجمها، فإنها كانت في الغالب مجمعة، بحيث كان المزارع الواحد colonus) يستغل عددا منها. وكان بوسع المزارع أن يورثها أبناءه أو يبيعها حسب مقتضيات قانون «مانكيانا».

(63) هي غير مقتضيات «الحكر» (Emphyteosis) الذي كان يتعلق باكتراء الأغنياء أراض شاسعة في القرنين الرابع والخامس (أعلاه، ص 55). ويتعلق الأمر هنا ـــ على العكس ـــ بمزارعين كانوا يستصلحون قطعا صغيرة حسب «القانون المانكياني» نفسه.

(64) **- Kolendo, J., Sur la législation..., R.E.L., 1963, p. 95**

في ذلك شأن بقية المزارعين في الامبراطورية الرومانية المتأخرة. ذلك أن العالم الروماني كان في القرن الرابع أشبه ما يكون ببلاد في حالة الطوارىء، والكل مجند للقيام بمهمته في مكان ولادته وفي مرتبته الأصلية، لا يستطيع الفرار من وضعيته. وعلى الخصوص، منع الفلاح من مغادرة أرضه منعا باتا[65]، فأصبح غير حر في تحركاته[66]، وإن كان قد احتفظ بحرية مبدئية تقيم الفرق بينه وبين العبد. وكان تدهور وضعية المزارعين في إفريقيا ملحوظا بقدر ما كانت لهم من امتيازات سابقة خولها لهم «قانون مانكيانا» وضمنتها لهم حماية الامبراطور[67]. أصبحت تلك الضمانات التي تمتع بها المزارعون سابقا عبارة عن أغلال تقيدهم إلى الأرض في القرن الرابع[68]. ويعرف أغسطين المزارعين coloni بأنهم «أولئك الذين كانت وضعيتهم في مسقط رأسهم تفرض أن يفلحوا الأرض تحت سلطة المالك»[69]. ونجد تعبيرا مشابها لهذا التعريف في حق المزارعين الذين تتحدث عنهم «ألواح البرتيني»[70]. وفي قانوني هنوريوس لسنتي 412 و414، والمتعلقين بالقضاء على الدوناتية في افريقيا، نرى أن وضعية المزارعين لم تكن تختلف كثيرا

(65) قانون 357 يمنع المالك من فصل المزارع عن أرضه.

- **Cod. Theod.**, XIII, 10, 3; ap. Piganiol, A., **L'Empire Chrétien,** op. cit, p. 305.

لكن منذ 332، نص أحد القوانين على أن كل مالك وجد عنده مزارع كان يعمل في ضيعة مالك آخر، فعليه ارجاعه إلى «أصله» (origini sua). بل ان هذا القانون يفترض وجود قانون سابق يقضي بأن المزارع مربوط إلى «أصله» (origo).

- **Cod. Theod.**, V, 17, I; ap. Piganiol, A., ibid, p. 306 et n. 4.

(66) لا يبيع ممتلكاته إلا بإذن من سيده، منذ سنة 365 (**Cod. Theod.** V, 19, I) ولا يقيم الدعوى على سيده، حسب قانون 396 (**Cod. Theod.**, V, 19, 2).

- Piganiol, A., ibid, p. 305.

(67) تستفاد تلك الحماية من نقش سوق الخميس (C.I.L. VIII, n° 10570)، الذي هو عبارة عن شكوى رفعها مزارعو إحدى الضيع الامبراطورية (Saltus Burunitanus) إلى الامبراطور «كمودس» Commodus. يشكون فيها من تصرف «اكار» تلك الضيعة (conductor) الذي حاول بتواطؤ مع «وكيل»، الامبراطور (procurator) أن يزيد في قيمة الإثاوة ومدة السخرة. فأقرهم الامبراطور في حقهم وحدد حقوق «الاكار» في الإثاوة ومدة السخرة.

(68) - Picard, G.C., **La Carthage...**, op. cit., p. 140

(69) - Aug. **De ciuitate Dei**, X, I : «Appelantur coloni, qui condicionem debent genitali solo, propter agriculturam sub dominio possessorum».

(70) - «parti cellae agrorum ex culturis suis mancianis sub dominio Fl. Gemini Catullini...»; ap. Kolendo, J., Sur la législation..., p. 101.

عن وضعية العبيد في افريقيا. ففي قانون 412، نجد أن المشرع ــ بعد أن حدد قيمة الغرامات المالية المتوقعة في حق الفئات الحرة ــ نص على إيداع العبيد سجن أسيادهم، ومعاقبة المزارعين بالعدد الكافي من الجلدات[71]. وفي قانون 414، نجد العبيد والمزارعين كلهم خاضعين لنفس عقوبة الجلد[72].

لقد كان الاتجاه العام، هو تثبيت الفلاحين في أرضهم حتى يتسنى استغلال تلك الأراضي. ومن غير شك أن العديد من المزارعين ومن العبيد غادروا المزارع في خضم الفوضى التي عمت الامبراطورية في القرن الثالث، ومن ثم القوانين المتشددة التي تمنع الملاك من «الاستحواذ» على مزارعي غيرهم[73]. أصبحت لليد العاملة أهمية تضاهي أهمية الأرض، وهذا ما يفسر أن الإصلاح الجبائي الذي تم في عهد ديقليديانوس كان يعتبر العامل جزءا من الضيعة، وأن الوحدة الجبائية كانت تأخذ بالاعتبار الفدان والعامل معا : نظام Jugatio - capitatio (حسب الفداين وحسب الرؤوس)[74]. ومن ثم أيضا محاولة تثبيت العمال الفلاحيين المتنقلين في افريقيا.

يبدو إذن أن طريقة تأجير الأرض إلى مزارعين بالحصة كانت هي السائدة في افريقيا على العهد الامبراطوري، خاصة في الملكيات الكبرى Saltus التي كانت بيد الامبراطور أو الخواص[75]. بل يبدو أن نظام المزارعة تعمم شيئا فشيئا على العبيد، بحيث أسندت إلى بعضهم قطع أرضية يستغلونها في مقابل أداء إتاوة أو حصة معلومة من الإنتاج[76].

---

(71) انظر أدناه ص 88.

(72) انظر أدناه، ص 90 وما بعدها.

(73) قانون 332 (أعلاه، ص 74، هـ 65).

(74) ليس هناك اتفاق تام بين المختصين حول كيفية تطبيق هذا النظام الجبائي المزدوج. وربما كانت هناك فوارق حسب الأقاليم، وحسب نوعية الأراضي. انظر : رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية...**، ص ص 622-623.

- Piganiol, A., **L'Empire Chrétien...**, op. cit., pp. 371-374.
- Petit, P., **Histoire générale de l'Empire romain**, op. cit., t. III, pp. 30-32.

(75) - Kolendo, J., Le problème du développement du colonat..., p. 399

(76) - Csell, St., Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine, **Mélanges Gustave Glotz**, t. I, Paris, P.U.F., 1932, p. 411, n. 4 et p. 412.
- Kolendo, J., Le problème du développement du colonat..., p. 398.

تتفق الدراسات على أن عدد العبيد تناقص في العالم الروماني على عهد الامبراطورية، لا لكون المسيحية كانت تحارب المؤسسة نفسها، ولكن لكون عمل العبيد أصبح غير مربح بالمقارنة مع أشكال أخرى من العمل، وخاصة المزارعة(77). وفيما يخص افريقيا، يبدو أن هناك اجماعا بين الباحثين على اعتبار أن عمل الرقيق في الضيعات كان له دور ضئيل. ويلاحظ Gsell في نهاية دراسته «للعبيد الفلاحيين في افريقيا» ان الفلاحين الأحرار كانوا كثيرين في افريقيا على العهد الروماني(78). ويرى Picard أن كبار الملاك الإيطاليين كانوا يستخدمون العبيد في ضيعهم الافريقية حتى عهد «نيرو» Nero (54–68م) الذي قام بمصادرة أراض شاسعة منهم. لكن، بعد ذلك، أخذ المزارعون بالحصة (حسب القانون المنكياني) مكانة العبيد في الإنتاج. ومن الممكن اعتبار أن العبد الفلاحي بدأ يختفي من الضيع الافريقية ابتداء من أواخر القرن الثاني للميلاد(79). ويذهب أحد الباحثين إلى أن أهمية ظاهرة الرقيق كانت في افريقيا شبه منعدمة، وأن عدد الرقيق في هذا الإقليم كان أقل مما كان عليه في الأقاليم الغربية من الامبراطورية (غاليا، ايبريا، ايطاليا) بعشر مرات على الأقل(80).

طبعا، ذلك لا يعني عدم وجود عدد كبير من العبيد في افريقيا في الفترة التي تهمنا (القرنين الرابع والخامس). ويقول أغسطين أن العبيد كانوا موجودين في «كل منزل»(81)، وأن الحروب التي كانت قائمة في المناطق الثائرة من افريقيا كانت توفر عددا من الأسرى العبيد(82). ونعرف من وثيقة ترجع إلى أواسط القرن الرابع أن موريطانيا كانت تصدر العبيد إلى الأقاليم الأخرى(83) ونعرف

---

(77) - Piganiol, A., **L'Empire Chrétien...**, op. cit., pp. 304 et 448-450
ومع ذلك، فإنها ساعدت على تلطيف وضعية العبيد من جهة، وكانت تحث على اعتاقهم من جهة أخرى.

(78) - Gsell, St., Esclaves ruraux..., op. cit., p. 415

(79) - Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine...**, op.cit, pp. 148-129

(80) - Pereira-Menaut, G., in : **Terre et paysans dépendants...**, op. cit, (Discussion de la communication de Kolendo), pp. 419-420.

(81) - Aug., **Enarr. in Psalm.**, 124, 7; Gsell, St., Les esclaves ruraux, op. cit., p. 400

(82) - Aug., **Ep.** 199, 12 ; Gsell, St., ibid, p. 398

(83) - **Expositio totius Mundi**, 60; ap. Gsell, St., ibid, p. 400

أيضا أن «القديسة ميلانيا الصغرى» اعتقت آلاف العبيد في أراضيها بافريقيا قبل أن تغادر البلاد سنة 417[84]. غير أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يعملون في المنازل وفي الصناعات اليدوية سواء في المدن أو في الضيع[85] (الفيلات : villae)، والبعض الآخر كان يعمل في رغي الماشية[86] أو في زراعة الجزء الخاص من الضيع الذي لم يوزع على المزارعين والذي كان المالك أو اكار الضيعة يستغله استغلالا مباشرا[87].

ويبدو أن معاملة الأسياد للعبيد في الأرياف خاصة كانت سيئة في كثير من الأحيان. فبالإضافة إلى الضرب والسجن والتكبيل بالأغلال[88]، كان بعض الأسياد يضعون في عنق عبيدهم أطواقا عثر على بعضها، وقد نقشت على تلك الأطواق عبارات تطلب ممن عثر على العبد أن يرجعه إلى صاحبه بالعنوان المكتوب على الطوق[89]. وكأن من شأن تلك المعاملة أن تدفع ببعض العبيد إلى الفرار من أسيادهم[90]. واللجوء إلى «الدوارين» للاحتماء بهم[91].

وإذا كان عمل العبيد في الفلاحة لا يمثل أهمية تذكر إلا في الأجزاء الخاصة من الضيعات، فإنه لم يكن كافيا حتى في ذلك القطاع بحيث التجأ الملاك واكارو الضيعات إلى العمال الأحرار الموسميين[92]. ويرى Picard أن تزايد السكان في

---

(84) - Vita S. Melania Giuniore, 34; ap. Gsell, St., ibid, p. 402

(85) - Gsell, St., ibid, p. 404.
- Hamman, A.G., **La vie quotidienne en Afrique du Nord, au temps de Saint-Augustin**, Paris, 1979, p. 134.

(86) - Gsell, St., op. cit., p. 406

(87) - Gsell, St., ibid, p. 405

(88) - Aug., **Sermo** 161; ap. Hamman, A.G., op. cit., p. 133

(89) الطوق الذي عثر عليه في عنق هيكل عظمي لامرأة من Bulla Regia (حمام الدراجي بتونس) يحمل النقش التالي : «ادولترا Adultera» (اسم المرأة) عاهرة، اقبض علي، لقد فررت من «بولا ريجيا» :

«Adultera, meretrix, tenequia fugibi de Bulla Regia».
cité d'après Picard, G.C., **La civilisation...**, op. cit., p. 150.

(90) - Aug., **Ep.** CVIII, 6, 18

(91) انظر النص 42 في الملحق : Aug., **Ep.**. CLXXXV, IV, 15 -

(92) - Gsell, St., op. cit., p. 405 et n. I

افريقيا وفر للملاك حشودا مهمة من العمال المياومين، الشيء الذي أعفاهم من اللجوء إلى العبيد(93). ومهما يكن، فيبدو من الراجح أن نسبة عمل العبيد كانت ضعيفة بالمقارنة مع العمل الحر في الفلاحة.

ويكتسي العمل الحر أهمية خاصة في افريقيا. وهو في نفس الوقت ظاهرة قديمة. ذلك أنه منذ الفترة القرطاجية، كان الملاك يلجؤون إلى عمال فلاحيين أحرار لإنجاز بعض الأعمال الفلاحية التي لا تقبل الانتظار كالحصاد وقطف العنب والزيتون(94). وقد استمرت تلك الظاهرة في الوجود حتى عصرنا الراهن، حيث يتجه بعض العمال من مناطق أقل خصبا في كثير من الأحيان إلى المناطق المجاورة (وأحيانا البعيدة) للعمل في الحقول، وخاصة في وقت الحصاد (سكان بعض المناطق في جبال الريف يتوجهون إلى السهول الأطلسية).

ونعلم وجود مثل هؤلاء العمال في الفترة الرومانية من خلال نقش عثر عليه في مكتر بتونس(95). وهو عبارة عن كتابة يحكي فيها أحد الحصادين مراحل حياته :

«البيت الذي ولدت فيه كان بيتا فقيرا. أبي كان رجلا فقيرا : لا ريع له ولا دار. ولدت في الحقول، وعشت في الحقول. طلبت من الحقول معاشي اليومي : فلم نرتح لا أنا ولا الحقول. عندما كانت الأرض تهب محصولها الناضج، كنت ــ أنا الأول ــ أتقدم لحصد السنابل. عندما كانت فرقة الرجال الذين يحملون المناجل تتحرك عبر الأرياف متجهة إلى سهول «قرطة» النوميدية أو إلى حقول جوبطير(96)، كنت ــ أنا، الحصاد ــ أتقدمهم وأسبقهم في العمل. ورائي، كانت الحزم الكثيفة تتجمع. تحت الشمس المحرقة، حصدت اثنا عشر حصادا. نلت باجتهادي أن أصبحت رئيس فرقة : وخلال إحدى عشرة سنة، قدت فرق الحصادين، وحصدت يداي سهول نوميديا. هذا الكد وهذه الحياة المتقشفة جعلا

(93) - Picard, G.C., **La civilisation...**, op. cit., p. 149

(94) - Varro, **De Rustica**, I, 17, 2-3; ap. Gsell, St., **H.A.A.N.**, t. II, p. 300, n. 3; et t. IV, pp. 47-48

(95) - C.I.L., VIII, n° 11824

(96) حقول جوبيطر في البروقنصلية (زغوان)، حسب Picard :

- Picard, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, op. cit., p. 67.

مني مالكا، أعطياني دارا و«فيلا» villa، وفي بيتي، لا ينقص أي شيء. وبعدئذ قطفت ثمار المناصب. سجلت بدوري في قائمة أعضاء المجلس البلدي. أنا، الفلاح الصغير، أصبحت «مراقبا للاحصاء» consor. ثم رزقت أطفالا، ثم رأيت الشباب السعيد لحفدتي. عشت سنوات حياتي حسب ما كنت أستحق. لم تكدر صفوها نميمة أي نمام. فاعلموا، أيها الفانون، كيف تقضون حياتكم ببراءة. وهكذا استحق الموت المحترم ذلك الذي قضى حياة بلا غش»(97).

ويعطي هذا النص الدليل على أن هناك عددا مهما من العمال الأحرار الذين لا يملكون الأرض أو يملكون قطعة صغيرة غير كافية لاطعامهم، وبالتالي، فإنهم كانوا يجدون في العمل الموسمي موارد تكميلية لابأس بها. ويبرز النص أيضا أن هناك مناطق «مستوردة» لأولئك العمال. وفي حالة حصاد مكثر، فإن المناطق المستوردة هي «حقول جوبيطر» (سهول زغوان بتونس)، وسهول نوميديا، أي مناطق الملكيات الكبرى التي كانت بيد الامبراطور أو الملاك الكبار، والتي كانت

(97) - C.I.L., VIII, n° 11824

PAVPERE PROGENITVS LARE SVM PARVOQ PARENTE
CVIVS NEC CENSVS NEQVE DOMVS FVERAT
EX QVO SVM GENITVS RVRI MEA VIXI COLENDO
NEC RVRI PAVSA NEC MIHI SEMPER ERAT
ET CVM MATVRAS SEGETES PRODUXERAT ANNUS
N
DEMESSOR CALAMI TVC EGO PRIMVS ERAM
FALCIFERA CVM TVRMA VIRVM PROCESSERAT ARVIS
SEV CIRTAE NOMADOS SEV IOVIS ARVA PETENS
DEMESSOR CVNCTOS ANTEIBAM PRIMVS IN ARVIS
POST ERGVS LINQVENS DENSA MEVM CREMIA
BIS SENAS MESSES RABIDO SVB SOLE TOTONDI
DVCTOR ET EX OPERE POSTEA FACTVS ERAM
VNDECIM ET TURMAS MESSORVM DUXIMVS ANNIS
ET NVMIDAE CAMPOS NOSTRA MANVS SECVIT
HIC LABOR ET VITA PARVO CONTA VALERE
ET DOMINVM FECERE DOMVS ET VILLA PARATAST
ET NVLLIS OPIBVS INDIGET IPSA DOMVS
ET NOSTRA VITA FRVCTVS PERCEPIT HONORVM
IP
INTER CONSCR TOS SCRIPTVS ET IPSE FVI
ORDINIS IN TEMPLO DELECTVS AB ORDINE SEDI
ET DE RVSTICVLO CENSOR ET IPSE FVI
ET GENVI ET VIDI IVVENES CARO SQ NEPOTES
VITAE PRO MERITIS CLAROS TRANSEGIMVS ANNOS
QVOS NVLLO LINGVA CRIMINE LAEDIT ATROX
DISCITE MORTALES SINE CRIMINE DEGERE VITAM
SIC MERVIT VIXIT QVI SINE FRAVDE MORI.

في حاجة إلى يد عاملة إضافية في وقت الحصاد خاصة. ويبدو أن معظم العمال الموسميين كانوا من سكان المناطق الداخلية قليلة الخصب (سهوب الساحل التونسي، المناطق الداخلية شبه الجافة) الذين يتوجهون إلى المناطق الخصبة والرطبة بحثا عن مورد إضافي خاصة في سنوات الجفاف(98). غير أن سكان المناطق الجنوبية المتاخمة لليمس Limes (الحدود الرومانية) ربما أصبحوا يشكلون نسبة مهمة من العمال الفلاحيين الأحرار خاصة في الضيع الموجودة بتلك المناطق الجنوبية.

ونعرف من بعض رسائل أغسطين أن الملاك كانوا يلجأون إلى السكان الأصليين المتاخمين للحدود الرومانية (أي «المتبربرين» Barbari في اعتبار الرومان) لاستعمالهم في بعض الأشغال الفلاحية أو في مصاحبة قوافل المسافرين. ويتعلق الأمر بالمراسلة المتبادلة بين أغسطين و«بوبليكولا» Publicola — أحد الملاك الكبار وأخ القديسة «ميلانيا» الصغرى — ما بين 366 و396(99). ويذكر «بوبليكولا» أن «المتبربرين» Barbari كانوا يؤدون القسم بـ«شياطينهم» أمام بعض الملاك أو من يقوم مقامهم (أي اكارو الضيعات) قبل اسناد المهام إليهم، وان أولئك العمال كانوا هم أيضا — من جهتهم — يطلبون من مشغليهم أداء القسم بالالتزام. وفي رسالته الجوابية يؤكد أغسطين قيمة اليمين التي يقسم بها العمال «المتبربرون»، مضيفا أنه «إذا لم يعد بالإمكان الاعتماد على قسم أولئك الناس»، فلا يرى «بقعة من الأرض يمكن الإقامة بها، لأن «المتبربرين» يوفرون الأمن لا للحدود الرومانية فحسب، ولكن لكل الأقاليم أيضا». وتقع المنطقة التي يتحدث عنها «بوبليكولا» في بلاد «الأرزوج» Arzuges، التي توجد في جنوب الإقليم الطرابلسي، وبصفة عامة في جنوب الأقاليم الإفريقية طول «الليمس» الروماني(100). وتكتسي هذه

(98) - Picard, G.C., **La Carthage de Saint-Augustin**, op. cit., p. 140

(99) - **Ep.** XLVI et XLVII; **C.S.E.L.**, T. 34[2], p. 123 ss

(100) يطرح تحديد منطقة «الارزوج» مشكلا صعبا نظرا لعدم دقة المصادر. وقد تطرق «كورطوا» إلى هذا المشكل، واظهر بصفة مقنعة أن النص الأساسي هو نص «أروسيوس» - Orosius, **Adversus Paganos**, I, 2, 90 (C.S.E.L. V, p. 32-33) الذي يذكر أن الكلمة كانت تطلق على سكان الإقليم الطرابلسي (Tripolitana) وأيضا على القبائل المتناثرة على طول «ليمس» افريقيا.
=

الإشارة أهمية خاصة لأنها توضح بدون مراء أن الملاك الكبار والأكارين كانوا في حاجة إلى فائض من اليد العاملة، وأنهم كانوا لا يتورعون عن استعمال أشخاص لا تربطهم بهم وشائج الدين، وتؤكد من جهة أخرى أن الأفارقة الأحرار كانوا لا يجدون صعوبة في اختراق حاجز الحدود للبحث عن عمل في الضيعات أو في نقل البضائع واصطحاب المسافرين. وإذا كان معظم هؤلاء الأفارقة من المشركين كما تؤكده رسالة Publicola، فإن البعض الآخر بدأت تصيبه عملية التبشير التي كانت تقوم بها الكنيسة المسيحية، وخاصة الدوناتية التي كانت توجه جهودها إلى السكان غير المرومنين، وبصفة خاصة إلى الأراضي الجنوبية المتاخمة للحدود[101]. وربما وصل المطاف ببعض أولئك العمال إلى المناطق الشمالية. على أن معظم الموسميين كانوا على ما يبدو من سكان المناطق الداخلية، والذين لا

= - Courtois, Ch., **Les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 93 et n. 7.

وهذا يحل مشكل تناقض بعض المصادر بشأن الوضعية العقائدية السائدة عند «الارزوج» : إشارة أغسطين إلى أن الأرزوج كانوا من المشركين (في الرسالة المذكورة أعلاه)، وإشارات أخرى تدل على وجود حياة مسيحية متطورة في تلك المنطقة (إقليم كنسي هو إقليم Arzugitana الذي ورد ذكره في وثائق كنسية ترجع إلى أواخر القرن الرابع، ووجود انشقاق في صفوف الدوناتيين بذلك الإقليم إلخ...) - Courtois, Chr., ibid, p. 93

وفي رسالة أغسطين التي نحن بصددها، يبدو أن الأمر يتعلق بـ«الارزوج» الموجودين خلف الحدود الرومانية، بدليل أن «بوبليكولا» يذكر أن «الارزوج» كانوا يقسمون بـ«شياطينهم» أمام «الوكيل» Tribunus الذي يقود الحامية العسكرية على «الليمس». انظر أيضا عن «الارزوج» :

- Desanges, J., **Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil**, Dakar, 1962, p. 78-80.

الذي يرفض (على عكس «كورطوا» : **Les Vandales**..., p. 93, n. 8) أن تكون تسمية «الارزوج» قد وصلتنا على الشكل «المرازيك» التي هي قبيلة من قبائل الشطوط التونسية في الوقت الراهن. إذ يصعب تفسير اختفاء حرف الميم الأولى من كلمة «مرازيك»

- Desanges, J., op. cit., pp. 79-80.

والواضح بالفعل أن المرازيك أقرب إلى اللغة العربية.

(101) - Audollent, A., La diffusion du Christianisme en Afrique au Sud des territoires soumis à Rome, après le V[e] siècle, **C.R.A.I.**, 1942, p. 205.

من بين الأساقفة الدوناتيين الذين حضروا مناظرة قرطاج (411) الأسقف Victorianus الوافد من بلاد الارزوج.

- **Gesta**, I, 207; éd. Lancel, S., **S.C.**, n° 195, pp. 894-896.

كما يشير أغسطين حوالي 407-410 إلى أن الدوناتيين انشقوا على أنفسهم في تلك الناحية.

- **Ep.** XCIII, 8, 24; **C.S.E.L.**, t. 34², p. 469. Ap. Monceaux, P., **R.H.R.**, t. 63, 1911, p. 189.

يتوفرون على الأرض الكافية لعيشهم. ولا يستبعد أيضا أن تكون بعض المناطق الجبلية كالأوراس قد عرفت فائضا من السكان بدأ يتدفق على المناطق المجاورة[102]، حيث كان يجد العمل في الملكيات الكبرى. وأيا كان أصلهم، فإن أولئك العمال الموسميين كانوا ينتمون في أغلبهم إلى مناطق هامشية غير مرومنة أو قليلة التأثر بالقيم والعادات الرومانية. وبطبيعة الحال لم يكن تنقل تلك العناصر وعدم تباثها في مكان معين عاملا على ترومنها.

والراجح أننا هنا أمام شكل آخر من أشكال الفشل الذي منيت به سياسة روما في شمال افريقيا. فقد انبنت تلك السياسة على تثبيت السكان الرحل أو أشباه الرحل في أراضيهم عن طريق تحديد مجال كل شعب في أراضيه المخصصة له[103]، وكذلك عن طريق توفير الأرض لمن أراد استغلالها حسب «القانون المنكياني» وقانون «هادريانوس» المشار إليهما سابقا[104].

ولكن الظروف المضطربة وارتفاع قيمة الضرائب، واستحواذ الملاك على الأراضي وبسط نفوذهم بشتى الأشكال على سكان الريف، وخاصة عن طريق القرض الربوي[105]. كل ذلك كان يعوق عملية الاستقرار، إذ أصبحت ظروف المزارعين ظروفا قاسية، و لم يعد هناك أي شبه بين مزارعي القرن الثاني ــ الذين

---

(102) يبدو أن بعض الجبال كانت آهلة بالسكان.

- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 121.

ويرى «كورطوا» أن الدور الأول في الثورة على الوجود الروماني بافريقيا ظل بيد الرحل الصحراويين حتى أواسط القرن الثالث، ثم أصبح ذلك الدور بيد سكان الجبال بعد ذلك التاريخ. - Courtois, Chr., ibid, p. 124

(103) أعلاه، ص 68-69.

(104) أعلاه، ص 71-74.

(105) سنرى أن الدوارين كانوا يهاجمون بصفة خاصة «الدائنين» creditores حسب نص ابطاتوس (Optat, III, 4 = النص الأول في الملحق، 274). ويمكن أن نتصور أن أولئك «الدائنين» كانوا في الواقع يمارسون قروضا ربوية قاسية. ويبدو أن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يتعاطون «مهنة» القرض الربوي، ومن ثم، فقد نص أحد المجامع الكنسية (المنعقد بقرطاج في سنة 397) على تحريم ذلك.

- Hamman, A.G., **La vie quotidienne en Afrique du Nord au temps de Saint-Augustin**, Paris, 1979, p. 142.

كان باستطاعتهم التشكي إلى الامبراطور من جور الأكارين والوكلاء في الضيعات[106] — ومزارعي القرن الرابع الذين وضعهم القانون تحت رحمة الملاك، كما يتجلى من قانون هنوريوس الصادر سنة 412، والذي يترك لصاحب الضيعة معاقبة مزارعيه الدوناتيين بالضغط والتهديد والعقاب الجسدي (الجلد)[107]. لذا، فإن العديد من المزارعين أصبحوا من غير شك يغادرون الحقول، مما أدى إلى وجود أراض شاسعة رجعت إلى البور، خاصة في المناطق قليلة الخصب، التي كانت الضرائب فيها تقارب أو تتعدى المحصول الزراعي الممكن استخراجه. ويشير الكاتب الافريقي «لكطانتيوس» Lactantius[108] في بداية القرن الرابع إلى أن «عدد المستلمين للضرائب تجاوز بكثير عدد المؤدين لها، حتى أن المزارعين لما رأوا مواردهم قد نضبت بسبب كثرة الضرائب، هجروا حقولهم التي رجعت إلى البور»[109].

هكذا كانت الأوضاع في افريقيا في القرن الرابع حبلى بالاحتمالات، قابلة للتعبير عن نفسها بأي شكل. وفي هذا الإطار الاقتصادي والاجتماعي ينبغي — في اعتقادي — البحث عن ماهية الدوارين وطبيعة حركتهم. وفيه أيضا ينبغي البحث عن علاقتهم بالاضطرابات التي عرفتها الأرياف الافريقية، والتي كانوا يشكلون المحرك الرئيسي لها.

---

(106) كما رأينا أعلاه، ص 74، هـ. 67.

(107) Cod. Theod., XVI, 5, 52 (النص 57، أدناه، ص 348—352).

(108) من مواليد افريقيا حوالي سنة 250. اعتنق المسيحية حوالي سنة 300، ومات سنة 317. انتقل من افريقيا حيث كان يدرس البلاغة في مدينة سيكا Sicca (الكاف بتونس الحالية) إلى إيطاليا حيث أصبح ذا مكانة أدبية مرموقة. وكان مدرسا لأحد أبناء قسطنطين (Crispinus). من أهم كتبه «موت المضطهدين» «De Mortibus persecutorum» (انظر الهامش أدناه) الذي يعطي فكرة عن اضطهاد ديقليديانوس للمسيحيين (303—305).

(109) - Lactance, **De mortibus persecutorum**, VII, 3; éd. Moreau, J.P. S.C., n° 39, t. I, p. 85

الفصل الثاني

مـاهيـة الـدوارين

إن المشكل الأول الذي يعترض الباحث في حركة الدوارين هو تحديد معنى كلمة «دوارين» Circumcelliones ولا تأتي الصعوبة من جانب الاشتقاق اللغوي المحض، فالواضح أن الكلمة اللاتينية مركبة من جزءين : circum وcella[1]. والجزء الأول لا يشكل صعوبة : circum بمعنى (دائر) «حول». أما الجزء الثاني : cella، فمعناه الأول «هري» أو «مستودع المؤن» (من زيوت أو خمور أو حبوب)[2]. وبهذا المعنى، فإن «الدوارين» كانوا «أولئك الذين يدورون حول الاهراء». وهذا هو التعريف اللغوي الذي ظل متداولا بين معظم الكتاب[3]، مؤولين في هذا الاتجاه الاشتقاق الذي أعطاه أغسطين للكلمة : «كانوا يسمون بـ«الدوارين» لدورانهم حول «الاهراء»»[4]. أو أنهم : «... أولئك الذين يحومون حول «الاهراء الريفية» (cellas rusticanas) بحثا عن القوت، ومن ثم كانت تسميتهم بالدوارين...»[5].

غير أن السنين الأخيرة، حملت تفسيرين جديدين لمعنى cella فرأى العالم الانجليزي Frend أن «cellas rusticanas» الواردة في نص أغسطين لا تعني

---

(1) - Gaffiot, F., **Dictionnaire Latin-Français**, Paris, 1934, p. 308, (col. 3) : circelliones et circumcelliones : circum, cella.

(2) - Ibid, p. 285 (col. 2) : «Cella : 1° endroit où l'on serre quelque chose, magasin, cellier».

(3) نذكر من أهمهم :

- Monceaux, P., **H.L.A.C.**, t. IV, p. 180.
- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, Paris, 1955, p. 144, n. 4.
- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 332, n. 4.
- Warmington, B.H., **The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest**, London, 1954, pp. 84-85.

(4) Aug., **Enarr. in Psalm.**, 132, 3

(5) النص 48 في الملحق، كذلك أدناه، ص 95. (النص يرجع إلى حوالي 420).

«الاهراء الريفية» وإنما «أضرحة الشهداء الريفية» التي كانت متناثرة في بوادي نوميديا وموريطانيا، وبالتالي فإن الدوارين كانوا فرقة من الدوناتيين يرتادون تلك «الأضرحة الريفية» للتبرك بدخائر الشهداء ورفاتهم[6] و«يبحثون عن قوتهم» فيها لأنها كانت تتوفر غالبا على مستودعات غذائية كشف علم الآثار عن بقاياها[7].

أما الأطروحة الثانية، فقد صاغها الباحث الإيطالي S. Calderone في مقال حديث له (1967). ويعتبر هذا الباحث أن الدوارين كانوا نوعا من نساك أو رهبان يتجولون بين الأديرة. ومن هذا المنطلق، فإن المقصود بـ : cella هو «بيت الراهب»[8].

فالواضح إذن أن الاتفاق لم يتم بعد بين الباحثين حول تسمية الدوارين نفسها. ويرجع هذا الاختلاف ـــ حسب ما يبدو ـــ إلى تباين الآراء حول نشاطات الدوارين وحول طبيعة حركتهم، إذ لازالت هذه الحركة نوعا من لغز ومحل تساؤلات.

والجدير بالذكر أن مختلف هذه الآراء ترتكز أساسا على نصوص الكتاب الكاثوليك (المعاصرين لحركة الدوارين أو اللاحقين الذين نقلوا عنهم)، وبصفة خاصة على كتابات «القديس أغسطين» ضد الدوناتية. والحال أن الكتاب الكاثوليك كانوا يعتبرون حركة الدوارين جزءا لا يتجزأ من الانشقاق الدوناتي. وان الدوارين كانوا قبل كل شيء «عساكر» الدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا، فإنهم لم يتحدثوا عن الدوارين إلا في إطار جدلهم الكلامي مع خصومهم الدوناتيين[9]. ومن ثم، فإن اللهجة التي استعملوها في حديثهم عن الدوارين كانت لهجة تحقير وازدراء تصل في بعض الأحيان إلى القذف

(6) - Frend, W.H.C., The Cellae of the african Circumcellion, **J.T.S.**, 1952, pp. 89-90
- idem, **The Donatist church. A movement of protest in Roman North, Africa**, Oxford, Clarendon Press, 1952, p. 173.

(7) - Frend, W.H.C., circumcellions and monks, **J.T.S.**, Vol. II, New Series, pp. 546-548
سنرجع إلى هذه الأطروحة تفصيلا، أدناه، ص 113 وما بعدها.

(8) - Calderone, S., Circumcelliones, **Parola del Passato**, Vol. II, Fasc. CXIII, 1967, pp. 94-109 (p. 102).
انظر أيضا أدناه، ص 106 وما بعدها.

(9) كما أشرت في دراسة المصادر، أعلاه، ص 28.

والسب اللاذعين[10]. وتمنع من الوقوف على ما يمكن أن يتعلق بظروف عيش الدوارين وتكوينهم الاجتماعي ونشاطهم الاقتصادي. لذا فإن أغسطين نفسه ــ وهو الذي عاصر شطرا مهما من تاريخ الحركة، وخصص فقرات متعددة من مؤلفاته للتنديد بالدوارين ــ لا يشفي الغليل في هذا المجال، بما أنه ترك الباب مفتوحا ــ حتى في التعريف الذي أعطاه للدوارين ــ لعدة تساؤلات وتأويلات إذ اكتفى في تعريفه للدوارين بالإشارة إلى الاشتقاق اللغوي : circum cella كما رأينا قبل قليل.

ومع أنه لا مناص من الرجوع إلى النصوص الكاثوليكية ــ وكتابات أغسطين بالذات ــ، «لالتقاط» بعض المعلومات عن الدوارين ومحاولة تجريدها مما علق بها من أسلوب الجدل الكلامي وتعابير القدح والشتم، فإننا نرى من الأفضل الانطلاق من وثيقة بعيدة عن جو الجدل الكلامي، وجديرة بكل الاعتبار من الجانب الذي نحن بصدده (أي التعريف بالدوارين)، بما أنها وثيقة رسمية صادرة عن البلاط الامبراطوري. ويتعلق الأمر بقانون هنوريوس Honorius[11] الصادر بتاريخ 30 يناير 412، بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة الحضرية المنعقدة بين الكاثوليك والدوناتيين في قرطاج سنة 411[12]. ويحدد هذا القانون قيمة الغرامات المالية والعقوبات المزمع تطبيقها على الدوناتيين الذين لم يلتحقوا بـ«الوحدة» الكاثوليكية. وينص القانون على ما يلي :

«اعتبارا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين ــ سواء

(10) أدناه، ص 119.

(11) هنوريوس Honorius : هو ابن الامبراطور ثيدوسيوس Theodosius (379–395) ولد في 9 سبتمبر 384، ومنحه أبوه لقب «أغسطس» (شريك في الحكم) في يناير 293. وعند وفاة ثيدوسيوس (17 يناير 395)، تقاسم مع أخيه «اركاديوس» Arcadius (395–408) حكم الامبراطورية فكان من نصيبه القسم الغربي منها. كان ضعيف الشخصية أما الجنرال الوندالي Stilicho الذي كان يمارس الوصاية عليه (395–408)، ثم أمام القوطي Alaric الذي نهب روما سنة 410، ثم الجنرال الروماني Flavius Constantinus (410–421). وتوفي هنوريوس في 423، وترك الامبراطورية الغربية ضعيفة أمام مغتصبي الحكم وهجمات الشعوب المتبربرة.

(12) عن مناظرة قرطاج، انظر دراسة المصادر، أعلاه.

منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة ـــ بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها منتهكين الحرمات، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا وذلك حسب ما يأتي : «المشاهير» Inlustres : 50 رطلا من الذهب، «الاشراف» : Spectabiles : 40 رطلا من الذهب، «السيناتوريون» : Senatores : 30 رطلا من الذهب، «اللامعون» Clarissimi : 20 رطلا من الذهب، «أعيان الإقليم» : Sacerdotales : 30 رطلا من الذهب، «أعيان المدن» : Principales : 20 رطلا من الذهب، «أعيان المجالس البلدية» : Decuriones : 5 أرطال من الذهب، «التجار» : Negotiatores : 5 أرطال من الذهب، «عامة المدن» : Plebei : 5 أرطال من الذهب، «الدوارون» : Circumcelliones : 10 أرطال من الفضة. وفي حالة ما إذا لم يقدم «الاكارون» Conductores[13] الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم «وكلاء الامبراطور» : Procuratores[14] إلى «المكلف بتنفيذ القانون» (executor) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها بحيث لا يعفى منها حتى أهل بيتنا. وليخضع نساؤهم للغرامة الزوجية على انفراد. وهكذا، سوف يتعرض كل من أصر (على البقاء في الدوناتية) ـــ رغم الأحكام الصادرة عليه ـــ لمصادرة كل ممتلكاته، وليبعد الرقيق servi من هذه الديانة المحظورة بإيداعهم سجن أسيادهم، والمزارعون coloni بالعدد الكافي من الجلدات، وإلا فليسدد أسيادهم (domini) الغرامات المذكورة، حتى ولو كانوا كاثوليكيين[15].

إن ذكر الدوارين في نص رسمي مثل هذا القانون يبقى في الواقع فريدا من

(13) «الأكارون» هم الأشخاص الذين يستأجرون الضيع الشاسعة ـــ خاصة ضيع الامبراطور ـــ لمدة معينة (في الغالب 5 سنوات). ويستغلون عمل المزارعين بالحصة coloni في بعض أجزائها. ويحتفظون بالأجزاء الأخرى لاستغلالها استغلالا مباشرا بواسطة العبيد والعمال الفلاحيين. انظر أعلاه، ص 70 وما بعدها.

(14) وكلاء الامبراطور : كان الامبراطور يعين لإدارة أملاكه عددا من الموظفين : procuratores. ففي افريقيا كان الموظف المشرف على كل الأملاك مستقرا بقرطاج حيث مكاتبه. أما إدارة كل ضيعة، فكانت تسند إلى وكلاء أقل في الرتبة من الوكيل العام المستقر بقرطاج. انظر أعلاه، ص 70 وما بعدها.

(15) النص 57 في الملحق، Cod. Theod., XVI, 5, 52

نوعه[16]. لكنه يكتسي أهمية بالغة يرجع الفضل إلى «صوماني» Saumagne[17] في لفت نظر الباحثين إليها، بعد أن كانوا «يمرون مر الكرام على النص» ولا يستنتجون منه ما يتوجب استنتاجه[18].

والنص ــ كما هو واضح ــ يحدد قيمة الغرامات المالية حسب مختلف الفئات الاجتماعية : Ordines[19]. وبما أن الجنحة المعاقب عليها واحدة، وهي اعتناق الدوناتية، فإن تفاوت قيمة الغرامات يأتي من تفاوت الامكانات المالية لكل فئة على حدة، أي أن قيمة الغرامات كانت متناسبة مع المكانة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف الفئات المذكورة. ومن جهة أخرى، فإن العقوبات تتدرج من أعلى الفئات التي تكون «الهيئة السيناتورية» (Clarissimi, Senatores, Spectabiles, Inlustres) إلى أن تشمل الفئات الفاقدة حريتها (عبيد ومزارعون coloni)، مرورا بـ«البرجوازية» الحضرية (Decuriones, Sacerdotales, Principales) وتجار وعوام المدن

(16) نعثر على ذكر الدوارين من جديد في قانون الملك الوندالي «هونريك» Huneric الصادر سنة 484. غير أن هذا النص جاء في أسلوبه نسخة طبق الأصل لقانون هنوريوس الذي نحن بصدده، مما يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان تقليدا حرفيا للمراسيم الامبراطورية السابقة أكثر من كونه متطابقا مع الواقع الاجتماعي في عصره.

(17) Saumagne, Ch., Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les circoncellions d'Afrique, **A.H.E.S.**, 1934, pp. 351-364.

(18) ibid, p. 353

(19) من الصعب اعتبار الـ ordines (المفرد : ordo) «طبقات» بالمعنى العصري المتداول للكلمة. فاللفظ أقرب في معناه إلى «هيأة» (بالفرنسية ordre)، المستعملة في العصر الوسيط الأوربي بصدد «النبلاء» و«الاكليروس» و«الهيأة الثالثة» التي تضم «طبقات» البرجوازية والفلاحين والحرفيين، إلخ...
ويدخل في تحديد «الاردو» الروماني عوامل قانونية بالدرجة الأولى، بينما تتحدد «الطبقة» بمفهومها العصري بعوامل اقتصادية واجتماعية أساسا. فمصطلح «أوردو» يتضمن تحديدا واعترافا رسميا من طرف الدولة، وينطوي على امتيازات تمنحها الدولة لأردو معين دون غيره. انظر تحفظ J. Gagé في نفس الاتجاه :

- Gagé, J., **Les classes sociales dans l'Empire Romain**, Paris, Bibiothèque Historique, Payot, N[lle] éd., 1971, p. 39 : «Le vocabulaire latin... désigne seulement par le nom Ordo des catégories sociales ayant définition officielle, statut public».

وكذلك : - Fredouille, J.C., **Dictionnaire de la civilisation romaine**, Paris, Larousse, 1968, p. 66, s. V : classes sociales : «Parfois, du reste, il convient de parler d'«Ordre» plus que de classe sociale car le mot «Ordo» implique une définition et une reconnaissance officielles, qui ont effectivement existé».

وتأتي فئة الدوارين في أدنى مرتبة من الفئات المكونة (Plebei, Negotiatores)[20] من الرجال الأحرار، مباشرة بعد عوام المدن، لكنها تذكر قبل الفئات المسترقة (العبيد) أو الشبيهة بالمسترقة (المزارعين).

وقد تناول هذا النص بالدراسة باحثان أدخلا بعض التعديل على قراءة «صوماني» له[21]. إلا أن القراءتين الجديدتين لا تغيران كثيرا من معنى النص[22]. ويبقى أن الدوارين كانوا يشكلون فئة من الرجال الأحرار، المعرضين لأداء غرامة نقدية ولمصادرة ممتلكاتهم إذا لم يذعنوا لمقتضيات القانون. وبذلك كانت وضعيتهم تختلف عن وضعية العبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين لعقوبات جسدية (السجن والجلد). ويبقى كذلك أن الدوارين كانوا يوجدون تحت أوامر «الاكارين» والوكلاء، ولكن هؤلاء الأخيرين لم يكونوا مسؤولين عن تطبيق القانون عليهم مباشرة كما هو الحال بالنسبة للعبيد والمزارعين، بل كان عليهم فقط أن يقدموهم إلى «منفذ القانون» executor. ولا تلحق العقوبة بهم إلا في حالة عدم «ادلائهم» بالدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم. عندئذ فقط «يطالبون شخصيا بتسديد الغرامة» مكان الدوارين.

ويبدو أن الأكارين لم يظهروا بالفعل كثيرا من التحمس في القيام بالمهمة المنوطة بهم. لذلك، فإن القانون الذي صدر بعد ذلك بسنتين (17 يونيو 414)[23]، ــ والذي تعرض خاصة لحالة «الانتكاس» بعد الرجوع إلى الوحدة الكاثوليكية ــ كان أقسى من قانون 412 على الأكارين. وينص بخصوصهم على ما يلي :

«أما أكارو ضيعاتنا، إذا هم سمحوا بممارسة الهرطقة (الدوناتية) فوق أراضينا، فليعاقبوا بأداء قدر من المال يساوي القدر الذي يسددونه عادة ككراء (عن

---

(20) عن مختلف هذه الفئات، انظر التعليق في الملحق.

(21) - Brisson, J.P., **AUTONOMISME et Christianisme...**, op. cit., pp. 335-336.
- Tengström, E., **Donatisten und Katholiken. Soziale wirtschafliche und politische aspekte einer Nordafricanischen Kirchenspaltung.** (Studia graeca et latina gothoburgensia, XVIII), Göteborg, 1964, pp. 27-31.
حسب تقرير S. Lancel : - Lancel, S., **R.E.L.**, 1965, pp. 637-640

(22) تعرضت لهاتين القراءتين في دراسة النص في الملحق.

(23) - J. Cod. Theod., XVI, 5, 54 ; ap. Saumagne, op. cit., pp. 356-358

الضيعات). وأما أكارو الخواص، فإذا سمحوا بانعقاد تجمعات (دوناتية) في الملكيات، أو أدى تساهلهم إلى تدنيس الأسرار القدسية (Sacrum Mysterium)، فليخبر القضاة بذلك الملاكَ المعنيين. وعلى هؤلاء الأخيرين اما أن يصلحوا اعوجاج الأكارين، واما أن يعوضوا من تمادى منهم في غيهم بمديرين متشبعين بالمبادىء الإلهية. أما الملاك الذين تهاونوا في اخبار السلطة، فليعاقبوا بغرامة يبلغ قدرها الربع الذي اعتادوا كسبه (من أراضيهم)».

يبدو إذن أن السلطة كانت تعتبر الملاك نوعا من وسطاء بينها وبين الأكارين تماما كما كانت تعتبر الأكارين وسطاء بينها وبين الدوارين. ومع أن قانون سنة 414 لم ينص على الدوارين اسميا فإن المشرع كان يقصدهم على الأرجح عبر أولئك الذين حمل الأكارين مسؤولية «تجمعاتهم» و«تدنيسهم للأسرار القدسية» في أراضي الامبراطور أو الخواص[24].

ومما يدعم هذا الترجيح أن القانون نص على عقوبات خاصة بالعبيد والمزارعين : الجلد زيادة على انتزاع ثلث المكسب المستقل بالنسبة للمزارعين[25]، ولكنه لم يحدد أي عقوبة بخصوص الدوارين. ولا يدل غياب الدوارين في قانون 414 على اختفائهم «كاأوردو» (فئة اجتماعية) لسبب أو لآخر[26]، إذ أن النص لا يذكر أيضا فئات : clarissimi (الطبقة السيناتورية) والتجار negotiatores وعوام المدينة plebei.

---

(24) - Saumagne, Ch., op. cit., pp. 356-357

25) ibid, p. 357

(26) افترض أحد الباحثين : Diesner أن الدولة فسخت «أوردو» الدوارين ما بين 412 و414، ومن ثم عدم ذكرهم في قانون 414.

- **Diesner, H.J., Kirche and staat in spätramischen reich, aufsätze zur spätantike and zur geschichte des alten Kirche**, Berlin, 2ème éd., 1964, p. 75.

وذلك حسب ما جاء عند :

- Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, op. cit., p. 549, n. 3.
- Congar, Y.M.J., Introduction générale à l'œuvre anti-donatiste d'Augustin, **B.A.**, t. 28, p. 35.

غير أن هذا الافتراض لا يستند على أي أساس متين بحيث لا يوجد أي قانون أو إشارة إلى فسخ «أوردو» الدوارين. ولو وقع هذا الفسخ لوجدنا أثرا له عند أغسطين. ويشير هذا الأخير فقط إلى أن العديد من الدوارين «تخلوا عن اسم الدوارين ونشاطهم» (النص 48 =

والجدير بالملاحظة أن قانون 414 كان أقل صرامة من قانون 412 من حيث قيمة الغرامات المالية، وان الفئات العليا، «المسؤولة»[27] وحدها هي التي كانت تتعرض للغرامات، بحيث لا ينص ذلك القانون على غرامات للتجار وعوام المدن. وعلى العكس، نجد العقوبات المطبقة على الفئات الريفية (مزارعين، عبيد)، وعلى العناصر المرتبطة بها (ملاك وأكارون خاصة) أكثر تشددا من عقوبات 412[28].

وهذا التفاوت في معاملة القانون للفئات الاجتماعية يدعو إلى ملاحظتين : أولهما أن الفئات الريفية كانت أكثر تأثرا بالدوناتية وأكثر مقاومة لقانون هنوريوس السابق (قانون 412)، ومن ثم تشدد المشرع بخصوص تلك الفئات. وثانيهما أن الضغط أصبح مركزا على الاكارين، إذ أنهم أصبحوا مهددين بفسخ عقدتهم مع ملاك الأراضي، مما يدل على أن الدولة لاحظت من تجربة سنتين مدى «تهاونهم» في تطبيق قانون 412. ولا يهمنا الآن أن نتساءل عن أسباب هذا «التهاون»[29]، يكفي أن نسجل أن المشرع الامبراطوري اعتبر الاكارين مسؤولين عن تقديم الدوارين إلى السلطة (حسب مقتضيات قانون 412). وتحميل تلك المسؤولية على عاتق الاكارين يدل ضمنيا على أنهم كانوا مبدئيا ــ وفي نظر المشرع على الأقل ــ يملكون الوسائل الكافية لممارسة ضغط ما على الدوارين. غير أن تبعية هؤلاء للاكارين لم تكن مماثلة لوضعية العبيد والمزارعين. فبينما كان هؤلاء معرضين لعقوبات جسدية وللسجن، كان على الدوارين أن يؤدوا غرامة مالية على غرار الفئات الأخرى الحرة، بل كانوا قادرين على التملص من أداء تلك الغرامة. ويبرز أيضا بوضوح أنهم كانوا أحرارا في تكوين أسرة لهم، وتعتبر زوجاتهم مسؤولات

= في الملحق). وذلك ليعطي العبرة بهم لإخوانهم، مما يدل على وجود دوارين لم يتخلوا بعد عن «اسمهم ونشاطهم» في التاريخ الذي كتب فيه أغسطين ذلك النص (حوالي سنة 420) ومن جهة ثانية، فإن قانون 414 لا يذكر بعض الفئات الأخرى التي ذكرها قانون 412، وعلى الخصوص فئتي التجار Negotiatores وعوام المدن Plebei فهل نستنتج أن الفئتين أيضا تم فسخهما ؟

(27) ينص قانون 414 اسميا على مناصب الحكم العليا في الإقليم («بروقنصل»، «فيكاريوس»، «كونت»).

(28) انظر الجدول المقارن للعقوبات بين قانوني 412 و414 عند «صوماني» :
- Saumagne, Ch., op. cit., p. 357.

(29) أدناه، ص 247 وما بعدها.

عن أداء الغرامة أيضا. كما اعترف لهم المشرع ضمنيا بحق امتلاك ثروات بما أن القانون ينص على امكانية مصادرتها في حالة إصرارهم وعنادهم. غير أن الدوارين وإن كانوا يتمتعون بحرية التصرف والتنقل، كانوا يعيشون في ظروف متواضعة جدا تجعلهم في حضيض المجتمع، حسبما يتجلى من ترتيبهم في أسفل مرتبة من الفئات الحرة، ومن قيمة الغرامة المفروضة عليهم والتي تساوي سبع قيمة الغرامة المفروضة على عوام المدينة(30).

لنر الآن مدى تطابق معطيات هذا النص القانوني مع المعلومات التي يمكن انتقاؤها من النصوص الأدبية المتوفرة والتي لم تتناول الدوارين إلا من زاوية الجدل الكلامي. فمن جهة أولى يبرز من تلك النصوص أن الدوارين كانوا يضمون في صفوفهم عددا كبيرا من السكان الأصليين الذين لم تصبهم الرومنة كثيرا. ففي حوالي سنة 340، يحدثنا ابطاتوس عن جماعات من الدوارين في نوميديا يترأسها زعيمان يحملان اسمي «اكسيدو» Axido و«فاسير» Fasir(31)، وهما اسمان لا ينمان عن ترومن كبير(32). ويشير أغسطين إلى أن الدوارين في ضواحي «هيبو» Hippo Regius كانوا لا يفقهون اللغة اللاتينية(33)، وأن معرفة اللغة البونيقية (الليبية ؟)(34) ضرورية للتفاهم معهم(35).

---

(30) يقدر «صوماني» قيمة الغرامة المفروضة على الدوارين (10 أرطال من الفضة) بـ4.000 فرنك فرنسي لسنة 1934 (تاريخ نشر مقاله)، وقيمة الغرامة المفروضة على عوام المدن Plebei (5 أرطال من الذهب) بـ28.000 فرنك فرنسي. انظر جدوله :

- Saumagne, Ch., op. cit., p. 357.

(31) النص الأول في الملحق.

(32) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 338

(33) - Aug., Ep. CVIII, 5, 14; ap. Monceaux, P., **R.H.R.**, t. 64, p. 50

(34) بالإضافة إلى اللغة اللاتينية، كان الأفارقة في عهد أغسطين يتكلمون بلغات لازالت ماهيتها تطرح مشكلا صعبا لم يتم الاتفاق حوله بين الباحثين. ويتلخص المشكل في ما إذا كانت اللغة البونيقية قد اختفت، وأن المقصود بـ«البونيقية» عند أغسطين هو اللغة الليبية (التي يفترض أنها أصل اللهجات الأمازيغية الموجودة في الوقت الراهن)، أو أن اللغة البونيقية ظلت مستعملة طيلة العهد الروماني، وأنها ساعدت على تعريب السكان فيما بعد. وقد كتب الكثير حول هذه القضية، وانقسم المختصون إلى ثلاثة أقسام : (انظر البيبلوغرافيا عند :

- Benabou, M., **La résistance africaine à la romanisation**, Paris, Maspéro, 1976, p. 473, n. 4.

أ ـــ القائلون بوجود البونيقية هم على الخصوص : =

وتتحدث النصوص الكاثوليكية عن الدوارين بلهجة تشير بوضوح إلى ظروفهم الوضيعة وغلظتهم وقلة ثقافتهم. فنرى أغسطين مثلا يتحدث عنهم قائلا : «... تلك المخلوقات الفظة والبلهاء التي لا تعي ولا تحتمل ما ننصحه بها في سبيل خلاصها...»(36). ولكننا لا نجد أي إشارة إلى أن الدوارين كانوا من «المتبربرين» (Barbari) — كما كان يطلق على الشعوب والعشائر (الإفريقية وغيرها) التي ظلت خارجة عن سلطة الامبراطورية الرومانية، أو الثائرة عليها —(37). وربما كانت إشارتان(38) لأغسطين تذهبان في هذا الاتجاه، إلا أنهما غير صريحتين ويغلب عليها طابع الجدل الكلامي.

أيا ما كان، فإن انتماء معظم الدوارين إلى أصل افريقي وعدم تأثرهم بالقيم الرومانية وباللغة اللاتينية شيء يتناسق مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي يظهرون به في قانون 412.

=

- Gsell, St., **H.A.A.N.**, t. IV, p. 496
- Gautier, E.F., **La passé de l'Afrique du Nord**, Paris, 1937.
- Saumagne, Ch., La survivance du punique en Afrique aux Vᵉ et VIᵉ siècles, **Karthago**, 1954, pp. 171-178.

ب — القائلون باللغة الليبية، (اعتمادا على وجود كتابات منقوشة ليبية بكثرة في شمال افريقيا من المحيط إلى الإقليم الطرابلسي) :

- Warmington, B.H., **The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest**, Cambridge, 1954, p. 89, n. 2.
- Frend, W.H.C., **The Donatist Church...**, op. cit., pp. 57 ss.
- Courtois, Chr., Saint-Augustin et le problème de la survivance du punique, **R.A.**, 1950, pp. 259-282: **Les Vandales...**, op. cit., p. 126.

ت — القائلون بوجود اللغتين معا (إضافة إلى اللاتينية).

- Simon, R., Punique ou Berbère ? Note sur la situation linguistique dans l'Afrique romaine, **Mélanges Isidore Lévy**, Bruxelles, 1955, pp. 613-629.
- Benabou, M., op. cit., pp. 473-489 (p. 488).

(35) - Hamman, A.G., **La vie quotidienne en Afrique du Nord au temps de Saint-Augustin**, Paris, 1979, p. 60.

اعتمادا على نفس المصدر (**Ep. CVIII, 5**).

(36) النص 35 (في الملحق).

(37) علما بأن أغسطين كان يستعمل كلمة Barbari في هذا المعنى. مثلا في المراسلة المتبادلة مع بوبليكولا أعلاه، ص 69. كذلك في حديثه عن فيرموس Firmus — الزعيم الافريقي الثائر على روما (372-375م)، (النص 7 في الملحق).

(38) النصان 21 و33 في الملحق.

وتتطابق هذه الملاحظة مع كون الدوارين كانوا يتنقلون من إقليم إلى آخر، وبالتالي، فإن عدم إستقرارهم لم يشكل بدون شك عاملا مساعدا على رومنتهم.

وبالفعل، فإن الميزة الثانية التي اتسم بها الدوارون ـــ في النصوص المعاصرة لهم ـــ كانت دورانهم وتنقلهم وعدم ثباتهم في مكان معين. وربما كانت تلك الميزة السمة الأساسية التي اتسموا بها. وهي على أي حال تلك التي أثارت انتباه معاصريهم بشكل خاص[39] حتى أن أحدهم[40] اكتفى بنعث الدوارين بكلمة circuitores[41] التي لا تفيد أكثر من معنى دوارين[42]. ويقدمهم أغسطين على الشكل الآتي (حوالي سنة 420) :

«إنني أتحدث عن وقائع يعرفها المعاصرون حق المعرفة. فمن منا يجهل ذلك النوع من الناس الذين لا يكفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستنكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة في قتل أنفسهم، يرهبون البوادي خاصة لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول «الاهراء الريفية» Cellas rusticanas بحثا عن القوت ـــ ومن تم تسميتهم بالدوارين ـــ، من منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه تقريبا أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الافريقي ؟»[43].

إن هذا النص في الواقع يلخص نظرة الكاثوليكيين إلى الدوارين، ويشير إلى أهم السمات التي اتصفوا بها في رأيهم، وهي أن الدوارين كانوا : أولا يقترفون جرائم شنيعة تصل أحيانا إلى اغتيال الآخرين (الكاثوليك)، وثانيا أنهم كانوا يقتلون أنفسهم (رغبة في الاستشهاد) وثالثا أنهم كانوا عساكر الدوناتية «يمثلون أشهر

---

(39) - Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, op. cit., p. 544 : «... (circumcellions) wandering from place to place, that had caused some recent critics so much trouble, is precisely the activity, apart from their violence and revolutionary outlook, that most impressed contemporaries».

(40) القديس «فيلاستريوس» Filastrius، أسقف مدينة Brescia (شمال ميلانو بايطاليا). عاش في القرن الرابع وكتب مؤلفا عن «مختلف البدع» المسيحية (383) : «Diversarum hereson liber».

- Chevallier, R., **Dictionnaire de la littérature latine**, op. cit., p. 123.

(41) - Filastr., **Div. her. lib.**, 57; **C.S.E.L.** XXXVIII, p. 46. Cité d'après Congar, Y.M.J., **B.A.**, t. 28, p. 32, n. 3.

(42) - Gaffiot, F., **Dictionnaire Latin-Français**, op. cit., p. 309, s.v. «circuitor»

(43) النص 48، في الملحق **G. Gaud.**, I, XXVII, 32.

وصمة عار في جبينها». لنترك جانبا بصفة مؤقتة هذه السمات، ولنغض الطرف أيضا عن اللهجة المحقرة والأوصاف الدنيئة التي قدم بها الكاتب «ذلك النوع من الناس»، ولنكتف بملاحظة واحدة هي أن الدوارين كانوا يعيشون في البادية وإن «كانوا لا يشاركون في الأعمال الفلاحية».

ويبدو من المؤكد تماما أن الدوارين كانوا من سكان البوادي بشهادة مختلف النصوص من أقدمها إلى أحدثها. بل يبدو أن حركة الدوارين نفسها كانت ـــ على الأقل في البداية ـــ شبه منحصرة في البادية. ففي أقدم نص يتحدث عن الدوارين ـــ وهو الفصل الرابع من الكتاب الثالث لابطاتوس ـــ[44] نجد أن الأسقف الدوناتي بمدينة «باغاي» Bagai (شمال الأوراس) أرسل المنادين إلى «كل ضواحي المدينة وإلى الأسواق» ليستنفر الدوارين ويحثهم على مهاجمة البعثة الامبراطورية (سنة 347)[45].

وفي أحد نصوص أغسطين، نرى الكاثوليكيين يستعملون نوعا من التهديد للضغط على الدوناتيين كي «يوقفوا» أعمال عنف الدوارين الموجهة ضد الكنائس والأساقفة الكاثوليكيين : «هلا كانت الغارات العنيفة التي يقوم بها دواروكم ـــ الذين يهجمون (علينا) على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم ـــ تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن ؟...»[46]. يتضح إذن أن مجال عمليات الدوارين كان مركزا في البوادي حيث كانت عصاباتهم تقوم بغارات وتمثل أكبر خطر على الوجود الكاثوليكي في الأرياف. وفي أحد النصوص المنسوبة لأغسطين[47]، نجد تحديدا أكبر لهذا المجال : «... وهكذا، فإن أنصاركم (الدوارين) إذا مارسوا عنفهم ضدنا، فإنكم

---

(44) Optat, III, 4 (النص الأول في الملحق).

(45) في سنة 347، ارسل الامبراطور قنسطنس Constans إلى افريقيا مبعوثين (بولس Paulus ومكاريوس Macarius) لحث الدوناتيين على الرجوع إلى «الوحدة الكاثوليكية». تفصيل ذلك أدناه، الفصل السادس.

(46) النص 20 (C. Litt. Petil., II, 83, 184) : حوالي سنة 401.

(47) «الرسالة إلى الكاثوليك في موضوع فرقة الدوناتيين» :

- **Epistula ad Catholicos de secta donatistarum, B.A.** 28, pp. 502-707.

عن صحة نسبها إلى أغسطين، انظر دراسة المصادر، ص 46.

تؤدون الثمن عن ذلك، أنتم الذين تحتجزكم كرهائن في الضيعات Fundi وفي المدن...»[48]. فالكاثوليكيون ــ حسب هذا الكاتب ــ كانوا يتحكمون في المدن وفي التجمعات القروية التابعة للضيعات، بينما كان الدوارون يمارسون عملياتهم خارج المدن والتجمعات الريفية. حقا، كان الدوارون يتقدمون أحيانا في غاراتهم إلى بعض المدن، كما وقع حوالي سنة 409 حينما دخلوا مع الأسقف الدوناتي «ماكروبيوس» Macrobius إلى مدينة عنابة[49]، إلا أن تلك الغارات على الحواضر كانت استثنائية ولم تقع إلا في فترة متأخرة من حركة الدوارين. لذا، فإن الكتاب اللاحقين كانوا يشيرون بدون غموض إلى أن ظاهرة الدوارين كانت ريفية. فينعتهم كل من «ازيدور» الأشبيلي و«بياتوس» Beatus «بالريفيين» Agresti[50]. وهذا يتفق مع ما رأيناه في قانون هنوريوس من كون الدوارين كانوا يعيشون في ضيعات الامبراطور والخواص تحت إمرة الاكارين. وهكذا، يمكن أن نخلص إلى أن هناك تطابقا بين معطيات ذلك القانون، والمعطيات التي يمكن استقاؤها من النصوص الكاثوليكية.

نحن إذن أمام رجال أحرار يكونون فئة اجتماعية محددة حسب قانون 412، ويعيشون في الأرياف متنقلين من مكان إلى آخر، ولكنهم «يستنكفون عن العمل الفلاحي ويرهبون البوادي خاصة» حسب قول أغسطين. ومن ثم، فقد كان من السهل على بعض المؤرخين القدماء أن يتصوروا أن الدوارين غادروا حقولهم وتخلوا عن الفلاحة «للبحث عن قوتهم هنا وهناك»[51]. لكن بأي وسيلة ؟

---

(48) النص 29 (Ep. ad Cath., XX, 55.) : حوالي سنة 401–402.

(49) - Aug., Ep. CVIII, 5, 14; ap. Monceaux, P., R.H.R., t. 64, 1911, p. 42, n. 6

(50) ايزيدور : - Isidorus, Etymologiarum libri, VIII, 5, 53, (cité d'après Frend, circumcellions and monks, op. cit., p. 544) : «...circumcelliones dicti, eo quod agrestes sunt» :

«يسمون بالدوارين لأنهم ريفيون...».

بياتوس : (نقلا عن «تيكونيوس» الدوناتي) :

- Beatus, Comment. in Apocalyp.; (cité d'après Lamirande, E., B.A. 32, p. 749) : «...circumcelliones dicimus, eo quod agrestes sunt»:

«... نسميهم «دوارين» بحيث أنهم كانوا ريفيين».

(51) - Lenaint de Tillemont, Mémoires pour servir à l'histoire ecclésiastique des six premiers siècles, t. XIII, Paris, 1696, p. 559; (cité d'après Lamirande, E., B.A. 32, p. 749).

إن الكتاب الكاثوليك يتحدثون عن «جرائم شنيعة» ينسبونها إلى الدوارين بكثير من العمومية في غالب الأحيان. لكنهم أحيانا يعطون بعض التفاصيل. فنجد أغسطين يعدد تلك الجرائم كالتالي : «... تلك القسوة التي تخترع ضدنا ألوانا من الاغتيال والنهب، والحريق والهاب العيون...»(52).

فالنهب كان من بين الجرائم التي يذكرها أغسطين عادة عندما يعدد «جرائم» الدوناتيين أو الدوارين، ويقول بخصوص هؤلاء الأخيرين : «... في كل يوم نعاني من الأضرار المذهلة التي يقترفها قساوستكم ودواروكم، وهي أضرار أشر من أفعال كل اللصوص وكل النهابين مجتمعين...»(53). ويقول في نص آخر : «... والواقع أن الكاثوليك لا يسرفون (من الدوناتيين) أموالهم، بل يضعون لائحة جرد لها، ويحتفظون بها لكي يردوها مضاعفة قدر الإمكان إليهم، بمجرد رجوعهم إلى الطريق السوي. وعلى العكس، فإن الكاثوليك أجدر بإقامة الدعوى ـــ لا على الوثنيين الذين نهبوا شهداءهم الحقيقيين(54) فحسب ـــ ولكن على دواري الدوناتيين أيضا، لأنهم ـــ بدورهم ـــ انتزعوا منهم (من الكاثوليك) ثمار كدهم وكدحهم»(55). ويمكن تعداد الأمثلة التي يوحي فيها الكاثوليك بأن الدوارين كانوا يتعاطون أعمال النهب(56). غير أن كل النصوص التي تشير إلى ذلك، انما تفعله في أسلوب الجدل الكلامي والمساجلة مع الدوناتيين، ولا تعطي أي إشارة دقيقة إلى أعمال التلصص المنسوبة إلى الدوارين. طبعا، يتحدث أغسطين عن مهاجمتهم الكنائس والممتلكات الكاثوليكية، غير أن الهدف من وراء ذلك ـــ حسب النصوص نفسها ـــ لم يكن النهب والسلب، وإنما كان يدخل في إطار الصراع المذهبي بين الدوناتيين والكاثوليك. كذلك، كان الدوارون يهاجمون الملاك والدائنين والأسياد، ولكن ـــ حسب النصوص أيضا ـــ لم يكن همهم في ذلك قطع الطريق والتلصص ـــ كما سنرى ـــ(57)، وإنما حماية المستضعفين. حقا، ما

(52) النص 31 : (C. Cresc., III, XLIII, 47) : حوالي 405–406.

(53) النص 31 (C. Cresc., III, XLII, 46) : حوالي 405–406.

(54) إشارة إلى حالات الاستشهاد «الباطل» عند الدوناتيين (عن طريق الانتحار).

(55) النص 52 (C. Gaud., I, XXXVIII, 51) : حوالي 420.

(56) النصوص 28، 31، 41 في الملحق.

(57) أدناه، ص 121–122.

من شك في أن المرء عندما يقرأ أن الدوارين كانوا يعيشون في البوادي «بدون عمل»، ويحومون حول «الاهراء الريفية بحثا عن القوت»، ويقرأ أيضا عبارات السب والشتم وتعداد «الجرائم التي يقترفها الدوارون»، ومن بينها أعمال «النهب»، ما من شك في أنه عندئذ لن يتورع عن نعتهم باللصوص وبقطاع الطرق، حتى وان اعترف لهم بأهداف دينية أقل انحطاطا، ولكنها على أي حال لا تتعدى نوعا من تعصب مذهبي ساذج. ومن ثم، فقد كان من السهل على «مونصو» أن يعتبر أن الدوارين لم «يكونوا إلا مغامرين متنقلين لا بيت لهم ولا مقر، يعيشون من التلصص، ويحبون الحومان حول الضيعات ومخازن المؤن. وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «المناضلين» Agonistici أو «عساكر المسيح»، ويدعون أنهم يدافعون عن الكنيسة الحقة. ــ كنيسة المسيح ودوناتوس ــ ضد الشيطان، أي ضد الكاثوليك. وكانت عصاباتهم تتشكل حسب الصدفة، وتتكون من حضيض المجتمع من بين المتذمرين من مختلف الأجناس والجهات. فكان من بينهم الأهالي الذين لا يتكلمون إلا اللغة البونيقية، والعبيد الآبقون، والمزارعون coloni المفلسون، والكاثوليك المفصولون عن المجتمع، والمفلسون، والمجرمون الانتكاسيون، هذا فضلا عن السذج المتعصبين»[58].

غير أن «مونصو» في هذا التصريح لم يتعد في الواقع وجهة نظر خصوم الدوناتيين والدوارين. ويمكن أن نعتبر أنه حذا حذو مصادره الكاثوليكية بحكم «احتكاكه» المباشر والطويل بـ«التاريخ الأدبي لافريقيا المسيحية»[59]. ويمكن أن يتساءل المرء على الخصوص عن السبب الذي دفع بـ«مغامرين» و«لصوص» يعيشون من نهب الضيعات، إلى اتخاذ موقف من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين والميل إلى «الاستشهاد» ولو عن طريق الانتحار، والتبجح بألقاب دينية : «مناضلين»، «عساكر المسيح»، «قديسين»[60]. هذا فضلا عن أن أهداف الدوارين كانت ترتقي أحيانا على الأقل ــ وحسب شهادة خصومهم أنفسهم ــ إلى تقويم اعوجاجات اجتماعية والذود عن الضعفاء ضد تعسف الأقوياء[61].

(58) - Monceaux, P., **H.L.A.C.**, IV, P. 180 (**R.H.R.**, t. 64, 1911, p. 43)

(59) انظر دراسة المصادر والمراجع ص 50.

(60) سنتناول هذا الجانب الديني من حركة الدوارين في الفصل الرابع.

(61) عن هذا الجانب، الفصل الثالث.

وفوق هذا وذاك، لو كان الدوارون مجرد عصابات من المغامرين واللصوص وخليطا من العبيد الآبقين والمزارعين المفلسين والمجرمين الانتكاسيين إلخ... لما نظر إليهم قانون هنوريوس سنة 412 على أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية متجانسة نوعا ما(62)، إذ لا يعقل — كما يقول «صوماني» — أن يكون المشرع قد اعترف بالوجود الشرعي لعصابات من قطاع الطرق أو الخارجين عن القانون... لمجرد وجودهم الفعلي والمحسوس(63). ولو كان الدوارون ذلك الخليط الذي يتحدث عنه «مونصو» لكان من الأسهل على المشرع أن ينص على إيداعهم السجن، ثم يرجع العبد إلى سيده، والمزارع (colonus) إلى أرضه، إلخ... وبعدئذ فقط تطبق على كل واحد منهم العقوبات المخصصة للفئة التي ينتمي إليها(64).

ولتجنب أي اعتراض، يمكن القول مع «بريصون» أن وقوع المشرع في خطأ يبدو شيئاً غير مقبول(65)، إذ أن قانون 412 أتى كنتيجة للحكم الذي أصدره قاضي مناظرة قرطاج في شهر يونيو 411 — إثر انتهاء المناظرة —، وتم تهييئه بفضل المعلومات التي جمعها ذلك القاضي المعين من طرف الامبراطور خصيصا لتلك المهمة. ومن غير شك أنه كان على بينة من الأوضاع في افريقيا لأنه مكث بالبلاد مدة طويلة(66). فلو كان الدوارون مجرد لصوص لأبلغ ذلك إلى السلطة المركزية.

---

(62) كما رأينا قبل قليل، أعلاه، ص 87 وما بعدها.

(63) - Saumagne, Ch., op. cit., pp. 353-354

(64) - ibid, p. 354

(65) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme**, op. cit., p. 337

(66) وصل إلى افريقيا — على الراجح — في شهر يناير 411 حيث أصدر المرسوم المحدد للمناظرة (استدعاء الأساقفة الكاثوليك والدوناتيين إلى المناظرة) في يوم 19 يناير من نفس السنة.

- Lancel, S., Actes de la Conférence de Carthage en 411, t. I : Introduction, **S.C.** n°. 194, Paris, 1972, p. 31.

ومكث بافريقيا للسهر على تطبيق الأحكام الصادرة على الدوناتيين، بحيث تبادل مراسلة مهمة مع أغسطين (الرسالتين 133 و139 لأغسطين).

- Lamirande, E., **B.A.**, 32, p. 49.

ولم يلبث أن قبض عليه وأعدم سنة 413، وذلك بتهمة المشاركة في ثورة «هرقليانوس» Heraclianus «كونت» (Comes) افريقيا.

- Monceaux, P., **H.L.A.C.**, t. IV, p. 307; Kotula, T. (cité infra, pp. 264-265).

عن «ثورة هرقليانوس» سنة 413، انظر :

- Kotula, T., Le fond africain de la révolte d'Héraclien en 413, **A.A.**, t. II, 1977, pp. 257-266.

ولنفس الاعتبارات، يبدو من الصعب اتباع Vannier التي رأت أن الدوارين كانوا بكل بساطة نوعا من متسولين «يشبهون جماعات «المساكين» (Meskines) التي شوهدت قبل سنوات فقط (من 1926)، وهي تجوب البلاد الجزائرية»[67]. ذلك أن القانون لم يكن ليرفع جماعات من هذا القبيل إلى مرتبة هيأة («أوردو» : ordo) عضوية في المجتمع الافريقي، وان ظاهرة «التسول» لا يمكن أن تتخذ أهمية اجتماعية وأبعادا كبيرة يمكن أن تفرض على المشرع الاعتراف بها بصفة دائمة، إذ أنها بالضرورة ظاهرة تتفشى في ظروف استثنائية (جفاف، حرب، إلخ...). أضف إلى هذا أن أمر هؤلاء «المساكين» سوف يكون غريبا، بما أن القانون وضعهم في مرتبة أسمى من المزارعين، وافترض توفرهم على قدر من المال يسمح لهم بأداء غرامة تبلغ عشرة أرطال من الفضة !

من هم هؤلاء الدوارون إذن ؟ هل نستطيع تحديدهم انطلاقا من المعطيات الآنفة الذكر ؟ لنلخص هذه المعطيات قصد المزيد من الوضوح :

أ ــ انهم يكونون فئة اجتماعية «أوردو» معترفا بها رسميا، ومتجانسة إلى حد أن القانون كان قادرا على التمييز بينهم وبين الفئات الأخرى.

ب ــ أنهم كانوا يعيشون في الأرياف في ظروف متواضعة جدا لكنهم يتمتعون بحريتهم ويملكون ثروات ويؤسسون أسرا. ورغم أنهم يوجدون تحت مسؤولية الاكارين والوكلاء في ضيعات الامبراطور أو الخواص، فإن هؤلاء ليسوا مسؤولين عن تطبيق القانون عليهم مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للفئات المسترقة (العبيد) أو شبه المسترقة (المزارعين).

ت ــ إنهم مكونون أساسا من عناصر وطنية تبدو قليلة التأثر بالرومنة.

ث ــ إنهم غير مستقرين ويتنقلون من إقليم إلى آخر[68] ومن ضيعة إلى أخرى، «بحثا عن القوت»[69].

---

(67) - Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'Eglise donatiste d'après le texte d'Optat, **R.A.**, 1926, pp. 26-27.

(68) - Beatus, **Comment. in Apocalyp.**, op. cit., ap. Lamirande, E., **B.A.**, 32, p. 749 : «...circumeunt provincias...» :

«يدورون حول الأقاليم...».

(69) حسب أغسطين : النص 48 في الملحق.

إن هذه المعطيات تنطبق في الواقع على نوع من عمال فلاحين متنقلين أكثر مما تتلاءم مع مجرد عصابات من قطاع الطرق. وهذا ما رآه «صوماني» الذي اعتبر أن الدوارين لم يكونوا إلاّ «رحّلا» لا يملكون أراضي، وفي نفس الوقت «عمالا فلاحين»[70] يتنقلون من ضيعة إلى أخرى يعرضون قوة سواعدهم على أصحاب الضيعات إبان الحصاد أو جني الزيتون أو قطف العنب[71]. ويرى صوماني أن «حصاد مكتر» — الذي كان يرحل إلى سهول نوميديا وسهول جوبطير للعمل في الحقول إبان الحصاد[72] — يمثل سلف الدوار ونموذجه في القرن الثالث. ويعتقد على الخصوص أن الدوارين لم يشغلوا مكانا بارزا في التشريع الامبراطوري خلال القرن الرابع لأنهم كانوا من غير شك يحسبون في عداد أولئك الذين كانوا يردون في قوانين تلك الفترة تحت الاسم العام : rusticani, agriculae : فلاحين، ريفيين[73]، ولأنه كان من الصعب على المشرع تصنيفهم طالما أنهم كانوا يرفضون — بحكم حريتهم وتنقلهم — أن يدخلوا في القالب الاجتماعي الضيق الذي كانت سياسة الدولة تريد تثبيتهم فيه. فقد كانوا يمثلون ذلك النوع النادر من الرجال الأحرار غير المستقرين، في إطار دولة ذات طابع سلطوي وظائفي[74].

إن معظم الدارسين في السنين الأخيرة تبعوا صوماني في اعتبار الدوارين نوعا من عمال فلاحين متنقلين[75]. وأهم إضافة إلى تلك الأطروحة ترجع إلى العالم السويدي «طنكشتروم» Tengström[76] الذي حاول تحديد نوعية الأشغال

(70) - Saumagne, Ch., Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les circoncellions d'Afrique, A.H.E.S., 1934, p. 359.

(71) - ibid, pp. 360 et 363

(72) أعلاه، ص 77-79.

(73) - Saumagne, Ch., op. cit., p. 361

(74) - ibid, pp. 362-363

(75) أنظر دراسة المصادر والمراجع ص 51 وما بعدها.

(76) جهلي التام للغة الألمانية التي كتب بها الكتاب، وعدم تمكني من الحصول على نسخة منه أو بعض صفحاته المهمة، منعاني من الاطلاع مباشرة على الكتاب. ونظرا لأهمية أطروحة الكاتب — الذي خصص فصلا كاملا منها للدوارين (74 صفحة) — فإنني ارتأيت من اللازم الإشارة إليها ومحاولة الاستفادة منها أو التعقيب عليها. واعتمدت في ذلك على تقرير S., Lancel ومقالي Frend وCalderone :
=

الفلاحية التي كانوا يتعاطونها، فرأى أنهم كانوا يشتغلون ـــ بالضبط ـــ في الزياتين المنتشرة خاصة في نوميديا الجنوبية شمال الأوراس، أي في المنطقة التي تحدثنا المصادر عن تركز عملياتهم فيها(77). ويرى طنكشتروم أن الهراوات (fustes) التي كانوا يستعملونها كسلاح في هجماتهم ـــ حسب ما جاء في نصوص أغسطين(78) ـــ لم تكن سوى المخابط التي كانوا يستخدمونها في قطف الزيتون perticae(79). وعلى هذا الأساس فإن «الأهراء الريفية» cellae rusticanae التي كانوا «يدورون» حولها حسب تعريف أغسطين(80) كانت بالأحرى «مخازن الزيت» : cellae oleariae(81).

و لم يفت المعقبين على Tengström الإشارة إلى أن أغسطين الذي كان معاصرا للأحداث ومتتبعا لها عن كثب ـــ لم يشر في أي مكان من كتاباته إلى أن الدوارين كانت لهم علاقة ما بالعمل في الزياتين ـــ(82) كذلك، فإن توطين الكاتب للدوارين في نوميديا الجنوبية على سبيل الحصر يتناقض ـــ حسب «كالدرون» ـــ مع شهادة أغسطين وغيره من الكتاب الذين يذكرون أن مسرح عمليات الدوارين شمال افريقيا كلها(83).

ويبدو من الغريب فعلا أن يكون أغسطين قد أهمل الإشارة إلى أن هراوات

= - Lancel, S., Compte-rendu du livre d'E. Tengström : **Donatisten und Katholiken; soziale wirtschafliche und politische aspekte einer Nordafrikanischen kirchenspaltung,** (Studia Graeca et Latina Gothoburgensia, XVIII), Göteborg, 1964, 202 pages. **R.E.L.**, 1965, pp. 637-640.
- Frend, W.H.C., circumcellions and monks, **J.T.S.**, 1969, pp. 542-549.
- Calderone, S., circumcelliones, **Parola del Passato**, Vol. XII, Fasc. CXIII, 1967, pp. 194-205.

(77) - Tengström, E., op. cit., pp. 36-43 (Lancel, op. cit., p. 638)

(78) أنظر النص 3 في الملحق.

(79) - Tengström, ibid, pp. 51-52. (Lancel, ibid, p. 638; Frend, p. 543)

(80) النص 48 في الملحق.

(81) - Tengström, ibid, p. 56 (Frend, ibid, p. 543)

(82) - Frend, ibid, p. 545

(83) - Calderone, op. cit., p. 99
يعتمد «كالدرون» على : Aug., C. Ep. Parm., I, XI, 17 (النص 7 في الملحق).

الدوارين التي كانوا يعطونها الاسم الديني : «اسرائيلات» Israeles[84] لم تكن إلا مخابط الزيتون، لأن ذلك كان سوف يدعم جدله الكلامي مع الدوناتيين. ويبدو أيضا أن مجال عمليات الدوارين توسع على مر الأيام، وشمل في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس معظم مناطق نوميديا، ولم يبق مركزا بصفة أساسية في جنوب ذلك الإقليم. ولا يمكن إنكار وجودهم في شمال نوميديا ومنطقة «عنابة» بالضبط[85]. غير أنه من غير المعقول ـــ أيضا ـــ قبول تصريحات أغسطين بشأن انتشار عمليات الدوارين وشمولها افريقيا كلها. لأن تلك التصريحات لم تكن تتعدى ـــ على الأرجح ـــ أسلوب الجدل الكلامي لابراز الأضرار التي «عمت» افريقيا بسبب الانشقاق الدوناتي «الأثيم»، شأنها في ذلك شأن تصريحه بأن افريقيا عانت من حركة الدوارين «منذ بداية الانشقاق الدوناتي»[86]. وعلى أي حال، فإن النصوص لم تشر إلى وقائع دقيقة إلا في إقليم نوميديا وبعض المناطق المجاورة من البروقنصلية[87].

ويرى بعض الباحثين أن أطروحة «صوماني» نفسها ـــ التي تعتبر الدوارين نوعا من عمال فلاحيين ـــ لا ترتكز على أساس متين. ويمكن تلخيص تلك الانتقادات في ثلاثة جوانب : أولا، أن تلك الأطروحة تعتمد في جوهرها على تصنيف الدوارين كفئة اجتماعية (أوردو : ordo) في قانون 412. ـــ وبما أن هذه الإشارة فريدة من نوعها، فإنها لا تستحق ـــ حسب أولئك الباحثين ـــ كل «الثقل» وكل الأهمية الذين أعطاهما إياها صوماني ومن نحا نحوه[88]. وثانيا، ان التقريب بين الدوارين والعمال الموسميين على نمط «حصاد مكثر» لا يعتمد دلائل عند الكتاب المعاصرين (ابطاتوس وأغسطين)، بل ان هذا الأخير يشير إلى أنهم كانوا «يستنكفون عن الأعمال الفلاحية»[89]. وثالثا، ان أطروحة «صوماني» تعتمد على قانون امبراطوري

(84) النص 3 في الملحق.

(85) أدناه، ص 130. كذلك الخريطة III.

(86) أدناه، ص 171-172.

(87) الخريطة III.

(88) - Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, op. cit., p. 548 : «One can suspects that too much weight may have been placed on the appearance of the term (circumcellions) in the single edict of Honorius».

(89) - Frend, W.H.C., ibid, p. 545 et p. 548

صادر عن الحكم المركزي (رافنا)، ويتناقض مع شهادات الكتاب الكاثوليك الذين عاشوا في عين المكان، وعاصروا الدوارين[90]. وهؤلاء الكتاب وخاصة أغسطين، تحدثوا بإسهاب عن تصرفات الدوارين الدينية : ظاهرة تقديس الشهداء والحج إلى أضرحتهم، وتعاطي الانتحار قصد الحصول على درجة «الشهادة»، ومصاحبة العذارى المنذورات لخدمة الكنيسة الدوناتية (sanctimoniales)، واطلاق اسم «إسرائيلات» (Israeles) على الهراوات التي كانوا يستعملونها في هجماتهم[91]... إلخ... فهذه اللوحة التي رسمها الكتاب الأفارقة للدوارين تنطبق — في رأي هؤلاء الباحثين — على نوع من «فرقة دينية» مرتبطة بالدوناتية[92] أكثر مما تتلاءم مع جماعات من العمال الموسميين.

وهكذا نرى أن المهتمين بحركة الدوارين (والدوناتية) ينقسمون إلى تيارين : الأول يركز على ظروف الدوارين الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي مع امكانية الاختلاف حول ما إذا كانت للحركة أهداف ثورية[93] أم لا[94]. والثاني يرى

(90) يرى الباحث السفياتي Diliguenski, G.G. — حسب ما جاء في تقرير Kotula, T. — تناقضا بين هذا القانون وإحدى فقرات أغسطين. وللأسف، لم يذكر تلك الفقرة، وربما تعلق الأمر بـ : Aug., C. Gaud., XXIX, 33. (النص 48).

- Kotula, T., Note bibliographique complémentaire sur l'Afrique du Nord aux IV^e et V^e siècles : G.G. Diliguenski, **Severnaïa Africa, v IV-V vekakh**, Mosca, Izd. Akade. Nauk, S.S.S.R., 1961, 302 pages; **B.A.A.**, t. II, 1967, pp. 343-349. (p. 346).

ولا أرى أي تناقض بين تلك الفترة وبين معطيات قانون هنوريوس. وتقول تلك الفقرة : «... ان أولئك الذين لازالوا يتعاطون الانتحار لا يصل عددهم إلى عدد أمثالهم... الذين تخلوا عن اسم الدوارين وعمل الدوارين وبدأوا يفلحون الحقول...». والتناقض يمكن أن يثبت إذا أهملنا أن تسمية «الدوارين» مجازية وتحقيرية في استعمال الكاثوليك لها (أعلاه، ص ص 33–34)، وانها تصور فقط دوران «الدوارين» حول الضيع والأقاليم. وعلى العكس، فإن رجوع الدوارين إلى عملهم في الحقول — بعد تحريم الدوناتية — يمكن أن يشكل دليلا إضافيا على أن الفلاحة كانت عملهم الأصلي. ويمكن أن نلمس في إشارة أغسطين هذه تعبيرا عن رغبة الدولة في تثبيت الدوارين في حقولهم، ورضا أغسطين على تحقيق ذلك الهدف. انظر، في هذا الاتجاه :

- Warmington, B.H., **The North African provinces...**, op. cit., p. 88.

(91) أعلاه، ص 31.

(92) - Diliguenski, G.G., idem; Frend, W.H.C., op. cit., p. 549

(93) مثلا : - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., 341
- Diesner, H.J., Kirche und staat..., op. cit., pp. 78-90; ap. Frend, **J.T.S.**, 1969, p. 543.

(94) - Tengström, E., **Donatisten und Katholiken...**, op. cit., p. 73; ap. Lancel, S., **R.E.A.**, 1965, p. 639.

في الدوارين قبل كل شيء حركة دينية. فهم اما نوع من رهبان[95] أو فرق متنقلة بين أضرحة الشهداء المتناثرة في بعض البوادي الافريقية[96].

ففي السنين الأخيرة دافع العالم الإيطالي Calderone عن أطروحة الدوارين ــ الرهبان في مقال أثار انتباه المهتمين[97]. ويرفض Calderone رفضا تاما أن يكون الدوارون عمالا فلاحين بأي شكل من الأشكال ــ ويعتمد ــ في قوله أنهم كانوا رهبانا متنقلين بين الأديرة ــ على برهانين أساسيين : أولا، هناك نص لايزيدور الاشبيلي يشير إلى أن الدوارين «كانوا على صفة الرهبان يتجولون في كل مكان... متنقلين عبر الأقاليم، لم يبعث بهم إلى أي مكان، ولم يثبتوا في أي مقر، لا يقفون في أي مكان ولا يقعدون في أي موضع»[98].

ويرجع «كالدرون» أيضا إلى أغسطين حيث يلاحظ أنه أقام في بعض الفقرات[99] مقارنة بين الدوارين والرهبان. أما البرهان الثاني الذي يراه كالدرون[100] على أن الدوارين كانوا رهبانا، فيتعلق بتأويل كلمة Cotopita التي وردت عند ايزدور الاشبيلي ككلمة مرادفة في المعنى لكلمة Circumcelliones : «يطلق عليهم اسم circumcelliones، فهم «ريفيون» (agrestes). ويسمون Cotopitas (أيضا)»[101]. كما وردت أيضا عند بياتوس Beatus الذي ــ يبدو أنه نقل عن «ايزدور» في هذا الموضوع[102] حيث يقول : «يسمون (أي الدوارين)

(95) - Calderone, S., Circumcelliones, **Parola del Passato**, 1967, p. 108

وقبله : - Reitzenstein, R., **Historia Monachorum und Historia Lausiaca**, Göttingen, 1916, pp. 50-55; ap. Lorenz, R., op. cit., p. 54.

(96) - Frend, W.H.C., **J.T.S.**, 1952, pp. 87-90

(97) المقال المذكور أعلاه، ص 103.

(98) - Isid., **De Eccle. Off.**, II, 16, 7 : «... qui (circumcelliones) sub habitu monachorum usquequaque uagantur, ... circumeuntes prouincias, nusquam missi, nusquam fixi, nusquam stantes, nusquam sedentes».; cité dans Calderone, S., Circumcelliones, op. cit., pp. 99-100, (n. 16).

(99) يعتمد ثلاثة نصوص : - **De op. Monach.**, 28, 36
- **Enarr. in psalm.**, 132, 3.
- **Ep. ad Cath.**, 16, 40 ss.

(100) - Calderone, S., op. cit., pp. 100-101

(101) - Calderone, S., ibid, pp. 102-105.
Isid., **Etymolog. lib.**, 8, 5, 53 : «circumcelliones dicti, eo quod agrestes sint quos cotopitas uocant». (Calderone, p. 103).

(102) - Calderone, S., ibid, p. 103, n. 22

cotopitas بالاغريقية أما نحن فنسميهم Circelliones[103] باللاتينية، وهم ريفيون «(agrestes)»[104]. ويعتقد كالدرون ان cotopita كلمة قبطية مكونة من شقين : ket (من فعل kôte المرادف للاتيني circumuire : دار حول) وaouvèt بمعنى : «تجمع للنساك» أو «صومعة الرهبان»[105]. والكلمة المركبة két-aouvèt كانت تنطق kètaubit وبالتالي أعطت cotopita باللاتينية. أما قول Beatus بأنها اغريقية الأصل، فذلك يرجع إلى كونه خلط بين الاغريقية والقبطية التي كانت أغلب حروفها اغريقية. وهكذا، فإن كلمة cotopita تعني : «الذي يدور حول بيع الرهبان» وبما أنها مرادفة لكلمة : «circumcellio»، فإن كلمة cella ينبغي أن تفهم بمعنى «بيت الراهب» وان «الدوارين» كانوا رهبانا متنقلين بين «تجمعات الرهبان» المتناثرة في بوادي افريقيا[106].

وقد أثارت أطروحة «كالدرون» ردود فعل عند Frend[107] الانجليزي وLorenz[108] الألماني. وقد رفضها هذان الكاتبان[109] ولكن بدرجة مختلفة،

---

(103) هناك ترادف تام بين circumcelliones وcircelliones.

Dictionnaire Gaffiot, op. cit., p. 308 (circelliones) et p. 310 (circumcellio).

لكن circumcelliones هي الأكثر استعمالا عند أغسطين. (استعمل circelliones في : **(Enarr. in psalm.** 132, 3.

(104) - Beatus, **Comment. in Apocalyp.** (op. cit., p. 90, n. 2)

(105) يعتمد Calderone على عدة مراجع في النحو القبطي :

- Calderone, S., ibid, p. 103, n. 25, 26, 27.

(106) Calderone, S., ibid, p. 107 : يعترف مع ذلك أن ظاهرة الرهبنة لم تكن في افريقيا منظمة كما كان الشأن في مصر. وان تنقل «الدوارين» لم يكن من دير إلى آخر ولكن من تجمع «كيلات» (بيوت الرهبان) إلى تجمع آخر، ومن قرية إلى أخرى :

«Ma là non erano cenobii organizzati come già in Egitto; tuttavia l'habitus di questi monachi africani era identico a quello dei loro fratelli d'Oriente : come quelli vivevano girovagando, non da cenobio à cenobio, si dall'uno all'altro dei vilaggi rurali, delle cellae sparse per la campagna africana».

(107) - Frend, W.H.C., circumcellions and monks, **J.T.S.**, 1969, pp. 542-9
خاصة ص ص 544-546.

(108) - Lorenz, R., circumcelliones - Cotopitae - Cutzupitani, **Zeitschrift für Kirchen geschichte**, LXXXII, 1971, pp. 54-59.

(109) - Lorenz, R., ibid, p. 56.
- Frend, W.H.C., op. cit., p. 546.

فنجد Frend يرى في مقارنة الدوارين بالرهبان دعما لأطروحته التي تركز هي الأخرى على الطابع الديني للحركة.

والملاحظ أن كالدرون اعتمد أساسا على («ايزيدور» و«بياتوس» و«كاسيدور» Cassiodorus) الذين أخذوا معلوماتهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن أغسطين، ولكنهم لم يحسنوا تأويل مقولاته[110]. أما نصوص[111] أغسطين التي اعتمدها كالدرون، فلا تشكل أي دليل على أن الدوارين كانوا رهبانا. ففي النص الأول[112]، لم يذكر أغسطين اسم الدوارين صراحة، ولا يتحدث عنهم بتاتا، بل يتحدث عن نساك من أصل شرقي : Xenitheia[113]. أما في النص الثاني (Enarr. in ps., 132, 3)، فإنه يقيم بالفعل مقارنة بين الدوارين الدوناتيين والرهبان الكاثوليكيين، ولكن ليس بقصد اظهار تشابه بين النوعين، ولكن — على العكس — ليركز على ظاهرتين مختلفتين تماما، فلا مقارنة يمكن أن تقوم «بين السكيرين والمتعففين، وبين العجالى والمتريثين، وبين التائهين والمستقيمين على الطريق، وبين المتسكعين والمتجمعين»[114].

أما النص الثالث (Ep. ad Cath., XVI, 41) فهو الآخر يؤكد على عدم تطابق الظاهرتين. وردا على الدوناتيين الذين يعتبرون أن أفريقيا هي المقصودة «بالظهيرة» meridies — التي وردت في «نشيد الأناشيد» على أنها المكان المفضل عند المسيح»[115]، وان الكنيسة الحق لم تبق إلا في افريقيا[116]، (أي الكنيسة الدوناتية)، يقول أغسطين : «وحتى لو سألت الحبيبة (الكنيسة) حبيبها (المسيح)

---

(110) - Lorenz, op. cit., p. 56.

(111) أعلاه، ص 106، هـ. 99.

(112) - **De Opere Monach.**, 28, 36.

(113) - Lorenz, R., ibid, p. 56.

(114) - Aug., **Enarr. in psalm.**, : «... comparentur ebriosi cum sobriis, praecipites cum consideratis, furentes cum simplicibus, vagantes cum congregatis»; Lorenz, R., ibid, p. 55.

(115) نشيد الأناشيد، الاصحاح الأول، 7 : «اخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى أين تربض عند الظهيرة ؟».

(116) عن معنى meridies والنقاش الفقهي حوله بين الدوناتيين وأغسطين، انظر :

- Congar, Y.M.J., note complémentaire n° 44 : «Définition géographique du Midi», B.A., 28, p. 748.

عن مكان إقامته المفضل وعن خلوته حيث يأخذ راحته، وحتى لو أجاب أن هذا المكان هو الظهيرة meridies، فإن الكنيسة الكاثوليكية يمكن أن تعتبر — وببراهين أقوى (من براهين الدوناتيين) — ان المقصودين هم أعضاؤها القاطنون بمصر — أولئك الآلاف من خدام الله الذين يكونون مجتمعا طهورا في كل أطراف الصحراء... فما أجدر هذا المجتمع بأن يكون مكان الرعي وخلوة ابن الله، بدل تلك القطعان الصاخبة من الدوارين، تلك البلية الخاصة بافريقيا ؟»[117].

يبدو إذن من غير الممكن الاعتماد على إشارات من هذا النوع لتدعيم أطروحة الدوارين الرهبان. هذا إضافة إلى أن الكتاب اللاحقين لأغسطين وقعوا من غير شك في خلط بين الدوارين وبين الرهبان المتنقلين الكاثوليكيين (moines gyrovagues) الذين انحرفوا بسرعة عن قواعد الرهبنة وبدأوا يغادرون بيعهم للتسكع بين القرى[118].

وهكذا، فإن الخلط الذي وقع بين الدوارين والرهبان المتنقلين لم يزد المشكل إلا تعقيدا[119].

أما برهان «كالدرون» المتعلق بكلمة cotopita فلا يتعدى حيز الافتراض. وقد استعمل الكاتب المجهول «للرسالة إلى الكاثوليك» اسم Cutzupitani[120] ولكن

(117) النص 26 في الملحق.

(118) Aug., Ep. CCLXII, 5; C.S.E.L. 56, p. 642. وأعلاه، ص 100 هـ 7.

(De Op. Monach., 28, 36).

عند «كورطوا» :

- Courtois, Chr., Les Vandales..., op. cit., n. 9, pp. 140-141.

كذلك «لورنز» :

- Lorenz, R., Circumcelliones - Cotopitae - Cutzupitani, op. cit., p. 56, n. 21 : Reg. Benedicti, 1, 10 : «(gyrovagi) qui tota vita sua per diuersas prouincias ternis aut quaternis diebus per diuersorum cellas hospitantur...».

(119) - Ep. ad Cath., III, 6; B.A. 28, pp. 517-519

(120) «لنفرض أن الكتاب المقدس حصر الكنيسة في افريقيا وحدها، وفي شرذمة صغيرة بروما : هي شرذمة «الكتزبطانيين» cutzupitani أو «الجبليين» Montenses... ففي هذا الحال، تكون الكنيسة ملكا للدوناتيين وحدهم» (عن «الجبليين» : Montenses انظر الهامش التالي).

ليطلقه على جماعة الدوناتيين بروما[121]. ولم يستعمل الدوناتيون هذا المصطلح حسب ما وصلنا من كتاباتهم[122]. ورغم أن Frend يقبل على ما يبدو تفسير كالدرون لكلمة Cotopita بالقبطية[123]، فمن الأقرب إلى الصواب — حسب رأينا — (إذا كان لابد من ربط الدوارين بـ«الكطوبطاي») أن نبحث عن أصل الكلمة بالبونيقية، كما فعل Lorenz. فالكلمة إذا كانت سامية — حسب ما يراه هذا الباحث الأخير — مكونة من الأحرف : ق، ط، ب. (q-t-p)[124] وتقرأ بالعبرية : qatap وبالارامية السورية : qetap بمعنى «قطف» الثمار أو حصد السنابل، وبالتالي يكون هذا الاشتقاق الراجح دعما لنظرية العمال الفلاحيين المشتغلين في الحصاد أو في قطف الزيتون أو العنب[125].

---

(121) كان للدوناتيين اسقف بروما يعينونه هناك — على حد قول أغسطين — «لشرذمة من الأفارقة» : De Unico Baptismo, XVI, 28; B.A. 31, p. 729 وأولهم حسب ما يبدو (Victor de Garbe) كان موجودا بروما منذ بداية الانشقاق. كما حضر آخرهم مناظرة قرطاج (411) ممثلا عن دوناتيي روما، وكان اسمه : Felix.

- **Gesta**, 1, 157; éd. Lancel, S., **S.C.** 195, p. 805.

والمعروف أن الدوناتيين كانوا يشكلون جماعات دينية لها أساقفتها الخاصين بها في اسبانيا وفي روما. كما أن عددا من الدوناتيين كانوا موجودين في غاليا (في Narbonne وLyon) عند نهاية القرن الخامس. ويبدو بالفعل أن الأمر كان يتعلق بأفارقة مستقرين خارج بلادهم.

- Monceaux, P; **H.L.A.C.**, IV, pp. 32-33; V, pp. 151-164.
- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 214.
- De Veer, A.C., note complémentaire 54 : «Un siège épiscopal donatiste à Rome, **B.A.** 31, pp. 847-849.

ويبدو أن دوناتيي روما كانوا يشكلون أهم مجموعة خارج افريقيا. ويسمون «بالجبليين» : Montenses ربما لأنهم كانوا يعقدون تجمعاتهم في ضواحي روما في مغارة تتوفر على مدارج محاطة بسياج. وكانوا يسمون أيضا («ريفيين») Campitae أو Campenses. انظر :

- Monceaux, P., L'église donatiste après Saint-Augustin, **R.H.R.**, t. 63, 1911, pp. 148-194 (pp. 182-183),

(122) - Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, op. cit., p. 544, n. 4

(123) - Frend, W.H.C., ibid, p. 544 : «... Calderone has suggested with a good deal of probability that in réality it was formed from two coptic words...».

(124) المراجع التي اعتمدها Lorenz موجودة في صفحتي 57 و58، الهوامش 28 إلى 56 من مقاله.

(125) يرى Lorenz أن ذلك يدعم نظرية Tengström التي تقول بأن الدوارين كانوا يشتغلون في زياتين نوميديا. (أعلاه، ص 103-104).

- Lorenz, R., op. cit., p. 59.

ومن جهة ثانية، فإن «كالدرون» في قراءته لنصي «ايزدور» و«بياتوس» يرى أن نعتهما للدوارين بأنهم كانوا «ريفيين» agrestes(126) يعني أنهم كانوا «غلاظا»، «حيوانيين»(127) مما أتاح لكالدرون بتر كل ما تتضمنه كلمة agrestes من علاقة بالعمل في الحقول، بالمعنى الأول للكلمة(128) : مع أن هذا المعنى هو الأقرب إلى الصواب بالنظر إلى كون المصادر تركز على انتماء الدوارين إلى الأرياف(129)، وأنهم كانوا يوجدون تحت امرة «الأكارين» conductores في الضيعات حسب ما جاء في قانون هنوريوس (412)(130).

ومن جهة ثالثة فإن الدوناتيين كانوا يعارضون مؤسسة الرهبنة نفسها. ويقول أغسطين في رده على رسالة بتيليانوس Petilianus أسقف قسنطينة(131) : «وبعدئذ بدأ ذلك الفم (فم بتيليانوس) الطافح بالشتائم يصب اللوم على الرهبان والأديرة. انه يأخذ علي أيضا كوني أسست هذا النمط من الحياة. ان بتيليانوس لا يعرف شيئا عن نمط الحياة هذا، أو بالأحرى أنه يتظاهر بجهل شيء معروف جيدا لدى العالم أجمع»(132). يبدو إذن من غير المعقول أن يقول بتيليانوس ما قاله لو كان الدوارون رهبانا. وحتى لو كانوا «نوعا» من رهبان، فلماذا لم يغتنم أغسطين الفرصة ليظهر انتظام رهبانه و«فوضوية» «رهبان» خصمه ؟

---

(126) أعلاه، ص 107.

(127) - Calderone, S., op. cit., p. 103

(128) - Dictionnaire Gaffiot, p. 91 : Agrestis, 1er sens

(129) أعلاه، ص 96-97.

(130) أعلاه، ص 87 وما بعدها.

(131) عن بتيليانوس، انظر الملحق.

(132) - **Aug., C. Litt. Petil., III, 40, 48; B.A. 30, p. 685**

لو صح أن أغسطين هو الذي أدخل مؤسسة الرهبنة إلى افريقيا، حسب ما يبدو من قول بتيليانوس في هذا النص، فإن الرد على نظرية الدوارين — الرهبان سوف يكون أسهل، بما أن وجود الدوارين سابق على أغسطين نفسه، ولكن المشكل لازال معلقا. ويرى المهتمون بصفة عامة أن أغسطين لعب على الأقل دورا كبيرا في تنظيم حياة الرهبنة بافريقيا.
انظر في هذا الموضوع :

- **Quinot, B., note complémentaire 25 : «Augustin est-il le fondateur du monachisme en Afrique ?», B.A. 30; pp. 811-812.**

وأخيرا، لو كان الدوارون «رهبانا متنقلين»، فمن الصعب أن يملكوا الثروة الكافية حتى يفرض عليهم القانون غرامة عشرة أرطال من الفضة (قانون هنوريوس 412). فالناسك — مبدئيا على الأقل — لا يملك الثروات.

وإذا كان Frend لا يقبل أطروحة الدوارين — الرهبان(133)، فإنه مع ذلك يرى شبها كبيرا بين الدوارين والرهبان المتجولين في مصر وسوريا(134). لكن الدوارين — حسب الباحث الانجليزي — لم يكونوا ينتقلون من دير إلى آخر، ولكن من ضريح شهيد (cella) إلى ضريح آخر، ومن تم كانت تسميتهم «بالدوارين»(135). فالنقطة الأساسية في نظره تكمن في تعاطيهم هذا النشاط الديني الذي يفسر في نفس الوقت طريقة حصولهم على الطعام، ذلك أن بعض الكنائس كانت تتوفر على أضرحة الشهداء أو رفاتهم، ولكنها كانت أيضا تتوفر أحيانا على مخازن للمؤن تارة على شكل مطمورات(136)، وتارة على شكل غرف محيطة بالفناء(137). ومن الممكن أن يكون الدوارون قد استعملوا تلك الغرف كبيوت يأوون إليها لقضاء فترة معينة عند الأضرحة والاستفادة من مخازن المؤن الموجودة هناك، الشيء الذي يتطابق وصورة الدوارين — «الكوطوبطاي» Cotopitae ويفسر استعمال ايزدور الإشبيلي لهذا المصطلح الأخير لنعتهم(138).

(133) - Frend, W.H.C., Circumcellions and monks, op. cit., p. 546

(134) - Frend, W.H.C., ibid, pp. 545-546

(135) - Frend, W.H.C., The cellae of the african circumcellions, **J.T.S.**, new series, III, 1952, pp. 87-90.; idem, **The Donatist church**..., op. cit., p. 173.; idem, Circumcellions and monks, op. cit., p. 542.

(136) في أزرو الزاوية جنوب غرب قسنطينة، عثر على مطمورتين لخزن الحبوب، وعلى صفين من الغرف. كذلك في «مشتى التين» شمال بطنة حيث عثر على مطمورتين أيضا
- Frend, W.H.C., circumcellions and monks, p. 547 et N.I.
اعتمد الكاتب على تنقيبات Berthier, A. :
- Berthier, A., **Les vestiges du Christianisme antique dans la numidie centrale**, Alger, 1942, p. 139 et p. 147.

(137) في «عين تمدا» بموريطانيا الصطيفية، مجموعة من الغرف تحيط بفناء الكنيسة. وكذلك في «بير الجديد» بنوميديا الوسطى. وفي «خربة بحرارو»، نفس الشكل (فناء تحيط به غرف)، حيث عثر أيضا على شظايا جرات للزيت...
- Frend, W.H.C., ibid, p. 547, n. 2 et 4.

(138) أعلاه، ص 106، هـ 101، لكن التفسير الذي اقترحه «كالدرون» يبدو — كما رأينا — غير مقنع تماما، أعلاه، ص 107-111.

من هم هؤلاء الدوارون إذن، وما مكانتهم في المجتمع وما هو نشاطهم الاقتصادي ؟

يرى Frend أن الدوارين ــ رواد الأضرحة كانوا يضمون في صفوفهم عناصر مختلطة وخاصة المزارعين Coloni والعمال الموسميين(139). وبالتالي، فإنهم لا يشكلون فئة اجتماعية واحدة ومتجانسة كما يظهرون في قانون هنوريوس (412)، ولكن الرابطة الوحيدة بينهم هي ارتيادهم لأضرحة الشهداء.

والملاحظ بادىء ذي بدء أن الاشتقاق الذي اقترحه Frend لكلمة «الدوارين» لا يتعدى حدود الافتراض، و«البراهين» الأثرية التي يقدمها لم تأت إلا كتبرير لنظرية الدوارين ــ رواد الأضرحة. وربما لم يكن في حاجة إلى كل هذه البراهين، فبعض النصوص تتحدث عن مخازن المؤن الموجودة في الكنائس(140)، وأغسطين طلب من شماسه Eraclius أن يشيد ضريحا على رفات أحد الشهداء وأن يهيىء فيه مأوى للزوار(141)، غير أن تلك المخازن والبيوت لم تكن موجودة في كنائس البوادي فقط، ولكن أيضا في كنائس المدن(142). وقد رأينا سابقا أن الدوارين كانوا من سكان الأرياف، وتلك إحدى سماتهم المميزة الأساسية. ومن جهة ثانية فلكي يكون هذا الاشتقاق مقنعا، يلزم إقامة البرهان على أن ارتياد الأضرحة كان نشاطا خاصا بالدوارين ــ ليس في عهد أغسطين فقط ولكن منذ ظهور الدوارين على مسرح الأحداث ومنذ أول نص يتحدث عنهم، وذلك ما لا يبدو من الممكن إقامة البرهان عليه، كما سنرى(143). وأخيرا،

(139) المقال الذي كتبه Frend في «المعجم» الكلاسيكي لاكسفورد عند كلمة : Donatists.
- **Oxford Classical dictionary, 2nd edit., (1970), p. 361-362.**

(140) - Gesta, I, 189 = Lancel, **Actes...**, II. (S.C. 195), p. 840, 1. 8
يتحدث أحد الأساقفة الكاثوليك (أسقف صطيف بموريطانيا الصطيفية) عن نهب الدوناتيين لاحتياطي الحبوب في كنيسته.

(141) أدناه، ص 167، هـ 98.

(142) إضافة إلى «هيبو» (ابرشية أغسطين) وصطيف (الهامش 1 أعلاه) يمكن اقتراح تفسير للبيوت التي عثر عليها في كنيسة قبريانوس بقرطاج، والتي استعصى على علماء الآثار إعطاء تفسير مقنع لها) على أنها كانت مأوى للزوار.
- Picard, G.C., **La Carthage de Saint Augustin**, Paris, Fayard, 1965, p. 196.

(143) أدناه، الفصل الرابع، ص 162 وما بعدها.

يصعب تفسير صمت النصوص الكاثوليكية عن الاشتقاق الذي اقترحه Frend، طالما أن الكتاب الكاثوليك ـــ وخاصة أغسطين ـــ لم يتورعوا عن التنديد بكل ما يتعلق بتقديس الشهداء عند الدوناتيين كما سنرى فلو كان المقصود بـ«الكيلات» Cellae هو أضرحة الشهداء، وكان الدوارون هم زوار تلك الأضرحة لما ترددوا في إعطاء هذا الاشتقاق، خاصة وأنه كان يدخل في إطار جدلهم الكلامي مع الدوناتيين.

يتضح إذن أنه من الصعب اتباع أطروحتي Calderone وFrend في تفسير كنه الدوارين انطلاقا من الاشتقاقين المقترحين لكلمة Cella، ذلك أن الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى الأطروحتين معا أخطر في الواقع من الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى أطروحة الدوارين كعمال فلاحين.

وقد آن الوقت لكي نرجع إلى تلك الانتقادات لمحاولة التعقيب على بعضها منذ الآن. فالملاحظ أنها بصفة عامة تعتمد تارة على صمت الكتاب الكاثوليكيين، وتارة على تصريحات بعضهم.

وإذا كان من الضروري الاعتماد على النصوص الكاثوليكية، فلا ينكر أحد أن تلك النصوص كانت غير محايدة، وتمثل وجهة نظر طرف واحد من النزاع، هو الطرف الكاثوليكي[144]. وبما أنها كانت مجادلة كلامية ذات طابع ديني أساسا فلا عجب أن تحدثنا ـــ أساسا كذلك ـــ عن الجانب الديني لحركة الدوارين، مهملة الجانب «الزمني» من تلك الحركة. ثم ان صمت أغسطين ـــ أو بالأحرى عدم دقة تصريحاته ـــ يمكن أن يستعمل ضد نظريات المنتقدين أنفسهم. فلو كانوا يسمون بـ«الدوارين» لدورانهم حول أضرحة الشهداء ـــ كما يرى Frend ـــ، فلماذا إذن لم يقل أغسطين ذلك بالنص الصريح، خاصة وأنه كان يحاول دائما أن يورط الدوناتيين في مثل تلك التصرفات الشائنة، خاصة أيضا وأنه كان لا يضيع الفرصة للتنديد بظاهرة «الاستشهاد الباطل» (الانتحار) عند الدوارين[145] ؟ ولو كانوا رهبانا ـــ كما يعتقد «كالدرون» ـــ لما تردد أغسطين في «إعطائهم العبرة» بالرهبان الكاثوليكيين، ولما تورع عن إبراز تناقض الدوناتيين

(144) انظر دراسة المصادر والمراجع، ص 37–49.

(145) عن هذه الظاهرة، انظر الفصل الرابع، ص 150 وما بعدها.

مع أنفسهم عندما يشتمون ظاهرة الرهبنة[146] وبين ظهرانيهم جماعات عديدة من «الرهبان». لذلك، فإن صمت أغسطين لا يمكن استعماله ــ في هذه النقطة بالذات ــ لتأكيد أو نفي أي من النظريات، بما أن التعريف الذي أعطاه للدوارين يبقى تعريفا غامضا وقابلا للتأويلات[147].

أما عن الطابع الفريد الذي تكتسيه إشارة قانون هنوريوس (412) إلى الدوارين، وعن كون هذا القانون أقل اعتبارا من نصوص الكتاب الكاثوليك المعاصرين والموجودين في عين المكان، فإن ذلك لا ينزع شيئا من قيمته. فالملاحظ أولا أنه وضع الدوارين في مرتبة اجتماعية واقتصادية تتلاءم مع الوضعية التي يمكن استنباطها من نصوص الكتاب الكاثوليك أنفسهم (إذا ما جردناها من أسلوب القذف والشتم). ويمكن من جهة ثانية أن نعزو عدم ذكر الدوارين في القوانين السابقة إلى كون المشرع كان يقصدهم ضمنيا في التسمية العامة : فلاحين أو قرويين[148]. هذا فضلا عن أن ظاهرة العمال الأحرار على نمط «حصاد مكثر» كانت ــ على ما يبدو ــ ظاهرة خاصة بافريقيا، في الفترة المتأخرة من الامبراطورية[149]، وهي فترة اتسمت في مجموع الامبراطورية بسياسة تثبيت كل واحد في وظيفته : المزارع Colonus في الحقل، والصانع في حرفته، بل وأعضاء المجالس البلدية في مهامهم إلخ...[150].

وبالتالي فإن تلك الظاهرة (ظاهرة العمال الأحرار) لم تتخذ طابعا مهما بالنسبة للسلطة المركزية و لم تظهر في التشريع الامبراطوري، إلا بعد أن اقترنت بالدوناتية

(146) حسب النص الذي ورد سابقا (C. Litt. Petil., III, 40, 48). أعلاه، ص 112.

(147) أعلاه، ص 85.

(148) أعلاه، ص 102.

(149) يبدو أن أهمية العمل الحر كانت من إحدى ميزات افريقيا طيلة العهد الروماني بالمقارنة مع تفشي النظام العبودي في الأقاليم الأخرى، كما سبقت الإشارة، ص 78.

(150) كما سبقت الإشارة، ص 74.
عن الطابع «الطائفي» (انتظام الحرف في طوائف)، والزام الحرفيين بممارسة مهنتهم، وتوريثها لأبنائهم، انظر مثلا :
- Petit, P., H.G.E.R., t. III = Le Bas-Empire (284-395), pp. 171-175.
وعن «أعضاء المجلس البلدي» : (decuriones) : Petit, ibid, p. 175-181. -

واكتست صبغة ثورة خطيرة هددت أمن افريقيا. وأخيرا، فإن قانون 412 تم تهييئه انطلاقا من معلومات ماركلينوس ــ القاضي الذي ترأس مناظرة قرطاج ــ والذي كان في عين المكان وعلى بينة من الأحوال الافريقية، بل إنه «احتك» بالدوارين بما أنه حاكم عددا منهم في مدينة عنابة[151].

يبقى أن المقارنة بين الدوارين وحصاد مكتر لا تعتمد على أي نص صريح. لكن الباحث إذا اعتمد قانون 412، فسوف يجد أن معطياته لا تنطبق في الواقع إلا على نوعين من سكان البوادي الافريقية : عمال موسميون متنقلون عبر الأقاليم وحسب الفصول للمشاركة في جني مختلف غلات السنة (على نمط حصاد مكتر)، أو أشباه رحل يبحثون عن الكلأ لمواشيهم في الأراضي غير المزروعة أو المغروسة، والتي كانت أحيانا توجد بداخل الملكيات الكبرى، وأحيانا متاخمة لها. وهي الأراضي التي كانت الدولة تسمح بتفليحها لمن أراد ذلك في مقابل أداء ثلث المحصول لصاحب الملكية (الامبراطور أو الخواص)، وذلك حسب قانون هادريانوس Hadrianus[152] وبالتالي، فإن ذلك لا يتنافى مع كون الدوارين كانوا نوعا ما «تحت مسؤولية» الاكارين أو وكلاء الامبراطور (حسب قانون 412)، إذا ما اعتبرنا أن الأراضي البوار أو المهجورة كانت في نظر القانون تابعة للملكية المجاورة أو المحيطة.

على أن نشاطات النوعين (العمال الفلاحيون وأشباه الرحل) لا يتنافيان تماما[153].

ولو افترضنا ــ جدلا ــ مع Frend أن الدوارين كانوا أولئك الذين يدورون حول أضرحة الشهداء، لسقطنا في نفس الإشكال. من هم أولئك الريفيون الذين كانت لهم حرية التنقل عبر الأقاليم وكان لهم الوقت الكافي لذلك ؟ لا «المزارعون»

---

(151) تبادل الرسائل مع أغسطين الذي أعطى دعاية كبيرة لتلك المحاكمة (Epist. 139).
- Lamirande, **B.A.** 32, p. 49 et p. 60, n. I.

(152) أعلاه، ص 73–74.

(153) - Courtois, **Les Vandales et l'Afrique**, Paris; Arts et Métiers graphiques, 1955, pp. 147-148
يعطي احتمالا ثالثا : «ملاك صغار فقدوا أرضهم» ودفعتهم وضعيتهم الجديدة إلى «الثورة ضد» النظام «الذي أتاحها». (ص 148). وفي تقديرنا أنهم عندئذ أصبحوا يبحثون عن العمل في الضيعات (وربما في الأراضي التي كانوا يملكونها سابقا). وبالتالي نرجع إلى النوع الأول (عمال فلاحيون).

Coloni ولا العبيد كانت ظروفهم تسمح لهم بذلك، نظرا لارتباطهم بأسيادهم أو بحقولهم، هل فروا من الضيعات و«الفيلات» Villae ؟ إذا ما اعتبرناهم عبيدا آبقين ومزارعين فارين، فسوف نرجع إلى نظرية عصابات اللصوص والخارجين عن القانون، وهي نظرية لا يمكن قبولها ــ كما رأينا ــ ولا يقبلها Frend نفسه، بما أنه لا يرى في الدوارين «أكثر من متعصبين دينيين»(154).

وهكذا يمكن أن نخلص من مناقشة مختلف الأطروحات التي تفسر كنه الدوارين إلى أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية مكونة من رجال أحرار يعيشون في البوادي، وينتمون ــ في معظمهم على الأقل ــ إلى أصل افريقي غير مرومن أو قليل الترومن. ويتضح أن مكانتهم الاجتماعية كانت وضيعة، بالرغم من احتفاظهم بحريتهم في التنقل وتكوين أسرهم وامتلاك ثرواتهم. ورغم ما توهمنا به أحيانا نصوص الكتاب الكاثوليك بأن الدوارين كانوا خليطا من اللصوص وقطاع الطرق، فلا يبدو من الممكن قبول نظرة الكتاب الكاثوليك ومن حذا حذوهم من المحدثين. ومن جهة ثانية، فإن الاشتقاق اللغوي الراجح لكلمة «دوارين» Circumcelliones هو أنهم كانوا أولئك الذين «يدورون حول مخازن المؤن» الموجودة في الضيع، وليس المقصود بـCellas rusticanas بيوت الرهبان ولا أضرحة الشهداء. ولذلك فإن الدوارين كانوا على الأرجح جماعات من الرحل تبحث عن العمل في الضيعات خلال الغلات الفلاحية الموسمية (حصاد، قطف العنب والزيتون). وبطبيعة الحال، فإن الواقع الاقتصادي للدوارين كعمال متنقلين لا ينفي أن يكون لهم واقع ديني كـ«عساكر الدوناتية» يهاجمون الكنائس والأساقفة الكاثوليك. ويزورون أضرحة الشهداء، إلخ... أي أنه ليس من الضرورة تجريدهم من كل السمات التاريخية التي ظهروا بها في خلال الصراع بين الكاثوليكية والدوناتية. كل ما في الأمر أن الواقع الاقتصادي «للدوار» يبدو سابقا على واقعه الديني الذي خلدته به الكتابات المعاصرة.

لذا، فإن مشكل الدوارين لا ينحصر في تحديد واقعهم الاقتصادي، ومن اللازم البحث عن طبيعة حركتهم حتى نتمكن من إلقاء مزيد من الأضواء على ذلك المشكل.

(154) - Frend, Heresy and schism as social and national movements, **St. in Ch. Hist**, Vol 9, Cambridge, 1972, p. 47 = «There is no reason to believe cither, that circumcellions were other than religious fanatics».

الفصل الثالث
طبيعة حركة الدوارين
أولا : السمـات الاجتماعيـة

كثيرا ما يصف الكتاب الكاثوليك أعمال الدوارين بأنها كانت خرقاء أو جنونية[1] وأن الدوارين كانوا غلاظا[2] وقساة[3] ومخبولين[4]، ويتحدث أغسطين بالخصوص عن «اندفاعاتهم الثورية»[5] وهيجانهم وارهابهم[6]. ويلخص أحد المؤرخين المحدثين انطباعاته عن الدوارين قائلا : «إذا ما اعتبرنا ما كان يقع قريبا من عنابة، فإن الدوارين كانوا يشكلون إحدى القوى الاجتماعية في افريقيا اللاتينية خلال القرنين الرابع والخامس، وكانت قوة تخريب وفوضى»[7].

أن يكون الدوارون قد شكلوا قوة اجتماعية في افريقيا القرنين الرابع والخامس، ذلك ما يبرز بوضوح من المصادر التي وصلتنا عنهم، وذلك ما لا ينكره أحد. ولكن النظر إلى تلك القوة على أنها قوة تخريب وفوضى ــ كما كان الحكم الذي أصدره الكاثوليك والسلطات الرسمية على الدوارين في عدة مناسبات ــ حكم لا يمكن للباحث الأخذ به قبل الوقوف على طبيعة التخريب والفوضى المنسوبين إلى الدوارين، وقبل تحري الأسباب والدوافع التي أديا إليهما.

(1) النص الأول في الملحق (Optat, III, 4) والنصوص : 11 و15 و18 و20 و31 و41 في الملحق.
(2) النص 35 في الملحق.
(3) النصوص : 7 و11 و41 في الملحق.
(4) النص 35 في الملحق.
(5) النص 35 في الملحق.
(6) النصان 31 و37.
(7) Monceaux, P., R.H.R. t. 64, 1911, p. 43 -

إن أقدم إشارة صريحة إلى الدوارين وردت في الفصل الرابع من الكتاب الثالث لابطاتوس الميلي[8]. وهوْ في نفس الوقت أقدم وصف لأعمال العنف الناجمة عن النزاع الديني بين الدوناتيين والكاثوليك، إذ يسرد أحداث المعركة التي دارت في مدينة «باغاي» Bagaï[9] بين الدوناتيين والسلطات الرسمية سنة 347، والتي سوف نعرض لها في فصل لاحق[10].

وفي خضم عرضه لهذه الأحداث، ساق ابطاتوس في بعض الجمل الاستطرادية تعريفا بالدوارين وحركتهم قبل وقوع أحداث باغاي. ويقول ابطاتوس : «... لم يكن أحد يأمن على ممتلكاته عندما كان هؤلاء الأشخاص (أي الدوارون) يسكعون من مكان إلى آخر، قبل صدور قانون الوحدة[11] وعندما حصل «اكسيدو» Axido و«فاسير» Fasir منهم على لقب «زعيمي القديسين». فلم تعد للاعترافات بالديون أي قيمة، ولم يصبح باستطاعة أي دائن أن يرغم مديونه على الأداء. أصبح الكل يعيش في رعب مترقبا رسائل (كذا !) أولئك الذين يتبجحون بصفتهم «زعماء القديسين». وإذا تباطأ أحد الدائنين في تنفيذ مطالبهم، فإن عصابة من المجانين ترتعد لها الفرائص قبل وصولها، تنقض عليه وتحيطه بالمخاطر. وهكذا، فبدل أن يتلقى الدائنون الشكر على عملهم، أرغموا تحت التهديد على التصاغر. وأصبح كل واحد منهم يسرع في التخلي عن الديون التي منحها مهما كانت

(8) Optat, III, 4 (O.S.E.L. 26, pp. 81-85) عن ابطاتوس ومؤلفه، انظر نقد المصادر، ص 37 وما بعدها.

(9) «قصر باغاي» حاليا، شمال غرب مدينة خنشلة الجزائرية (شمال جبال الأوراس) كانت «بلدية» رومانية (municipium romanum) في النصف الأخير من القرن الثاني للميلاد. لكنها لم تذكر لا في «مسالك انطونينوس» (itinerario antonini) ولا في «لوحة بوتينكر» (Table de Peutinger). تعتبر باغاي من أكبر معاقل الدوناتية إن لم تكن أكبرها على الإطلاق. فقد وقعت بها أهم أحداث التاريخ الدوناتي : معركة 347 التي نحن بصددها، و«المجمع البريمياني» الذي انعقد سنة 394 والذي ضم 310 اسقفا من اتباع «بريميانوس» Primianus لإدانة «ماكسيميانوس» Maximianus واتباعه المنشقين عن «الأرثذوكسية» الدوناتية (انظر : ص 235–236، هـ 26) كذلك أعمال العنف التي تعرض لها الكاثوليك في غضون سنة 405 :
- Mesnages, P.J., **L'Afrique chrétienne, Ruines et évêchés**, Paris, E. Leroux, 1912, pp. 253-55.

(10) أدناه، ص 203 وما بعدها.

(11) يقصد قانون قسطنس سنة 347، وسنرجع إليه في الفصل السادس، ص 203 وما بعدها.

كبيرة، وأصبح الربح كل الربح أن يفلت المرء من ضربات الدوارين. والطرق نفسها لم تكن آمنة، فقد حدث لبعض الأسياد أن أرغموا على النزول من عرباتهم، والهرولة كالعبيد أمام عبيدهم الذين جلسوا في مكان الأسياد. هكذا، وبقرار وأمر من الدوارين، كانت وضعية الأسياد والعبيد تنقلب رأسا على عقب»(12).

إن تقديم ابطاتوس للدوارين يوحي ــ بالرغم من لهجة الازدراء ــ بأن الأمر لم يكن يتعلق بعصابات من اللصوص المحترفين أو قطاع الطرق، يهاجمون الناس لمجرد «الحصول على القوت» أو لإشباع غريزة النهب والاغتصاب. بل ان القارىء المعاصر قد لا يستنكف عن التعاطف مع أولئك المشغوفين بالعدالة، الذين نصبوا أنفسهم حماة للعبيد والمديونين والمضطهدين. ولنلاحظ جيدا أن «جنون» الدوارين لم يكن ينصب بدون تمييز على كل من سقط بين «براثنهم». فضرباتهم لم تكن عشوائية، ولكنها كانت موجهة ضد طبقة بعينها هي طبقة الملاك الكبار الذين يملكون الأراضي (possessores) والعبيد (domini) والثروة الكافية لمنح القروض (creditores) أي أولئك الذين كانوا يتحكمون في اقتصاد البلاد، ويسيطرون على كل العاملين بالبوادي، ابتداء من العبيد إلى الفلاحين الصغار الذين أثقل الدين كاهلهم(13).

ولنلاحظ كذلك أن الدوارين لم يقصدوا تخريبا فوضويا يصيبون به كل الملاك ــ على عكس ما يدعيه «مونصو» مثلا ــ(14)، بل إنهم كانوا يهدفون ــ قبل كل شيء ــ انتزاع حق أولئك الذين كانوا يعتبرونهم ضحايا تلك الطبقة المالكة والمستغلة. ولم يكن هجوم «العصابات المجنونة» على الدائنين بقصد سرقتهم أو اغتيالهم، ولكن لإرغامهم على التخلي عن الديون ــ التي يمكن أن نفهم أنها كانت عبارة عن قروض ربوية قاسية. كذلك، لم يكن الهدف من مهاجمة العربات قطع الطريق ونهب الركاب أو اغتصابهم، ولكن الانتقام للعبيد من ظلم أسيادهم.

يبدو من الصعب إذن في ضوء ما ذكر ابطاتوس اعتبار الدوارين مجرد قطاع

(12) النص الكامل في الملحق.

(13) انظر أعلاه، ص 74 وما بعدها.

(14) - Monceaux, P., L'église donatiste, organisations et caractères, **R.H.R.**, t. 64, Paris, 1911, p. 43.

طرق أو قتلة لا مبادىء لهم، بل، على العكس يتضح من النص أن الأمر كان يتعلق بنوع من ثورة ريفية[15] لها مبادئها وأهدافها. وهي أهداف تتلخص في القضاء على النظام الاجتماعي القائم، كما يرمز إلى ذلك قلب الأوضاع بين العبيد والأسياد[16] وبين المديونين والدائنين[17]. وربما كانت تلك المبادىء مستقاة من مبادىء المسيحية البكر (في أصولها الأولى)، وانعكاسا لتأثير ديني يقول بالمساواة بين المؤمنين في يوم آخر تنقلب فيه الأدوار بين الأقوياء والضعفاء، وبين المضطهِدين والمضطهَدين، بين الأمراء (الوثنيين الذين يمثلون الشيطان) والمؤمنين المعذَّبين، إلخ...[18]. وهذا ما يمكن أن يفسر ــ في اعتقادنا ــ أن الدوارين كانوا يطلقون على رؤسائهم لقب «زعماء القديسين»، الذي كان لقبا شائعا عند الدوناتيين الذين كانوا يعتبرون كنيستهم «كنيسة القديسين»[19].

على أنه من غير الممكن الحديث ــ في هذه الفترة المبكرة من حركة الدوارين ــ عن دخولهم في صراع ديني بجانب الكنيسة الدوناتية ضد الكاثوليك. إذ أن ابطاتوس لا يتحدث عن هجوم الدوارين على الكنائس أو الأساقفة الكاثوليكيين ــ الشيء الذي سوف يتم في عهد أغسطين ــ، ولكنه يتحدث فقط عن اعتراض الدوارين سبيل الملاك والأسياد والدائنين، بغض النظر عن انتمائهم المذهبي. فالأمر ــ حسب الظاهر ــ لا يتعلق بحرب دينية ولكن بصراع على المستوى الاجتماعي بين طبقة مستغِلة وأخرى مستغَلة[20].

وإذا كانت للدوارين مبادىء تقود تصرفاتهم، فإن عملياتهم هي الأخرى لم تكن عشوائية، بل كانت منظمة إلى حد ما، بحيث كانت العملية الأولى هي ارسال

(15) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 328

(16) «... وهكذا، انقلبت وضعية الأسياد رأسا على عقب، بقرار الدوارين وأمرهم».

(17) «... فبدل أن يتلقى الدائنون الشكر على عملهم، أرغموا ــ تحت التهديد ــ على التصاغر...».

(18) - Frend, W.H.C., Heresy and schism as social and national movements, **Studies in church history**, Vol. 9, Cambridge, 1972, p. 46-46.

(19) - Optat, II, 1; 14; 20

(20) سنرجع إلى هذه النقطة بتفصيل في الفصل الخامس.

انذار إلى الدائن[21]، ولا يبدأ تنفيذ التهديد إلا في حالة ما إذا لم يظهر المعني بالأمر استعدادا لتلبية المطلوب، أي التخلي عن الدين[22]. وحسب ما يبدو، فإن هذه الطريقة أتت أكلها، بحيث أصبح بعض الدائنين يتخلون تلقائيا عن القروض التي منحوها «مهما كانت كبيرة» لمجرد الخوف من رسائل الدوارين الانذارية.

كذلك، كان للدوارين رؤساء من اختيارهم — على ما يبدو — إذ أن الدوارين هم الذين أطلقوا لقب «زعيمي القديسين» على «أكسيدو» و«فاسير»[23]، الشيء الذي يزيح من الاعتبار أن الكنيسة الدوناتية كانت تترأس عمليات الدوارين في هذه الفترة المبكرة من ثورتهم.

ويبدو أن حركة الدوارين عرفت منذ ذلك الوقت توسعا مهما، على الأقل في بعض مناطق نوميديا. فـ«الطرق نفسها لم تكن آمنة»، و«الكل أصبح يعيش في رعب ترقبا لرسائل الدوارين»، وحتى أولئك الذين لم تصلهم الانذارات أصبحوا يتخلون تلقائيا عن ديونهم[24].

ويمكن بطبيعة الحال أن نتصور أن ابطاتوس ربما بالغ في تصريحاته وغالى في تقدير عنف الدوارين، لأن غرضه من الحديث عنهم كان — قبل كل شيء — إلقاء المسؤولية على عاتق الدوناتيين في أحداث 347، باعتبار أن الدوناتيين استعملوا عنف الدوارين لمقاومة «بولس» و«مكاريوس». غير أن الأمر يبدو مخالفا لهذا الاحتمال، لأن ردع الدوارين تطلب تدخل جيش مسلح بطلب من الدوناتيين أنفسهم. ويقول ابطاتوس في هذا الصدد[25] : «ونظرا لكون هذه التصرفات جلبت الحقد على أساقفتكم، فإنهم — على ما يقال — بعثوا رسالة إلى «طورينوس»

(21) أبطاتوس، النص أعلاه، ص 120–121 : «أصبح الكل يعيش في رعب خوفا من رسائل أولئك الذين يتبجحون بصفتهم زعماء القديسين».

(22) ابطاتوس، نفس المصدر : «... وإذا ما تباطأ أحد (أي أحد الدائنين) في تنفيذ مطالبهم، فإنه كان يعرض نفسه لهجوم عصابة مجنونة...».

(23) ابطاتوس، المصدر نفسه : «... وعندما حصل «أكسيدو» و«فاسير» من أولئك الحمقى على لقب زعيمي القديسين...».

(24) ابطاتوس، المصدر نفسه : «... وأصبح كل واحد منهم (أي من الدائنين) يسرع في التخلي عن الديون التي منحها مهما كانت كبيرة...».

(25) المصدر نفسه (النص الأول في الملحق).

Taurinus ــ الذي كان يشغل آنذاك وظيفة «كونت» Comes[26] افريقيا ــ أعلنوا فيها أن مثل هذا النوع من الناس لا يمكن إصلاحهم في إطار الكنيسة. لذا، فإنهم طلبوا من «الكونت» المذكور أن يعمل على ارجاعهم إلى الطريق السوي. وهكذا، فإن طورينوس أجاب على رسالتهم بأن بعث جنودا مسلحين إلى الأسواق حيث اعتاد الدوارون ممارسة أعمالهم الخرقاء. وفي «محلة اكطافا»[27]، تم قتل عدد كبير من الدوارين وجرح عدد آخر منهم».

فالملاحظ إذن أن تلك الحركة استفحل أمرها لدرجة أنها تطلبت تدخل «كونت» افريقيا، أي أعلى سلطة عسكرية في البلاد. وهكذا فلم يكن الأمر يتعلق بحركة تلصص عادية، طالما أن الملاك لجأوا من غير شك إلى حماية السلطة العسكرية ولم يعد في طاقتهم التصدي لجموع الدوارين بوسائلهم الخاصة.

---

(26) لقب معناه الأول «صاحب» أو «رفيق». أما منصب «الكونت»، فكان من إبداع الامبراطور قسطنطين الذي عين عددا من «أصحابه» في مهام متنوعة : مالية، إدارية، عسكرية، إلخ... بجانب الحكام (magistratus) التقليديين، وخاصة ولاة «الدوقيات» (ولاة الدوقيات هم «الفيكاريوسات» Vicarii : والأبرشيات تضم عددا من الأقاليم : مثلا دوقية افريقيا كانت تضم سبعة ثم ستة أقاليم. أعلاه، ص 22، هـ 3). وكان «كونت» افريقيا و«كونت» دوقية الشرق «الكونتين» الوحيدين اللذين احتفظا بفعالية المنصب. أما الآخرون، فقد أصبح لقبهم فخريا. كان «كونت» افريقيا يعوض الوالي (Vicarius) أو يعمل بجنبه قائدا على الجيش.

- Petit, P., **Histoire générale de l'Empire romain**, Paris, Seuil, 1974, t. III, p. 73.

(27) Iocus octaviensis. ربما كان الأمر يتعلق بتجمع قرى حول ضيعة كبيرة كانت في ملك شخص يدعى اكطافيوس. ونجد أمثلة لهذه «المحلات» (loca) في محضر مناظرة قرطاج، مثلا:

locus tibuzabetensis, locus nasaitensis (**Gesta**, I, 187; Lancel, S., **Actes...**, S.C., t. 195, p. 828 et p. 832).

وهي عبارة عن تجمعات سكنية كانت ــ على عكس «المدن» : civitates ــ لا تتوفر على إدارة مركزية بواسطة الحكام البلديين من النوع التقليدي (magistratus curatores).

- Lancel, S., **Actes...**, **Introdution**, S.C., t. 194, p. 139.

لا نجد ذكر «محلة اكطافيوس» من بين الابرشيات النوميدية التي حضر أساقفتها في مناظرة قرطاج. ويرى Mesnage أنها Octava التي ذكرت كأبرشية في مجمع 256 على عهد قبريانوس : (Optat Sancti. cypr. Sententiae Episc., 78) والتي كانت ابرشية كذلك حوالي 484، حسب «لائحة الأقاليم والمدن الافريقية» «Notitia provinciarum et civitatum africae» التي ذكرها من بين ابرشيات نوميديا تحت العدد 36. ولكن مكانها في نوميديا غير معروف بالضبط :

- Mesnages, J., **L'Afrique chrétienne : Evêchés et ruines antiques, d'après les manuscrits de Mgr toulotte et les découvertes archéologiques les plus récentes**, Paris, E. Leroux, 1912, p. 426.

ويقول ابطاتوس أن عدد الدوارين تزايد بعد معركة «محلة اكطافا»[28]، مما يفهم معه أن عملياتهم الثورية تكاثرت وأنهم أصبحوا يهددون الأمن في عدة مناطق. ولا ندري بالضبط هل وقعت معارك أخرى بينهم وبين الجيش خلال السبع سنوات التي تفصل تقريبا معركة «محلة اكطافا» عن معركة «باغاي». على أن تطور الاحداث الدينية في سنة 347 بصدور قانون قنسطنس ووصول «بولس» و«مكاريوس» إلى افريقيا ــ لتنفيذ ذلك القانون ــ، لم يكن ــ على الأرجح ــ بدون علاقة مع ثورة الدوارين[29]. ذلك أن المبعوثين الرومانيين لم يلبثا أن طلبا تدخل سلفيسطر Sylvester ــ «كونت» افريقيا الجديد ــ، ضد أسقف «باغاي» الدوناتي الذي استعان ــ من جهته بجموع الدوارين ــ حسب ما ورد عند ابطاتوس ــ وكان رد فعل مكاريوس عنيفا تجاه الأساقفة الدوناتيين في نوميديا، بعد وقوع أحداث باغاي. فلم يكتف بنفي بعضهم ومصادرة ممتلكاتهم وكنائسهم، ولكنه عاقب عقابا صارما كل من شك فيه بالتعامل مع الدوارين[30]، الشيء الذي يدل على أن حملة بولس ومكاريوس في جنوب نوميديا لم تأخذ طابع اضطهاد ديني للدوناتية فحسب ولكن أيضا اتخذت صبغة عملية تطهير «بوليسية» ضد حركة الدوارين، إضافة إلى أنها اكتست شكل حملة رومانية ضد السكان الأصليين في أرياف تلك البقاع[31].

خلاصة القول أن نوميديا الجنوبية عرفت في الفترة السابقة مباشرة لقانون قنسطنس (347) حركة تمرد خطيرة تطلبت تدخل أعلى سلطة عسكرية في البلاد، وربما كان القضاء عليها أحد الأهداف الأساسية التي توخاها قنسطنس ومبعوثاه الخاصين إلى افريقيا سنة 347. على أن تمرد الدوارين ضد المجتمع والسلطات الرسمية وحتى الكنيسة لا يبرر الحكم على حركتهم بأنها كانت «تخريبية وفوضية» ــ في هذه الفترة المبكرة على الأقل ــ.

(28) ابطاتوس : النص الأول في الملحق : «وقد تزايد عدد الدوارين بعد ذلك...».

(29) كما حاولنا طرحه في الفصل السادس.

(30) - Martroye, F., La répression du donatisme et la politique religieuse de constantin et de ses successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., t. 78, Paris, 1914, p. 65.

(31) أدناه ص 226 وما بعدها.

وابتداء من 347، يصعب تتبع حركة الدوارين بكامل الدقة، ماذا وقع بعد ذلك بالضبط ؟

هل شاركوا في عمليات العنف التي نسبها ابطاتوس إلى الأساقفة الدوناتيين حوالي 362 بعدما حصلوا من يوليانوس المرتد على قانون يسمح لهم بالعودة من المنفى واسترجاع بعض كنائسهم وممتلكاتهم ؟[32] هذا ما يعتقده «مونصو»[33]، وإن كان ابطاتوس لم يذكر الدوارين صراحة في تلك الأحداث، وإنما تحدث عن «عصابات» كانت ترافق الأساقفة الدوناتيين في تحركاتهم عبر نوميديا وموريطانيا[34]. هل شاركوا في ثورة فيرموس (372–375) الزعيم الموريطاني المتمرد على روما، ثم في الحركة الانفصالية التي قادها أخوه جيلدو بعده بعشرين سنة (396–398) ؟[35] هل شكلوا تلك العصابات المسلحة التي قال عنها أغسطين أنها كانت تعمل تحت قيادة «الأسقف «الصعلوك» ابطاتوس «الجيلدوني» ــ الأسقف الدوناتي تِمكَاد ؟[36] إن أغسطين الذي تعرض لتلك الأحداث في

(32) - Optat., II, 18-19

(33) - Monceaux, P., **R.H.R.**, t. 64, 1911, p. 41

(34) - Warmington, B.H., **the North African provinces**..., op. cit., p. 94

(35) - Monceaux, P., op. cit., p. 41

(36) النص 14 في الملحق، «ابطاتوس الجيلدوني» : هو أسقف تمكَاد من حوالي 388 إلى حوالي 398، ربطته بالزعيم الافريقي Gildo الثائر على روما (397–398) علاقات صداقة حميمة حسب ما جاء عند أغسطين.

- **C. Ep. Parm.**, II, II, 4; **B.A.** 28, p. 270.

يقول عنه أغسطين أنه كان يترأس «عصابات» مسلحة وجنودا ولكنه لا يشير إلى أنها كانت من الدوارين.

- **C. Litt. Petil.**, II, XXIII, 53; **B.A.** 30, p. 290-292.

لعب دورا مهما في ارجاع بعض الأساقفة «الماكسميانيين» إلى حظيرة الدوناتية «الأرثدكسية»، واستعمل العنف في ذلك. اختلف الباحثون حول طبيعة علاقة ابطاتوس الجيلدوني وبالتالي علاقة الدوناتية بثورة جيلدو. ويقول أغسطين أن ابطاتوس، «مات في السجن، إثر اتهامه بالتبعية لجيلدو» (سنة 398).

- **C. Litt. Petil.**, II, XCII, 109; **B.A.** 30, p. 496.

لكن الدوناتيين، في مناظرة قرطاج ــ على الخصوص ــ أكدوا أن ما عاناه الماكسميانيون من حزبهم كان من عمل بعض الأساقفة الدوناتيين، وليس من عمل الكل.

- **Gesta**, III, 258; Lancel, **S.C.** 224, p. 1216.

=

كتاباته لم يذكر بالنص الصريح اسم الدوارين، وإن كان قد تحدث عن تلك العصابات بأسلوب يشبه ذلك الذي كان يستعمله عادة لوصف الدوارين. وإذا ما رجعنا إلى هذه النصوص نجد أن أغسطين يستعمل في حق الدوارين لهجة تنم عن كثير من الازدراء، ويوجه إليهم تهما يمكن تلخيصها في أحد نصوصه حيث يخاطب الدوناتيين قائلا : «إنكم أنتم أيضا على بينة من كل الويلات التي يعاني منها ذوونا بسبب الجنون المسعور لكهنة ودواري حزب دوناتوس : فهناك كنائس أحرقت، وكتب مقدسة أرميت في النار، وحتى المساكن الخصوصية أحرقت، وأشخاص انتزعوا قسرا من بيوتهم التي نهب أو هدم كل ما كان موجودا بها، والأشخاص أشبعوا ضربا وتمزيقا وأطمست عيونهم، بل تجاوز المعتدون ذلك إلى قتل ضحاياهم. حقا، إن انتزاع نور الحياة من رجل محتضر لهو أقل قسوة من انتزاع نور البصر من رجل على قيد الحياة. كما اعترضوا سبيل أشخاص لا بغرض القبض عليهم والذهاب بهم إلى مكان ما[37]، ولكن لتعذيبهم هكذا بكل بساطة...»[38].

إن هذا النص يلخص التهم الموجهة إلى الدوارين والكهنة الدوناتيين : إحراق الكنائس وتعذيب الضحايا بقسوة بالغة وقتلهم أحيانا. بل إنهم كانوا أيضا يعترضون سبيل أشخاص من العامة (غير الاكلركيين)، فلا يكتفون باحتجازهم في مكان سري، ولكن يعذبونهم لمجرد إشباع شهوتهم في تعذيب الآخرين. وإذا ما صدقنا أغسطين، فإن الدوارين كانوا يعترضون سبيل كل من تمكنوا منهم من الضحايا[39] و«كل أنواع الأشخاص»[40]، حتى «الأبرياء» لا بحافز آخر غير «الحقد الجائر»[41].

= مما يفهم معه أن الاكليروس الدوناتي لم يكن كله مساندا لأعمال ابطاتوس.

عن ابطاتوس : - Frend, W.H.C., the Donatist church..., pp. 208-226
- De Véer, B.A. 31, pp. 781-782.

(37) كان الدوارون يحتجزونهم في مكان سري، على غرار ما سنرى بعد قليل في نص آخر لأغسطين.

(38) النص 41 في الملحق.

(39) النص 7 في الملحق.

(40) النص 8 في الملحق.

(41) النص 28 في الملحق.

يبدو إذن تبعا لهذه التهم أن الدوارين الذين تحدث عنهم ابطاتوس «قبل صدور الوحدة» على عهد «أكسيدو» و«فاسير» تحولوا شيئا فشيئا — على حد زعم أغسطين — إلى لصوص عاديين، وأن ثوار العهود الأولى انحطوا من منصفين اجتماعيين إلى عصابات من القتلة والمجرمين. غير أن بعض الملاحظات تمنع من الأخذ بهذا الرأي، رغم أن المرء بطبيعة الحال يمكنه أن يتصور أن جو الصراع الديني وما رافقه من قلاقل اجتماعية كان مناسبة لتعسفات مختلفة ولممارسة مبتذلة لأعمال العنف والتلصص.

ففي الرسالة التي بعث بها أغسطين إلى «الكونت بونيفاكيوس» حوالي 417[42] — أي بعد مناظرة قرطاج بست سنوات —، يتحدث أسقف هيبو Hippo (عنابة) عن الدوارين كالتالي : «قبل أن يصدر الأباطرة الكاثوليكيون[43] هذه القوانين، كانت عقيدة سلام المسيح ووحدة المسيح تنتشر شيئا فشيئا، بل اعتنقها بعض الأفراد من حزبهم، كل حسب ثقافته ورغبته وامكاناته، مع أنه كان عندهم في ذلك العهد جماعات من الخرق لا إيمان ولا قانون لهم، يعكرون طمأنينة الأبرياء لأسباب مختلفة. فمن من الأسياد من لم يرتجف خوفا من عبده إذا ما وضع نفسه (هذا العبد) تحت حمايتهم ؟ ومن كان يجرؤ على تهديد أحد من هؤلاء المخربين أو من كان يحميهم ؟ ومن كان يقدر على المطالبة بالتعويض ممن نهبوا بيوت مؤنه أو من أي مديون إذا ما طلب نجدتهم وحمايتهم ؟ لقد كان الناس يمزقون عقود شراء أحقر العبيد ويطلقون سراحهم خوفا من السوط والحريق والقتل المبين. وكانت القروض تنتزع قسرا من المدينين لترجع إلى المديونين — أما الذين لم يعبأوا

(42) وكيل عسكري مكلف بتنفيذ القوانين الصادرة على الدوناتيين. كان يشغل هذا المنصب في سنة 417. وفي سنة 422، أصبح «بونيفاكيوس» كونت على افريقيا. واعلن فيما بعد (حوالي سنة 427) انفصاله عن السلطة المركزية الرومانية. ووجهت إليه بعد ذلك تهمة التعامل مع الوندال ومساعدتهم في الاستيلاء على افريقيا (429–430) :

- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 156.

(43) لا يقصد بصيغة الجمع a catholicis imperatoribus كل الأباطرة الذين تدخلوا ضد الدوناتية خلال القرنين الرابع والخامس، ولكن فقط «هنوريوس» وزميله الامبراطور على الجزء الشرقي (اركاديوس). ذلك أن الصياغة العادية للقوانين الامبراطورية كانت في تلك الفترة تشتمل دائما على اسمي امبراطوري الشرق والغرب.

- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 330, n. 2.

بانذاراتهم القاسية، فكانوا يرغمون على تنفيذ ما طلب منهم بضربات أكثر قساوة. وهكذا دمرت أو أحرقت منازل أشخاص أبرياء لأنهم جرؤوا على إهانتهم. وقد حدث لبعض أرباب الأسر من ذوي النسب المحترم والثقافة العالية أن نجوا بحياتهم بأعجوبة من تحت الضرب، أو غلوا إلى رحى وأرغموا على تدويرها تحت السوط كالحيوانات»[44].

ان الدوارين يظهرون في هذا النص بأوصاف مماثلة تقريبا لتلك التي نعتهم بها ابطاتوس عندما كانوا يقومون بعملياتهم في نوميديا تحت زعامة «أكسيدو» و«فاسير»، أي قبل سبعين سنة تقريبا[45]. ويبدو إذن أن حركة الدوارين احتفظت بطابعها النضالي من أجل تحقيق نوع من عدالة اجتماعية والدفاع عن المضطهدين من العبيد والمديونين، وأنها نشطت من جديد خلال الفترة السابقة مباشرة لتدخلات هنوريوس في الشؤون الدينية الإفريقية، أي خلال السنين الأخيرة من القرن الرابع والسنين الأولى من القرن الخامس.

ولا يبدو أن أغسطين قد نقل معلوماته هذه بكل بساطة عن نص ابطاتوس المشار إليه أعلاه[46]، لأن أوصافا دقيقة ذكرها عن أعمال الدوارين كانت قد وردت مبهمة عند ابطاتوس. فهذا الأخير، اكتفى بالإشارة إلى أن «عصابة مجنونة» تصل فجأة ويسبقها رعب رهيب، فتحيط الدائنين بالمخاطر»[47]. وعلى العكس، يتحدث أغسطين عن تخريب المنازل وإحراقها، ويشير بالتفصيل إلى الإهانات التي كان يتعرض لها الأسياد : بالسوط والإحراق و«تدوير الرحى تحت السوط كالحيوانات».

ويبدو أن الحركة تقوت و«تطرفت» بعض الشيء، فأصبح العبيد والمديونون يجدون ملاذا حقيقيا لدى الدوارين، إذا ما وضعوا أنفسهم تحت حمايتهم والتحقوا

(44) النص 42 في الملحق.

(45) - Brisson, J.P., op. cit., p. 330-331
- Frend, W.H.C., circumcellions and monks, op. cit., p. 546, n. 1.

(46) هذا ما يراه Tengström، حسب تقرير Lancel :
- Lancel, S., Tengström, **Donatisten und Katholiken...**, **R.E.L.**, 1965, p. 639.

(47) النص أعلاه، ص 121.

بهم. كما أن الدوارين أصبحوا لا يكتفون بابطال الديون، بل بدأوا ينتزعونها قسرا من الدائنين ليرجعوها إلى المديونين.

وهكذا نلاحظ أن الحركة لم تكن على أي حال ظاهرة تلصص عادية كما يوحي به أغسطين. فنفس المبادىء التي كانت تقود حركة «أكسيدو» و«فاسير»، ونفس طريقة العمل ظلت قائمة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس : فالضربات موجهة إلى نفس الفئة الاجتماعية : فئة الدائنين وملاك العبيد والأرض، والحماية تشمل نفس الفئات المستضعفة فئات العبيد والفلاحين الصغار والمزارعين المديونين، والرسائل الإنذارية لازالت تسبق التنفيذ، والتنظيم على شكل «جماعات» هو نفس التنظيم.

والراجح أن عمليات الدوارين لم تتوقف تماما بعد صدور مرسوم الوحدة في عهد هنوريوس (405)[48] على عكس ما يمكن أن يفهم من بداية نص أغسطين. ففي حوالي سنة 410، قام الدوارون بالهجوم على عدد من الضياع القريبة من مدينة Hippo Regius (عنابة) حيث كانت أبرشية أغسطين، فبعث هذا الأخير رسالة إلى زميله Macrobius الأسقف الدوناتي بنفس المدينة، يقول فيها :

«إنكم تتعهدون بمنح التعويض للملاك المتضررين (من أعمال الدوارين) لكنكم لا ترغبون في الوفاء بوعدكم تماما، لأنكم تخشون عداوة اللصوص الجريئين الذين لم يتورع كهنتكم عن الاعتماد عليهم من قبل. والواقع أن الدوارين يتبجحون بالخدمات التي أسدوها إليكم سابقا. فهم يذكرونكم ويعددون أمامكم ما فعلوه من أجلكم قبل هذا القانون التسامحي[49] الذي سررتم له غاية السرور لأنه أعطاكم الحرية. ان الفضل يرجع إليهم — على حد قولهم — في كون كهنتكم استطاعوا الاحتفاظ بملكياتهم وكنائسهم بعدما نهبوا ذوينا وطردوا كهاننا. فإذا أنتم أردتم معاملتهم بصرامة، فسوف تبدون شديدي النسيان للجميل والنكران

---

(48) مرسوم «الوحدة» بين الكاثوليك والدوناتيين عبارة عن أربعة قوانين صدرت في 12 فبراير 405. لائحة القوانين التي أصدرها هنوريوس ضد الدوناتيين، أدناه، هـ 98، ص 252–253.

(49) قانون التسامح الذي أصدره هنوريوس سنة 410.

للمعروف»[50]. هنا أيضا، نجد أغسطين ينعت الدوارين باللصوص لأنهم نهبوا ضيع بعض الملاك الكاثوليك[51]. وعلى ما يبدو، فإن الدوناتيين تحملوا مسؤولية ذلك النهب، وكذلك وتفاديا لأي ضرر يمكن أن يلحق بكنيستهم ـــ التي مازالت «تتنفس الصعداء» بعد حصولها على قانون جديد يتسامح معها ويوقف الاضطهاد القاسي الذي تعرضت له منذ 305[52] ـــ فإنهم قرروا «تعويض» الملاك المتضررين من «نهب» الدوارين. لكنهم ـــ حسب أغسطين ـــ لم يجرؤوا على الوفاء بما وعدوا به خشية اغضاب الدوارين[53]. عجيب أمر هؤلاء اللصوص الذين لا يكتفون بنهب ضحاياهم، ولكن يمنعون الآخرين من اعطائهم أي تعويض ! ليكن، كل ما يهم الآن هو أن حركة الدوارين ظلت قائمة على نفس المبادىء حتى سنة 410. وربما كان اتساع نطاقها في تلك الفترة السبب الرئيسي لتدخل هنوريوس من جديد في الصراع الدوناتي الكاثوليكي واعطائه الأمر بعقد مناظرة بين الطرفين بهدف القضاء على الدوناتية بصفة نهائية، طالما أنها حملت مسؤولية تمرد الدوارين.

بعد مناظرة قرطاج (411)، وما تبعها من اجراءات ضد الدوناتية والدوارين[54]، لا نتوفر على نصوص مشابهة للتي عرضنا الآن والتي يمكن الاستدلال بها عن مهاجمة الدوارين للملاك. غير أن تحركات الدوارين لم تتوقف على ما يبدو. ويقول أغسطين في سنة 418 أن الكاثوليك «لازالوا حتى الآن يتحملون بقاياها بكل ما حباهم الله من صبر»[55].

وبطبيعة الحال فإن السؤالين المطروحين هما :

ما هو الدافع الذي جعل العبيد والمزارعين المديونين والدوارين يتفقون في التحرك ضد الملاك ؟

(50) - (Ep. 108, 5, 14; Monceaux, R.H.R., t. 64, p. 42)

(51) يقارن مع النص السابق (النص 42)، أعلاه، ص 128 «... ومن كان يقدر على المطالبة بالتعويض ممن نهبوا بيوت مؤنه...؟».

(52) قانون الوحدة الذي أصدره هنوريوس، عن قوانين هنوريوس أنظر لائحتها أدناه، هـ 98، ص 252-253.

(53) عن العلاقات بين الدوارين والدوناتيين، في هذه الفترة، انظر الفصل السابع.

(54) خاصة قانوني هنوريوس لسنتي 412 و414. أعلاه، ص 87 وص 90.

(55) النص 45 (Gesta Cun Emerito, 12).

ولماذا قاد الدواورون هذا التمرد وكانوا العنصر المحرك له ـــ على ما يبدو من النصوص السابقة ـــ؟

فبالنسبة للعبيد والمزارعين، تطرقنا في الفصل الأول إلى الظروف التي كانوا يعيشون فيها في الأرياف الافريقية في القرن الرابع. ويرى المؤرخون أن عدد العبيد ودورهم تناقصا بدون شك خلال العهد المتأخر من الامبراطورية(56) ولكن ذلك لا يعني أن معاملة الأسياد لهم قد تحسنت، بل إنهم في الأرياف خاصة كانوا يتعرضون لمعاملة قاسية(57). وفرار العبيد والتحاقهم بالدوارين شيء يدل في حد ذاته على أن أولئك العبيد كانوا يعيشون في ظروف قاسية. أما بالنسبة للمزارعين، فقد سبقت الإشارة أيضاً إلى الظروف الصعبة التي أصبحوا يعيشون فيها في القرن الرابع : فبالإضافة إلى تعدد الضرائب والإثاوات والهدايا التي كانت مفروضة عليهم من قبل الملاك والدولة، أصبحوا مرتبطين بالأرض التي يحرثونها وفاقدين جزءا كبيرا من حريتهم(58). ولا أدل على ذلك من كون المشرع أوكل إلى الملاك عقاب مزارعيهم بعقوبات جسدية(59).

فالواضح إذن أن الأسباب كانت متوفرة لتمرد العبيد والمزارعين. بقي مشكل الدوارين، هنا يمكن أن تختلف الآراء حول تعليل ثورتهم ويرى «بيكار» Picard أن تزايد السكان في افريقيا بسبب «خصوبة الأمهات الليبيات» أدى إلى فائض من العمال الفلاحيين الذين أصبحوا يهددون أمن البلاد بعد أن كانوا يوفرون لها طاقة بشرية مرغوبا فيها خاصة في المواسم الفلاحية(60).

ومن الصعب اتباع هذا الرأي(61) عندما يفسر تناقصَ فرص العمل بالتزايد

---

(56) - Pigagniol, A., l'**Empire chrétien** (325-395), 2 éd, 1972, p. 448

(57) - Pigagniol, A., ibid, p. 449-50
- Gsell, st., les esclaves ruraux dans l'Afrique Romaine, **Mélanges G. Clotz**, t.I, Paris, 1932, p. 406-47.
انظر أعلاه، ص 76-78.

(58) أعلاه، ص 74 وما بعدها.

(59) القانونين الصادرين في 412 و414 ضد الدوناتيين. انظر أعلاه، ص 87 وص 90.

(60) - Picard, C., **la civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, 1959, pp. 67-68 et p. 156

(61) الذي يبدو متأثرا بالحالة في شمال افريقيا على عهد الاستعمار الفرنسي. لا أرى مجالا هنا=

الطبيعي للسكان، إذ أننا لا نملك دليلا على هذا التزايد في الفترة التي نحن بصددها[62]. ويبدو من الأصح أن نركز على مظاهر الأزمة التي كان يعيشها العالم الروماني منذ القرن الثالث[63]. طبعا، لم تعرف كل أقاليم الامبراطورية تلك الأزمة بنفس الحدة، ويرى كثير من الباحثين أن افريقيا احتفظت بازدهار نسبي بالمقارنة مع باقي أقاليم الامبراطورية. لكننا إذا ما تفحصنا هذا الازدهار نجده في الواقع ينبني على ملاحظتين : فمن الناحية الأثرية، يلاحظ أن المدن ظلت تشيد

= لإبراز «الايديلوجيا» الاستعمارية التي تطبع هذا الكتاب بالرغم من أن للكتاب قيمة علمية (وثائقية واضحة، وأن صاحبه من أبرز المنقبين الآثاريين في افريقيا الشمالية ومن أكبر المتخصصين في تاريخها القديم (البونيقي والروماني). لأخذ فكرة عن تلك الإيديلوجيا الاستعمارية عند Picard، يمكن إعطاء مثالين : ص 3 : «(عمليات مسح الأراضي الافريقية على عهد روما) ترمز إلى خلود التأثير الذي مارسته الحضارة الرومانية على البلاد (الافريقية)، وهي الحضارة الوحيدة التي أجهدت نفسها قبل حضارتنا نحن (الفرنسيين) في استثمار البلاد استثمارا معقلنا». وفي ص 7 يتحدث عن الثورة الجزائرية ضد الوجود الفرنسي قائلا : «ان الأحداث الراهنة في الجزائر تظهر لنا بمرارة كم عددا من الجنود يلزم تجنيدهم لضمان الأمن في هذه البلاد التي يبدو وكأن الطبيعة حبتها بشكل ييسر فيها التمرد والتلصص ونصب الكمين» إلخ...

(62) على الأقل. أما بالنسبة للفترة السابقة (من عهد أغسطس حتى الثلث الأول من القرن الثالث، أي إلى أزمة 238)، فإن «بيكار» يرى أن اتساع رقعة المدن يعطي الدليل على تزايد السكان. (Picard, G.C., ibid, p. 47) ويقدر عدد هؤلاء في عهد نيرو (54-68م) بحوالي ثلاثة ملايين ونصف، (ص 58)، وفي عهد «الازدهار» (من أواسط القرن الثاني إلى الثلث الأول من القرن الثالث) بستة ملايين ونصف (ص 57)، وبذلك يكون عددهم قد تضاعف تقريبا في خلال قرن واحد «تماما كما تضاعف عدد سكان المغرب الحديث منذ 1830» (ص 58). وقد أعطى «كورطوا» ــ مثلا ــ تقديرات أخرى : 4 ملايين في العهد الامبراطوري المبكر و3 ملايين في العهد المتأخر (أخذا بالاعتبار تخلي روما عن بعض المناطق بعد ديقليديانوس).

- Courtois, Chc, **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 106.

ومهما يكن من تلك التقديرات، فإن تزايد السكان في القرن الرابع يبدو أقل احتمالا، ولا يمكن أن نستدل عليه بما كشفت عنه التنقيبات الأثرية في بعض المدن الافريقية من وجود تراكم للسكان في تلك المدن، يتمثل في اكتساح البناء لبعض الأماكن العمومية (الساحات وحتى الأزقة) وإضافة طوابق في البنايات الموجودة.

- Picard, G.C., **la Carthage de Saint-Augustin**, Paris, Fayard, 1965, p. 28.

والراجح ــ حسب الكاتب نفسه ــ أن هذا التراكم في المدن كان ناتجا عن هجرة السكان من البادية حيث أصبح الأمن منعدما (نفس المرجع والصفحة).

(63) أعلاه ص 59 وما بعدها.

البنايات وتجملها[64]، ومن الناحية التاريخية، يرى الباحثون أن روما وإيطاليا ظلتا تعتمدان في تغذيتهما على قمح افريقيا مما يدل على ازدهار نسبي احتفظت به الفلاحة الإفريقية[65]. لكن المشكل في الواقع لا يتعلق باثبات أو نفي مظاهر هذا الازدهار بقدر ما يتعلق بتحديد الفئات المستفيدة منه والتي تمثله. وتجميل المدن لم يعد في القرن الرابع من عمل طبقة «الديكوريونات» التقليدية التي نعلم أنها أصابها الوهن[66] ولكنه كان من إنجاز أقلية أرستقراطية مكونة من أعيان المدن (خاصة في البروقنصلية)، تلك الطبقة التي استفادت من ضعف الكوريالين للهيمنة على المدن والاستحواذ على الأراضي[67]. أما عن ازدهار الفلاحة المتمثل في بعث شحنات القمح إلى ايطاليا، فإن ذلك لا ينبغي أن يخفى عن نظرنا وجود فوارق إقليمية بين البروقنصلية وبيزاكينا اللتين احتفظتا بازدهار نسبي والأقاليم الأخرى التي كانت تعرف القلاقل والاضطرابات، وهذا ما يعترف به أولئك الباحثون أنفسهم[68].

وأهم من هذه الفوارق الإقليمية، الفوارق الاجتماعية بين الملاك المشرفين على الإنتاج (والمتملصين من تأدية الضرائب) وجماهير الفلاحين الصغار والمزارعين الذين كان عبء تلك الضرائب يقع عليهم.

كل هذا يجعل من ازدهار افريقيا في هذه الفترة ازدهارا نسبيا بالمقارنة مع الأقاليم الرومانية الأخرى من جهة، وبالنظر إلى الفوارق الإقليمية في افريقيا من جهة ثانية، والفوارق الاجتماعية من جهة أخيرة. لذا بدل الحديث عن خصوبة الأمهات الليبيات في هذه الفترة العصيبة (خاصة بالنسبة للفئات الفقيرة)[69] يبدو

---

(64) - Picard, G.C., ibid, pp. 26-29.
- Courtois, Chr., **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 149.

(65) - Courtois, Chr., ibid., p. 149-152.
- Lepellay, Cl. Declin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ?..., **A.A.**, I, pp. 135-144.

(66) أعلاه، ص 59-62.

(67) أعلاه، ص 61 وما بعدها.

(68) - Lepellay, Cl., ibid, p. 137 et 139

(69) عرفت افريقيا بعض المجاعات رغم خصبها، منها مجاعة سنتي 366-367 التي أرغمت=

من الأقرب إلى الصواب أن نتحدث عن تناقص الموارد وفرص العمل، وهنا، يمكن تدعيم ذلك بظاهرة هجر الأراضي التي يمكن الاستدلال عليها بنص لكطانتيوس(70)، وأيضا بنصوص قانونية صادرة عن البلاط الامبراطوري والتي تؤكد بدون مراء تلك الظاهرة، مهما اختلف المؤرخون حول أهميتها(71). ويبدو من الطبيعي أن نستنتج من هذه الظاهرة أن فرص العمل الفلاحي قلت، وأن عددا من السكان الذين كانوا يجدون مواردهم في العمل المتنقل أصبحوا غير قادرين على العيش. وربما تعززت صفوفهم ببعض الرحل الواردين من الجنوب، أو من المناطق الموريطانية القريبة والباحثين عن مجالات جديدة للرعي، وربما شجعهم على ذلك ضعف الحدود، وسهولة التسلل إلى افريقيا الرومانية.

ويشير أغسطين إلى أن جرأة «المتبربرين» Barbari وصلت إلى حد أنهم طردوا بعض السكان من أراضيهم(72)، كما أن الأراضي الامبراطورية نفسها تعرضت

= «البروقنصل» على توزيع القمح على السكان، وأخذه من مخازن الحبوب التي كانت تتزود منها روما.

- Courtois, C., **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 150, n. 1.

(70) أعلاه، ص 82. (Lact., **De mortibus persecutorum**, VII, 3).

«... المزارعون... هجروا أرضهم التي رجعت إلى البور».

(71) قانون هنوريوس في 31 يناير 412 يعفي الملاك الأفارقة من تأدية الضرائب على الأراضي المهجورة المجاورة لهم (Cod. Theod., XI, I, 31).

وقانون 20 فبراير 422. Cod. Theod., XI, 23, 13 (أعلاه، ص 65-66). الذي يحدد مساحة الأراضي الخاضعة وغير الخاضعة للضريبة في الأراضي الامبراطورية بالبروقنصلية وبيزاكينا.

- Lepellay, Cl., Déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ? op. cit., pp. 135-144.

يرى أن الوضعية لم تكن في منتهى الخطورة، وأن الأراضي التي هجرت والتي يمنح القانون اعفاءا عن تأدية الضريبة عليها، هي أراض ذات طبيعة قليلة الخصب، وان هجرها يمكن أن يعزى إلى ظروف طبيعية وإلى نظام الضريبة المزدوج (حسب الفدادين والرؤوس : jugatio-capitatio) أكثر مما يمكن أن يعزى إلى تراجع خطير للمساحات المزروعة. ولكنه «لا يستطيع انكار اتساع رقعة أراضي البور». (ص 143 على الخصوص).

(72) - Aug. Ep. CCXX, 7; C.S.E.L., LVII, p. 336; citée d'après Courtois, **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 125, n. 5.

لهجماتهم[73]. ويمكن أن نتصور بسهولة أن أولئك السكان لم يكونوا في غالبهم يقصدون النهب والسلب، وأنهم أرادوا أحيانا استغلال بعض الأراضي بطريقة أو بأخرى (فلاحة أو رعي)، وأنهم كانوا يتعرضون لمقاومة الملاك. ويمكن أن نفترض أيضا أن بعضهم التحق بصفوف العمال الفلاحين المتنقلين، بل يمكن أن نؤكد ذلك بالنسبة لبعض المناطق الجنوبية كمنطقة «الارزوج» (جنوب نوميديا وبيزاكينا)[74]. هذا في الوقت الذي كانت فيه مساحة الأراضي البور تتسع داخل الحدود الرومانية لأسباب أخرى لا ترجع إلى انعدام الأمن، ولكن إلى نظام الجباية الجديد (حسب الفدادين والرؤوس Jugatio-capitatio) الذي لم ير معه الملاك فائدة في استغلال الأراضي غير المربحة[75]. وفي اعتقادي أن التقاء هذين الحدثين (تسرب بعض العناصر من الجنوب وهجر الأراضي من طرف الملاك) هما اللذان أديا بصفة رئيسية إلى تمرد العمال المتنقلين. طبعا، كان بود الملاك أن يثبتوا أولئك العمال الموسميين في أراضيهم، ولكن ذلك كان يعني بالنسبة لهؤلاء فقدان الحرية والسقوط في وضعية المزارعين المرتبطين بالأرض. وتلك وضعية كان المزارعون أنفسهم يحاولون الانسلاخ عنها.

وهذه الحرية التي كان يتمتع بها الدوارون دون العبيد والمزارعين هي التي أهلتهم للقيام بدور المحرك للتمرد والحامي للضعفاء. لقد كانت ظروفهم قريبة من ظروف هؤلاء، يعيشون معهم في الأرياف، ويجتمعون معهم في الأسواق الريفية : nundinae، ويعملون هنا وهناك بجانبهم في المواسم الفلاحية، ويتكلمون بنفس اللغة.

كانت الوضعية ـــ على ما يبدو ـــ وضعية تناقض تام بين مصالح الملاك ومصالح الدوارين. فهؤلاء لا يتوفرون على الأرض الكافية للعيش منها، بل إن التطور كان في اتجاه تركز الملكية بيد عدد قليل من الملاك الكبار كما رأينا[76].

---

(73) **- Cod. Theod, X, 1, 16; Ed. Mommsen, p. 531; cité d'après Courtois, idem**

(74) أعلاه، ص 80-81.

(75) أعلاه، ص 75.

(76) انظر أعلاه ص ص 66-67.

وأولئك الملاك لم يعودوا قادرين على إيجاد العمل للدوارين بما أنهم لا يودون استثمار كل أراضيهم بسبب نظام الضريبة.

وإذا صح هذا التحليل، يمكن أن نتبع كورطوا في افتراضه بأن الدوارين ربما كانوا المستفيدين من «الاصلاح الزراعي» الذي يبدو أن «جيلدو» Gildo قام به بعد إعلان ثورته على السلطة الرومانية (396–398م)[77].

ففي سنة 385 أو 386[78] تولى «جيلدو» ـــ ابن الأمير نوبل Nubel وأخ الأمير فيرموس Firmus الذي قاد ثورة في موريطانيا القيصرية ضد السلطة الرومانية ما بين 371 و375[79] ـــ تولى منصب «كونت» (رئيس جيش

(77) - Courtois, Ch., **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 146

(78) المصدر الأساسي عن ثورة «جيلدو» هو شعر كلوديانوس Claudianus (365 ؟ 408 ؟) في «الحرب الجيلدونية». «De belle Gildonico» المراجع :

- Courtois, Chr., ibid, pp. 145-146.
- Frend, W.H.C., **The Donatist church**, op. cit., pp. 221-225.

(79) يرجع «نوبل» في أصله إلى قبيلة «Jubaleni» في نواحي Auzia (سور الغزلان) بموريطانيا القيصرية. كان له عدة أبناء نعرف بعض أسمائهم : Sammac وMazucan وMaczezel وDius وFirmus وGildo.

- Gsell, st., **Observations géographiques sur la révolte de Firmus**, B.S.A.C., (Souvenir du Cinquantenaire 1853-1903), 36e Volume, S.d. (1903), pp. 21-46.

كان «نوبل» Nubel مستقرا في أحد قصوره بفج بني عيشة الذي يحتل موقعا استراتيجيا على الطريق بين الجزء الشرقي من المتيجة وبين جبال القبائل من جهة وناحية Auzia من جهة ثانية. وبذلك كان يراقب هذا الموقع الحساس من موريطانيا ويضمن الأمن في تلك المنطقة لصالح روما.

(Gsell, ibid, p. 30).

بعد موت «نوبل»، تدخل كونت افريقيا «رومانوس» Romanus في الصراعات بين أبناء الزعيم الافريقي حول خلافته. فكان ذلك ذريعة لفرموس كي يعلن الثورة ضد السلطة الرومانية، فانضم إليه السكان في جبال القبائل وفي حوض الشليف. واستولى على عاصمة موريطانيا القيصرية (Caesarea : شرشال) وعلى Icosium (الجزائر)، ولكنه لم يستطع فتح مدينة Tipasa (تيفش). دارت الحرب بينه وبين الجيوش الرومانية التي ترأسها «ثيدوسيوس» (أبو الامبراطور المعروف) والتي شملت موريطانيا القيصرية لكنها لم تتعد موريطانيا الصطيفية من الجهة الشرقية، و لم تصب نوميديا. (Gsell, ibid, p. 26) انتهت الحرب سنة 375 بانتحار فيرموس لما علم أن اكمازن Igmazen ملك «الاسفلنسين» Isaflenses، وهم سكان مجاورون أيضا لمدينة Auzia (سور الغزلان) كان على وشك تسليمه إلى ثيدوسيوس. عن مراحل الحرب، انظر نفس المرجع، ص 34، 46. أنظر أيضا : =

افريقيا) مكافأة له على موقفه المناصر لروما خلال ثورة فيرموس — على ما يبدو —[80]. لكن «الموظف» الروماني لم ينس أنه كان أميرا افريقيا، وان باستطاعته أن يعتمد على نفوذه في البلاد كي يفصل افريقيا عن السلطة المركزية الضعيفة. وكان يتوفر على سلاح قوي قادر على زعزعة روما، وذلك السلاح هو توقيف شحنات القمح إلى إيطاليا وتجويعها بهذه الطريقة التي استعملها قبله «دومتيوس الاسكندر»[81] وبعده هيراكليانوس[82]. ومع أن ثورة «جيلدو» لم تستمر طويلا (396—398)، فإن الرجل — على ما يرى «كورطوا» — قام بتوزيع بعض الأراضي التابعة للأملاك الامبراطورية على السكان أو سمح لهم باحتلالها[83]. ولا يستبعد أن يكون الدوارون قد استفادوا من تلك الأراضي.

أيا ما كان، فإن هذا لا يتعدى مجرد الافتراض، فنحن لا نعرف شيئا عن

= - Moreau, M., la guerre de Firmus (373-375), R.H.C.M., t. X, 1973, pp. 21-35.

يتفق الباحثون انطلاقا من بعض النصوص (كتاب آلام القديسة سالسا Salsa) أن فيرموس كان مسيحيا، وعلى الراجح دوناتيا، بما أنه — حسب أغسطين — ساعد الدوناتيين «الأرثذكسيين» في القضاء على انشقاق «الروكاتيين» : أتباع Rogatus أسقف Cartennae : انظر النص 7 في الملحق.

عن الانشقاق الروكاتي، انظر أدناه، هـ 26، ص 235—236. عن مسيحية فيرموس، انظر :

- Gsell, ibid, p. 24, n. 2.
- Julien, Ch. A.; **Histoire de l'Afrique du Nord...**, op. cit., p. 220.

(80) - Julien, Ch. A., ibid, p. 222

(81) والي افريقيا، استبد بالحكم فيها مستغلا الصراعات حول الحكم بعد تخلي ديقليديانوس عن العرش الامبراطوري سنة 305. فاتخذ لقب امبراطور من 308 إلى 311. استعمل سلاح تجويع روما للوصول إلى هدفه.

- Saumagne, la crise de l'autorité en Afrique au début du IVᵉ s. (Observation sur quelques monnaies frappées à Carthage entre 305 et 321 ap. J.C), **R.T.**, 1921, pp. 133-142.

(82) «كونت» افريقيا من 409 إلى 413 أوقف شحنات القمح سنة 413.

- Kotula. T., le Fond africain de la révolte d'Héraclien en 413, **A.A.**, t. 11, 1977, pp. 257-266.

(83) ينطلق «كورطوا» في تحليله لذلك من كون الدولة عينت «كونتا» comes خاصا لتصفية مصادرة أملاك جيلدو (comes Gildoniaci patrimonii) وكان ذلك «الكونت» تابعا لإدارة أملاك الامبراطور، وأن تلك الإدارة طلبت من الأشخاص المحتلين للأراضي التابعة لها مغادرة تلك الأراضي فورا، حسب ما يتجلى من القانون الصادر بهذا الصدد سنة 405 :

- Cod. Theod. IX, 42, 19.
- Courtois, Chr., **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 146.

الطريقة التي تم بها هذا «الاصلاح الزراعي» المفترض[84]، ولم يرد أي ذكر صريح للدوارين بصدده عند الكتاب أو في القوانين الامبراطورية المتعلقة بهذه القضية. ولكن الإشارة إلى احتلال بعض الأفراد لأراضي الامبراطور ومكوثهم بها يدل على أن عددا من السكان كانوا يبحثون عن أراض للاستغلال، وأن نظام ملكية العقار الذي كان قائما آنذاك كان يمنعهم من ذلك.

ومن ثم يمكن إدراك الأزمة التي كانت تعيشها الأرياف الافريقية، والفئات المستضعفة بها على الخصوص. وهذا ما يمكن أن يفسر أيضا ذلك العنف المتزايد الذي اتسمت به حركة الدوارين، والذي أثار انتباه معاصريهم.

ويتضح بادىء ذي بدء أن حركة الدوارين تقوت وتزايد خطرها على النظام القائم في البلاد. فبعد أن كان الدوارون يستعملون في هجماتهم العصي[85]، أصبحوا يستعملون المقاليع[86] والأسلحة الحديدية[87] والحسم[88] والسيوف[89] والشواقير والحراب[90]. ويشبه أغسطين جماعات الدوارين بالفيالق[91] وبالفرق المسلحة[92] ويقول أن الأمر وصل إلى درجة أن المكلفين بجمع الضرائب أصبح من المتعذر عليهم القيام بمهمتهم في بعض المناطق الريفية بسبب الدوارين[93]. وحوالي سنة 400، يتحدث أغسطين عن تدخل الامبراطور في قضية إرث أثارها أحد النبلاء الأغنياء الذي لم يقبل وصية أخته بثوريت مالها للكنيسة الدوناتية. ويشير أغسطين إلى أن «حكم الامبراطور تضمن إشارة إلى الدوارين متوقعا حالة

---

(84) - Courtois, Chr., idem

(85) يقول أغسطين أن الدوناتيين كانوا يسمونها بالاسرائيلات Israeles (النص 3 في الملحق).

(86) النص 22 في الملحق.

(87) النص 7 في الملحق.

(88) النص 11 في الملحق.

(89) النص 31 في الملحق.

(90) C. Litt. Petil, II, XCVI, 222 : «انظروا قليلا عصاباتكم التي لم تعد تتسلح بالعصي كما كان يفعل آباؤهم من قبل ولكن اتخذت لها أيضا الشواقير والحراب والسيوف...».

(91) النص 22 في الملحق.

(92) النص 45 في الملحق.

(93) - Ep. 185, 4, 15; ap. Monceaux, P., R.H.R., t. 64, 1911, p. 46

مقاومة عنيفة من جانبهم وهي حالة أصبحت عادية، ومتوقعا كذلك طبيعة الاسعافات والوسائل القمينة بصدهم، لأن مثل تلك الحالات كانت عادية. فقد اشتهر الدوارون بمثل تلك الأعمال الشائنة وأظهروا من الشراسة في الاشتباكات ما لم يستطع معه لا المشتكي إلى الامبراطور ولا الامبراطور نفسه أن يصمت عن الإشارة إليهم»[94].

ونعلم من مقررات المجمع الكنسي الذي عقده الكاثوليك بقرطاج في سنة 404 والذي قرروا فيه ارسال طلب إلى الامبراطور بالتدخل لحمايتهم من عنف الدوارين الدوناتيين أن الأباطرة السابقين لهنوريوس شجبوا تصرفات الدوارين وأصدروا في شأنها قرارات متكررة[95]. ويمكن التساؤل عما إذا كانت الدولة ترى في الدوارين خطرا على الكاثوليك أو خطرا على الأمن والنظام في افريقيا، أي ـــ بتعبير آخر ـــ هل كانت تريد القضاء على الدوارين لتقوية الكاثوليك أو للحفاظ على النظام. ومع أن الهدف كان في الواقع واحدا وأن تقوية الكاثوليكية كان يعني تقوية الأمن والنظام، فمما لاشك فيه أن الدولة كانت تعتبر حركة الدوارين أولا وقبل كل شيء تمردا على النظام وتهديدا للأمن. ويمكن أن يستشف ذلك من نص القرار الذي أصدره قاضي مناظرة قرطاج في 26 يونيه 411. ويقول في ذلك القرار على الخصوص ان «محاولة تهدئة جنونهم (أي الدوارين) معناه السهر على القانون الكاثوليكي واحترام الأمن العمومي في آن واحد»[96]. ولدينا نصوص أغسطينية تشير إلى ذلك. فغداة صدور قوانين هنوريوس المتشددة على الدوناتية (405) يخاطب أغسطين خصمه الدوناتي كريسكنيوس Cresconius[97] : «أزح من النقاش هذه الاتهامات الوقحة عبثا حول العقوبات التي تلحقها بكم الأوامر الامبراطورية بسبب ذنبكم، هذه العقوبات خفيفة جدا

---

(94) وبذلك يكون هذا النص الامبراطوري أحد النصوص التي وصلتنا إشارة عنها، ولكنها لم تصلنا بالنص. (النص 10 في الملحق).

(95) النص 53 في الملحق. لم تصلنا هذه القرارات أيضا.

(96) النص 55 في الملحق.

(97) كريسكنيوس : أحد النحاة الدوناتيين. دخل في جدل كلامي مع أغسطين. انظر الملحق، هـ 179.

وتكاد لا تعتبر، بالنظر إلى جنون ذويكم المسعور، إنكم تحملوننا حتى الاجراءات التي تتخذها السلطات الزمنية تحت الاضطرار وليس عن طيب خاطر لوقاية نفسها من هجمات ذويكم»[98]. يبدو إذن أن أغسطين لم يفته أن السلطة الزمنية كانت تكافح الدوارين لغرض آخر غير مجرد القضاء على الدوناتية. فبالنسبة إليه، كانت تلك السلطة نفسها تتعرض لهجمات الدوارين، وكان عليها أن تدافع عن نفسها. هل كان يدخل في خطة الكاثوليك أن يظهروا للدولة مدى خطر الدوارين على الأمن العمومي لكي تصدر قوانين متشددة يوما بعد يوم على الدوناتيين ؟ ما من شك في ذلك. ولكن هذه الخطة نفسها يمكن أن توضح مدى إدراك الكاثوليك أن نقطة الضعف التي يمكن استغلالها ضد الدوناتية هي انضمام الدوارين الثائرين إليها، مما يسهل عليهم اقناع السلطة بأن الدوناتية هي السبب في عنف الدوارين. وفي نفس الوقت كانت تلك الخطة تحل مشكلا فقهيا ظل مطروحا منذ ابطاتوس، وهو مشروعية اللجوء إلى «السلطة الزمنية» (bras séculier) في ردع المنشقين والمنحرفين. فبينما كان الدوناتيون يرون أن الإنسان من حقه أن يتمتع «بحرية الاختيار»، وأن الله هو الذي يتولى عقاب المنشقين، كان أغسطين وزملاؤه يرون أن من حق الكنيسة الكاثوليكية أن تطلب دعم الدولة ضد المسيحيين الخارجين عن «الأرتذكسية»[99]. ومادام أن الدوناتية تحتوي حركة تمردية مثل حركة الدوارين، فإن الأمر أصبح سهلا وواضحا، وليس من ضير في استعمال الجنود ضد المنشقين. وهذا ما يفسره أغسطين للأسقف الدوناتي كَاودنتيوس Gaudentius[100] : «إنك تشجب استعمال الجنود : لكن، إذا كان الكتاب المقدس يعطي الدليل على أن تلك المهمة (خدمة الكنيسة) منوطة بالملوك، — كما بينا سابقا —.فبأي وسيلة سوف يؤدونها ضد الدوارين المتمردين وضد أنصارهم ورؤسائهم المجنونين إذا لم يكن بجنودهم الأوفياء ؟»[101].

---

(98) النص 34 في الملحق.

(99) حسب ما قرروه في مجمع قرطاج سنة 404 (النص 53 في الملحق).

(100) كَاودنتيوس، أسقف «ثاموكَادي» Thamugadi. هدد باحراق كنيسته والاحتراق فيها مع مجموعة من أتباعه حوالي 154. انظر أدناه، ص 154، هـ 36.

(101) النص 50 في الملحق.

لقد ظلت حركة الدوارين قائمة بصفة دورية ــ على ما يبدو ــ خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس. وحسب ما وصلنا من شهادات ابطاتوس وأغسطين، يمكن القول أنها نشطت بصفة خاصة في الفترة السابقة مباشرة لتدخل قنسطنس ضد الدوناتية سنة 347. وفي السنين الأخيرة السابقة على صدور قوانين هنوريوس سنة 405. وربما كانت عمليات الدوارين في ضواحي عنابة حوالي 410 من أواخر الانتفاضات المهمة قبل أن تتدخل الدولة بكل ثقلها للقضاء على تجمعات الدوارين بالأرياف.

وبطبيعة الحال، ينبغي أن نأخذ بحذر تهجمات أغسطين وزملائه الكاثوليك على الدوارين، فالأوصاف التي نعتوهم بها : حمقى، مخربين، لصوص إلخ... لا تتعدى أسلوب الشتم والقذف. فبالنسبة لأغسطين، ما من شك في أن الحفاظ على الأوضاع القائمة كان جزءا لا يتجزء من عقيدة المسيحي المؤمن(102) ويقول في هذا الصدد مخاطبا «كَاودنتيوس» Gaudentius الأسقف الدوناتي بـ«ثموكَادي» Thamugadi (تمكَاد) : «لواخذنا بتفكيركم الخاطىء والفارغ لأطلقنا العنان لإباحية الإنسان وتركنا خطاياه غير معاقبة، ولأبطلنا كل الحدود القانونية وتركنا بدون قيد جنونه وجرأته على الفساد في الأرض وميوله إلى اللذات المنحرفة، فلا يحق للملك أن يكبح بالتهديد والعقاب الحرية والرغبة في الأذى عند رعيته، ولا القائد عند جنده، ولا الحاكم عند محكوميه، ولا السيد عند عبده، ولا الزوج عند زوجته، ولا الأب عند ابنه»(103).

ويستدل أغسطين ــ تماما كما فعل ابطاتوس قبله بخمسين سنة ــ(104) برسالة بولس لأهل روما التي قال فيها : «لتخضع كل نفس للسلطات العليا، لأنه ليس من سلطان إلا الله، والسلطات الموجودة من وضع الله. لذلك، فإن من قاوم السلطة قاوم النظام الذي حدده الله. ومن قاوم فإنما يعرض نفسه لغضب الرب. فإن الحكام لا يرهب جانبهم لمن عمل صالحا، بل لمن عمل شرا. أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ افعل الخير فتنال رضاه، لأنه أداة الله منتقم بالغضب من فاعل

(102) - Brisson, J.P., op. cit., p. 331

(103) - Aug., **C. Gaud.**, I, XIX, 20, **B.A.** 32, p. 545

(104) النص الأول (Optat, III, 4) في الملحق.

الشر»[105].

وليس في وسعنا الدخول في مناقشة لاهوتية حول ما إذا كان أغسطين أو ابطاتوس على حق من الوجهة المسيحية الصرفة عندما استدلا بهذا النص. كل ما يهم، هو أن ندرك نظرتهما إلى المجتمع المسيحي وعلاقته مع السلطة الزمنية. فالمسيحية ــ تبعا لهذه النظرة ــ تبرر تماما النظام الموجود في المجتمع، ولا يحق لأحد أن يمس بهذا النظام المستمد من مشيئة الله. ومن ثم، فإن أي ثورة على النظام القائم عمل مناف للمبادىء الدينية.

وانطلاقا من هذا المنظور أيضا تبلورت لدى أغسطين نظرية شاملة عن مشروعية تدخل «اليد الزمنية» (Bras séculier) بالقوة لردع النحل المسيحية غير المطابقة للخط «الأرثذكسي»[106].

ومع أن أغسطين ندد بالأغنياء الذين لا يفكرون في بؤس الفقراء، وكان يحث

---

(105) رسالة بولس إلى أهل روما، الاصحاح 13، 1–4، ابطاتوس استدل بنفس النص (الإصحاح 13، 7).

(106) كان الدوناتيون ــ على ما يبدو ــ أكثر «تقدمية» في هذا المجال، بحيث كانوا يركزون على «حرية الاختيار» (liber arbitrium). مثلا : «بتيليانوس» ــ اسقف القسنطينة، يستدل بالآية : «وضعت أمامك الخير والشر، وضعت أمامك الماء والنار، فاختر ما تريد».
كذلك «كريسكونيوس» في رد أغسطين عليه : «انك بدون جدوى تقول : «لا ترك وحريتي في الاختيار» : (B.A. 31, 387) - C. Cresc., III, Li, 57
وأيضا «كاودنتيوس» : «ان خالق كل شيء، الرب المسيح، والله القادر، خلق الإنسان على صورة الله فترك له حرية الاختيار. وجاء في الكتاب : «خلق الله الإنسان وتركه لسلطان إرادته الحرة». (Eccl. XV, 4).
فلماذا أوامر البشر تنزع مني الآن ما وهبني الله ؟».
- C. Gaud., I, XIX, 20. (B.A. 32, p. 543).
وفي مناظرة قرطاج أيضا، لم يفت الدوناتيين ان أثاروا نفس المشكل أمام القاضي : «ان حضرتكم لم تقل شيئا عن حرية الاختيار».
- Brev. Coll., III, XXII, 40 (B.A. 32, p. 234).
«... de libero arbitrio nihil potestas tuas».
لكن الدوناتيين كانوا ــ هنا أيضا ــ في تناقض مع أنفسهم لأنهم طلبوا تدخل السلطة ضد «الماكسميانيين» ! انظر تدخلهم في مناظرة قرطاج :
- Gesta, III, 258 (Ed. Lancel, S.C. 224, p. 1216).

في خطبه الوعظية على مزيد من الشفقة بالمعدمين[107]، فلم يدخل في اعتباره وضع النظام القائم محل تعديل. لذا، من العبث أن نبحث عنده أو عند ابطاتوس عن مفهوم للظلم الاجتماعي شبيه بالذي يمكن أن يشعر به الإنسان المعاصر، لأن المسيحية في رأي الكاتبين تبرر المجتمع الذي كانا يعيشان فيه. فلم يكن ضحايا الدوارين محترمين من حيث الثقافة والنسب فقط ـــ كما يقول أغسطين ـــ، ولكنهم أيضا يمثلون قبل كل شيء أساس المجتمع نفسه. فإليهم ترجع مهمة الحفاظ على نظام ضروري للحياة الاجتماعية وأيضا لممارسة الفضائل المسيحية. وتشدد هؤلاء تجاه المديونين والعبيد كان عملا مشروعا في رأي أغسطين، وشق عصا الطاعة عليهم كان معناه القضاء على المجتمع كله. فمن وجب عليه شيء وجب عليه، بكل عدالة : فعلى المديون تسديد دينه، وعلى العبد خدمة سيده، وعلى الرعية طاعة حاكمها إلخ...[108].

ومع ذلك، فإن كاهن عنابة[109] أفلت من لسانه اعتراف مثير للانتباه، إذ كتب ما يلي : «... وينبغي التنديد حقا بأولئك الذين يندفعون حشودا مجنونة وفوضوية لعقاب أشخاص لا يضعهم أي قانون تحت طائلتهم. اننا على حق عندما نندد بالفوضى والفجور والعجرفة البالغة عند دواريكم حتى عندما يهاجمون الأشرار، فليس من الخير في شيء أن يُنتقم من الظلم بالظلم وأن يُقاوم الجور بالجور، أما عندما يضطهدون الأبرياء بحافز مجهول أو بدافع الحقد الجائر، فمن لا يستفظع تلصصهم الشائن ؟»[110].

إن الكاتب ـــ هنا أيضا ـــ لا يرى في الدوارين أكثر من عناصر فوضوية ومجنونة. ولكنه يعترف ـــ عرضا ـــ ان ضرباتهم لم تكن دائما بدون مبرر، وانهم

---

(107) - Hamman, A.G., **la Vie quotidienne à Carthage au temps de Saint-Augustin**, Paris, 1979, p. 292-293.

(108) - Brisson, J.P., op. cit., p. 277 et pp. 331-332

(109) عن الكاتب المجهول «للرسالة» إلى الكاثوليك في شأن فرقة الدوناتيين.
«Epistula ed catholicos de secta donatistarum».
انظر دراسة المصادر، أعلاه، ص 46.

(110) النص 28 في الملحق.
- Ep. ad. Cath., XX, 53-54 (B.A. 28, p. 659-61).

كانوا ــ أحيانا على الأقل ــ «يهاجمون الأشرار» ويناهضون الجور والظلم. إلا أنه كان يرى أن معظم الضحايا كانوا من «الأبرياء» ولا يستحقون ما يصيبهم على يد الدوارين. بل إنه في الحقيقة لا يجد تفسيرا مقنعا لمهاجمة الدوارين لأولئك الأبرياء، اللهم إلا أن يكون الدافع نوعا من حقد جائر.

إن تفكير الكاتب واضح في هذا النص. ان يكون بعض الأشخاص لا يتصرفون دائما باحترام تام للقانون، ذلك ما لا ينكره. ولكن ذلك لا يبرر في نظره الرد على جورهم بالمثل. فالقانون إذن شيء مقدس ولا يحق لأحد أن ينتهكه ولو بهدف مناهضة اللامشروعية. لكن النص يتضمن أيضا فكرة أخرى ينبغي تقصيها بعناية. خاصة وأننا نجد لها صدى في نصوص أخرى لأغسطين[111]. فما هو هذا «الحافز المجهول»، وهذا «الحقد الجائر» الذي كان يدفع الدوارين إلى مهاجمة «الأبرياء». ألا يتعلق الأمر بالحقد الاجتماعي الذي تكنه فئات مستضعفة لطبقة مستغِلة ؟ ألم يكن هذا الحافز هو الذي يفسر في نهاية المطاف كل أعمال العنف التي كان الدوارون يقدمون عليها والتي كانت تترك الكتاب الكاثوليك في حيرة من أمرهم، وتصفهم بالجنون والخرق والحماقة ؟ ان أغسطين في نص آخر يقول «ان الدوارين كانوا يهاجمون بعض الأشخاص لا لحجزهم والذهاب بهم إلى مكان ما، ولكن لتعذيبهم هكذا، بكل بساطة»[112].

فهذا الاستمتاع بتعذيب الآخرين لا يمكن فهمه إلا في إطار الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر. وهذا «الحقد الجائر» يمكن أن نعطيه اسما : انه الصراع الاجتماعي بين الفئات المستغِلة والفئات المستغَلة.

وإذا كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية تستطيع أن تفسر إلى حد بعيد تصرفات الدوارين بمهاجمتهم للأقوياء وحمايتهم للضعفاء، فإن هناك جانبا دينيا اتسمت بها حركة الدوارين على ما يبدو من شهادات الكاثوليك والدوناتيين على السواء، رغم اختلاف الفريقين في تقويم تصرفات الدوارين. وهذا الجانب ركز عليه بعض الباحثين المحدثين. وعلينا الآن أن نتفحصه قبل الحكم على طبيعة حركة الدوارين.

(111) مثلا النصوص : 7 و8 و41....

(112) النص 41 في الملحق.

الفصل الرابع
طبيعة حركة الدوارين
ثانيا : السمات الدينية

إذا كانت تسمية الدوارين مجازية ولم تظهر حسب النصوص المتوفرة لدينا إلا في القرن الرابع[1]، ولم تصلنا في القوانين الامبراطورية إلا في بداية القرن الخامس[2]، فإننا نعرف من جهة أخرى أن الدوناتيين كانوا يعتبرون هذه التسمية نعتا محقرا، ولذلك كانوا يطلقون على «الدوارين» اسم «المناضلين» Agonistici، بشهادة أغسطين نفسه : «ربما سوف يقول الدوناتيون : «إن ذوينا لا يحملون اسم «دوارين»، أنتم (الكاثوليكيون) الذين تسمونهم بهذا الاسم لإهانتهم... أما هم (الدوناتيون) فيسمونهم «مناضلين» «agonistici»[3]. وفي أقدم نص أورد ذكر الدوارين، يتحدث ابطاتوس مرة عن «الدوارين المناضلين» بصدد الجماعات التي استنفرها الأسقف الدوناتي بمدينة «باغاي» Bagaï لمقاومة البعثة الامبراطورية سنة 347[4]. وقد اختلف الباحثون حول هذا اللقب (المناضلون) فاعتقدت O. Vannier أن الأسقف منح الدوارين لقب «مناضلين» تشريفا لهم «واعترافا لهم

(1) أول إشارة نجدها — كما سبق أن قلنا — عند الكاتب الكاثوليكي ابطاتوس في مؤلفه «ضد الانشقاق الدوناتي» (النص الأول في الملحق). ويرجع تأليف ذلك الكتاب إلى حوالي 366–367. (دراسة المصادر، أعلاه، ص 37).

(2) قانون هنوريوس في 30 يناير 412 (أعلاه، ص 87 وما بعدها) هو أول قانون يشير إليهم. ولكننا نعرف من أغسطين (النص 10) ومن مقررات المجمع الكنسي الكاثوليكي (النص 53) أن بعض القرارات والقوانين والأحكام صدرت في حق الدوارين قبل سنة 412، وقبل هنوريوس.

(3) - Aug., **Enarr. in Psalm.**, 132, 6

(4) Optat., III, 4, (C.S.E.L., XXVI, p. 81, 1. 19) (: النص الأول في الملحق). عن هذه الأحداث انظر أدناه، الفصل السادس.

بالجميل» بعد أن هاجموا الفرقة العسكرية المرافقة للبعثة الامبراطورية[5]. ويرى J.P. Brisson أن هذا اللقب «قد أطلق تلقائيا على أولئك العمال الفلاحيين (الدوارين) الذين اتخذوا مبادرة الثورة للدفاع عن رفاقهم منذ ما قبل 347 فكان يقال آنذاك : «الدوارون المناضلون» تماما كما نقول اليوم : «العمال المناضلون»... وشيئا فشيئا، وحسب سياق يسهل إدراكه وملاحظته حتى في عصرنا الراهن لم تعد القيادة الثورية وحدها تلهم الرعب في النفوس، بل كل أفراد الطبقة، حتى أصبحوا ينعتون فقط «بالدوارين». وهكذا، حسب بريصون، ينبغي فهم ذلك اللقب بهذا المعنى عند أغسطين. فابطاتوس وحده هو الذي احتفظ لنا بالتسمية الأصلية[6].

غير أن نص أغسطين ــ الذي أوردناه في البداية ــ يوضح بشكل لا يقبل النقاش أن تسمية «المناضلين» استمرت منذ بداية ظهور الدوارين حتى عصر أغسطين، بل ان الدوناتيين كانوا لا يستعملون غيرها لنعت «الدوارين». وإذا كان أغسطين وأصدقاؤه الكاثوليكيون لا يستعملون كلمة «المناضلين»، فما ذلك إلا لكونهم كانوا يأبون تشريف الدوارين وتكريمهم بهذا اللقب. ومن ثم، يمكن أن نشك في أن ذلك «اللقب التشريفي» كان بالمعنى الثوري الذي اقترحه J. Brisson «عمال مناضلون»، وإنما كان له مدلول ديني. إذ لا ينبغي أن ننسى أن أغسطين كان قبل كل شيء بصدد جدل كلامي مع الدوناتيين، وأن الميدان «الفقهي» والديني كان يشكل جانبا ملموسا لهذا الجدل. ومن جهة أخرى، لا نرى أن الاكليروس الدوناتي ــ الذي كان أغسطين في حوار كلامي معه ــ كان «ثوريا» لدرجة أنه احتفظ للدوارين بهذا اللقب التشريفي لو كان له حقا مدلول «ثوري» بالمعنى الذي اقترحه «بريصون»[7].

---

(5) - Vannier, O., Les Cironcellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat, R.A., 1926, p. 26.

(6) - Brisson, **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 343

(7) نرى بالعكس أن الاكليروس الدوناتي ــ خاصة في القمة، وكذا أساقفة المدن الكبرى ــ كان يحاول التملص من الدوارين، وينهج اتجاه حركتهم سياسة «نفعية» : يستغل حركتهم في الأوقات الحرجة، ويتنكر لها في بعض فترات القوة، لكن دائما دون أن يتورط في «جرائمهم» إزاء السلطة. وهذا ما سنلمسه في دراسة العلاقات بين الدوارين والدوناتية.

ومن جهة أخرى فإن المصطلح يعني لغويا : الرياضي أو المجالد في الألعاب العمومية[8]. غير أن الكتاب المسيحيين اقتبسوا المصطلحات الرياضية والعسكرية لوصف الصراع القائم بين المؤمن المسيحي والعالم الزمني المحيط به، أي الدولة الرومانية خاصة في فترات اضطهاد المسيحية. ويبدو أن الأدب المسيحي الإفريقي اعتمد هذا الأسلوب الذي وصل عند طرتليانوس Tertullianus[9] وقبريانوس Cyprianus[10] إلى درجة كبيرة من الإتقان[11]. فنجد طرتليانوس يخاطب شهداء قرطاج (202م)[12] قائلا : «... لقد شننتم صراع الحق، ذلك الصراع الذي يلعب فيه الإله الحي دور «رئيس ألعاب المصارعة» (agonothetes) والروح القدس «مدير قاعة التدريب الرياضي» (Xystarches) وتاج الخلد ثمن اكتساب قسط من المادة الملائكية... لذا، فإن مدربكم يسوع المسيح ـــ الذي مسحكم[13] بالروح القدس وهيأكم لهذه المصارعة ـــ أراد قبل أن تدق ساعة الصراع، حرمانكم من الحرية كتدريب مكثف لتمتين قواكم وعزائمكم»[14]. فالمسيحيون كانوا نوعا من

(8) - **Dictionnaire Gaffiot** (op. cit) ; p. 91 : **agon**, onis, m.(αγων) :
1-: lutte dans les jeux publics : Plin., **Ep.** 4, 22, I; Suet., Nerva, 21.
2-: chez les écrivains écclésiastiques : lutte, combat:
Tertul., **Spectab.**, 29; Cypr. **Ep.** 8, I et ...
agonista : athlète, combattant dans les jeux.

(9) ولد بقرطاج حوالي 150م، اعتنق المسيحية في سنة 193 وأصبح راعيا بقرطاج حيث توفي بعد سنة 220. امتاز في كتاباته بكثير من الحماس والانفعال والتعصب. يعتبر مؤسس «الأسلوب اللاتيني في الكتابات الكنسية». ويعتبر أيضا «طاكيتوس اللاتينية المسيحية».

(10) ولد حوالي سنة 200 في قرطاج على الراجح. اعتنق المسيحية (249) وأصبح راعيا ثم أسقفا (248—249) بنفس المدينة حتى أعدم سنة 258 بسبب عدم تخليه عن العقيدة المسيحية. أصبح من أكبر شهداء الكنيسة وقديسيها.

(11) - Brisson, J.P., op. cit., p. 300

(12) تزايد اضطهاد المسيحيين على عهد «سبتيموس سفيروس» Septimus Severus (193—211) وخاصة بعد سنة 202، حيث منع التبشير باليهودية والمسيحية. وكان عدد الشهداء كبيرا خاصة في الاسكندرية وقرطاج. وفي هذه المدينة الأخيرة، اكتسى استشهاد القديستين perpétue وFélicité شهرة كبيرة خلدها «كتاب آلام» الشهيدتين (Passio SS. Perp. et Felicitatis) الذي ربما كان من تأليف «طرتليانوس».
- Monceaux, P., **H.L.A.C.**, t. I, pp. 83-84.

(13) المقصود هنا حسب الظاهر هو إقامة شبه بين مسح البدن بالزيت المقدس ـــ الذي هو عملية دينية ـــ ودهن المصارعين بدنهم بالزيت ـــ الذي هو عادة المجالدين في السرك ـــ.

(14) - Tert., **Ad Martyras**, 3 (Brisson, op. cit., p. 304)

مجالدين في حلبة هي المحكمة، حيث كان الحاكم يأمرهم باسم الامبراطور أن يتخلوا عن عقيدتهم وألا يهلكون. والمنتصرون في «الحلبة» هم الذين كانوا يقرون بعقيدتهم (Confessores)، ولو أدى بهم ذلك إلى الشهادة (martyrium) والمنهزمون هم الذين كانوا يتخلون عن العقيدة ويقدمون القرابين. «للامبراطور ـــ الإله»[15].

والمسيحيون كانوا أيضا «عساكر المسيح» «milites Christi» المحاربين لعساكر الشيطان المتمثلة في السلطة الزمنية المضطهدة.

كل هذا يدعوا إلى الاعتقاد أن مصطلح «مناضلين» كان له مدلول ديني.

وعلى هذا الأساس، وجب أن نأخذ بالاعتبار الجانب الديني من تصرف الدوارين[16]. والواقع أن النصوص الكاثوليكية كثيرا ما تتحدث عن ظاهرة تقديس الشهداء عند الدوناتيين عامة والدوارين بصفة خاصة[17]. وكثيرا ما تربطها أيضا بظاهرة «الانتحار» قصد الحصول على درجة الشهداء. ويقول «بياتوس» في هذا الصدد : «... وآخرون لهم عقلية خرافية واعتقادات باطلة، يزيدون ويستفيضون في الممارسات الدينية. وهؤلاء الناس ـــ هم أيضا ـــ لا يعيشون كباقي الإخوان، بل إنهم يتذرعون بحب الاستشهاد لقتل أنفسهم، مقتنعين أنهم إذا ما غادروا الحياة بتلك الطريقة العنيفة، فإنهم يستحقون اسم الشهداء. ويطلق عليهم باللغة الاغريقية Cotopices[18]، أما نحن فنسميهم باللاتينية

---

(15) عن اضطهاد الدولة للمسيحية بصفة عامة في الامبراطورية، هناك عرض موجز، مع طرح بعض المشاكل المعلقة في :

- Lepellay, C., **l'Empire romain et le Christianisme**, Paris, questions d'Histoire - Flammarion, 1969. (Problèmes et querelles d'interprétation, pp. 109-120).

وعن اضطهاد «دقيوس» و«فاليريانوس» (Decius, Valerienus) من 250 إلى 259 في افريقيا خاصة، انظر :

- Saumagne, Ch., **Saint-Cyprien évêque de Carthage, «Pape» d'Afrique** (248-258), Paris, C.N.R.S., 1975.

(16) يرى الأستاذ «بريصون» ـــ رغم عدم موافقته على نظرية Frend ـــ أنه من الضروري أخذها بعين الاعتبار، على الأقل للرد عليها. (من رسالة بعثها إلي في الموضوع بتاريخ 6 أبريل 1979).

(17) - Monceaux, P., **H.L.A.C.**, IV, pp. 149 ss; et V, pp. 35-47.
- Frend, W.H.C., **the Donatist church.**, op. cit., pp. 35-47.

(18) Cotopices وCotopitae حسب المخطوطات : =

Circumcelliones، وهم ريفيون (agrestes)، إنهم يتنقلون من إقليم إلى آخر ويمكثون طويلا في زيارة أضرحة الشهداء كما لو كانوا ـــ بهذا العمل ـــ يضمنون الخلاص لأرواحهم. لكن كل هذا لن ينفعهم في شيء، مادام أنهم يفعلونه خارج وحدة الإخوان»[19].

إن هذا النص واضح، فبالنسبة للكاتب، يبدو أن الدوارين كانوا يطلبون الاستشهاد ولو بقتل أنفسهم، وأنهم كانوا أيضا يقضون وقتا طويلا في الترحم على الشهداء والمكوث عند أضرحتهم.

وإذا ما صدقنا النصوص الكاثوليكية، فإن ظاهرة الانتحار قصد الحصول على درجة الشهادة كانت قديمة ومتفشية في أوساط الدوارين خاصة. فعن قدمها يمكن الرجوع إلى مؤلف ابطاتوس الذي يشير إلى «الاستشهاد الباطل» الذي كان يتعاطاه الدوارون «المناضلون» بضرب أنفسهم أو بالارتماء من أعلى الجروف[20]. وعن انتشارها في أوساط الدوارين، يمكن الادلاء بنصوص أغسطينية عديدة[21]. وحسب أغسطين فإن تلك الظاهرة كانت «يومية»[22] و«عادية»[23] عند الدوارين، وان طرق «الانتحار» كانت متنوعة : الغرق[24]، الاحتراق[25]، الارتماء من أعلى الجروف[26] بل واستفزاز الأخرين للحصول على ضربات

= — Cotopices، في نشرة Florez وعنها أخذ P. Monceaux وW.H.C. Frend وTergström.
— Cotopitae في مخطوط طورينو (Cod. Taurin. Lat.)، وعنه أخذ Calderone. عن هذا المصطلح انظر أعلاه، ص 106 وما بعدها.
- Calderone, S., circumcelliones, op. cit., p. 103, n. 22.

(19) - Beatus, **Comment. in Apocalyp.** (Ed. Florez, p. 26); ap. B.A. 32, p. 748; Monceaux, P., **H.L.A.C.**, V, p. 206.

(20) النص الأول في الملحق.

(21) النصوص : 16، 27، 40، 48 في الملحق.

(22) النص 16 في الملحق.

(23) النصوص : 16، 40، 43 في الملحق.

(24) النص 41 في الملحق.

(25) النصوص : 27، 43، 47، 48 في الملحق.

(26) النصوص : 27، 40، 43، 47، 48، 51 في الملحق.

مميتة[27]. ونجد مختلف هذه الطرق مجتمعة في بعض النصوص، منها إحدى فقرات الرسالة التي بعث بها أغسطين إلى «الكونت»[28] «بونيفاكيوس» Bonifacius[29] حوالي 417 : «من ذا الذي حاول الانتقام لضحايا ضرباتهم اللهم إلا جنونهم أنفسهم هو الذي يعاقبهم ؟ : فبعضهم يوجهون إلى صدورهم سيوف الآخرين ويهددونهم بالموت كي يضربوهم الضربة القاضية، وبعضهم يقضون على حياتهم بالماء أو بالنار في كل مكان، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة كالحيوانات في عذاب جسدي حكموا به على أنفسهم»[30].

ويبدو إذا ما صدقنا أغسطين أننا أمام ظاهرة دينية شبه «صوفية»، ناتجة عن تعصب ديني نوعا ما «بدائي»[31] ومن ثم اتجه بعض الباحثين إلى القول بأن الدوارين لم يكونوا سوى فرقة دينية متعصبة[32] : بينما مر آخرون «مر الكرام»

---

(27) النصوص : 27، 43، 48 في الملحق.

(28) Comes (قائد الجيش في افريقيا). عن معنى التسمية وأصلها ووظيفتها، انظر : أعلاه ص 124، هـ 26.

(29) كان مكلفا من قبل الامبراطور هنوريوس لتصفية الانشقاق الدوناتي في افريقيا. (أعلاه، ص 128).

(30) النص 43 في الملحق.

(31) يرى «بريصون» أن الظاهرة لها مثيلاتها في حركات دينية أخرى ذات طابع شعبي كحركة «المؤمنين ـــ القدامى» «Vieux-croyants» في روسيا.

- **Brisson, J.P., Autonomisme et Christianisme..., op. cit., p. 321, n. 6.**

غير أن «بريصون» لم يتناول ظاهرة الانتحار عند الدوارين بالضبط، رغم أنه خصص صفحات كاملة «للشهداء» ص 288—323 في إطار القسم الثاني من كتابه : «الشهداء والدوارون» (صفحات 243—410). فلم يشر إلى تلك الظاهرة عند الدوارين إلا في جملتين وهامش (ص 350—351 وهـ 1 ص 351). أما في الصفحات الخاصة «بالشهداء»، فقد تناول الانتحار كظاهرة عامة عند الدوناتيين، مما أتاح له «تلافي» المشكل. وبصفة خاصة، يشير في ص 321 كتعقيب على فقرة من رسالة أغسطين إلى الكونت «بونيفاكيوس» (النص 43). ان المقصود بالمنتحرين في تلك الفقرة هم تلك الجماهير الشعبية (الدهماء) التي طالبت «قديما» بإدانة «كايكيليانوس» Caecilianus. (عند فجر الانشقاق الدوناتي : 311.) والمعروف أن تلك الجماهير كانت عبارة عن دهماء المدينة (انظر أدناه، ص 177) بينما المقصود في تلك الفقرة هم الدوارون بالضبط (أي دهماء الأرياف)، خاصة وأن الفقرة كلها كانت تتحدث عنهم.

(32) انظر أعلاه، ص 105 هـ 94 و95 بالإضافة إلى Diliguenski (أعلاه، ص 105 هـ 90)=

على هذا الجانب الغامض مع تصرف الدوارين وركزوا اهتمامهم على جوانب أخرى[33]، ورأى البعض الآخر أن السبب في تعاطي الدوارين «الانتحار» يرجع في الأصل إلى الظروف البئيسة التي كانوا يعيشون فيها[34].

أيا كان، فإن المرء لا يستطيع تكذيب أغسطين جملة ولا التقليل من أهمية شهاداته. وفي نفس الوقت، لا يستطيع أن يقبل بدون نقاش تصريحات الكتاب الكاثوليك، وخاصة أغسطين الذي كان في صف المواجهة مع الدوناتيين، يرد عليهم بلسانه وقلمه، ويعقد الاتصالات مع السلطة لشرح موقف الكنيسة الكاثوليكية الرسمية من تصرفات الدوارين. لذا، ينبغي تناول نصوصه بكثير من الحذر والتمحيص حتى لا ينزلق المرء ويصدق بالحرف ما كان يقوله الكاتب الكاثوليكي على سبيل الجدل الكلامي. ومن الحكمة أن لا يأخذ الباحث بالاعتبار سوى الوقائع الدقيقة التي يعرضها الكتاب الكاثوليك، وأن يضع محل استفهام كل العموميات الأخرى الواردة في كتاباتهم.

وفعلا، يمكن مقارنة نصوص أغسطين بعضها البعض للخروج ببعض الملاحظات التي ربما تساعد على إدراك المشكل.

= الذي يرى فيهم حسب تقرير Kotula (أعلاه، نفس الصفحة والهامش) : «فرقة دينية مرتبطة بالدوناتية، وشبيهة بتجمع الرهبان المنشقين ذوي أفكار دينية واجتماعية متطرفة» (Kotula, op. cit., p. 346). إضافة كذلك إلى الباحثين السوفياتيين N.A Machkine وV.S Seguerev اللذين يريان أن «الدوارين» كانوا يشكلون الفرقة الأكثر تطرفا في الحركة الدوناتية حسب تقرير P. Gacic :

- Gacic, P., En Afrique romaine. Classes et luttes sociales d'après les historiens Soviétiques, Annales, E.S.C., XII, 1957, pp. 650-61 (p. 659, n. I).

وترى الباحثة الألمانية TH. Büttner ان التعصب الديني كان «العنصر الأصيل عند الدوارين» وتسميهم بـ«الجناح اليساري الراديكالي للدوناتية» ــ حسب E. Lamirande :

- Lamirande, E., B.A. n°. 32, p. 717. (TH. Büttner dans TH.Büttner et E. Werner, circumcellionen und Adamitten. Zwei Formen mittelalterlichen Haeresie, Berlin, 1959, pp. 5 et 7).

(33) مثلا : Tengström (في كتابه المذكور أعلاه، ص 102 هـ 76) حسب تقرير S. Lancel :

- Lancel, R.E.L., 1965, p. 638-639.

وأيضا «بريصون» أعلاه ص 152 هـ 31.

(34) - Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste, d'après le texte, d'Optat, R.A., 1926, pp. 17-18.
- Brisson, J.P., op. cit., p. 351.

فالملاحظ بادىء ذي بدء أن الفقرات التي يتحدث فيها أغسطين عن انتحار الدوارين متشابهة إلى حد كبير وبعضها مقولب على نفس الشكل، بحيث يكتفي الكاتب بتعداد أشكال الانتحار كما فعل في نص رسالته إلى بونيفاكيوس[35]. ومن ثم يشعر المرء أن الأمر ربما كان يتعلق بتعابير جاهزة أكثر مما كان يطابق الواقع المعاش. لكن مجرد الشعور لا يكفي، فهل يمكن إعطاء «الدلائل» على الطريقة التي تكونت بها تلك التعابير الجدلية الجاهزة عند أغسطين ؟ ربما ساعدتنا بعض الأحداث التاريخية على ذلك. والواقع أن أغسطين نفسه سوف يساعدنا في هذا المجال. ففي إحدى فقرات رده على Gaudentius[36] اسقف تمقاد Thamugadi[37]، يشير أغسطين إلى أن المنتحرين «نادرا ما كانوا يلجأون إلى «الماء والنار»، وإنما كانت المنحدرات الجبلية هي التي تبتلع منهم الفرق العديدة»[38]. وتحدثنا المصادر من جهة أخرى عن حادثة تركت أثرا ملموسا في تاريخ الشهداء الأفارقة في القرن الرابع وأثارت النقاش الحاد بين الكاثوليك والدوناتيين. ويتعلق الأمر بوفاة «ماركلوس» Marculus، أحد الأساقفة الدوناتيين

---

(35) أعلاه، ص 152، (النص 43 في الملحق).

(36) كان أحد الممثلين السبعة المندوبين من طرف الأساقفة الدوناتيين للدفاع عن قضية كنيستهم في مناظرتهم الجدلية مع الممثلين السبعة الكاثوليك (مناظرة قرطاج في 411).

- Marcelli praefatio, 5; Lancel, S., **Actes de La Conférence de Carthage en 411**, t. II. S.C. n° 195, p. 414; **Gesta**, I, 148 (Lancel, S., ibid, p. 799-801).

لا نعرف شيئا بالتأكيد عن تاريخ ومكان ولادته :

(Lancel, S., ibid, T.I, Introduction, p. 199, n. 2).

وربما كان ذلك بتمقاد حوالي 355 حسب «مونصو».

(Monceaux, P., **H.L.A.C.**, VI, p. 193).

في سنة 320، أصدر Dulcitius — الوكيل (Tribunus) المكلف بتنفيذ القوانين ضد الدوناتيين — مرسومين يأمر فيهما الأساقفة «المتعنتين» بارجاع كنائسهم في أقرب وقت إلى «الوحدة» (أي إلى الكاثوليكيين). فاحتمى Gaudentius بكنيسته وهدد بالإحتراق مع مجموعة من المؤمنين الدوناتيين الذين التحقوا به في البناية، بدل تسليم كنيسته للكاثوليكيين. فبعث الوكيل بالرسالة إلى أغسطين يطلب رأيه في الموضوع. فرد أغسطين على رسالة «كاودنتيوس» جملة جملة : «الرد على كاودنتيوس، أسقف الدوناتيين» :

- «Contra Gaudentium donatistarum episcopum» = **B.A**, n° 32, pp. 150-685.

(37) شمال الأوراس، جنوب شرقي مدينة بطنة الجزائرية.

(38) النص 48 في الملحق.

الذين هلكوا إبان المقاومة «لقانون الوحدة»، ذلك القانون الذي أصدره «قنسطنس سنة 347 والذي قام على تنفيذه المبعوثان الامبراطوريان «بولس» Paulus و«مكاريوس» Macarius بصرامة شديدة ضد الدوناتيين خاصة في نوميديا[39]. وقد أرسل الأساقفة الدوناتيون عشرة ممثلين عنهم إلى مكاريوس لمحاولة اقناعه بالعدول عن استعمال العنف مع الدوناتيين و«لاسداء النصح إليه كي يرجع عن غيه»[40]. غير أن مكاريوس عامل الوفد الاسقفي بازدراء، وأمر بجلد الأساقفة، بل احتجز أكثرهم صلابة — وهو الأسقف ماركولوس — وطوف به في المدن النوميدية إلى أن لقي حتفه. وقد أكد الدوناتيون فيما بعد أن جلادي «مكاريوس» ألقوا بشهيدهم حيا من أعلى أحد الجروف، بينما ادعى الكاثوليكيون أنه انتحر بهذه الطريقة[41]. وأيا كان سبب وفاة ماركولوس، فإن ذكراه ظلت خالدة في أذهان الأفارقة الدوناتيين، وأقيم له ضريح عثر عليه في كنيسة Vegesela (قصر الكلب قريبا من خنشلة بالجزائر)[42] كما دخل إلى قائمة الشهداء العظام وخصص له «كتاب آلام» (Passio) لازال محفوظا إلى اليوم[43]. وإذا أخذنا بالاعتبار هذه الشهرة التي اكتسبها «ماركلوس» والجدل الذي ظل قائما بين الدوناتيين والكاثوليك حول طريقة استشهاده، يمكن أن نربط بين مقولات أغسطين وتلك الحادثة التاريخية — أو على الأصح — تلك الحادثة التي تركت ضجة تاريخية. وإذا ما اعتبرنا كذلك ميل الطبقات الشعبية إلى تقديس

---

(39) سنرجع إلى هذه الأحداث بالتفصيل في الفصل السادس.

(40) - Passio Marculi Sacerdotis Donatistae, **P.L.** 8, col. 760 ss.; ap.
- Monceaux, P., **H.L.A.C**, V, pp. 69-81.

(41) تعرض أغسطين في بعض الفقرات إلى وفاة «ماركلوس»، ويرجع الانتحار على القتل. (مثلا، النص 16 في الملحق). ولكنه في بعض الفقرات الأخرى يعترف بأنه لا يملك حجة على ذلك. مثلا يقول : «أنا أحكي ما سمعت عن ماركلوس، ولماذا أرجح هذه الرواية (انتحار ماركلوس). لكن الله وحده يعرف الحقيقة».
- Aug., C. Cresc. III, XLIX, 54; **B.A.** 31, p. 384.

(42) - Cayrel, P., une basilique donatiste de Numidie, **M.E.F.R.**, 1934, pp. 114-142
- Courcelle, P., une seconde campagne de Fouilles à Ksar El Kelb, **M.E.F.R.**, 1936, pp. 166-197.

(43) هو «كتاب آلام ماركلوس» المشار إليه في دراسة المصادر، ص 46.
- (Passio Marculi sacerdotis donatistae, **P.L.**, 8, col. 760 ss).

الشهداء(44)، يمكن أن ندرك أن بعض المؤمنين وصل بهم تبجيل شهيدهم ومحاولة تقليده إلى اتباع نهجه في نوع الوفاة التي اشتهر بها. هل كان المنتحرون عبارة عن «فرق كاملة» كما يدعي أغسطين أو أن هناك مبالغة في عددهم ؟ ينبغي أن لا نستبعد الافتراض الثاني كما سيتبين بعد قليل.

ويتعلق الأمر هذه المرة أيضا بحادثة تاريخية وقعت بمدينة «باغاي» قبيل انعقاد مناظرة قرطاج (411)(45) وأثارت نقاشا حادا بين الدوناتيين والكاثوليكيين في المناظرة. ويلخص أغسطين ذلك النقاش كالتالي : «... ومن جديد، أثار الدوناتيون النهاية الأليمة التي عرفها بعض أصحابهم (الدوارين)(46) في مدينة باغاي. وكان هدفهم من ذلك التدخل تضخيم الاضطهاد الذي يدعون أنهم يعانون منه. وكان جواب الكاثوليك أن أولئك الناس لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظمت ضد أعمالهم العنيفة، ذلك العنف الذي هددوا به القاضي نفسه. كما ذكر الكاثوليكيون بالجرائم الشنيعة التي اقترفوها في تلك المدينة حيث أحرقوا الكنيسة ورموا الكتاب المقدس في النار. أما نهايتهم الأليمة، فتعزى — حسب ما يظهر — إلى عادتهم في الانتحار بالارتماء من أعلى المرتفعات»(47).

ويبدو التناقض واضحا في هذا النص بين التفسير الأول الذي أعطاه الكاثوليك لهلاك الدوارين بكونهم سقطوا في اشتباك (مع أنصار الكاثوليك، أو مع قوات الأمن ؟ لا ندري) والتفسير الثاني الذي يعزو مقتل الدوارين إلى «عادتهم في الانتحار». وعندها، يتساءل المرء عما إذا كان أغسطين لم «يُخفِ» في عداد المنتحرين أولئك الذين سقطوا فعلا تحت ضربات الجيش أو خلال الاشتباكات

---

(44) أدناه، ص 162 وما بعدها.

(45) لا يمكن تحديد تاريخها بالضبط. وحسب الراجح، ربما كانت نفس الحوادث التي يتحدث عنها أغسطين في رده على كريسكنيوس.

- (C. Cresconium, III, XIIII, 47 = B.A. 31, p. 365 ss).

والتي ترجع إلى حوالي 403–404 (مهاجمة الدوناتيين للأسقف الكاثوليكي ببغاي : **Maximianus** : النص 31 في الملحق).

(46) ما من شك في أن الأمر يتعلق بالدوارين. يقارن مع **Brev. Coll., III, VIII, 13** (النص 37 الذي يتعلق بنفس الأحداث. كذلك تعليق **E. Lamirande** في الهامش: **B.A., 32, p. 163, n. 3 -**

(47) النص 40 في الملحق : **Aug., Brev. Coll., XI, 23 -**

التي كانت تقع بين مناصري الكنيستين المتناحرتين[48]. لذلك يمزج أغسطين بين التفسيرين كما يمكن ملاحظته في النص التالي :

«وإذا حصل أن لحقتهم المنية، فإن ذلك يرجع إلى كونهم يُقتَلون أنفسهم أو إلى كونهم يقتلون في حالة تلبس بجريمة العنف الدموي، لا بسبب اعتناقهم للدوناتية، ولا بسبب انشقاقهم المدنس، ولكن لقاء جرائمهم التي يقترفونها يوميا على غرار اللصوص، وبجنون وقسوة لا يتصوران»[49]. ففي هذا الحال، كيف يمكن التمييز بين «المنتحرين» و«القتلى»؟ وكيف يمكن إعطاء تقدير لأهمية وانتشار ظاهرة «الاستشهاد الإرادي» عند الدوارين ؟ ان أغسطين يتحدث عن آلاف المنتحرين في المؤلف الذي كتبه ردا على «كَاودنتيوس»[50]. ويقول «كَاودنتيوس» في رسالته إلى الوكيل «دولكيتيوس» Dulcitius[51] : «أليس اضطهاد هذا الوضع الذي أرغم آلاف الشهداء الأبرياء على الموت ؟ ان المسيحيين ـــ وعنهم يقول الانجيل ان «الروح نشيط اما الجسد فضعيف»[52] ـــ وجدوا في المحرقة طريقا مختصرا لانتزاع أرواحهم من الوسخ المدنس...»[53]. ماذا كان يقصد

(48) لم تصلنا شهادات كثيرة عن عنف الكاثوليك على لسان أغسطين أو زملائه. أما الكتابات الدوناتية، فتتحدث بطبيعة الحال عن اضطهاد الكاثوليكيين لكنيستهم (مثلا في مناظرة قرطاج : Gesta, III, 258 = Lancel, S., Actes.., p. 1217-1218) إلا أنها كانت تقصد السلطات الرسمية، ولا تتحدث عن جمهور الكاثوليك. ومع ذلك، فإن أغسطين يشير إلى وجود بعض الكاثوليكيين الذين ينتقمون لإخوانهم ويقابلون العنف بالمثل، بل ويستحوذون على ممتلكات الكنيسة الدوناتية والخواص الدوناتيين بدعوى الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية ويرى أغسطين أن «تحمسهم مصطنع» : C. Cresc. III, L, 55 = B.A., 31, p. 385 -

(49) النص 41 (في الملحق) .Aug., Ad. donatistas p. coll., XVII, 22 -

(50) أسقف تمقاد : انظر أعلاه، ص 154، هـ 36.

(51) هو أحد المكلفين بتطبيق القوانين الصادرة على الدوناتيين منذ صدور الأحكام عليهم إثر مناظرة قرطاج (411). أعلاه، ص 154، هـ 36.

(52) انجيل متى، الاصحاح XXVI، 41.

(53) النص 48 : (Aug., C. Gaud., I, XXVIII, 32).
نهج أغسطين في «الرد على «كاودنتيوس»» نفس الطريقة التي نهجها في الرد على «بتيليانوس» Peutilianus أسقف القسنطينة : C. litteras Petitiliani (مع فرق طفيف في التقديم) بحيث كان يورد كلام «بتيليانوس» أو «كَاودنتيوس» ويرد عليه، الشيء الذي حفظ لنا بعض الكتابات الدوناتية عن طريق أغسطين. (انظر نقد المصادر، ص 43—44).

«كاودنتيوس» بآلاف المسيحيين ؟ هل كان ذلك الرقم تضخيما للدوناتيين الذين احتموا معه في كنيسة تمقاد وهددوا بالاحتراق مع الكنيسة إذا ما أقدم الوكيل «دولكيتيوس» على انتزاعها منهم وتسليمها للكاثوليك، أو أنه كان يقصد مجموعات أخرى من الدوناتيين أقدموا بالفعل على الاحتراق ؟ أيا ما كان، فإن جواب أغسطين كان مقصورا على الدوارين، ويقول : «من منا يجهل كيف أن العديد من أولئك (الدوارين) كانوا قديما يتعاطون كل أشكال الانتحار، وكيف قل الآن نسبيا عدد الذين يلقون بأنفسهم أحياء في الحرائق التي يشعلونها ؟ لكن إذا كنت تعتقد أننا سوف نتأثر لآلاف الرجال الذين يقضون على حياتهم بهذا الشكل، فتصور مدى الارتياح العميق الذي نشعر به لكون آلاف الآخرين ـــ وهم أكثر بكثير ـــ بدأوا يتحررون من الحماقة المجنونة لحزب «دوناتوس»...»[54].

وفي نفس السياق، يقول أغسطين : «نعم ! إن أولئك الذين يحرقون أنفسهم لا يتعدى عددهم حتى عدد المحلات الآهلة جدا بالسكان، والتي خلصتها الإجراءات الرسمية[55] من كارثة ذلك الانشقاق وذلك الجنون»[56]. فالواضح أن «ضرورة» الجدل الكلامي كانت تدفع الكاتب في بعض تصريحاته إلى المبالغة في عدد «المنتحرين» لإظهار مسؤولية الدوناتيين «قبضتهم الروحية»[57] في «تلك الانتحارات الأثيمة»، لكن نفس الضرورة الجدلية كانت تملي عليه في تصريحات أخرى أن يقلل من عدد المنتحرين ليظهر «إيجابيات» تدخل السلطة الرسمية بالعنف ضد المنشقين[58]. وبالتالي، يبدو من العبث أن نبحث عند الكاتب على تقدير حقيقي لظاهرة «الاستشهاد الإرادي» عند الدوارين. والراجح أنه على العموم بالغ في عدد المنتحرين، وأخطر من ذلك، أنه أعطى تلك الظاهرة «صبغة مجانية» لا

---

(54) النص 48 في الملحق، (Aug., C. Gaud., I, XXIX, 33) -

(55) القوانين المطبقة ضد الدوناتيين من 412 إلى تاريخ كتاب أغسطين (420).

(56) النص 48 في الملحق ص 336-241، Aug., C. Gaud., I, XXIX, 33 -

(57) النص 48 : «تقول إن هناك آلاف الرجال الذين يقدمون على هذا العمل (أي الانتحار بطريقة الاحتراق) كما لو أن ذلك لم يكن حافزا آخر ـــ بل حافزا مهما ـــ على تلخيص افريقيا من قبضتكم الروحية...»، (Aug., C. Gaud., I, XXVIII, 32) -

(58) لقد بلور أغسطين نظرية متكاملة عن ضرورة تدخل السلطة الزمنية واستعمال العنف في القضايا الدينية. انظر أعلاه، ص 23 هـ 6، وص 141.

يفسرها — في رأيه — إلا «جنون» الدوارين و«هذيانهم»[59]، وبذلك بتر كل ما يمكن أن يضع ظاهرة الاستشهاد في إطارها الحقيقي، أي في ظروف الاضطهاد الذي عانت منه الكنيسة الدوناتية.

وحسب أغسطين، فإن الدوارين كانوا يلجأون إلى الانتحار عندما لا تتيح لهم ظروف الاضطهاد فرصة الاستشهاد في المعارك، بل يصل بهم «الجنون» أحيانا إلى إرغام الآخرين على قتلهم[60]. ويوحي أغسطين بتفسير تاريخي لهذه الظاهرة : «ان أولئك الذين استطعتم اقناعهم بفكرة اقتراف هذا الإثم (أي الانتحار) ينتمون في الواقع إلى سلالة أولئك الرجال الذين اعتادوا في القديم أن يقوموا بنفس الفعل، خاصة عندما كانت عبارة الأوثان منتشرة في كل مكان. عندئذ، كانوا يرتمون على جماهير المشركين (pagani) الشاهرين سلاحهم والمتأهبين لإقامة شعائرهم، فكان الشبان من المشركين ينذرون لأوثانهم كل الضحايا الذين يسقطون بين أيديهم. أما المتعصبون السذج، فكانوا يهرعون إليهم جماعات من كل جانب، شأنهم شأن الحيوانات المفترسة التي يطاردها القناصون في الحلبة (amphitheatrum)، وكانوا يلقون بأنفسهم على الحراب الثاقبة. وهكذا كانوا يحصلون في نوبتهم الجنونية على الموت، وفي حالتهم المتعفنة على ضريح، وفي خداعهم على مقدسين»[61]. هل كان الدوارون يرون في الارتماء على سلاح الآخرين نوعا من مقاومة فعالية لاضطهاد السلطة الرسمية لهم، شأنهم في ذلك شأن المسيحيين الأوائل ؟ ربما، إذ لا ينبغي أن ننسى أن الدوناتيين بصفة عامة كانوا يعتبرون الكاثوليك مضطهدين لهم[62] وأن عهد الاضطهاد لم ينقض مع قسطنطين[63]، بل استمر مع كل الأباطرة اللاحقين[64].

---

(59) النص 46 : Aug., C. Gaud., I, XXVI, 29 : «أن هذا من قبيل جنون الدوارين، ولا من باب أمجاد الشهداء».

(60) انظر أعلاه، ص 151.

(61) تتكرر الإشارة إلى هذه الظاهرة في ;Aug. Ep... CLXXXV, III, 12, C.S.E.L. 57, p. 11 -
cf. LEPELLEY (Cl.), «Juvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique antique» **Ant. Afr.**, 15, 1980, 261-271.

(62) مثلا في مناظرة قرطاج، ورد في الرسالة التي قرأها الدوناتيون أمام القاضي، ما يلي : «... إذن، فإن خصومنا، «المتخاذلين» (traditores) والمضطهدين لنا...».

- (Gesta, III, 258 (Ed. Lancel, S., S.C. 224, p. 1195).

(63) في سنة 313، صدر ما يسمى خطأ «مرسوم ميلانو» الذي هو في الواقع عبارة عن رسالة

غير أن ادعاءات أغسطين بكون المنتحرين كانوا يرغمون الآخرين على قتلهم تبدو غير معقولة. فالأسقف «كَاودنتيوس» الذي هدد بالاحتراق مع مجموعة من رعاياه في كنيسة تمقاد يقول : «في هذه الكنيسة، حيث ظل اسم الله ومسيحه يعبد دوما بحق من لدن رعية عديدة ـــ وذلك حسب اعترافك نفسك ـــ[65]، إما أن نبقى على قيد الحياة ما شاء الله من الأيام، وإما أن نضع حدا لحياتنا في حرم هذا المعسكر الرباني كما يجدر بعائلة الرب. ولكن بهذا الشرط : أن يمارس علينا العنف، عندئذ، يقع التنفيذ[66]. فليس هناك أحد يصل به التهور إلى الجري وراء الموت إذا لم يرغم على ذلك»[67]. ويبقى «كَاودنتيوس» المثال الدقيق التاريخي والوحيد الذي ورد عند أغسطين بصدد الانتحار عند الدوناتيين. فوفاة الأسقف «ماركولوس» ـــ كما رأينا ـــ ظلت مثار نقاش بين القائلين بانتحاره والمؤكدين بقتله[68]. هذا علما بأننا لا نعرف كيف انتهت قصة «كَاودنتيوس»، وهل نفذ بالفعل تهديداته، الشيء الذي لا يبدو راجحا طالما أن الرجل أخذ الوقت الكافي لتبادل الرسائل مع الوكيل «دولكيتيوس»، و لم يبد أي عجالة لاشعال النار

= موجهة إلى ولاة الأقاليم الشرقية تخبرهم بالقرار الذي اتخذه الامبراطور «ليكينيوس» licinius باتفاق مع زميله الامبراطور «قسطنطين» بانهاء اضطهاد المسيحية وارجاع الكنائس والممتلكات المصادرة إلى الأساقفة. وصلنا نص الرسالة عن طريق «لاكطانتيوس» في كتابه «عن موت المضطهِدين» :

- Lactantius, **De Mortibus persecutorum**, XLVII, trad. J. Moreau S.C., n° 39, t. I, pp. 132-133.

عن سياسة قسطنطين تجاه المسيحية، وعن اعتناقه لها، هناك عدة آراء. يمكن الرجوع فيها إلى :

- Piganiol, A., **l'Empire Chrétien (325-395)**, 2° éd. mise à jour par Chastagnol, A., Paris, Puf, 1972, pp. 27-49. (Bibliagraphie, p. 27, n. I).
- Petit, P., **Histoire générale de l'Empire Romain, t. 3 : le Bas-Empire (284-395)**, Paris, Seuil, 1974, pp. 58-67.

(64) مثلا، يقول «بتيليانوس» أسقف القسنطينة مخاطبا الكاثوليكيين : «ما شأنكم وشأن ملوك هذه الدنيا الذين لم تجد فيهم المسيحية إلا أعداء لها ؟».

- Aug., C. Litt. Petil., XCII, 202 = B.A., 30, p. 469)

(65) يخاطب الوكيل «دولكيتيوس» المكلف بتنفيد الأحكام الصادرة على الدوناتيين.

(66) يقصد : نحرق أنفسنا مع الكنيسة وننفذ التهديد.

(67) - Aug., C. Gaud., II, XIII, 14 = B.A., 32, p. 685

(68) أعلاه ص 156.

في الحطب[69]. هذا لا يعني بطبيعة الحال أن تهديده كان من قبيل التشدق والثرثرة، ولكن الأمر واضح بالنسبة إليه : فهو يشترط أن يتعرض للعنف قبل الاقدام على التنفيذ، وهو لا يصدق أن «يصل التهور» بالإنسان إلى حد أن ينتحر «إذا لم يرغم على ذلك»، وبتعبير آخر إذا لم تتوفر ظروف الاضطهاد الفعلي. فكيف يمكن في هذا الحال أن نأخذ مأخذ الجد مقولات أغسطين بأن الدوارين كانوا يرتمون على أسلحة الآخرين ويرغمونهم على قتلهم ؟ خاصة وأن الدوارين كانوا سباقين إلى مهاجمة الغير وشرسين في الاشتباكات مع القوات الرسمية[70]. ومن الأقرب إلى الصواب أن نفهم من كلام أغسطين أن الدوارين كانوا ـــ على الأقل ـــ يسعون إلى إثارة تلك الاشتباكات حتى يحصلوا على درجة الاستشهاد. والواقع أن تلك الاشتباكات لم تكن شيئا نادرا في تاريخ الدوارين. فمنذ حوالي سنة 340 يتحدث ابطاتوس عن معركة بين الدوارين وجيش «الكونت» طورينوس، ويشير إلى أن الدوارين اعتبروا قتلاهم في المعركة شهداء ونصبوا لهم بهذه الصفة أضرحة خاصة[71].

يبدو من الممكن إذن أن نستنتج من هذه الملاحظات أن أغسطين ربما بالغ في عدد المنتحرين وأنه كان ـــ أحيانا على الأقل ـــ يحسب في عدادهم ضمنيا قتلى سقطوا في المعارك مع الجيش أو مع أنصار الكاثوليك. وإذا ما حصرنا أبعاد الانتحار وحددنا أهميته بهذا الشكل، نكون قد ابتعدنا عن صورة «الانتحار الجماعي الصوفي» التي يمكن أن تتبادر إلى الذهن إثر القراءة الأولى لبعض النصوص الكاثوليكية. فلا يمكن فهم ظاهرة الانتحار إلا في إطار الاضطهاد الذي كان كل

---

(69) في نهاية رد أغسطين على الرسالة الثانية التي بعث بها «كاودنتيوس» إلى «دلكيتيوس» يدعو «أغسطين» الأسقف الدوناتي إلى الجواب على رده.

- Aug., C. Gaud., II, XIII, 14 = B.A., 32, p. 685.

عن شخصية «كاودنتيوس» الذي كان ـــ حسب قول «مونصو» ـــ «نوعا من تشخيص لحزب دوناتوس»، ونموذج الدوناتي «المتوسط» بين دهماء الدوارين وزعماء الدوناتيين» ـــ، يمكن الرجوع إلى :

- Monceaux, P., H.L.A.C., VI, pp. 197 ss.

(70) انظر النص 10 مثلا، ص 289-290.

(71) يتعلق الأمر بمعركة «محلة اكطافا» حوالي 340 وهي الأحداث التي سوف نعرض لها في الفصل الخامس.

الدوناتيين يعانون منه في بعض الفترات العصبية[72].

وترتبط بظاهرة الاستشهاد ظاهرة أخرى مهمة، وهي تبجيل الشهداء وتقديسهم، وإقامة الأضرحة لهم في الكنائس : (martyria)[73]. وحسب نص «بياتوس» الذي أوردناه سابقا، فإن الدوارين كانوا «يمكثون طويلا في زيارة أضرحة الشهداء»[74]. ونجد عند الكاتب المجهول «للرسالة إلى الكاثوليك» صورة حية لتجمعات الدوارين عند تلك الأضرحة : «عند أضرحة ذويهم، تلتقي فرق من السكارى المتسكعين — رجالا ونساء — في تجمعات فاسقة، فيغرقون أنفسهم في السكر ليل نهار، ويدنسون أنفسهم في أعمال الفجور...»[75]. ويعرفنا أغسطين عن أولئك النساء في فقرات عدة من كتاباته : فهن العذارى المنذورات لخدمة الكنيسة الدوناتية (Sanctimoniales أو moniales) اللائي كن أحيانا يلتحقن بالدوارين ويشاركنهم في تنقلاتهم، على قول أغسطين. ويحمل هذا الأخير الدوناتيين مسؤولية تلك الممارسات.: «... يتركون جماعات عذاراهم (moniales) الثملة تختلط بعصابات الدوارين المخمرة ليل نهار وتشاركهم في تسكعهم الشائن»[76]. ولكي تكتمل الصورة، يشير أغسطين إلى أن العذارى الدوناتيات كن ينتحرن أحيانا عندما يفتضح أمرهن ويحاولن اخفاء حملهن. ويقول بهذا الصدد : «ولهذا، فإن بعض عذاراكم الحوامل يلقين — هن أيضا — بأنفسهن من أعلى الجروف، فينفلق بطنهن، ويكشف انتحارهن الإجرامي عن جرائم فسقهن. وهن يعتقدن أنهن بانتقامهن هذا من أنفسهن، سوف ينجن من انتقام

---

(72) عندما يتشدد تطبيق القوانين عليهم : 317–318 (على عهد قسطنطين، 347 (على عهد قسنطنس)، وبعد سنة 405 (على عهد هنوريوس).

(73) النص أعلاه، ص 150.

(74) martyria : المفرد martyrium (الكلمة من أصل اغريقي).

(75) النص Aug., Ep. ad Cath., XIX, 50 : 27 (حول ما إذا كان أغسطين هو كاتب هذه «الرسالة» أو أنها من تأليف كاهن مجهول من مدينة «هيبو» (عنابة) انظر دراسة المصادر، ص 246).

(76) النص 12 (= Aug., C. ep. Parm., II, IX, 19). يمكن مقارنته مع النصوص : 11 و13 و27 و22.

خالقهن»[77].

لنغض الطرف عن اتهامات أغسطين للراهبات الدوناتيات، إذ ربما لم يكن الأمر يتعلق إلا ببعض الحالات التي استغلها المجادل الكاثوليكي للتحقير بالدوناتيين، وهي حالات لم تكن تخلص منها حتى الكنيسة الكاثوليكية[78]. ولنطرح جانبا اتهاماته للدوارين بتعاطي الفجور والسكر عند أضرحة الشهداء، لأن تلك التصرفات لم تكن ــ حسب ما يبدو ــ حكرا على الدوارين، وإنما كانت متفشية في كل الأوساط الشعبية بما فيها الحضرية[79]. الشيء الذي يهمنا هو النظر فيما إذا كان من المشروع التركيز على ظاهرة زيارة الأضرحة في أوساط الدوارين كما يرى Frend[80].

هنا أيضا ينبغي الانتباه إلى أن أغسطين لم يضع المسألة في إطارها التاريخي العام. فالمهم بالنسبة إليه هو توريط الدوناتيين في تلك الممارسات المنحرفة : «... إنهم يبعدون هذه الحشود المسكينة عن وحدة المسيح، ويحاولون استمالتها إلى حزبهم، فلا يخجلون من تشبيه العقوبات ــ التي تصيبهم لقاء انشقاقهم على يد السلطة الزمنية ــ بآلام الشهداء. ويحفزون أولئك السذج على الاحتفال بذكرى تلك العقوبات في حفلات صاخبة...»[81]. ان ظاهرة تقديس الشهداء ورفاتهم

(77) النص 51 (Aug. C. Gaud., I, XXXVI, 46) عن نفس ظاهرة الانتحار عند «المونياليس» (moniales)، انظر النص 49، وعن المؤسسة نفسها عند الدوناتيين انظر :
- Monceaux, **H.L.A.C.**, IV, pp. 144-145.

(78) الغريب أن أغسطين كان يعيب على رعيته تعميم بعض الحالات المشابهة ــ عند العذارى الكاثوليكيات ــ على كل زميلاتهن : «...ولو حصل أن عذراء منذورة (moniale) أو قسا اقترف إثما، فإن الكل يصيح : إنهم هكذا كلهم ! فماذا تقولون لو أننا وجدنا امرأة زانية (ولا أتحدث عن الرجال الزانين !) وقلنا إن أمهاتهن وأخواتهن كلهن هكذا ؟».
- Aug., Ep. LXXVIII, 6. (citée par A.G. Hamman; **La vie quotidieune en Afrique du Nord au temps de Saint-Augustin**, Paris, Hachette, 1979, p. 287).

(79) الحفلات المقامة في قرطاج على ضريح «قبريانوس»، وفي «هيبو» (عنابة) على ضريح «ليونتيوس» (Saint-Léonce) وفي أوتيكا... إلخ... انظر : A.C. Hamman, ibid., pp. 328-29 -

(80) أعلاه، ص 114-115.
- Frend, W.H.C., Circumcellions and Monks, **J.T.S.**, 1969, pp. 542-549.

(81) - Aug., **C. Ep. Parm.**, III, VI, 29 (**B.A.**, 28, p. 473)

لم تكن ظاهرة خاصة لا بالدوارين، ولا بالدوناتيين، ولا حتى بالأفارقة. فقد بدأ تقديس الشهداء أول الأمر عند قبور أولئك الذين سقطوا تحت تعذيب واضطهاد الدولة في مختلف أرجاء الامبراطورية»[82]. وابتداء من القرن الثالث، بدأ المسيحيون يحتفلون بذكرى شهدائهم[83]. أما في القرن الرابع، فقد وصلت هذه الظاهرة إلى درجة كبيرة من الانتشار وأصبح الناس لا يكتفون بتبجيل الشهداء فقط، ولكن يتبارون في امتلاك رفاتهم، ويتسابقون حول الحصول على القبور بازاء أضرحتهم. ويتحدث أغسطين في «اعترافاته» عن أمه «مونيكا» Monica التي احتفظت بعادتها في الذهاب إلى الأضرحة حاملة معها سلة من الطعام والشراب قصد استهلاك جزء منهما واهداء الباقي إلى الأموات[84]. فأخبرها حارس الأضرحة ذات يوم أن القديس «امبرزيوس» Ambrosius[85] ــ أسقف ميلانو ــ قد أصدر حظرا على مثل تلك الممارسات. ويضيف أغسطين أن الحظر أتى لقطع الطريق على السكيرين الذين كانوا ينتهزونها فرصة لادمان الخمرة، وتفاديا كذلك للمظهر الوثني الذي تتخذه تلك الحفلات. ويضيف أغسطين أن أمه «لم تكن لتقبل عن طيب خاطر حظر هذه العادة لو لم يأت منعها على يد إنسان في مثل مكانة «امبروسيوس» من نفسها»[86]. فظاهرة تقديس الشهداء لم تكن موجودة في افريقيا، ولكن أيضا في ميلانو. وفي روما، نجد البابا «دماسوس» Damasus[87]

(82) - Piganiol, A., **l'Empire Chrétien** (325-395), Paris, 1972., p. 412-413

(83) - Piganiol, A., idem

(84) - Aug., **Confes.**, VI, 2 (trad., J. Trabucco, Garnier-Flammarien, 1964, pp. 107-108

(85) القديس «امبروسيوس» (Saint-Ambroise) : 330–397. من أسرة كبيرة، تولى إقليمي «ليغوريا» و«ايميليا» (في إيطاليا). واختاره الشعب أسقفا في مدينة «ميلانو». كان مستشارا لدى عدد من الأباطرة منهم «ثيدوسيوس» Theodosius. كان ذا شخصية قوية، بحيث فرض على ثيدوسيوس أن يقر علنيا ذنبه في تقتيل سكان مدينة «تسالونيكا» في السيرك. يعتبر أحد الفقهاء الأربعة الأوائل في المسيحية («أغسطين» و«جيروم» و«كَريكوار الأكبر»). مارس تأثيرا كبيرا على أغسطين.

(86) - Aug., ibid, (p. 108)

(87) دماسوس الأول : البابا المسيحي من 366 إلى 384. اهتم كثيرا بظاهرة تقديس الشهداء، وكتب أبياتا شعرية في تمجيدهم، وهي التي نقش بعضها على جدران بعض الكنائس وأضرحة الشهداء (نقوش Furius Dionysius Filocelus).
- Piganiol, A., **l'Empire Chrétien**, op. cit., p. 412.

ينظم زيارة الجمهور المؤمن للشهداء في سراديب الموتى Catacombes[88]. وفي مدينة «نولا» Nula بـ«كمبانيا» اكتسحت القبور كنيسة الشهيد Felix نتيجة رغبة العديد من المؤمنين تبوء مسكنهم الأخير بالقرب من شهيدهم المقدس. وكان لهذا الشهيد ــ كغيره من كبار الشهداء ــ سمعة كبيرة في معالجة المرضى وشفاء ذوي العاهات إلخ... لذلك كان الناس يحجون إليه ويقصدون «بركته»[89].

ويحكي «بولينوس» Paulinus ــ أسقف «نولا» ــ[90] ان الفلاحين كانوا يقدمون إلى حفل ذكرى الشهيد حاملين معهم أسمن خنازيرهم لإقامة المآدب عند ضريح القديس[91].

أما في مصر، فيتحدث الناسك «شينوتي» Schenouti[92] عن حفلة تشبه تماما

---

(88) هي أروقة باطنية محفورة في الصخر، وبها ممرات ضيقة وقبور محفورة على شكل ثقب في الصخور يودع فيها الأموات المسيحيون. وكان معتنقو المسيحية خاصة في فترات الاضطهاد يعقدون بها تجمعاتهم. والاسم : Catacumbae أو : Ad catacumbas يأتي من اسم مكان يوجد إلى جنوب روما بثلاثة أميال قريبا من كنيسة القديس «سيباستيان». عثر على سراديب الأموات في عدة مناطق من الامبراطورية : الاسكندرية، نابولي، مالطة، إلخ... وفي افريقيا سراديب حضرموت Hadrumetum (سوسة بتونس).

(89) - Hamman, A.G., **la Vie quotidienne en Afrique au temps de Saint Augustin**, op. cit., p. 334-35.

(90) «Saint-Paulin de Nole» : (353–431). من أسرة نبيلة، تولى عدة مناصب مهمة فكان قنصلا سنة 378 ثم واليا على إقليم «كمبانيا» Campania (جنوب سهل لاتيوم). انبهر «لمعجزات» القديس Felix بمدينة «نولا»، فاعتنق المسيحية وتخلى عن املاكه في «غاليا» وأصبح أسقفا «بنولا» سنة 409. كتب عدة مؤلفات (شعر، رسائل، مزامير...). تبادل الرسائل مع أغسطين.

- Chevallier, R., **Dictionnaire de la littérature latine**, op. cit., p. 188.

(91) - Poème XX, 521, cité d'après : A.C. Hamman, op. cit., p. 330

(92) أو Schenoudi (شنودة)، ولد حوالي سنة 340 من أصل متواضع (عائلة من الفلاحين). أصبح رئيس دير («الدير الأبيض» قريبا من أخميم Achmin : شمس) حوالي سنة 385. وعرف الدير الأبيض تحت إشرافه ازدهارا كبيرا وسمعة عظيمة. كان الدير مقسما إلى عدة بيوت (Cellae) كل راهب في بيته، لكنهم يجتمعون للعمل في مجموعات حرفية متخصصة. امتاز «شينوتي» بمعاملته القاسية أحيانا لرهبانه (الضرب والتعذيب أحيانا) بسبب تصرفاتهم الشائنة. كما نصب نفسه حاميا للفلاحين الصغار من ظلم الملاك وارتفاع قيمة الريع المفروض عليهم. وهكذا أغرق تحت مياه النيل مساحات من الكروم التي كانت في ملك بعض أغنياء مدينة «أخميم». خلف بعض الكتابات جمعها Amelineau في ثلاثة أجزاء (1902–1909).

- Piganiol, A., **l'Empire Chrétien...**, op. cit., p. 419 et n. I.

تلك التي يتحدث عنها أغسطين بصدد الدوارين : «الكل يثرثر ويأكل ويشرب. ولا يكتفون بالضحك، بل يزنون ويأكلون بنهم شديد. أينما وليت وجهك لا ترى إلا السكر والفجور والعراك. فبينما يحتفل داخل الكنيسة بحفل «العشاء السري» (Cène) وتغنى الأناشيد، لا تسمع في الخارج إلا نغمات الصنج والمزامير. ويستغل البعض وجود تلك التجمعات البشرية للقيام بأعمال تجارية مربحة : فمنهم من يبيع العسل ومنهم من يبيع الماشية. وحذار من اللصوص ووقاحتهم، كثير من التجار يستخدمون حراسا لإزاحة المتسكعين. أصبح المكان المقدس مكرسا لأخزى الرذائل. النساء صغيرات ومسنات يتطيبن ويضعن المساحيق على أعينهن عندما يذهبن إلى أضرحة الشهداء. ولو كانت القبور وخبايا الكنيسة تتكلم لحكت عن العديد من أولئك الذين استسلموا للإغراء وأقدموا على الزنى»(93).

وما قيل عن زيارة الأضرحة يمكن قوله عن تقديس رفات الشهداء سواء بالنسبة لافريقيا أو غيرها من أجزاء الامبراطورية. وقد انتهى الأمر بالامبراطور «ثيدوسيوس» إلى تحريم بيع عظام الشهداء سنة 336(94). وكانت الكنيسة الكاثوليكية من جهتها قد انتبهت إلى الأصول الوثنية لمثل هذه التصرفات، فحاولت مكافحتها أو على الأقل مناهضة ما يبدو منها مرتبطا ارتباطا واضحا بالعادات الوثنية القديمة كالتمائم، وتقديس الجن، والرقص الطقسي، والمآدب المقامة عند الأضرحة(95). لكن تمسك الجماهير الشعبية بتلك التقاليد حال دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ـــ ولم تكن الكنيسة تعارض مبدأ تبجيل الشهداء ـــ بطبيعة الحال ـــ ولكنها كانت تحارب المظاهر الوثنية العالقة بذلك التبجيل، وفي نفس الوقت تحاول توجيهه للرفع من حماس المؤمنين وتشبثهم بعبرة أولئك الذين قضوا

---

(93) عند : Hamman, A.G., op. cit., p. 332 -

(94) Cod. Theod., IX, 17, 7 (Piganiol, A., l'Empire Chrétien..., op. cit., p. 413) -

(95) في مجمع اللاذقية Laodicea بسوريا بين 343 و381 : Piganiol, A., ibid, p. 413-414 -
كذلك، اجراءات بعض الأساقفة في ابرشياتهم، كأسقف ميلانو (القديس امبروسيوس) حسب ما جاء في «اعترافات» أغسطين (أعلاه، ص 165)، و«بولينوس»، أسقف «نولا» الذي كان يبدأ الحفل (المقام على شرف الشهيد Felix) في ساعة متأخرة من الليل ليشركه مع الحفلة الدينية الصباحية ويقطع الطريق على السكارى والقاصفين المتجمعين منذ المساء.

نحبهم من أجل عقيدتهم. لذا كانت تحاول مكافحة كل اطناب في هذا الميدان، وكل تضخم في عدد الشهداء. وفي افريقيا بالذات، تعزز هذا الجانب من اهتمام الأساقفة الكاثوليكيين نتيجة الصراع المحلي بينهم وبين الدوناتيين. فلذاعة الانتقادات الموجهة من طرف ابطاتوس وأغسطين للدوناتيين بصدد «المنتحرين» وزواري الأضرحة لا يمكن اعزاؤها إلى اهتمامات عقائدية صرفة بقدر ما يمكن ارجاعها إلى الجدل الكلامي مع الدوناتيين. ذلك أن أسقف «هيبو» اعتبر الشماس «نابور» Nabor شهيدا لأنه ارتد عن الدوناتية فقتله الدوناتيون انتقاما منه. ولكن المجادل الكاثوليكي رفض نفس اللقب التشريفي لستين مسيحيا سقطوا في اشتباك مع الوثنيين عندما أرادوا تحطيم أصنامهم في مدينة Sufetana[96].

وفي الوقت الذي كان أغسطين يندد بممارسات الدوناتيين، نجده يخصص لرفات الشهيد «اصطيفانوس»[97] ضريحا ومأوى للزوار[98]، ويكتب الأبيات الشعرية المخلدة لذكراه، وأكثر من ذلك يطلب من كل الذين «نفعتهم» زيارة الضريح في العلاج والشفاء أن يكتبوا تقريرا عن ذلك. ويحتفظ بالتقرير في «ارشيفات» الضريح بعد أن يقرأ في حضور صاحبه أمام الملأ ليشهد بنفسه على المعجزة[99]. هل كانت هذه التصرفات خرف رجل وصل إلى سن متقدمة (426م)، أو أن انتصار الكاثوليكية على الدوناتية كان يسمح للمنتصرين بالتساهل مع الجمهور في بعض ما كان يتشبث به من ممارسات وتقاليد ؟[100] أن بعض رفات الشهيد «اصطيفانوس» أودعت مؤقتا في إحدى كنائس مدينة Uzalis[101].

---

(96) - Hamman, A. G., op. cit., p. 329

(97) القديس Stephanus (Saint-Etienne) : شماس في الجماعة المسيحية الأولى بمدينة القدس. قتله اليهود رجما بالحجارة سنة 36م.

(98) .Aug., De Civ. Dei, XXII; 7; 20-22 طلب «أغسطين» من شماسه : Eraclius تشييد الضريح والمأوى (Sermo 356, 7, PL., p. 1577) ونقل بنفسه الرفات «المقدس» إلى «هيبو» (عنابة) De Civ. Dei, XXII, 8, 7, 10, 12).

- Hamman, A. G., op. cit., p. 335, 95.

(99) - Sermo, 321-324 (PL., 41, pp. 1443-47), De Civ. Dei, XXII, 8, 2, 22

عند : - Hamman, A.G., op. cit., p. 337-38

(100) - Hamman, idem, p. 338

(101) عثر أحد القساوسة الفلسطينيين على بقايا عظام الشهيد، فبعث ببعضها إلى أصحابه، ومن =

ولكن الأسقف ـــ أحد أصدقاء أغسطين ـــ اغتنم فرصة مصادرة إحدى الكنائس الدوناتية لينقل إليها الرفات «المقدس»[102] ويكرس بتلك المناسبة الممارسات التي كانت تعاب على زوار الأضرحة الدوناتيين. ان «أغسطين كان يؤمن بعالمية الكنيسة لحد أنه لم يحصر اعجابه على قديسي افريقيا وشهدائها. فكان بهذا مخالفا تماما «للشوفينية» الدوناتية، فقد كان يقدس شهداء من ايطاليا واسبانيا...»[103]. ليقبل هذا التبرير من شاء ! الملاحظ الآن أن تلك «الشوفينية» الدوناتية كانت تتجاوب مع ممارسات شعبية انتهى أغسطين إلى الاعتراف بها والتساهل معها، بل وممارستها، إن ما كان يغيظ أغسطين في نهاية المطاف هو تقديس «جثث المنتحرين»[104] أو بصفة عامة ضحايا تدخل القوات الرسمية سواء ضد الدوناتيين في فترات الاضطهاد أو ضد عنف الدوارين[105]، وضدهما معا في كثير من الأحيان بعد صدور مرسوم 347[106]. وهذا ما يعطي للصراع الكاثوليكي ـــ الدوناتي صبغة سياسية. فالكاثوليكيون ـــ قصدا أو عن غير قصد ـــ كانوا يدعمون سياسة السلطة الرومانية لا لكونهم قبلوا «السلام القسطنطيني» ومهادنة المسيحيين للسلطات الزمنية فقط، ولكن لكونهم أيضا كانوا يمثلون جانبا أساسيا من وحدة الامبراطورية، هو الجانب الديني. وبالتالي فإنهم كانوا يقطعون الطريق على كل الانشقاقات الدينية الإقليمية التي يمكن أن تكتسي طابع معارضة «وطنية» للسلطة الرومانية.

= بينهم أسقف مدينة Draga بالبرتغال. ولكنها لم تصل إليه، بل «استفاد» منها قساوسة آخرون، ومن بينهم Evodius أسقف مدينة Uzalis (العالية حاليا) بافريقيا البروقنصلية، والذي كان صديقا لأغسطين. ومن Uzalis، توزعت على بعض المدن الإفريقية : Calama (كَلمة) وAquae Thibilitanae (حمام مسعوطين) وعنابة، إلخ...

- Hamman, A.G., op. cit., p. 335 ss.

(102) - Hamman, A.G., ibid, p. 337

(103) - Hamman, A.G., ibid, p. 338

(104) النص 14 : - Aug., C. Lit. Petil., I, XXVI, 26

(105) ضد الدوارين بطلب من الأساقفة الدوناتيين أنفسهم حوالي سنة 340. أدناه الفصل الخامس.

(106) عن منعرج 347 في العلاقات بين الدوارين والدوناتية، انظر الفصل السادس من هذه الرسالة.

إن الشيء الذي يبدو جديرا بالانتباه، ليس هو تقديس الشهداء وزيارة أضرحتهم، فالظاهرة ـــ حسب ما تبين ـــ ظاهرة عامة في الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع، لكن الملفت للانتباه هو كيف أن تلك الظاهرة اتخذت نوعا ما صبغة مقاومة سياسية وحضارية للوجود الروماني بما جره من سلبيات على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للسكان الأفارقة(107) . فالدوارون الذين سقطوا في القرن الرابع في الاشتباكات مع الجيش أو أنصار السلطة لم يستشهدوا لقضية المسيح ولا لقضية دوناتوس بقدر ما استشهدوا في مناهضة أوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية معينة(108). لذا لا يمكن للباحث أن ينساق تماما مع نظرية Frend التي تركز على ارتياد الدوارين لأضرحة الشهداء وترى أن مفتاح «لغزهم» يكمن في التعصب الديني للدوناتية(109). لأن التركيز على هذا الجانب أكثر من اللازم يمكن أن ينزع من حركة الدوارين كل ما تضمنته من خصوصيات تتجلى أساسا في أعمال العنف الموجهة ضد جهات معينة. وبتعبير آخر، لو ركزنا على هذا الجانب من نشاط الدوارين لصعب تفسير الحركة ككل. فهل كان ارتياد الدوارين للأضرحة حافزا على تمردهم ؟ إن التحديد الاجتماعي لطبقة الدوارين يبدو أكثر أهمية من التحديد الديني الذي اقترحه Frend. لأن التحديد الأول ـــ على عكس الثاني ـــ يمكن أن يعطي تفسيرا لحركة الدوارين، ولطبيعة علاقتهم بالدوناتية.

---

(107) أعلاه، ص 68–69 وص 135 وما بعدها.

(108) هذا لا يعني طبعا أنهم كانوا واعين تمام الوعي بذلك. ولكن «انزلاقهم» من مقاومة اجتماعية وسياسية إلى مقاومة دينية شيء طبيعي خاصة في ذلك التاريخ. انظر أدناه، ص 226–228 و254–256.

(109) أعلاه، ص 112. يمكن الرجوع أيضا إلى P.A. Février الذي انتقد تركيز Frend على تقديس الدوناتيين للشهداء، وخاصة للقديسين الرومانيين «بولس» و«بطرس» ويرى على الخصوص أن الكاثوليك نهجوا من جهتهم «دعاية مضادة» للدوناتية، تتجلى في تقديس الشهداء الرومانيين.

- Février, P.A., Martyrs, polémique et politique en Afrique (IVe-Ve siècles), **R.H.C.M.**, 1, 1965, pp. 8-18 (p. 15).

الفصل الخامس
الدوارون والدوناتية
أولا : قبل سنة 347

ليس من الهين تحديد بداية العلاقات بين الدوارين والدوناتية بكامل الدقة. فإذا ما صدقنا أغسطين، يبدو أن حركة الدوارين تمخضت عن ظهور الدوناتية نفسها، وأن أعمال الدوارين «الإجرامية» بدأت مع ميلاد الانشقاق الدوناتي. فنراه يخاطب الأسقف الدوناتي «بتليانوس» Petilianus[1] حوالي سنة 400 قائلا : «ليس من الصعب الوقوف إقليما إقليما على كل ما اقترفه ومازال يقترفه زعماء دواريكم وعصاباتهم المكونة من السكيرين والمجانين منذ بداية انشقاقكم إلى الآن...»[2] ويرد بنفس اللهجة على «كريسكونيوس» Cresconius[3] حوالي 405 قائلا : «... والواقع أنني لو أردت تعداد كل الفظاظات التي اطلعت عليها عند الأقدمين أو التي تعرفت غليها بنفسي، والتي اضطهد بها ذووكم الكنيسة الكاثوليكية منذ بداية انشقاقكم إلى يومنا هذا، فأي لسان وأي قلم وأي وقت سوف يلزمني لذلك ؟...»[4].

---

(1) «بتيليانوس»، الأسقف الدوناتي بالقسنطينة، وأحد كبار الشخصيات الدوناتية، وواحد من بين ممثليهم السبعة في مناظرة قرطاج سنة 411. عن كتاب أغسطين في الرد على بتيليانوس انظر الملحق، ص 293.

(2) النص 15 في الملحق.

(3) كريسكونيوس : أحد النحاة الدوناتيين، والوحيد من بين عامة الدوناتيين الذي دخل في جدل فقهي مع أغسطين. لا نعرفه إلا من خلال رد أغسطين على الرسالة التي كتبها «كريسكونيوس» دفاعا عن الأسقف «بتيليانوس» وعن قضية الدوناتية بصفة عامة. عن كتاب أغسطين الذي رد فيه على «كريسكونيوس» انظر الملحق.

(4) النص 31 في الملحق.

غير أن أغسطين كان ــ في مقولتيه هاتين ــ بصدد جدل كلامي مع الأساقفة وكبار الدوناتيين، وكان يقصد بالتالي إلصاق كل ما أمكن من التهم بهم أو المبالغة فيها، وعلى الخصوص كان يريد أن يظهر أن الدوارين كانوا بمثابة عساكر الدوناتية ورؤوس حرابها ضد الكاثوليكيين «منذ بداية» (ab initio كما ورد في النصين) الحركة الدوناتية، فلا غرو أن يحاول إظهار قدم «الويلات» التي جرتها الدوناتية على افريقيا عامة والكاثوليكيين الأفارقة خاصة، لأن ذلك كان جزءا من الاستراتيجية الجدلية التي بلورها أغسطين وزملاؤه الأساقفة الكاثوليكيون لإقحام خصومهم ولتأليب السلطة ضدهم[5].

لذا، يبدو من غير المعقول أخذ ما أكده أغسطين هنا على أنه مؤشر توقيتي جاد ودقيق لبداية التعامل بين الدوارين والدوناتية، خاصة وأنه لا يستند إلى أحداث تاريخية معينة. والجدير بالذكر أنه لو كان يعرف مثل هذه الأحداث لما تردد في الإشارة إليها. فقد اطلع بعناية خاصة على كل الوثائق والكتابات والمرويات المتعلقة ببدايات الحركة الدوناتية قصد تدعيم محاوراته الكلامية مع الدوناتيين بالحجج التاريخية «الدامغة»[6]. ولا أدل على ذلك من كونه تعرض مرارا وتكرارا في كتاباته إلى المرحلة الأولى من الانشقاق الدوناتي[7].

وإذا ما رجع المرء إلى هذه المرحلة الأولى من الحركة الدوناتية، فإنه لا يجد دليلا قاطعا على بداية التعامل بين الدوارين والدوناتية رغم محاولات بعض الباحثين للوقوف على أثر أو إشارة ما لإثبات ذلك.

ومن أبرز تلك المحاولات، ما قام به «لانسيل» S. Lancel[8] من الرجوع إلى

(5) أدناه، ص 243 وما بعدها.

(6) أعلاه، نقد المصادر، ص 41 وما بعدها.

(7) الواقع أنه عرض لهذه الأحداث في كل كتاباته ضد الدوناتية. وعلى الخصوص في المقالتين اللتين كتبهما بعد مناظرة قرطاج (411م) :

- **Brevicus Collationis**, XII, 24 - XXV, 43 (**B.A.** 32, pp. 189-243).
- Ad Donatistas post collationem, XIII, 17 - XVI, 20 et XXXI, 53 - XXXIV, 57 (ibid, pp. 287-299 et pp. 373-389).

أنظر كذلك نقد المصادر ص 45.

(8) - Lancel, S., Aux origines du Donatisme et du mouvement des circoncellions, Mélanges Saumagne (C.T., 58-61), 1967, pp. 183-188.

ينابيع الدوناتية، أي مباشرة بعد نهاية اضطهاد ديقليديانوس (303–305م). ففي سنة 305[9]، تم انتخاب «سلفانوس» Silvanus[10] على رأي أسقفية مدينة قرطة Cirta[11].

وبعد ذلك بعدة سنوات، أي في عام 320، أقام «نونديناريوس» Nundinarius الذي كان شماسا تحت أوامر «سيلفانوس» دعوى على هذا الأخير يطعن في انتخابه أسقفا سنة 307 ويتهمه بالتخاذل (Traditio) في فترة اضطهاد ديقليديانوس. والواضح أن نزاعا خطيرا حدث بين الرجلين لأن الأمر تطلب تدخل والي نوميديا المسمى زينوفيلوس Zenophilus. وخلال المحاكمة التي ترأسها هذا الوالي بمدينة «تموكَادي» Thamugadi (تمكَاد)، تم الاستماع إلى الشهود الذين عاينوا انتخاب سيلفانوس. وقد حفظ لنا أبطاتوس تصريحات هؤلاء الشهود وتدخلات الوالي «زينوفيلوس» في بضع صفحات تحت عنوان «محضر زينوفيلوس» ألحقها بمؤلفه «ضد الانشقاق الدوناتي»[12]. ويتجلى من خلال المحضر المذكور أن الإجماع لم يكن حاصلا حول اختيار سيلفانوس كأسقف على أبرشية قرطة إبان انتخابه سنة 307. فمن جهة، كان أنصاره عبارة عن خليط من دهماء المدينة خاصة مصارعي الحيوانات في «السيرك» (harenarii) وأيضا من

---

(9) ليس هناك اتفاق بين أبطاتوس وأغسطين حول تاريخ هذا الانتخاب، فالأول حدده بيوم 13 مايو من سنة لم يذكرها، والثاني أعطى في البداية (حوالي 405) تاريخ 4 مارس 303، ثم صححه بعد مناظرة قرطاج بإضافة سنتين إلى 303 (305). لكن S. Lancel يرجح سنة 307 اعتمادا على تأويل لفقرة من «محضر زينوفيلوس» تقول أن انتخاب سيلفانوس وقع «يومين بعد الهدنة» (biduo post pacer) ويعتقد أن الأمر يتعلق بهدنة الإمبراطور ماكسنتيوس Maxentius (307).

- Lancel, ibid, p. 185, n. 8.

(10) سيلفانوس، أحد الأساقفة الذين طعنوا في انتخاب «كايكيليانوس» ـــ الأسقف الكاثوليكي بقرطاج ـــ وعينوا مكانه «ماجورينوس» Majorinus الذي خلفه دوناتوس الأكبر.

- Monceaux, H.L.A.C., IV, pp. 28 ss; pp. 229 ss.

(11) وصلتنا وثيقة هذه السيامة (ordination، أي تعيين الأسقف). انظر :

- L. Duchesne; le Dossier du Donatisme, M.E.F.R., X, 1890, p. 629.

(12) Gesta apud Zenophilum, appendix Opt., C.S.E.L.. XXVI, pp. 192-196 عن كتاب أبطاتوس الميلي De Schismate Donatistarum الذي كتبه حوالي 366، انظر نقد المصادر، ص 37–40.

الريفيين (Campenses)[13]؛ ومن جهة المقابلة، كان هناك المواطنون «المحترمون» (cives)، أي الأعيان بما فيهم السينيورات (Seniores)، وهم الأعضاء العلمانيون المشاركون في تسيير الجماعة الدينية لمدينة قرطة[14].

وقد استطاع أنصار سيلفانوس أن يحبسوا الأعيان في «مقبرة للشهداء» (area martyrum)، ثم ضيقوا عليهم الخناق في «بيت الشهداء» (casa maiore)[15].

ويعتقد «لانسيل» Lancel أن هؤلاء «الريفيين» (Campenses) الذين ناصروا الأسقف «سيلفانوس» لم يكونوا عبيدا ولا مزارعين Coloni حسب الراجح، وإنما «عمالا فلاحيين، يشكلون كتلة بشرية متحركة رهن الإشارة، يسهل تعبئتها وتجنيدها»[16]، وليس من المستبعد أن يكونوا نوعا ما «سلف الدوارين»[17].

وفي الواقع، تكتسي هذه الإشارة أهمية كبيرة لأنها تظهر وجود تنافر بين «البرجوازية» الحضرية من جهة (الأعيان والسنيورات) ودهماء المدينة والأرياف من الجهة المقابلة، خاصة وأن ذلك التنافر لم يكن ذا طابع ديني أو فقهي، بل كان اجتماعيا محضا[18]. «ووجود ذلك الصراع — في فجر الانشقاق بالذات —

---

(13) - «Nundinarius diaconus dixit : campenses et harenarii fecerunt illum episcopum»

«فقال الشماس «نونديناريوس» : الريفيون والمجالدون عينوه (أي «سيلفانوس») أسقفا».

- Opt., Gesta apud Zenoph., C.S.E.L., XXVI, p. 196-16.

(14) كان «السنيورات» من العامة، يمثلون سكان الابرشية لدى الأسقف، ويشكلون نوعا من مجلس استشاري يعتمد عليه الأسقف في مناقشة القضايا المتعلقة بالرعية. كما كانوا يساعدونه في إدارة أملاك الكنيسة، وترميم بناياتها، إلخ... وربما كانوا ينتخبون لهذه المهمة. ويبدو أن وجودهم كان ظاهرة خاصة بافريقيا في القرنين الرابع والخامس، في الكنيستين الافريقيتين معا : الدوناتية والكاثوليكية. عن دور السنيورات واختيارهم :

- Monceaux, P., H.L.A.C., IV, p. 143 ss.
- Frend, W.H.C. The Seniores laïci and the origin of the church in North Africa, J.T.S., XII, 2, 1961, pp. 280-284.

(15) - «...cives in area martyrum fuerunt inculsi... fuit inclusus in casa maiore»

«كان المواطنون محبوسين في «ساحة الشهداء»... كان (الملأ) محبوسا في «البيت الأكبر». (والمقصود بـ«البيت الأكبر» (casa maiore) بناية داخل «ساحة الشهداء».

- Lancel, S., ibid, p. 187, n. 17 (area martyrum).

(16) - Lancel, S., ibid, p. 188

(17) - Lancel, S., idem

(18) - Lancel, S., ibid, p. 187 et n. 18

كان ذي مغزى»[19] بالنظر إلى أن سيلفانوس كان إذ ذاك دوناتيا «قبل الأوان»[20]، وأن الريفيين المذكورين في النص كانوا ــ على غرار ما أصبح الدوارون من بعد ــ قد تدخلوا بالقوة لفرض مرشحهم. وهكذا، فمن الممكن اعتبارهم سلف الدوارين، واعتبار تلك التصرفات التي أقدموا عليها إرهاصات لحركة الدوارين.

بيد أنه من غير الممكن تأويل النص للتأكيد بأن هؤلاء الريفيين كانوا دوارين بسماتهم التاريخية التي ظهروا بها فيما بعد، لأن النص غير صريح في هذه النقطة بالذات، وتلك هي النتيجة التي وصل إليها «لانسيل» S. Lancel[21].

وبالفعل فهناك استنتاج آخر بوسع المرء أن يستخلصه من النص نفسه، أو على الأقل أن يطرحه كتساؤل ذي مغزى، وهو صمت المحضر عن الدوارين. ذلك أن «نونديناريوس» وشهوده لم يكونوا ليتورعوا عن استعمال مصطلح «الدوارين» بدل كلمة «الريفيين» Campenses الغامضة، لنعث أنصار سيلفانوس أثناء انتخابه سنة 305. فلو تأتى لهم ذلك لوضعوا الأسقف الدوناتي في موقف حرج، ولا لبوا الوالي «زينوفيلوس» ضده، نظرا للبغض الذي أصبح يحيط بالدوارين والمتعاملين معهم بعد ظهورهم على مسرح الأحداث. فإما أن «الريفيين» المذكورين في المحضر لم يكونوا دوارين ولا «سلفا» لهم، ولكن خليطا من المزارعين والفلاحين الصغار والعمال الفلاحيين، أي سكان الريف المجاور لمدينة قرطة على العموم بدون تحديد ولا حصر. وإما أنهم كانوا بالفعل «سلف» الدوارين، ولكنهم لم يكونوا قد تحولوا بعد حوالي سنة 320 (وقت محاكمة سيلفانوس) إلى «دوارين» حقيقيين ــ أي بسماتهم التاريخية الأساسية التي ظهروا بها بعد ذلك (من تنظيم وطريقة عمل ومبادىء إلخ...). ويبدو من غير الراجح أن يكون صمت المحضر عن الدوارين ناتجا عن جهل الأشخاص الماثلين أمام محكمة «زينوفيلوس» بوجودهم، لأن الأحداث وقعت بمدينة «قرطة» والمحاكمة بمدينة «تمكاد» وكلتاهما

(19) - Lancel, S., ibid, p. 188

(20) «قبل الأوان» لأن الانشقاق لم يتكرس إلا بعد سنة 312. وسيلعب «سيلفانوس» نفسه دورا مهما في بداية الانشقاق. (أعلاه، ص 36).

- Lancel, S., idem.

(21) - Lancel, S., idem

من أكبر مدن نوميديا التي ظلت المجال الرئيسي لحركة الدوارين، والتي وصلتنا عنها أول إشارة صريحة لعملياتهم.

فهل ينبغي أن نستنتج من الآن أن حركة الدوارين لم تكن قد اتضحت بعد في عام 320، أي في السنة التي تمت فيها هذه المحاكمة ؟ ذلك ما يمكن على الأقل ملاحظته الآن.

وإذا ما تتبعنا أحداث بروز الحركة الدوناتية بعد تلك السنة (305) لمحاولة العثور على إشارة ما إلى الدوارين، فإننا نصل إلى عام 313 حيث كان الانشقاق الدوناتي قد تكرس[23] وأصبح المسيحيون الأفارقة منقسمين إلى مؤيدين لـ«كايكيليانوس» Caecilianus ـــ الأسقف الكاثوليكي بقرطاج ـــ ومناوئين له، وعلى رأس هؤلاء الأخيرين «ماجورينوس» Majorinus ثم «دوناتوس» Donatus «الأكبر».

وتقدم المناوئون إلى «بروقنصل» افريقية ـــ وكان إذ ذاك «أنولينوس» Anullinus ـــ بوثيقتين يطالبون فيهما بفتح تحقيق حول صحة سيامـة «كايكيليانوس» (أي تعيينه كأسقف) من طرف بعض الأساقفة المتهمين بالتخاذل traditio أيام «الاضطهاد الأكبر» (303–305) ويطلبون كذلك تعيين أساقفة من بلاد الغال للنظر في هذه القضية، لأن الغاليين في رأيهم سوف يكونون محايدين مادام أن بلادهم لم تعرف كثيرا ظاهرة «التخاذل» (traditio) نظرا لقلة عنف الاضطهاد في ذلك الإقليم. فبعث البروقنصل «أنولينوس» إلى الإمبراطور قسطنطين بالوثيقتين مرفوقتين بمحضر عن الوقائع والأحداث[24]، بتاريخ 15 أبريل 313[25]. ويذكر هذا المحضر على الخصوص أن المعارضين «لكايكيليانوس» كانوا «مرفوقين بجمهور من الشعب»[26] في نوع من مظاهرة صاخبة. فهل كان

---

(22) يتعلق الأمر بنص أبطاتوس (Optatus, III, 4) الذي سنعرض له بعد قليل.

(23) انظر أعلاه، ص 27.

(24) النص الكامل قدمه الكاثوليكيون في مناظرة قرطاج. انظر :
- **Gesta**, III, 215-220 (éd. Lancel, S.C. n° 224, pp. 1158-1163).

(25) أنظر : - Duchesne, L., Dossier du Donatisme, **M.E.F.R.**, 1890, pp. 631-632
- Lancel, S., **S.C.** n° 224, p. 1163, n. 2.

(26) - **Gesta**, III, (éd. Lancel, S.C. 224, p. 1160, ligne 14 : «adunata secum populi multitudine...»

الدوارون من جملة هذه الجماهير المشاغبة ؟ لا يمكن تأكيد ذلك لأن التعبير الوارد في المحضر يبقى عاما وغير دقيق، بل يبدو أن الأمر كان يتعلق بدهماء المدينة الذين عبروا عن استيائهم من اختيار «كايكيليانوس» أسقفا على مدينتهم[27].

ويعتقد «مونصو» أن «عصابات الدوارين الأولى تكونت منذ 317، غداة صدور مرسوم قسطنطين الذي قرر نزع الكنائس من يد المنشقين» الدوناتيين[28]. وقد اعتمد في ذلك على ثلاثة نصوص[29] نبحثها على التوالي :

أ ــ النص الأول ورد عند أبطاتوس، ويتعلق بمهمة الأسقفين «أونوميوس» Eunomius و«أولمبيوس» Olympius اللذين وصلا إلى قرطاج في عام 316 لقضاء أربعين يوما في مهمة رسمية قصد جس نبض الكنيستين المتناحرتين وإقرار أيهما هي الكنيسة الكاثوليكية الحقة[30]. والراجح أن الإمبراطور قسطنطين كان يريد أن يأخذ فكرة نهائية عن القضية قبل الحسم فيها لصالح أحد الحزبين، وقبل إصدار حكم نهائي ضد الدوناتية (316). إلا أن استقبال «الجماهير الشعبية» للأسقفين لدى وصولهما إلى قرطاج كان استقبالا سيئا للغاية، حيث عانيا كثيرا من المضايقة والضوضاء[31]. فهل كان الدوارون من جملة العناصر المشاغبة ؟ هنا أيضا لا يمكن الجزم بذلك، ونفس الملاحظة التي أبديناها سابقا بشأن محضر أنولينوس، تنطبق على هذا النص أيضا.

ب ــ النص الثاني الذي اعتمده «مونصو» مأخوذ من «كتاب آلام دوناتوس» Passio Donati[32] الذي هو في الأصل «خطبة وعظية»[33] ألقاها دوناتوس

(27) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme**.. op. cit, p. 353 et n. I

(28) - Monceaux, P., l'Eglise donatiste : organisation et caractères, **R.H.R.**, t. 64, Paris, 1911, p. 41.
- idem, **H.L.A.C.**, t. IV, p. 179.

(29) - Monceaux, **R.H.R.**, t. 64, 1911 (cité de la note précédente), p. 41, n. 3

(30) - Optat, I, 26 (**C.S.E.L.**, XXVI, p. 28)

(31) - Optat, I, 26 (idem) : «Hoc seditiosa pars Donati Fieri non passa est, de studio partium strepitus cotidiani sunt habiti».

(32) - **P.L.**, VIII, p. 752-764

(33) يؤرخ «مونصو» لهذه الخطبة بشهر مارس 318 أو 319. وعلى أي حال، فإن دوناتوس ألقاها ما بين 317 و321 (أي خلال فترة اضطهاد قسطنطين للدوناتية). عن عنوان هذه الخطبة وظروف إلقائها : - Monceaux, **H.L.A.C.**, V, pp. 62-64

لتبجيل «الشهداء» الدوناتيين الذين سقطوا ضحايا اضطهاد السلطة بعد صدور حكم قسطنطين ضدهم سنة 316. ويذكر النص أعمال العنف التي تعرض لها الدوناتيون على يد الجنود في افريقية وخاصة في قرطاج. إلا أن أولئك الدوناتيين ــ حسب ما يتجلى من النص ــ لم يكن لهم أي تنظيم ولا أي قدرة هجومية يشبهان ما اتسم به عمل الدوارين فيما بعد، بل إنهم سقطوا بسهولة تحت ضربات العصي في قرطاج(34). ثم إن الأمر هنا أيضا يتعلق بأحداث عنف ومظاهرات شعبية وقعت في المجال الحضري (قرطاج)، بينما كان مجال الدوارين في الأرياف، ولم يهاجموا المدن إلا في فترة لاحقة (بداية القرن الخامس)(35)، وبصفة استثنائية(36).

ت ــ أما النص الثالث الذي استدل به «مونصو»، فهو عبارة عن فقرة لأغسطين وردت في رده على رسالة «بارمينيانوس»(37) : «... ذلك ما حدث قديما بعد صدور الحكم الذي جعلهم (أي الدوناتيين) ينشقون عن الكنيسة. فقد حاولنا (نحن الكاثوليكيين) منعهم من الاحتفاظ بكنائسنا، إلا أنهم احتفظوا بها رغما عن أوامر الإمبراطور. وكانت مقاومتهم تلك لأوامر الإمبراطور من التعنت بحيث أن عنف الدوارين الشهير رجح الكفة لصالحهم، وأكثر من ذلك، فإنهم (أي الدوارين) بتمرداتهم الثورية والدموية قاموا بمناوشة مبعوثي الإمبراطور المحملين بالصدقات إلى الكنيسة، وتتبعوهما خطوة بخطوة عبر افريقيا».

هذا النص على خلاف النصوص الأخرى التي أوردناها حتى الآن يمتاز بذكر صريح لاسم «الدوارين». لكنه مع ذلك يبقى غامضا في النقطة التي تهمنا بالذات، أي بداية العلاقات بين الدوارين والدوناتيين. فإذا كانت العبارات الأولى فيه تتعلق بإجراءات مصادرة الكنائس الدوناتية وتسليمها للأساقفة الكاثوليك، وذلك غداة صدور حكم قسطنطين سنة 316، فإن نهاية النص تتحدث من غير شك عن مهمة «بولس» Paulus و«مكاريوس» Macarius، مبعوثي الإمبراطور «قسطنس»

(34) - Passio Donati, 6 : «... Fustibus trucibadantur...»

(35) مثلا دخول الدوارين إلى مدينة «هيبوريجيوس» Hippo regius (عنابة) بقيادة الأسقف «ماكروبيوس» Macrobius في غضون عام 409، ادناه، ص 241.

(36) كما رأينا في النص الثاني ص 94–96.

(37) النص 9 في الملحق.

Constans إلى افريقيا سنة 247[38].

وهكذا، فإن النص يشمل فترة طويلة من 316 إلى 347، بدون إشارة دقيقة إلى بداية حركة الدوارين، لأن الانتقال من 316 إلى 347 أضغم في جملة واحدة هي بالذات تلك التي تتعلق بالدوارين.

يبدو إذن، رغم ما جاء عند «مونصو» أنه من الصعب التأكيد على وجود التعامل بين الدوارين والدوناتية في السنوات القليلة التي تلت صدور قانون قسطنطين (316) لأن النصوص المتوفرة ليست صريحة بما فيه الكفاية، وكلها ـــ باستثناء نص أغسطين ـــ لا تذكر الدوارين بالاسم. أما نص أغسطين نفسه، فلا يمكن اعتباره مؤشرا توقيتيا دقيقا.

وهكذا، أمام صمت مختلف النصوص التي تعود إلى هذه الفترة، والتي ذكرنا منها تلك التي يمكن أن توحي بقدم العلاقات بين الدوارين والدوناتية، يبدو من الراجح أن الدوارين لم يظهروا على المسرح التاريخي بميزاتهم المعروفة ـــ أو على الأقل تحت هذا الاسم ـــ إلا في فترة متأخرة عن حوالي 320، مما يتفق بالتالي مع الملاحظة التي أمكن إبداؤها بصدد محاكمة «سيلفانوس» سنة 320[39]. يبقى إذن أن أقدم إشارة صريحة إلى الدوارين هي التي وردت في الفصل الرابع من الكتاب الثالث لأبطاتوس الميلي[40] والتي سبق أن أوردنا منها الفقرة التي تتحدث عن حركة الدوارين بزعامة «أكسيدو» Axido و«فاسير» Fasir قبل صدور قانون الوحدة على عهد قنسطنس في سنة 347، والفقرة التي تسرد أحداث معركة «محلة اكطافا» بين الدوارين وجنود الكونت «طورينوس» Taurinus حوالي سنة 340[41].

ويمتاز نص أبطاتوس باحتوائه على إشارة هامة، وهي وقوع تلك الأحداث قبل صدور قانون الوحدة سنة 347 على عهد الإمبراطور قنسطنس. وقد وقعت

(38) عن هذه المهمة والأحداث الناجمة عنها في نوميديا، انظر أدناه، الفصل السادس.

(39) أعلاه، ص 181.

(40) Optat, III, 4 (C.S.E.L., pp. 81-85). عن أبطاتوس ومؤلفه، انظر : نقد المصادر، ص 37 وما بعدها.

(41) أعلاه، ص 120–121 وص 123–125. النص الكامل في الملحق ص 267–274.

أحداث «محلة اكطافا» أيام كان «طورينوس» Taurinus يمارس مهام «كونت» افريقيا، أي حوالي 340[42].

يبدو إذن أن حركة الدوارين كانت موجودة منذ سنة 340 على الأقل، والأرجح أنها بدأت قبل ذلك بمدة لأن تدخل جنود «طورينوس» ضد الدوارين أتى بعد عجز الأساقفة الدوناتيين عن «إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة»، مما يفهم معه أن الحركة استفحل أمرها، خاصة وأنها وصلت إلى درجة لا يستهان بها من حيث التنظيم وطريقة العمل والمبادىء[43]، حسب ما يتجلى من النص نفسه. كل هذا يفرض أن الدوارين «ظهروا» قبل حادثة «محلة اكطافا» بمدة معينة — ويستحيل تحديد هذه المدة بكامل الدقة انطلاقا من المصادر المتوفرة — كل ما يمكن ترجيحه هو أن ظهور حركة الدوارين بسماتها التاريخية لم يكن قد حصل إلا بعد سنة 320 لأن ذكرهم لم يرد في محضر زينوفيلوس على عكس ما يمكن أن يتوقع[44]. ومن جهة أخرى، فإن وجودهم كان شيئا واقعا حوالي سنة 340. لذا فإن ظهور الحركة كان في الفترة بين عامي : 320–340[45]. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن المعركة لم تمر بفترة مخاض قبل أن تظهر مكتملة أو بسماتها الجوهرية من تنظيم ومبادىء وطريقة العمل، ومن ثم يمكن النظر إلى «الريفيين المشاغبين» الذين ورد ذكرهم في محضر زينوفيلوس — فيما سبق — على أنهم «أسلاف الدوارين». وفترة المخاض تلك تجد جذورها في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية التي عرفتها البلاد عند بداية القرن الرابع[46].

---

(42)
- Monceaux, P., **R.H.R.**, t. 63, 1911, p. 168.
- idem, **R.H.R.**, t. 64, 1911, p. 42.
- idem, **H.L.A.C.**, IV, p. 335 et 471, et, t. V, p. 44.

وتبعه في ذلك كل الباحثين، مثلا :

- Frend, W.H.C., **The Donatist church...**, op. cit., p. 171.
- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 342.
- Warmington, B.H., **The North African provinces...**, op. cit., p. 85.

(43) عن التنظيم وطرق العمل والمبادىء أعلاه، ص 121–123 وص 130–131.

(44) أعلاه، ص 176.

(45) يقترح Brisson سنة 330. (Brisson, op. cit., p. 350 et 353). ولكنه لا يدعم ذلك بأي دليل، وفي مكان آخر يعطي سنة 300 (Brisson, ibid, p. 356) ولكن بدون تعليل أيضا.

(46) انظر الفصل الأول وكذلك الفصل الثالث، ص 133 وما بعدها.

ولكن الشيء الذي يهمنا الآن هو ظهور الدوارين بهذه التسمية وبالملامح الرئيسية التي كانت لهم خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس حسب المصادر التي وصلتنا عن هذه الفترة. وقد وصلنا الآن إلى نتيجة أن ذلك حدث قبل سنة 340 وبعد سنة 320 على وجه الترجيح بالنسبة للسنة الأخيرة (أي سنة 320).

إن نص أبطاتوس الذي أوردناه سابقا[47] يعتبر أقدم إشارة صريحة إلى الدوارين والمصدر الوحيد الذي تطرق إليهم بشيء من التفصيل في فترة ما قبل 347[48]. وعند القراءة الأولى يبدو أن النص يتضمن عددا من التناقضات :

فأبطاتوس حاول أن يقدم لنا الدوارين على أنهم كانوا دوناتيين منذ ما قبل حادثة «محلة اكطافا». فبعد أن أعطى صورة عن تنظيمهم وعملياتهم، أشار إلى أن «هذه التصرفات جلبت الحقد على الأساقفة (الدوناتيين)» مما اضطرهم إلى طلب تدخل الجيش ضد الدوارين. وأبطاتوس بذلك لا يترك للقارىء خيارا في الاعتقاد بأن هؤلاء الأساقفة ما كانوا ليتحملوا تصرفات الدوارين لو لم تكن هناك علاقة تربطهم بهم، وهل يمكن تصور علاقة أخرى غير تلك التي تربط بين كنيسة وجمهورها المؤمن ؟

ومن جهة ثانية، يشير النص إلى أن الدوارين كانوا يقومون بأعمالهم «الخرقاء» تحت قيادة رؤساء كانوا يحملون لقب «زعماء القديسين» **duces sanctorum**. والمعروف أن الدوناتيين كانوا يعتبرون كنيستهم «كنيسة القديسين»، وهو الأمر الذي يوحي بانتماء الدوارين إلى تلك الكنيسة.

ومن جهة ثالثة، يذكر أبطاتوس أن الدوارين كانوا يحاولون بشتى الوسائل أن يموتوا شهداء، ولو عن طريق الانتحار بالارتماء من أعلى الجروف[49] وهو الأمر الذي يوحي بانتمائهم للدوناتيين الذين كانوا يعتبرون كنيستهم «كنيسة

(47) Optat., III, 4 النص أعلاه، ص 120-121.

(48) معظم الموسوعات والقواميس ترجع إلى هذا النص للتعريف بالدوارين. مثلا :

- Grand larousse encyclopédique, t. III, p. 141.

(49) Optat., III, 4 : «وكانت هذه الجمهرة تضم أولئك الذين كانوا يضربون أنفسهم، والذين كانت رغبتهم في الحصول على استشهاد باطل توصلهم إلى الهلاك. وفي صفوفهم أيضا أولئك الذين كانوا يلقون بأنفسهم وأرواحهم المدنسة من قمم الجبال». النص الكامل، ص 271.

الشهداء»[50].

ومع ذلك فالنص يتركنا في حيرة كبيرة من أمر حركة الدوارين في هذه الحقبة. فإذا ما رجعنا إلى «جرائم» الدوارين كما وردت عند أبطاتوس، نرى أنها تتلخص في مهاجمة الممتلكات وإبطال ديون المستدينين وأخذ الثأر للعبيد من أسيادهم. وهذه التصرفات لم تكن موجهة ضد الكاثوليكيين وحدهم كما سيحصل في فترة لاحقة[51]، ولكنها كانت موجهة ضد الملاك والدائنين والأسياد بصفة عامة، بغض النظر عن مذهبهم ــ دوناتيا كان أو كاثوليكيا ــ[52]. فهذه إذن كانت ثورة ضد المستعلين لا تكتسي طابع حرب مذهبية. ومع ذلك فأبطاتوس يقول إنه كان يترأسها زعماء دينيون «زعماء القديسين». هؤلاء الناس كانوا يبحثون عن الاستشهاد (martyre) ولو بالانتحار، بينما نرى أن اهتماماتهم لا تمت إلى الدين بصلة، بل يظهر أنهم لا يتورعون عن استعمال العنف مع «ضحاياهم». ثم إن هذه الحركة يتزعمها «دوناتيون» (زعماء القديسين). ولكن أساقفة كنيستهم يطلبون تدخل السلطة الرسمية ضدهم.

وقد اختلف الباحثون في رؤيتهم للنص. فبالعض يرى أن أبطاتوس ــ عن قصد أو غير قصد ــ قد أضفى على دواري هذه الفترة المبكرة سمات دواري عصره[53] الذين كانوا يظهرون كعساكر الدوناتية[54]، وهذا ما تعتقده «فانيي» O. Vannier[55]. بينما حاول آخرون ومنهم بريصون أن ينفوا عن أبطاتوس تهمة الوقوع في الخلط، وإنما رأوا أن الأحداث نفسها هي التي يبدو عليها

---

(50) - Optat., II, 1, 14, 20., ...
- Warmington, B.H., The North African provinces..., op. cit., p. 85.

(51) أدناه، الفصل السابع ص 228 وما بعدها.

(52) هذا إذا ما افترضنا أن الكاثوليكية كان لها وجود يعتبر في أرياف نوميديا خلال هذه الفترة (ما قبل 347). والراجح أن الكنيسة الكاثوليكية لم تنتشر انتشارا واسعا في الأرياف الافريقية (خاصة في نوميديا وموريطانيا) إلا بعد تدخل السلطة بالقوة لصالحها بعد 347.

(53) أبطاتوس كتب مؤلفه حوالي 366م، أي بعد هذه الأحداث بأكثر من عشرين سنة. وهو يعترف أنه استقى معلوماته مما سمعه أو قرأه عند سابقيه. (Optat., III, 4) -

(54) أدناه، ص 233 وما بعدها.

(55) - Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste, R.A., t. LXVII, 1926, pp. 13-28 (p. 17-18).

التناقض[56].

وهكذا نجد أن «فانيي» لا تستبعد أن يكون أبطاتوس قد حاول إيهامنا بأن التحالف كان قائما بين الدوارين والدوناتيين منذ ما قبل حادث «محلة اكطافا» (340)، وأن حركة الدوارين كانت وليدة الانشقاق الدوناتي، لأن هذا التحالف كان يمثل تهمة خطيرة ضد الدوناتيين[57]. وإذا كان أبطاتوس لم يقل ذلك بالنص الصريح فإن استعماله لكلمتي «زعماء القديسين» ــ بدون تعليق ــ كان كافيا ــ حسب الباحثة ــ ليضفي على زعماء هؤلاء «المتسكعين» صبغة رؤساء الكنيسة المنشقة، إذ أن كنيسة دوناتوس كانت دوما تتبجح بكونها كنيسة الأطهار، كنيسة «القديسين»[58]. أما إشارة النص إلى أن الدوارين كانوا يبحثون عن الاستشهاد، فذلك راجع إلى أن أبطاتوس «لم يميز ــ أو لم يرد التمييز ــ بين الرغبة في الانتحار والميل الجنوني إلى الاستشهاد»[59]. وتفترض الباحثة أن بعض الدوارين كانوا مدفوعين إلى الانتحار بسبب فاقتهم وظروف عيشهم القاسية، وأنهم لم يروا في ذلك عملا دينيا أي استشهادا إلا بعد عشرة طويلة مع الدوناتيين ولم يكن ذلك في هذه الفترة. وترى فانيي Vannier أن أبطاتوس ــ هنا أيضا ــ أضفى على الدوارين في هذه الفترة المبكرة سمات دواري عصره، خاصة وأنه استعمل مصطلح «الاستشهاد الباطل» لنعت «استشهاد» الدوارين (Falsi martyrii)، وهو نفس المصطلح الذي كان رائجا على عهد أبطاتوس في الجدل الفقهي بين الدوناتيين والكاثوليكيين حول تحديد حالات الاستشهاد «الحق» وحالات الاستشهاد «الباطل»[60].

وترفض الباحثة أن يكون الدوارون دوناتيين في هذه الفترة. فترى أنه لا ينبغي أن يفهم من رسالة الأساقفة الدوناتيين إلى طورينوس التي تقول بأن الدوارين «لا يمكن إصلاحهم في إطار «الكنيسة»» ــ ان المقصود بتلك «الكنيسة» هو

(56) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 345

(57) - Vannier, O., op. cit., p. 17

(58) - Vannier, O., idem

(59) - Vannier, O., ibid, p. 17-18

(60) - Vannier, O., ibid, p. 18

الكنيسة الدوناتية، وهو ما يعني بالتالي أن الدوارين كانوا دوناتيين. ولكن المرجح ـــ حسب رأيها ـــ أن «الكنيسة» وردت هنا بالمعنى العام، دون تحديد ما إذا كانت الكاثوليكية أو الدوناتية[61]. وترى الباحثة في نهاية المطاف أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين لم يبدأ إلا بمناسبة أحداث باغاي (347)[62] وأن حركة الدوارين لم تكتس أي طابع ديني في هذه الفترة[63] السابقة على أحداث باغاي.

وعلى العكس من «فانيي»، يرى «بريصون» Brisson أن التناقض الذي يظهر عند أبطاتوس يكمن في الأحداث وليس في النص، ويعتقد أن تحليلا دقيقا للنص كاف لحل كل التناقضات وأنه ليس من الضروري هنا تكذيب أبطاتوس واتهامه بارتكاب مفارقة تاريخية مقصودة أو غير مقصودة. فلا دليل عندنا على وجود «زعماء القديسين» على عهد أبطاتوس (حوالي 366) مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الجادل الكاثوليكي لم يسقط هذه التسمية على زعماء الدوارين في الأربعينات (340)[64].

ويرى بالتالي أن الدوارين كانوا في معظمهم يعتنقون الدوناتية منذ هذه الفترة[65] لأن «أولئك السذج دفعهم إحساس غامض إلى اعتناق الدوناتية التي استشفوا فيها نوعا من دعم ضروري لثورتهم»[66]، تلك الثورة التي «انزلقت» من ظاهرة اقتصادية (بؤس العمال الفلاحيين الأحرار) إلى ظاهرة دينية (الدفاع عن قداسة الكنيسة ضد المتخاذلين)[67]. إلا أنهم بحكم واقعهم كعمال فلاحيين بسطاء «لم يكترثوا للجدل الفقهي بين الكنيستين المتناحرتين»[68]، لذا فإن

---

(61) - Vannier, O., ibid, p. 20

(62) كما سنرى في الفصل التالي، ص 203 وما بعدها.

(63) - «La guerre qu'ils ont déclarée à la société parait bien pure de toute préoccupation religieuse». Vannier, O., op. cit., p. 17.

(64) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme**.. op. cit, pp. 344-45

(65) - Brisson, ibid, pp. 342; 245; 346

(66) - Brisson, ibid, p. 342; 340

(67) - Brisson, ibid, p. 348-49

نفس المصطلح («انزلاق» : glissement) نجده عند كورطوا.

- Courtois, chr. **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., p. 148.

(68) - Brisson, J.P., op. cit, p. 349

بعضهم كان ينتمي إلى الكاثوليكية[69]. غير أن معظمهم انضوى تحت لواء الدوناتية رغما عن رغبة الأساقفة الدوناتيين أنفسهم، لأن هؤلاء الأخيرين كانوا يسعون إلى تجنب التورط في التعامل مع ذلك النوع من المتمردين[70]، ومن ثم تنكرهم لحركة الدوارين وتأليب السلطة ضدهم ووقوع حادث «محلة اكطافا».

يتضح إذن أن المشاكل الرئيسية المطروحة ثلاثة :

1 — إلى أي حد ينبغي تصديق أبطاتوس فيما أورده عن الدوارين في تلك الفترة المبكرة (347) ؟ 2 — مشكل الهوية العقائدية للدوارين، 3 — طبيعة علاقة الدوارين بالدوناتيين في تلك الفترة. وهذه المشاكل مترابطة فيما بينها بطبيعة الحال.

من البديهي تماما أن نتناول ما ورد عند أبطاتوس بكامل الحذر[71] لسببين رئيسيين أولهما أنه كتب مؤلفه بعد وقوع هذه الأحداث بما يقرب من ثلاثين سنة[72]، وحسب اعترافه، فإنه اعتمد «في ما لم يشاهده بنفسه على ما سمعه»[73]. ولنتذكر أنه أورد حادث محلة اكطافيوس بالذات (340) بجملة تحفظية : «... على ما يقال...»[74] ومن جهة ثانية، فإنه كان طرفا في النزاع المذهبي بين كنيسته الكاثوليكية وكنيسة خصومه الدوناتيين، إذ لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أنه كتب مؤلفه ردا على كتاب الأسقف الدوناتي «بارمينيانوس» Parmenianus[75] — أي أنه كان بصدد جدل كلامي مع الدوناتيين وكان

---

(69) - Brisson, J.P., op. cit, p. 349

(70) - ibid, p. 348

(71) انظر دراسة المصادر، ص 37 وما بعدها.

(72) كتب مؤلفه في نهاية 366 أو بداية 367، حسب ما أظهره «مونصو» :
- Monceaux, P., **H.L.A.C.**, V, p. 251 ss.

(73) - Opatat, III, 4; **C.S.E.L.**, XXVI, p. 84
«اننا لم نر هذا بالعين، ولكننا سمعنا به. كما سمعتهم به أيضا» (النص الأول في الملحق).

(74) نفس المصدر، ص 270 «فإنهم (الأساقفة الدوناتيون) — على ما يقال — بعثوا رسالة إلى «طورينوس»...».

(75) «بارمينيانوس»، خلف دوناتوس «الأكبر» على رأس الكنيسة الدوناتية وأبرشية قرطاج (363–392). ألف كتابا ضد الكاثوليكيين يرجح أنه كان بعنوان : ضد كنيسة المتخاذلين «Adversus Ecclesiam traditorum». وعليه رد أبطاتوس في كتابه (دراسة المصادر، ص 2).

يقصد قبل كل شيء إلصاق كل ما أمكن من التهم بهم أو المبالغة فيها، وفي نفس الوقت تبريء ساحة الكاثوليكيين بشأن أحداث 347. فهذا الفصل من كتاب أبطاتوس كان يرمي إلى هذا الغرض الأخير بالضبط. وفي هذا الصدد، يمكن اعتبار أبطاتوس الرائد الكاثوليكي الأول الذي وضع أسس الجدل مع الدوناتيين، وأن أغسطين الذي كتب بعده بما يقرب من ثلاثين سنة كان التلميذ المكمل الذي أوصل «استراتيجية» أبطاتوس الجدلية إلى درجة الإتقان والإحكام[76].

والواقع أن حركة الدوارين كانت بمثابة سلاح أو «ورقة» بيد الكاثوليكيين، لم يتورعوا عن استعمالها ضد خصومهم. فقد اتهموهم بالتعامل مع الدوارين وتحريضهم على التمرد. وكانوا بذلك يسعون إلى تأليب السلطات ضد الكنيسة المنشقة، وفي آن واحد يظهرون عدم صدقهم حينما يدعون أنهم كانوا يمثلون «كنيسة القديسين والأطهار» طالما أن هذه الكنيسة تضم «أشرارا» أمثال الدوارين[77]. ولدى تحليل الفقرات المتعلقة بأحداث باغاي (347)، يتجلى مدى تحيز أبطاتوس ـــ أو مصادره ـــ بوضوح أكبر. إلا أن ذلك التحيز يتلخص أساسا في تبرير موقف الكاثوليكيين وتبريء ساحتهم، ويمكن التمييز بين ما هو مجرد ادعاءات هدفها الجدل الكلامي وما هو معقول يمكن قبوله في السياق التاريخي[78]. لذا، يبدو من المجازفة تجريد النص من كل قيمة إخبارية، لأن المعطيات الدقيقة التي وردت فيه تقدم بعض الحقائق. فهناك تحديد زمن وقوع الحادث (على عهد «الكونت» طورينوس) ومكانه (محلة «اكطافا»)، وهناك شواهد القبور والأضرحة البيضاء «التي لازالت تشهد على ذلك». وهناك أيضا «محلة سوبولوس» وأسماء الأعلام : «اكسيدو» Axido، «فاسير» Fasir، «كلاروس» Clarus، هذا إضافة إلى معلومات أخرى دقيقة كطريقة عمل الدوارين والرسائل الإنذارية التي كانوا يبعثونها إلى الدائنين، ومعاملتهم للأسياد إلخ...، وإذا كانت معظم أسماء الأماكن والأشخاص لم ترد إلا عند أبطاتوس ـــ ولم ترد مثلا عند أغسطين ـــ فإن اسم طورينوس ظل ماثلا في أذهان الدوناتيين بحيث ذكروه في

(76) انظر دراسة المصادر، ص 40.

(77) سنرجع إلى هذه الخطة كما اتضحت عند أغسطين. أدناه، ص 243.

(78) انظر أدناه، ص 208.

مناظرة قرطاج (411) من بين الشخصيات «المرموقة» التي اضطهدت كنيستهم[79].

و لم يكن أبطاتوس ليختلق كل هذه الأحداث وهذه الأسماء بل إننا إذا ما صدقنا «دوشين» Duchesne، فإنه على العكس كان ملتصقا كثيرا بمراجعه لدرجة أنه كان يستعملها أحيانا بطريقة ساذجة وغير حذقة[80]. وأكثر من ذلك، فإنه كان يحظى عند خصومه أنفسهم بشيء من الاحترام حتى أنهم كانوا يرجعون إلى كتاباته للاستدلال بها خلال مناظرتهم مع الكاثوليكيين في قرطاج (411)[81].

ولكي يحظى كاتب كاثوليكي بمثل هذا الاحترام من قبل أعدائه فالمفروض ــ كما يقول «مونصو» ــ أنه أعطى أكثر من دليل على نزاهته وصدقه[82].

كل هذا ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار، وإن كان من اللازم في نفس الوقت أن يتوقع المرء تشويها ــ مقصودا أو غير مقصود ــ للأحداث التي وردت في النص. فمن الممكن أن يكون أبطاتوس قد استغل حادثة تاريخية اطلع عليها من خلال قراءاته أو المرويات المتداولة شفويا في عصره ليحورها في اتجاه يخدم أهدافه الجدلية.

غير أن الشيء الملفت للانتباه هو أن المجادل الكاثوليكي لم يحمل نفسه كثيرا من العناء لتدعيم تهمته للدوناتيين بالتعامل مع الدوارين، هذا إذا ما افترضنا مع Vannier أنه تعمد مفارقة تاريخية للنيل من سمعة الكنيسة الدوناتية[83].

فقد كان من السهل عليه ــ لإثبات التهمة على الدوناتيين ــ أن يشير إلى أن أساقفتهم هم الذين كانوا يتزعمون حركة الدوارين، أو أنهم هم الذين كانوا

---

(79) - **Gesta**, III, 258 (éd. Lancel, S., **S.C.** n° 224, p. 1217-18)

هذه الشخصيات كما وردت في هذه الفقرة هي :

- Macarius, Ursacius, Romanus, Taurinus, Paulus, Leontius.

(80) - Duchesne, L., Le dossier du Donatisme, **M.E.F.R.**, 1890, p. 600 et p. 650

(81) - **Capitula**, III, 476-488; 530-537 (éd. Lancel, **S.C.**, n° 195, pp. 537-539; pp. 547-549)

(82) - Monceaux, P., **H.L.A.C.**, V, p. 268

(83) - Vannier, O., op. cit, p. 17

يعينون زعماءهم. وهذا بالذات ما فعله أغسطين حين أشار مرارا إلى أن زعماء الدوارين كانوا مع «الاكليركيين»[84] (Clerici)[85] الدوناتيين أو من اختيارهم[86].

وعلى العكس من ذلك يعترف أبطاتوس أن الدوارين هم الذين منحوا لقب «زعيمي القديسين» «لأكسيدو» و«فاسير»[87]، مما يبرىء ساحة رجال الدين الدوناتيين. وأكثر من هذا، فإن سرده لحادث «محلة اكطافا» وإشارته إلى شكوى الأساقفة الدوناتيين إلى الكونت «طورينوس» يساهمان بصورة واضحة في إثبات براءة الدوناتيين وتجردهم من كل شبهة وتورط في التعامل مع الدوارين، وهذا طبعا لم يكن يتمشى مع الاستراتيجية التي انتهجتها أبطاتوس للدفاع عن الكاثوليك والتي سبقت الإشارة إليها قبل قليل.

ومن جهة أخرى، فإن أبطاتوس يشير إلى أن الدوناتيين لم يطلبوا عون الدوارين إلا في سنة 347، عند وصول «بولس» و«مكاريوس» مبعوثي الإمبراطور قنسطنس إلى افريقيا : «عندئذ، طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة (الدوناتيون) أنفسهم يرون قبل قليل أن جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة»[88]. فهذا أيضا اعتراف على لسان أبطاتوس بعدم تحمل الأساقفة الدوناتيين مسؤولية تصرفات الدوارين قبل 347. والواضح أن هذا الاعتراف لم يكن يخدم استراتيجيته الجدلية أيضا.

وفي نفس السياق، تجدر الإشارة إلى أن أبطاتوس استعمل في حق الدوارين تسمية «المناضلين» Agonistici التي كان الكاثوليكيون يأبون نعتهم بها، بدليل نص لأغسطين : «ربما اعترض الدوناتيون قائلين : «إن ذوينا لا يحملون اسم الدوارين، بل أنتم الذين تطلقونه عليهم لإهانتهم»... أما هم (أي الدوناتيون)

---

(84) رجال الدين دون الأساقفة مرتبة في السلم الكنسي.

(85) انظر النص 38 مثلا. سنرجع إلى ذلك في الفصل السابع، ص 239.

(86) انظر النصين 7 و15 مثلا. (نفس الملاحظة).

(87) «... وعندما حصل «أكسيدو» و«فاسير» منهم (الدوارين) على لقب «زعيمي القديسين»...» (نفس المصدر، ص 271 في الملحق).

(88) نفس المصدر (ص 270-271 في الملحق).

- Optat., III, 4, C.S.E.L., XXVI, p. 81.

فينعتونهم بالمناضلين «agonistici»[89]. فنجد هذه التسمية (المناضلين) عند أبطاتوس في الجملة السابقة مباشرة للنص الذي نحن بصدده والذي ـــ كما سبقت الإشارة ـــ جاء استطرادا في عرض أبطاتوس لأحداث باغاي الواقعة سنة 347. ففي تلك الجملة ذكر أبطاتوس أن أسقف باغاي الدوناتي «بعث المنادين إلى الأسواق يطلب من الدوارين المناضلين التجمع في مكان عينه لهم»[90] قصد مقاومة مبعوثي الإمبراطور الوافدين على افريقيا لحث الدوناتيين والكاثوليك على الرجوع إلى الوحدة.

وتفترض Vannier أن أسقف باغاي منح الدوارين لقب «مناضلين» تشريفا لهم واعترافا بجميلهم بعد أن ساندوه في مقاومة المبعوثين الإمبراطوريين «صانعي الوحدة»[91].

أما بريصون، فيرى أن الدوارين منحوا هذا اللقب التشريفي من تلقاء أنفسهم ومنذ ما قبل حادث باغاي ـــ إلى «متزعمي الحركة الثورية»، وأن أسقف باغاي فضل الاستعانة برجال مدربين على العمل الثوري، أي بـ«المناضلين»[92]. أيا ما كان[93] فلا يرجح أن هذه التسمية أتت عرضا وأنها كانت من صنع رجل واحد هو أسقف باغاي، بدليل نص أغسطين السابق الذكر، والذي يتجلى من خلاله أنها كانت التسمية الأصلية والحقيقية للدوارين ـــ على الأقل من وجهة نظرهم ـــ والتي احتفظوا بها حتى عهد أغسطين[94].

ولئن كان أغسطين لم يعترف للدوارين بهذا اللقب المشرف، ولم ينعتهم في كتاباته إلا بالاسم الآخر «المهين» (أي بـ«الدوارين»)، فإن أبطاتوس لم يشمئز من نعت خصومه بالاسم الذي كانوا يطلقونه على أنفسهم وبذلك كان أكثر أمانة، أو أقل تحيزا من أغسطين.

---

(89) - Aug., Enn. in Ps., 132, 6

(90) المصدر نفسه (ص 270 في الملحق). - Optat., III, 4., ibid, p. 81

(91) - Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'Eglise donatiste..., op. cit., p. 26

(92) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 343

(93) رجحنا ـــ على عكس بريصون ـــ أن التسمية لها مدلول ديني وأنها ترجع في الأصل إلى التقاليد الطرتليانية والقبريانية (القرن الثالث). (الفصل الرابع ص 147 وما بعدها).

(94) يرجع النص بدون تحديد إلى ما بين (394-418).

يبدو إذن أن أبطاتوس التزم مستوى لابأس به من النزاهة التاريخية كما يتضح على الأقل من هذه الملاحظات الأولية.

ولكن الحكم بنزاهة أبطاتوس لا يحل «التناقضات» التي يمكن أن تتراءى للباحث في النص، والتي تتلخص عند «فانيي» Vannier كالتالي : لماذا كان الدوارون يعملون تحت قيادة «زعماء القديسين» ؟ ولماذا كانوا يبحثون عن الاستشهاد في الوقت الذي كانت «تصرفاتهم لا تدل على حرب دينية ــ فلا يهاجمون الكاثوليك ولا ينهبون كنائسهم ــ والحرب التي أعلنوها ضد بعض طبقات المجتمع تبدو خالية من أي اهتمام ديني»؟(95).

إن هذا الاعتراض يقع في الحقيقة على مستويين، الأول منهما يمكن صياغته على الشكل التالي : هل كانت هذه الحركة «خالية من أي اهتمام ديني»؟ والثاني : هل كانت حربا مذهبية ضد الكاثوليك (مهاجمة الكنائس)؟

إن الطابع الاجتماعي للحركة أمر واضح لا مراء فيه. فالضربات موجهة لطبقة معينة تضم الملاك possessores والمقرضين creditores والأسياد domini، أي الطبقة المالكة المستغلة، والدوارون نصبوا أنفسهم حماة للطبقات المستضعفة : المدينين debentes والعبيد servi والمزارعين coloni. غير أن هذا الطابع الاجتماعي الواضح لا يتنافى بالضرورة مع «أي اهتمام ديني». وإلا، فكيف نفسر أن الدوارين اعتبروا رفاقهم الذين سقطوا في معركة «محلة اكطافا» شهداء، وأرادوا تبجيلهم بهذه الصفة بدفنهم في كنيسة «محلة سوبولوس»؟. وألا يمكن اعتبار مبدأ قلب الأوضاع بين العبيد والأسياد على طريقة الدوارين ــ الواردة في النص ــ انعكاسا لتأثير ديني يقول بالمساواة بين المؤمنين في يوم تنقلب فيه الأدوار بين الأقوياء والضعفاء، بين المضطهِدين والمضطهَدين، بين الأمراء (الوثنيين الذين يمثلون الشيطان) والمؤمنين المعذبين، إلخ...؟(96) أخيرا كيف نفسر أن حركة الدوارين

(95) - Vannier, O., op. cit., p. 17

(96) - Frend, W.H.C., Heresy and schism as social and and national movements, **Studies in church history**, vol. 9, cambridge, 1972, p. 46-47.

نتفق معه عندما يقول أن فكرة قلب الأدوار في اليوم الآخر أثرت على أذهان السكان في أرياف نوميديا وموريطانيا حيث كانت ظروفهم قاسية :

= - «The idea of the end of the existing age presaging judgement associated with a massive

احتفظت بنفس «الطابع الاجتماعي» حتى في عهد أغسطين[97] بالرغم من وضوح «طابعها الديني آنذاك» (مهاجمة الكاثوليك)؟[98].

يبدو إذن من الصعب تجريد حركة الدوارين من كل صبغة دينية، وإن كانت خلفياتها الاجتماعية والاقتصادية لا تترك مجالا للشك.

ولئن صح الحديث عن «الانزلاق» من ظاهرة اقتصادية إلى ظاهرة دينية[99]، فإن هذا «الانزلاق» كان قد بلغ درجة متقدمة كما يظهر في تبجيل الدوارين «لشهدائهم» إثر معركة «محلة اكطافا».

هذا على المستوى الأول من الاعتراض. أما على المستوى الثاني، فالأمر يتطلب البحث فيما إذا كانت حركة الدوارين حربا مذهبية موجهة ضد الكاثوليك.

لنلاحظ باديء ذي بدء، أن أبطاتوس لم يفصح بالنص الصريح عن المذهب الذي كان الدوارون ينتمون إليه. لذا، فإن اتخاذ أي رأي في هذه النقطة لا يمكن أن ينبني إلا على تأويل للنص وتخمين حول بعض الأحداث أو المصطلحات الواردة فيه. وهذا ما فعله «بريصون» حينما رأى أن هناك دليلين من النص نفسه على أن الدوارين كانوا دوناتيين بكل تأكيد[100]. ويتعلق الدليل الأول بمصطلح «الكنيسة» الوارد في نص رسالة الأساقفة الدوناتيين إلى الكونت «طورينوس»: «...هذا النوع من الناس لا يمكن إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة...»[101]. فكلمة الكنيسة الواردة في النص لا يمكن أن تعني إحدى

= reversal of fortunes struck the imagination of the people» ... particularly «in rural Numidia and Mauretania» (p. 46).

ولكننا لا نعتقد أن الدوارين «لم يكونوا سوى متعصبين دينيين» :

- «There is no reason to believe either, that the circumcellions were other than religious fanatics» (p. 47).

(97) كما رأينا في الفصل الثالث، خاصة ص 127 وما بعدها.

(98) كما سنرى في الفصل السابع، ص 233 وما بعدها.

(99) أعلاه، ص 184، هـ 67.

- (Courtois, chr., **les Vandales...**, p. 148).
- (Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 349).

(100) - Brisson, J.P., ibid., p. 344-345

(101) نفس المصدر (ص 271 في الملحق). - Optat, III, 4; C.S.E.L., XXVI, p. 82

الكنيستين (الكاثوليكية أو الدوناتية) بدون تمييز، أي بالمعنى العام ــ كما اعتقدت «فانيي» Vannier[102]، بل انها قطعا تعني الكنيسة الدوناتية، نظرا لما كان ساريا في العقيدة الدوناتية من وحدة الكنيسة المسيحية وانفرادهم (دون غيرهم) بالانتساب إليها، فـ«الكنيسة» في كلام الدوناتيين لا يمكن أن تنطبق إلا على كنيستهم التي يعتبرونها الكنيسة الكاثوليكية الحقة، والتي يستبعدون منها كل «المتخاذلين» Traditores[103]. معنى ذلك إذن هو أن الدوارين كانوا تابعين للكنيسة الدوناتية، ولكن هذه الأخيرة استعصى عليها «إصلاحهم» بالطرق الدينية.

أما الدليل الثاني. فيستخلصه «بريصون»[104] من كون الدوارين الذين سقطوا في معركة «محلة اكطافا» إثر تدخل جنود «الكونت» طورينوس ــ اعتبروا شهداء من طرف رفاقهم الذين خصصوا لهم بهذه الصفة أضرحة خاصة : «مذابح بيضاء» و«شواهد القبور». وهذين المصطلحين «التقنيين» : dealbatae arae (مذابح بيضاء) وmensae (طاولات القبور) «لا يمكن أن يتركا مجالا للشك»[105] في أن الأمر يتعلق بمعتنقين للدوناتية، ولا يمكن أن يكونوا كاثوليكيين، طالما أن عهد اضطهاد الدولة الوثنية للمسيحيين قد انتهى منذ صدور «مرسوم ميلانو» سنة 313[106]، ومادام الدوناتيون يعتبرون أن عهدا جديدا من الاضطهاد قد بدأ مع

---

(102) Vannier, O., op. cit., p. 20 -

(103) كما هو معلوم (وكما أشرت سابقا، ص 27)، كان السبب المباشر لظهور الدوناتية هو طعن عدد من الأساقفة النوميديين (وعلى رأسهم جثليقهم : Secundus) في سيامة أسقف قرطاج «كايكيليانوس» (وبعض الأساقفة الذين انتخبوه للمنصب) بتهمة تسليم الكتب المقدسة إلى السلطة إبان «الاضطهاد الأكبر» (اضطهاد ديقليديانوس 303–305). وقد ظل الدوناتيون ينعتون أعداءهم بكنيسة «المتخاذلين» Tradit ores (من Traditio : تسليم الكتب المقدسة وأواني الكنيسة). وكانوا ينعتونهم أيضا بحزب كايكيليانوس (pars caeciliani) وبنعوت أخرى. ولم ينعتوهم أبدا بـ«الكنيسة الكاثوليكية» لأنهم كانوا يعتبرون أنهم هم أصحابها.

(104) Brisson, J.P., op. cit., p. 345 -

(105) Brisson, J.P., idem -

(106) عن اعتناق (؟) الإمبراطور قسطنطين المسيحية سنة 312 ــ عند معركة «جسر ملفيوس» Pont-Melvius بينه وبين ماكسانتيوس Maxentius ــ تتضارب الآراء. أما ما يسمى خطأ «مرسوم ميلانو» (313) الذي ينص على التسامح الديني وإرجاع الكنائس المصادرة إلى المسيحيين، فهو في الواقع رسالة بعث بها «ليكينيوس» Licinius إلى ولاة الأقاليم الشرقية =

عمليات القمع التي تعرضت لها كنيستهم إثر صدور حكم قسطنطين ضدها سنة 316[107].

كل هذا يدعو إلى الاعتقاد في رأي بريصون ـــ وأنا أوافقه على هذا الرأي ـــ بأن الدوارين كانوا منذ هذا التاريخ ينتمون إلى الدوناتية، ويعزز هذا الاعتقاد كون هذه الأحداث وقعت في نوميديا التي نعرف أنها كانت مهد الدوناتية ومركز إشعاعها، وأنها ظلت معقلها طيلة التاريخ الدوناتي.

ومع ذلك، فهناك من الأحداث ما يثير تساؤلا عن الهوية العقائدية لبعض الدوارين في هذه الفترة : هل كان كل الدوارين الذين يتحدث عنهم النص دوناتيين أم كان بعضهم كاثوليكيا ؟

يرى «بريصون» في حادث «محلة سوبولوس» دليلا على وجود دوارين كاثوليكيين[108]. وقد أورد أبطاتوس هذا الحادث كما يلي : «... ولما بدأ (الدوارون) يدفنون بعض هؤلاء (قتلى معركة «محلة اكطافا») في الكنائس، فإن «كلاروس» Clarus، ـــ كاهن «محلة سوبولوس» ـــ، أرغم من طرف أسقفه على منعهم من القيام بهذا الدفن، لذا، فإنه ـــ على ما يقال ـــ تقرر تعميم هذا المنع على الدوارين، بما أنهم حُرِموا من الدفن في بيت الله»[109].

إلى أي كنيسة كان ينتمي الكاهن «كلاروس» ؟ ترى «فانيي» أن صمت أبطاتوس عن الهوية العقائدية لذلك الكاهن يسمح بافتراض أنه ربما كان كاهنا كاثوليكيا[110]. ويرى «بريصون» ـــ هو الآخر ـــ أن الأمر الذي تلقاه الكاهن كلاروس من أسقفه بعدم الدفن في الكنيسة كان إجراء يتمشى مع الخط

= يخبرهم فيها بهذه القرارات التي اتخذها في مدينة ميلانو باتفاق مع زميله قسطنطين (كان ليكنيوس «أغسطسا» على الولايات الشرقية وقسطنطين «أغسطسا» على الولايات الغربية).

- Petit, P., **H.G.E.R.**, t. III, p. 58 ss.

(107) في سنتي 317 و318، سقط عدد من الدوناتيين اعتبرتهم كنيستهم شهداء، وهم الذين خلد ذكراهم «كتاب آلام دوناتوس» «Passio Donati» (انظر دراسة المصادر، ص 47).

(108) - Brisson, J.P., ibid., p. 349

(109) Optat., III, 4., **C.S.E.L**, XXVI, p. 83 (نفس النص، ص ص 286–287 في الملحق).

(110) - Vannier, O., op. cit., p. 21

الكاثوليكي أكثر مما يتفق مع سياسة الدوناتيين الذين بجلوا عددا من شهدائهم منذ اضطهاد قسطنطين لكنيستهم (317-318). وعلى هذا، فإن بريصون يرى إمكان أخذه دليلا على أننا بصدد كنيسة كاثوليكية. ومن ثم تمتد الصفة لكي تشمل الأسقف الذي رفض، والكاهن كلاروس الذي كان راغبا لولا رفض أسقفه. ولما كان هؤلاء الدوارون قد لجأوا إلى كنيسة «محلة سوبولوس» بالذات، فإن هذا يعني ــ من وجهة نظر بريصون ــ أنها تتفق في العقيدة معهم[111]. ومن هنا يرى كل من «فانيي» و«بريصون» بأنه يمكن الاعتماد على هذا النص للقول بوجود بعض الدوارين الكاثوليك أيضا[112].

والواقع أن الدليل الذي برهن به بريصون على انتماء بعض الدوارين إلى الكاثوليكية لا يبدو دليلا قاطعا، بل يتناقض مع الدليل الثاني الذي استند إليه لإثبات دوناتية بعض الدوارين[113]. ذلك أنه اعتبر تبجيل الدوارين «لشهدائهم» دليلا على أنهم كانوا دوناتيين، ولكون ظاهرة «الاستشهاد» استمرت عند الدوناتيين وتوقفت عند الكاثوليكيين. لكننا إذا ما اتبعنا هذا المنطق، ينبغي أن نعتبر دواري «محلة سوبولوس» دوناتيين أيضا لا كاثوليكيين، طالما أنهم أرادوا تكريم قتلاهم بدفنهم في كنيسة تلك المحلة، أي الكنيسة التي كان يسهر عليها الكاهن «كلاروس». فتصرف الدوارين كان موحدا في هذه النقطة، وبالتالي، فإن ما طبق على دواري معركة «محلة اكطافا» ينبغي أن يطبق على دواري «محلة سوبولوس»، وحتى لو صح أن الكاهن «كلاروس» وأسقفه كانا كاثوليكيين (باعتبار أن الأسقف عارض دفن الدوارين في الكنيسة) فهل ذلك يدل حتما على أن الدوارين الذين مُنِعوا من الدفن كانوا كاثوليكيين ؟

وفي بحثه عن حل لهذه المشكلة، افترض «مونصو» بأن حظر دفن الدوارين القتلى في الكنائس كان ناجما عن مقررات مجمع كنسي دوناتي[114] وهذا يبدو

---

(111) Brisson, J.P., ibid., p. 349 -

(112) يتفق «كورطوا» مع «فانيي» في وجود دوارين كاثوليك، ولكن بدون أن يدلي بحجة أخرى :
- Courtois, Chr., les Vandales..., op. cit., p.

(113) أعلاه ص 192-193.

(114) Monceaux, P., H.L.A.C., IV, pp. 335, 471, et t. V, p. 44 -
أرى تعزيزا لهذا الرأي في إشارة كريسكونيوس إلى تحريم الانتحار بالارتماء من الجروف= ،

أكثر توافقا مع الظروف التي مرت فيها هذه الأحداث. فالدوناتيون هم الذين طلبوا تدخل الجيش ضد الدوارين، فلماذا نستبعد أن يكونوا هم أنفسهم (الدوناتيون) الذين قرروا هذا الحظر، وأن «كلاروس» وأسقفه كانا دوناتيين ؟ وإذا افترضنا وجود «دوارين كاثوليكيين»، فكيف نفسر ما قاله أبطاتوس عن كون أعمالهم «جلبت الحقد على الأساقفة الدوناتيين» بينما لم تلحق أي ضرر بالأساقفة الكاثوليكيين ؟

وفي اعتقادي أن انتماء الدوارين في أغلبيتهم الساحقة — إن لم يكن في مجموعهم — إلى الدوناتية يشكل دليلا إضافيا على أن الوجود الدوناتي في نوميديا الجنوبية كانا في هذه الفترة (ما قبل 347) سائدا بدون منازع[115]، وأن الكاثوليكية لم يصبح لها حضور يعتبر في تلك الناحية إلا بعد تدخل السلطة لصالحها سنة 347. وحتى بعد ذلك، فإن انتماء الدوارين إلى الدوناتية أمر لاشك فيه، خاصة وأنهم أصبحوا — كما سنرى — يشكلون رؤوس رماح الانشقاق الافريقي الذي وجدوا فيه تعبيرا عن سخطهم وتذمرهم. ومما ساعد على انتماء الدوارين في جملتهم إلى الدوناتية، وجودهم في منطقة واحدة : نوميديا (وبعض

= في عدة مجامع كنسية دوناتية. وقد جاءت تلك الإشارة في رد أغسطين على كريسكنيوس، كالتالي : «لا يهمنا أن يتبجح أساقفتكم بكونهم منعوا هذا الانتحار وأدانوه في مجامعهم، كما ذكرت (مخاطبا كريسكنيوس)...».

- Aug., C. Cresc., III, XLIX, 54; B.A. 31, p. 383.

(115) لم يكن النقاد المحدثون هم الذين أبرزوا أن نوميديا كانت معقل الدوناتية. فالكتاب المعاصرون للحركة كانوا — أنفسهم — يشيرون إلى ذلك بدون غموض، سواء منهم الدوناتيون أو الكاثوليك.

مثلا، كاتب «الرسالة إلى الكاثوليك» يقول (حوالي 401–402) «... في نوميديا حيث تسودون بتفوق كبير...».

- Ep. ad Cath., XIX, 51; B.A. 28, p. 652.

وفي مناظرة قرطاج (411)، حتى بعد أن ضعفت الدوناتية، يشير «بتيليانوس» — أسقف قسنطينة الدوناتي — إلى تفوق حزبه هناك قائلا : «... إنهم (أي الكاثوليك) لا يتوفرون على أي أسقف في نوميديا، أو أنهم يتوفرون على بعض الأساقفة، ولكن في جهات قليلة».

- Gesta., I, 165; Ed. Lancel, S.C. 195, p. 810.

واعتراف الكاثوليك. في نفس المناظرة (411) بأنهم يسودون «في الأقاليم، باستثناء نوميديا القنصلية». - Gesta, I, 18; ibid., p. 612

الأجزاء المجاورة من البروقنصلية ومن موريطانيا الصطيفية)، وهي المنطقة التي كانت تضم الضياع الشاسعة (latifundia) التي يتوفر فيها العمل الموسمي(116)، وفي نفس الوقت المنطقة التي كانت معقل الدوناتية.

وهذا الانتماء شبه الشامل إلى الدوناتية هو الذي يفسر — في اعتقادي — أن النصوص الكاثوليكية والدوناتية على السواء لم تتحدث عن «دوارين كاثوليكيين». فالكتاب الكاثوليك لا يقصدون إلا الدوارين «المناضلين» الذين ساندوا الدوناتية وشكلوا — في رأيهم — عساكرها المجندة ضدهم، أما الكتابات الدوناتية، فلا تتحدث إلا عن «المناضلين» agonistae، وترى أن تسميتهم بالدوارين تتضمن تحقيرا لهم(117). وعلى هذا الأساس، فمن العبث أن نبحث عن «دوارين كاثوليكيين» في الكتابات المعاصرة لتلك الحركة، إذ أن تلك الكتابات لم تر إلا الجانب الجدلي من حركة الدوارين. بقي الآن أن نبحث صعوبة أخيرة في النص. إذا كان الدوارون دوناتيين، فلماذا طلب الأساقفة الدوناتيون تدخل الجيش ضدهم ؟(118).

يجيب أبطاتوس جزئيا عن هذا السؤال بقوله : «... ونظرا لكون هذه التصرفات جلبت الحقد على أساقفة حزبكم، فإنهم — على ما يقال — بعثوا رسالة إلى «طورينوس» — الذي كان يشغل آنذاك وظيفة «كونت» — أعلنوا فيها أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يمكن إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة، لذا فإنهم

---

(116) كانت الضياع الكبرى موجودة كذلك في «بيزاكينا» Byzacena (المزاق، جنوب البروقنصلية) وقد سبقت الإشارة إلى أراضي الإمبراطور هناك (أعلاه، ص 54). ولكن تلك الضيع لم تكن تستعمل اليد العاملة الموسمية على ما يبدو. «فحصاد مكتر» كان يذهب من مدينته للعمل في حقول نوميديا والبروقنصلية، مع أن بيزاكينا أقرب، لأن مكتر توجد على الحدود الشمالية للأقاليم الذي أصبح فيما بعد يدعى «بيزاكينا» (النقش من القرن الثالث، وإنشاء الإقليم من القرن الرابع) ويرجع عدم استعمال العمال المتنقلين — حسب Lancel — إلى قدم استقرار السكان في ذلك الإقليم، وسيادة نظام المزارعة في تلك الأراضي التي كانت بيد الأرستقراطية السيناتورية القرطاجية.

- Lancel, S., Originalité de la province ecclésiatique de Byzacène, C.T, XII, n° 45-46, 1964, pp. 147-148.

(117) تطرقنا إلى هذه النقطة أعلاه، ص 147–150.

(118) أعلاه، ص 182–183.

طلبوا من «الكونت» المذكور أن يعمل على إرجاعهم إلى الطريق السوي...»[119].

يبدو إذن أن الأساقفة تملصوا من تحمل أي مسؤولية بخصوص تصرفات الدوارين، وأن تملصهم هذا كان بسبب شكاوي الملاك والأسياد والدائنين أي الطبقة الغنية التي كان لها ثقل على جهاز الحكم. ويمكن أن يفهم من كلام أبطاتوس أن السلطة الرسمية أوعزت إلى السلطة الكنسية بمحاولة إقناع الدوارين كي يتخلوا عن تلك التصرفات، مما يوحي بوجود روابط تبعية روحية للدوارين حيال الأساقفة. وربما أن محاولة الإقناع تلك فشلت، فلم يعد بإمكان الأساقفة سوى تفويض الأمر إلى السلطة الزمنية أي إلى قائد الجيش، ومن ثم، فإنهم بعثوا إليه برسالة في هذا الموضوع.

غير أن المرء يمكنه أيضا أن يفهم من النص أن الأساقفة بالغوا شيئا ما في تنكرهم لأعمال الدوارين، لأنهم لم يكتفوا بالإعلان عن فشلهم في إقناعهم بل طلبوا من قائد الجيش أن «يعمل على إرجاعهم إلى الطريق السوي». ولم يأت تدخل «الكونت» إلا «كرد على رسالتهم» واستجابة لطلبهم. هل نشك هنا أيضا في نزاهة أبطاتوس ونعتبر أنه أراد تأكيد مسؤولية الدوناتيين في مجزرة «محلة اكطافا»؟[120] الواقع أن ذلك ليس من الضروري، إذ يكفي الرجوع إلى تصرفات الدوارين — كما تتجلى من خلال النص — من جهة، وإلى الظروف التي حاطت بالكنيسة الدوناتية في تلك الفترة من جهة أخرى، ليتبين أن كلام أبطاتوس يتفق مع السياق التاريخي.

فإذا ما رجعنا إلى النص نجد أن إحدى السمات الرئيسية التي اتسم بها الدوارون كانت استقلالهم التام عن رجال الكنيسة وعدم اكثراتهم بإرشادات الأساقفة الدوناتيين. فقد عجز هؤلاء عن «إرجاعهم إلى الطريق السوي في إطار

---

(119) نفس المصدر (ص 270 في الملحق).

- Optat, III, 4, C.S.E.L. XXVI, p. 82.

(120) من الغريب حقا أن يذكر الدوناتيون في مناظرة قرطاج اسم «طورينوس» من بين «كبار» الشخصيات ورجال السلطة الذين اضطهدوا كنيستهم (انظر أعلاه، ص 187، هـ 79)، علما بأنهم هم الذين طلبوا تدخله لقمع حركة الدوارين، وبالتالي هم الذين يتحملون مسؤولية هذه المجزرة. غير أن مثل هذه التصرفات المتناقضة لم تكن غريبة على الدوناتيين خاصة في علاقاتهم مع الدوارين في عهد أغسطين (أدناه، ص 239 وما بعدها).

الكنيسة»، وأرغموا قسرا على عدم دفن «شهدائهم» في كنيسة «محلة سوبولوس». ثم إن الدوارين هم الذين عينوا رؤساءهم «زعماء القديسين»، و لم تتدخل الكنيسة في ذلك.

أما السمة الرئيسية الثانية، التي تتجلى كذلك من خلال النص، فهي عدم اكثراثهم للنزاع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين. فعملياتهم الثورية لم تكن موجهة ضد أي جهة دينية ولا لصالح أي كنيسة معينة حتى ذلك الوقت. وإذا كانت حركتهم لا تخلو من مسحة دينية منذ هذه الفترة، كما يبدو من موقفهم إزاء «شهدائهم» على الخصوص[121]، ومن لقبي «المناضلين»[122] (agonisticos) و«القديسين»[123] (Sancti) اللذين تسموا بهما، فإنهم لم يكونوا رواد حزب ديني ولا رؤساء الكنيسة المنشقة. وهكذا، فإن أهدافهم كانت غير متطابقة مع أهداف الأساقفة الدوناتيين. فالكنيسة الدوناتية كانت تحارب كنيسة «المتخاذلين» Traditores كيفما كان وضعهم الاجتماعي[124]، أما حركة «اكسيدو» و«فاسير» فكانت موجهة ضد طبقة المستغلين والمتعسفين كيفما كان مذهبهم وعقيدتهم.

وكما كانت الأهداف والمرامي متباينة، كان الاختلاف واضحا في طرق العمل كذلك. فالكنيسة الدوناتية كانت تحاول أن تظهر بصفة الكنيسة الحقة، أي الكنيسة «الكاثوليكية»[125]، وأن كنيسة «كايكيليانوس» ــ المتورطة في التعامل مع الدولة ــ ليست إلا حزب «المتخاذلين»[126]. وفي نفس الوقت لم تأل جهدا في إقناع الدولة بالاعتراف بها منذ بداية الانشقاق[127]. فبعد فترة الاضطهاد التي تعرضت لها غداة صدور قانون 316[128]، لم يلبث الأساقفة الدوناتيون أن

(121) أعلاه، ص 193.

(122) أعلاه، ص 189.

(123) أعلاه، ص 183.

(124) أعلاه، ص 34.

(125) انظر أدناه، هـ 99 و100، ص 253-254.

(126) انظر أعلاه، ص 27.

(127) انظر الرسالة التي بعثوا بها إلى قسطنطين على يد أنولينوس أعلاه، ص 176-177.

(128) - Martroye, F., La répression du Donatisme. M.S.N.A.F, 1914, p: 52 ss

وجهوا طلب العفو إلى الإمبراطور قسطنطين الذي أصدر قانونا يقتضي التسامح معهم ورجوعهم من المنفى (321)[129] بل إنه أخذ على عاتقه تعويض الكاثوليكيين عن بعض الكنائس التي «انتزعها» منهم الدوناتيون قسرا مثل كنيسة قسنطينة سنة 330 فبنى «للمظلومين» كنائس جديدة[130]. واستغلت الكنيسة الدوناتية هذا «السلم الديني» وهذا التسامح من طرف الدولة لتتوسع جغرافيا بكل الوسائل. فبالإضافة إلى نوميديا التي كانت معقلها وحصنها الحصين، يبدو أنها هدفت للانتشار في موريطانيا. وفي سبيل ذلك، تخلت عن أحد مبادئها الأساسية لتسهيل التحاق الموريطانيين بحظيرتها، وذلك بالتخلي عن إعادة تعميد المعتنقين الجدد للدوناتية[131]. وكانت إعادة تعميد المسيحيين «المتخاذلين» (traditores) والبدعيين (haeretici) أحد المبادىء الرئيسية للدوناتية، ونقطة اختلاف جوهرية بين الكنيستين[132]. والراجح أن هذا «التراجع» أو «التساهل» في العقيدة كان

(129) ibid, p. 54

(130) - Duchesne, L., Le dossier du Donatisme, M.E.F.R. 1890, pp. 612-613

(131) في المجمع الدوناتي العام المنعقد بقرطاج على عهد دوناتوس الأكبر سنة 336... عن تاريخ هذا المجمع الذي وقع فيه خطأ عند أغسطين، انظر تصحيح «مونصو».

- Monceaux, P., H.L.A.C., IV, pp. 333-334.

(132) يرجع ذلك إلى تشدد الدوناتيين بصدد شخص «خادم السر» (minister). فهم يعتبرون أن خادم السر أو المعمد ينبغي أن يكون طهورا منزها عن كل الشوائب، «قديسا» Sanctus لذا كانوا يعتبرون كنيستهم «كنيسة القديسين» ecclesia sanctorum، وأنه لا تعميد يصح خارجها. أما الكاثوليك، فكانوا يعتبرون أن أي خادم سر مسيحي يمكنه إعطاء التعميد، وأن «قداسته» أو عيوبه الباطنية لا تؤثران في شيء على صحة التعميد. لذا، فإن «المنشقين الدوناتيين أنفسهم» يعطون تعميدا صحيحا، ولا ينبغي إعادة تعميدهم إذا رجعوا إلى الوحدة (الكاثوليكية). تعرض أغسطين لهذا المشكل عدة مرات، ورجع إلى موقف قبريانوس وزملائه الأساقفة في مجمع سنة 256 ــ (والذي ناقشوا فيه مشكلة إعادة تعميد المنشقين وأصحاب البدع). وكان الدوناتيون يستشهدون بقبريانوس في قضية إعادة التعميد. لذا خصص أغسطين كتابا لهذه القضية :

- De baptismo, B.A. 29, Desclée de Brouwer, 1964.

ويقول أغسطين على الخصوص : «من باستطاعته أن يجهل أنه لا يوجد تعميد مسيحي صحيح إذا نقصه كلام الإنجيل، الذي يشكل رمزه ؟... إننا نقول بأن التعميد المسيحي ــ أي التعميد الذي يكرسه كلام الإنجيل ــ هو تعميد واحد في كل مكان، وأن أي رجل كيفما كان، وأيا كانت انحرافاته، لا يدنس ذلك التعميد».

- De baptismo, VI, XXV, 48 (B.A. 29, p. 460).

بهدف إرضاء المسيحيين الموريطانيين الذين كانوا حسب أغسطين يكرهون تلك العادة الدوناتية[133].

وهكذا، فإن مواقف الكنيسة الدوناتية لم تكن منذ هذه الفترة مواقف متعصبة تجاه الدولة أو حيال المبادىء الأساسية و«المقدسة»، وأقل ما يمكن أن يقال عنها أنها كانت تتسم بـ«الواقعية».

أما الدوارون، فكانوا ينهجون طريقة العنف والسطو والتهديد لحماية المظلومين من المتعسفين، وذلك تحت شعار الكنيسة الدوناتية نفسها، أي باسم «القديسين». لذا، كانوا يهددون «السلم الديني» الذي كانت تنعم به «كنيسة القديسين» في ذلك الوقت، كما كانوا يؤثرون بأساليبهم على حركة توسعها الجغرافي، وكأنهم عن سبق إصرار يريدون «تكسير» الكنيسة الدوناتية وإثارة غضب السلطة عليها.

وهكذا تتضح أحداث 340، ويصبح من المعقول أن يتبرأ الأساقفة الدوناتيون من شغب الدوارين، الذي يمكن أن يستغله أعداؤهم الكاثوليكيون لتأليب الدولة ضدهم. وذلك ما حدث فعلا بعد سنوات قلائل، حين أصدر «قنسطنس» قانونا جديدا للوحدة بين الكنيستين، وأرسل مبعوثين إلى افريقيا (بولس ومكاريوس) لتطبيقه بحد السيف إن اقتضى الحال (347).

يبدو إذن أن الدوارين ــ رغم انتمائهم إلى الكنيسة الدوناتية ــ كانوا يشكلون حركة مستقلة لها أهدافها وتنظيمها ومراميها الخاصة، وبالتالي يمكن الفصل بينها وبين الحركة الدوناتية، على عكس ما توحي به الكتابات الكاثوليكية التي تدمج بين الحركتين وتقدم الدوارين على أنهم كانوا دائما عساكر الدوناتية. على أنه من الآن، ينبغي أن نلاحظ أن سياسة الأساقفة الدوناتيين حيال الدوارين لم تكن تتطابق بالضرورة مع موقف رجال الدين الصغار.

فالنص يشير بوضوح إلى أن «كلاروس» كاهن «محلة سوبولوس» «أرغم من طرف أسقفه» على منع الدوارين من دفن «شهدائهم» في الكنيسة[134]. «والشيء

---

(133) - Aug., Ep. XCIII, X, 43; Brisson, J.P., ibid, p. 218 ss

(134) النص أعلاه، ص 194.

- «... Clarus presbyter in loco subbulensi ab episcope suo coactus est...».

الأكيد هو أن شعور «كلاروس» حيال الدوارين لم يكن نفس شعور الأساقفة تجاهم»[135]. «وليس من المستبعد أن يكون رجال الدين في الأرياف قد شجعوا حركة الدوارين»[136]، أو على الأقل قدموا لهم مساندة معنوية. ذلك أن ظروف عيش الاكليركيين الصغار وحتى بعض الأساقفة الريفيين كانت مماثلة لظروف الدوارين، بل لم يكن من النادر أن يصبح أحد المزارعين (colonus) كاهنا في كنيسة المزرعة بتعيين من المالك أو القيم على تلك المزرعة[137]. وعلى هذا الأساس، فإن هناك محورين لتفحص العلاقات بين الدوارين والدوناتية : موقف الكنيسة الرسمي الذي يمثله الأساقفة وخاصة في الحواضر، وموقف «الاكليروس» الصغير والريفي في القرى. ويبدو منذ هذه الفترة أن الموقفين لم يكونا متطابقين تماما.

(135) - Vannier, O., op. cit., p. 21

نفس الشيء عند «بريصون» : - Brisson, J.P., op. cit., p. 350

(136) - Brisson, J.P., idem

(137) - Hamman, **La Vie quotidienne en Afrique au temps de Saint-Augustin**, Paris, Hachette littérature, 1979, p. 285.

الفصل السادس
الدوارون والدوناتية
ثانيا : أحداث باغاي ومنعرج 347

إذا كانت الفترة السابقة يكتنفها كثير من الغموض ولا تتوفر عنها مصادر يمكن المقارنة بينها[1]، فإن ما وقع بمدينة باغاي ونوميديا الجنوبية حوالي 347، ترك صدى أكبر نسبيا في كتابات الكاثوليك والدوناتيين على السواء. فقد خصص أبطاتوس للحادث فقرات مهمة من الكتاب الثالث من مؤلفه[2]، سبق أن أوردنا منها تلك التي تهم فترة ما قبل حادث باغاي[3]. كذلك نجد إشارات متكررة ــ لكن متشابهة ــ عند أغسطين[4]، وأيضا في كتابي «آلام ماركولوس» Passio Marculi و«آلام مكسميانوس وإسحاق» Passio Maximiani et Isaac[5] اللذين يرويان قصة «الشهداء» الدوناتيين الذين سقطوا في تلك الفترة (حوالي 347)[6] وكذا إشارات عابرة على لسان الدوناتيين في تدخلاتهم خلال مناظرة قرطاج سنة 41/1[7]. إلا أن النصوص الدوناتية المشار إليها ــ وإن كانت مهمة لكونها تعطي

---

(1) في الواقع مصدر واحد متوفر، هو الشذرات التي اقتطفناها من كتاب أبطاتوس وحاولنا تحليلها في الصفحات السابقة في الملحق.

(2) - Optat, III, 4 (C.S.E.L, 26, p. 81 ss)

(3) النص أعلاه، ص 120-121.

(4) مثلا : النصان 3 و7 في الملحق.

(5) - Passio Marculi, P.L. VIII, Col. 758-767.
- Passio Maximaini et Isaac, P.L, idem, Col. 767-774.

(6) عن كتب «آلام» الشهداء الدوناتيين، انظر «مونصو :
- Monceaux, P., H.L.A.C, V, p. 35-98

(7) مثلا : - Gesta, I, 187; éd. Lancel, S.C. n° 195, p. 834
- Gesta, III, 258; éd. Lancel, S.C. n° 225, p. 1216.

وجهة نظر الدوناتيين ــ تتحاشى مطلقا استعمال كلمة «الدوارين»، ربما نظرا للمعنى المحقر الذي كان عالقا بالمصطلح في رأيهم حسب أغسطين[8]. وبالتالي فمن العسير التفريق في تلك النصوص بين عامة الدوناتيين والدوارين.

إن ما وقع بنوميديا حوالي 347 كان خطيرا وذا أثر حاسم على تطور مجريات الأمور بافريقيا، وليس من المجازفة اعتباره منعرجا أساسيا ــ ليس في العلاقات بين الدوارين والدوناتيين فحسب ــ، ولكن أيضا بالنسبة لتطور الكنيستين المتناحرتين، وفي الصراع الديني والسياسي في المنطقة برمته. ويبدو أن الدور الذي لعبه الدوارون في هذه الأحداث كان دورا طلائعيا، على الرغم مما توحي به المصادر لأول وهلة، بل ربما كان المحرك العميق من وراء تلك الأحداث وما تلاها من تطورات. وهذا ما سنحاول طرحه في هذا الفصل.

ففي سنة 347[9]، يبدو أن قنسطنس اعتزم التدخل في الشؤون الدينية في افريقيا، كما فعل أبوه من قبل حين حسم النزاع سنة 316[10] لصالح كنيسة «كايكيليانوس» ضد دوناتوس وزملائه. واستهل قنسطنس تدخله بإصدار قانون decretum[11] جديد يؤكد حكم أبيه ضد الدوناتية. ورغم أن هذا الإجراء كان

---

(8) كما أشرت أعلاه، ص 147.

(9) - Monceaux, P., H.L.A.C, IV, p. 35 et p. 241

(10) - Martroye, F., M.S.N.A.F, 1914, p. 37

(11) كثيرا ما يستعمل المؤرخون مصطلح «مرسوم الوحدة» (Edit d'union) بصدد قانون قسطنطين أو قانون قنسطنس. والصحيح في التشريع الروماني أن «المرسوم» : edictum كان ــ على عكس القوانين البحتة ــ مؤقتا وقابلا للنقض مبدئيا بعد انتهاء مهمة صاحبه (حاكم أو امبراطور) :

- Martroye, F, La répression du Donatisme et la politique religieuse de constantin et de ses successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., t. LXXVIII, Paris, 1914, p. 65.

أما القانون المقصود هنا، فهو «الديكريتوم» decretum بمعناه الروماني، أي قرار اتخذه الإمبراطور تمشيا مع التشريع الموجود الذي لا يغيره وإنما يؤكده أو يطبقه («مارطروا» ص 49)، أي أن «الديكريتوم» كان عبارة عن حكم قضائي (ص 66). لذا، لم تكن القوانين الصادرة على الدوناتية خلال القرن الرابع «مراسيم» وإنما «أحكاما قضائية تطبق مقتضيات الحكم الصادر على الدوناتية في محكمة ميلانو منذ 316 (ص 49). ولا يمكن الحديث عن مرسوم للوحدة بين الكنيستين إلا بصدد مرسوم «هنوريوس» الصادر في 12 فبراير 405. (ص 64). غير أن الأحكام القضائية كان من طبيعتها أن تخضع للمراجعة (ص 66). لذا =

ـــ من الوجهة القانونية البحتة ـــ يترك الدوناتيين في الوضع الذي كانوا عليه منذ قانون قسطنطين، (316) فإنه أبطل عمليا قانون التسامح الذي منحه ذلك الإمبراطور لكنيستهم سنة 321[12]، وبالتالي، فإن الدوناتيين أصبحوا من جديد (بموجب حكم 316) معرضين لعقوبة النفي ومصادرة كنائسهم إذا ما جرؤوا على إقامة دعوى ضد الكاثوليكيين[13].

وفي نفس السنة (347)، وصل إلى مدينة قرطاج مبعوثان إمبراطوريان : بولس Paulus ومكاريوس Macarius، في مهمة رسمية كلفهما بها الإمبراطور قنسطنس. ولا نعرف بالضبط فحوى هذه المهمة، غير أنها على ما يبدو كانت تتعلق بوضع حد للفرقة الدينية في افريقيا، وذلك «بحث الكنيستين على الرجوع إلى الوحدة»، حسب الكاثوليكيين[14] أو «بإكراه الأمة المسيحية (أي الدوناتيين) بالسيف على الوحدة مع «المتخاذلين» (أي الكاثوليكيين)»، حسب وجهة نظر الدوناتيين[15].

وحسب أبطاتوس، فإن الرجلين لم يعلنا هدفهما في بداية الأمر بل انهما «أخفيا مضمون مهمتهما» لئلا يثيرا غضب الدوناتيين ويوقعا أنفسهما في موقف يتطلب استعمال العنف[16]. واعترف الدوناتيون أنفسهم بأن المبعوثين الرومانيين ـــ لدى وصولهما إلى قرطاج ـــ لم يقوما بأي عمل تعسفي ضدهم، ولم يعترضا سبيل أحد، بل إنهما على العكس أرادا توزيع هبات الإمبراطور عليهم، واكتفيا بحثهم على التصالح مع خصومهم الدينيين[17].

غير أن الأمور لم تلبث أن تعقدت عندما توغل المبعوثان في نوميديا الجنوبية،

= فإن الكاثوليك كانوا يسعون دائما عند وصول إمبراطور جديد إلى العرش أن يصدر قانونا جديدا يؤكد الأحكام القضائية السابقة. وهكذا كان الحال سنة 347 على عهد «قنسطنس».

(12) أعلاه، ص 198.

(13) بتهمة الارتداد التي كانت تهمة ملفقة حسب حكم قسطنطين. انظر :

- Martroye, F., ibid, p. 68.

(14) opt., III, 4 (النص الأول في الملحق).

(15) - **Passio Marculi**, cité d'après Martroye, F., ibid, p. 63

(16) - Optat., III, 3 (C.S.E.L, XXVI, p. 73)

(17) - **Passio Marculi**;

- **Passio Maximiani et Isaac**, cités d'après. Martroye, op. cit., p. 69.

- Warmington, **the North African provinces**..., op. cit., p. 93.

محملين «بهبات» الإمبراطور إلى الكنائس. فعند مدينة باغاي[18]، وقع الاصطدام الخطير الأول بين المبعوثين اللذين طلبا حماية الجيش، والأسقف الدوناتي بالمدينة الذي استنجد بالدوارين «المناضلين»[19]. وانطلاقا من تلك المعركة، اتخذ المبعوثان الرومانيان تدابير قمعية بالغة القساوة خاصة مكاريوس الذي لم يتورع عن إهانة عدد من الأساقفة الدوناتيين بجلدهم[20]، وحبسهم[21]، بل وأحيانا قتلهم، هذا إذا صدقنا المصادر الدوناتية[22]. ويذكر الدوناتيون أيضا أن هذه الفترة الاضطهادية شهدت سقوط عدد من «الشهداء» الدوناتيين أبرزهم «دوناتوس» ـــ أسقف باغاي الدوناتي[23] ـــ و«ماركلوس» Marculus ـــ الذي عثر على شهادة أثرية تؤكد مكانته من بين الشهداء الدوناتيين الآخرين[24] وكذلك «ماكسيميانوس» Maximianus وإسحاق Isaac[25].

كما نفي عدد كبير من الأساقفة الدوناتيين وعلى رأسهم دوناتوس زعيم الكنيسة، واضطر عدد آخر منهم إلى الهجرة، فصودرت كنائسهم وممتلكاتهم، وألحقت

(18) عن باغاي Bagaï (قصر باغاي حاليا، قرب مدينة خنشلة، شمال شرق الأوراس) راجع أعلاه، ص 120 هـ 9.

(19) Optat, III, 4 (النص الأول، ص 267–274).

(20) - **Passio Marculi**, Martroye, op. cit., p. 49

(21) - Optat., II, 15 (**C.S.E.L.**, 26, p.50); Martroye, idem

(22) الأسقفان «دوناتوس» الباغائي و«ماركولوس»، والدوناتيان : «ماكسيميانوس» و«إسحاق»، كما جاء في كتابي آلامهم المذكورين أعلاه، ص 203 هـ 5. (Martroye, ibid., p. 49-50).

(23) هو بطبيعة الحال غير دوناتوس الأكبر، زعيم الكنيسة وجثليقها بقرطاج.

(24) عثر على شاهد تذكاري (memoria) له بكنيسة Vegesela (قصر الكلب غير بعيد عن باغاي). انظر :
- Cayrel, P., Une basilique donatiste de Numidie, **M.E.F.R**, 1934, pp. 114-142.
- Courcelle, P., Une seconde campagne de fouilles à Ksar El Kelb, **M.E.F.R**, 1936, pp. 166-297.
وقع نقاش كبير بين الكاثوليكيين والدوناتيين حول ظروف مصرعه كما سبقت الإشارة (أعلاه، ص 156 هـ 41). وقد أصبح المكان الذي لقي فيه مصرعه مكانا مقدسا يحج إليه الدوناتيون، ويسمى بـ«الصخرة الجديدة» : Petra Nova (شمال مدينة باتنة الحالية : Cayrel, op. cit., p. 138, n. I).

(25) دوناتيان من قرطاج، ألقي بالأول حيا في البحر، ومات الثاني (إسحاق) في السجن قبل أن يرمى به إلى البحر أيضا. خلد الدوناتيون ذكر هذين الشهيدين في كتاب «آلام ماكسيميانوس وإسحاق» سبقت الإشارة إليه (أعلاه، ص 203 هـ 5).

العقوبات الصارمة بكل من علقت به تهمة التعامل مع الدوارين أو التعاون معهم[26].

هذه أهم الأحداث التي وصلتنا عن طريق المصادر الدوناتية والكاثوليكية ــ المتعلقة بتلك الفترة ــ ومن الطبيعي أن تتضارب وجهتا نظر الطرفين في تقدير هذه الأحداث، وأن تتبادل الكنيستان التهم في تحمل مسؤوليتها. فالدوناتيون أصبحوا أكثر من أي وقت مضى يعتبرون كنيستهم «كنيسة الشهداء»[27] وكنيسة خصومهم «كنيسة المضطهِدين»[28]، أما الكاثوليكيون، فقد أرجعوا المسؤولية في ما وقع إلى تعنت الدوناتيين وعنف «دواريهم»[29]، وحاولوا تبرير استعمال الدولة للعنف ضد المنشقين وأصحاب البدع[30]، مذكرين الدوناتيين بأنهم سبقوهم في اللجوء إلى الإمبراطور قسطنطين (مرتين متعاقبتين في سنة 314)[31]، طالبين نصرته.

ولا يهمنا طبعا أن ندافع عن طرف ضد آخر أو أن نبرر عمل جانب ونحكم بسوء النية على الجانب الآخر. يهمنا فقط أن نحدد ما أمكن الدور الذي لعبه

---

(26) - Martroye, op. cit., pp. 69-71

(27) - C. Litt. Petil, II, XVII, 40; B.A. 30, p. 268-70

(28) - Gesta, III, 14; Ed. Lancel, S.C. n° 224, p. 990

(29) النص الأول في الملحق ص 267–274 : (Optat., III, 4 (C.S.E.L, 26, p. 81 -
«أراد دوناتوس الثاني ــ أسقف باغاي ــ إقامة العراقل للوحدة وإثارة المشاكل».
أغسطين : النص 9، في الملحق «... وكانت مقاومتهم (أي الدوناتيين) تلك لأوامر الإمبراطور من التعنت بحيث أن عنف الدوارين الشهير رجح الكفة لصالحهم...».

(30) أبطاتوس يخاطب بارمينيانوس الدوناتي (النص الأول).
- Optat., III, 4 (C.S.E.L, 26, p. 85).
«لقد قاومتم بكل الأشكال ولكن دون جدوى فأنتم الذين تصرفتم، وأنتم الذين لم تقبلوا عن طيب السلام الذي طلبه الله منكم».
ــ أغسطين : النص 3، ص 278 : Aug., Ps. C. Part. Donati, 151-152 -
«وحتى لو كان مكاريوس قد تجاوز الحدود التي حددتها الشريعة المسيحية، فحسبه في ذلك أنه كان ينفذ قانون العاهل (الإمبراطور) لصالح الوحدة».

(31) - Gesta, I, 18; Ed. Lancel, S.C, 195, p. 608
- Martroye, F., op, cit., p. 32 ss.

الدوارون في هذه الأحداث وبالتالي نوع العلاقات التي أصبحت تربطهم بالدوناتية وموقفهم من الكنيسة الدوناتية وقضيتها.

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن نار التمرد اشتعلت في نوميديا الجنوبية، وأن الشرارة انطلقت من مشارف مدينة باغاي حيث تدخل الجيش بالقوة لأول مرة ضد الدوناتيين(32). فماذا وقع بالضبط ؟

إن الفصل الرابع من الكتاب الثالث لأوبطاتوس يبقى المصدر الرئيسي، والوحيد الذي أورد حادث «باغاي» بشيء من التفصيل(33). ففي هذا الفصل يحاول أبطاتوس أن يرد على اتهام الدوناتيين للكاثوليك بأنهم كانوا السبب في وقوع تلك الأحداث، «بحيث أنهم طلبوا تدخل الجيش». ولتبريء ساحة الكاثوليك، فإنه رجع إلى «الحقائق التاريخية للاستدلال بها». وحسب أبطاتوس، فإن الأحداث مرت على الشكل التالي : إن مهمة «بولس» و«مكاريوس» كانت تتلخص في «القيام بتعداد الفقراء» و«توزيع الصدقات عليهم» من جهة، و«الحض على الرجوع إلى الوحدة الدينية» من جهة ثانية. «وعندما اقترب المبعوثان من مدينة باغاي، اعتزم أسقفها الدوناتي ــ المسمى دوناتوس ــ وهو عدو الوحدة الدينية ــ، عدم الرضوخ لهما ومقاومتهما. ثم بعث المنادين praecones إلى ضواحي المدينة وإلى كل الأسواق nundinae كي يستدعي الدوارين «المناضلين» circumcelliones agonisticos إلى التجمع في مكان عينه لهم. وهكذا، طلب عندئذ العون من أولئك (الدوارين) الذين كانت أعمالهم الجنونية تعتبر قبل قليل عند أولئك الأساقفة (الدوناتيين) أنفسهم كلهيب من الزندقة والكفر...».

وهكذا، فإن دوناتوس ــ أسقف باغاي ــ «قاد جمهرة ثائرة Furiosam turbam» من الدوارين ليواجه بها مبعوثي الإمبراطور، «صانعي الوحدة» Operarii unitatis. «وخوفا على الأموال التي كانا يحملانها لتوزيعها على الفقراء، فإنهما اضطرا إلى طلب الحماية من «الكونت»(34) سلفسطير Silvester وجنوده فلم يكن في نيتهما

(32) - Martroye, F., ibid, p. 47

(33) النص الكامل في الملحق.

- Optat., III, 4 (C.S.E.L, 26, p. 81 ss).

(34) كونت دوقية افريقيا يعينه الامبراطور ــ منذ قسطنطين ــ على رأس جيش «دوقية» افريقيا. =

الهجوم، ولكن الدفاع عن النفس في حالة تعرضهم لهجوم دوناتوس. وكان هذا الأخير قد «جمع حشدا كبيرا (من الدوارين) وادخر المؤن في كنيسته التي تحولت بذلك إلى مخزن عمومي للحبوب». وعند مشارف باغاي، انفصل عن الفرقة العسكرية المرافقة للبعثة بعض جنود الاستطلاع metatores المكلفين بتهيء المخيم لزملائهم. إلا أنهم «لم يلاقوا الاستقبال اللائق بمكانتهم، على عكس ما تقتضيه تعاليم الرسول[35] : أعطوا كل ذي حق حقه، التكريم لمن له التكريم، والجزية لمن له الجزية، والجباية لمن له الجباية...». وعلى مقربة من باغاي، هاجم الدوارون أولئك الفرسان «فجرح جنديان أو ثلاثة». «فلما رأى رفاقهم تلك الجروح، غضبوا وأرادوا أخذ الثأر من المعتدين. فانقضوا على الدوارين رغم ما حاوله رؤساؤهم (رؤساء الجنود) من نصحهم وتهدئتهم». وهكذا قتل «بعض الدوارين».

هكذا مرت الأحداث حسب رواية أبطاتوس. والواضح من كلام الكاتب أن الغرض من سردها هو إزالة التهمة عن الكاثوليك بمسؤولية تدخل الحامية العسكرية ضد دوناتوس البغائي ودواريه. فهو يرى أن المبعوثين الإمبراطوريين لم يطلبا حماية الفرقة العسكرية إلا بعدما علما استعدادات «دوناتوس» العدائية، ولم تهجم هذه الفرقة إلا بعد أن أصيب بعض أفرادها بالجروح، وزعماؤها حاولوا ما أمكن إقناع جنودهم بعدم الرد بالمثل على ضربات الدوارين. وأخيرا، فلم يتعد عدد القتلى من الدوارين بضعة أفراد.

ويمكن تجاوز هذه التبريرات التي يظهر بوضوح أن أبطاتوس ساقها «لضرورة المجادلة الكلامية» وللدفاع عن قضيته[36]، غير أن معطيات أخرى وردت في النص تفرض بعض الملاحظات والتساؤلات.

= يعوض والي «دوقية» (الفيكاريوس Vicarius) أو يعمل بجانبه لكنه تابع للإمبراطور. انظر أعلاه، ص 124، هـ 26.

(35) رسالة «بولس» إلى الرومان، 13، 7 : «فاعطوا الجميع حقوقهم. الجزية لمن له الجزية. والجباية لمن له الجباية. والخوف لمن له الخوف. والإكراه لمن له الإكراه».

(36) لا أرى من الضروري الرجوع إلى التعقيب على صحة ما جاء عند أبطاتوس أو مصادره، وتحيزه إلى طرف معين من النزاع. فقد سبق أن أبدينا تحفظاتنا حول النص بأكمله عند تحليل فقراته الخاصة بمعركة «محلة اكطافيوس»، أعلاه، ص 186 وما بعدها. وأيضا دراسة المصادر، ص 37.

فالملاحظ أن أبطاتوس حاول التقليل من أهمية حادث باغاي، مع أنه اعتبره منطلق عمليات الردع التي شملت الكنيسة الدوناتية في نوميديا خاصة، وافريقيا بصفة عامة.

فلا يتصور أن البعثة الإمبراطورية طلبت حماية «كونت» افريقيا وتدخل الجيش لو لم يكن هناك خطر داهم يحتم ذلك. وما وقع بباغاي كان بدون شك حادثا خطيرا، وإلا لما ظل ماثلا في الأذهان بعد مرور عشرين سنة، أي في التاريخ الذي كتب فيه أبطاتوس مؤلفه[37] بل بعد مرور أكثر من نصف قرن بما أن الحادث أثير في مناظرة قرطاج سنة 411[38]. فالراجح إذن أن عدد القتلى من الجانب الدوناتي كان يتعدى «بضعة دوارين»، وأن عدد الجرحى من الجنود كان أكثر من «اثنين أو ثلاثة»، على عكس ما ادعاه أبطاتوس. لذا، لا يبدو ــ على عكس ما اعتقدت Vannier ــ أن الكاتب الكاثوليكي «أعطى لقضية باغاي أهمية أكثر مما كان لها بالفعل»، وأن الأمر كان لا يتعدى «هجوم لصوص على قافلة، وهو شيء عادي في تلك الفترة المنحطة من تاريخ الإمبراطورية (في القرن الرابع)»[39]. بل من الراجح أن أبطاتوس قلل من أهمية الوقعة، ربما ليقلل من مسؤولية المبعوثين الإمبراطوريين، وبالتالي من مسؤولية حزبه، أي الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأحداث.

ومن جهة ثانية، فإن أبطاتوس وجه تهما دقيقة إلى أسقف باغاي، بحيث حمله مسؤولية أخذ المبادرة في مقاومة البعثة الإمبراطورية، وكذا تنظيم تلك المقاومة. أما الدوارون. فكانوا ــ على حد قوله ــ مجرد أداة طيعة بيد ذلك الأسقف الدوناتي، بحيث جمعهم في الوقت الذي أراد، و«في المكان الذي حدده لهم». والحال أن الدوارين كانوا قبل ذلك بأعوام قلائل مستقلين عن الهرم الكنسي وغير مكترثين للخلافات المذهبية، وعملياتهم كانت موجهة ضد الملاك والمرابين والأسياد. بل إنهم كانوا يرفضون إرشادات الأساقفة الدوناتيين، حتى إن هؤلاء

(37) عن تاريخ كتاب أبطاتوس، انظر أعلاه، ص 37.

(38) الإشارات المذكورة أعلاه، ص 203، هـ 7.

(39) - Vannier, O., op. cit., p. 25

طلبوا تدخل الجيش ضدهم، فكانت مجزرة «محلة أكطافا»[40].

وهذا ما فطن إليه أبطاتوس نفسه حيث قال : «وهكذا طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة أنفسهم يرون قبل قليل أن جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة»[41]. فهل وقع تغير في العلاقات بين الطرفين، وإن وقع فما هو السر في هذا التغير الطارىء ؟

ومن جهة ثالثة، فإن المبعوثين الإمبراطوريين «أخفيا مضمون مهمتهما» في بداية الأمر[42]، ورغم تحدي دوناتوس الأكبر ــ الجثليق الدوناتي بقرطاج ــ للمبعوثين حيث قال قولته الشهيرة : «ما شأن الإمبراطور والكنيسة ؟»[43]، فإن الرجلين لم يعترضا سبيل الدوناتيين و لم يغلقا لهم كنيسة، وذلك حسب الدوناتيين أنفسهم[44]. والراجح أيضا أنهما لم يجدا معارضة عنيفة ولا مقاومة مسلحة في إقليم «البروقنصلية»، بحيث لم يضطرا إلى طلب الحماية من الجيش حسب ما جاء عند أبطاتوس : «تقولون أننا ــ معشر الكاثوليك ــ طلبنا تدخل الجيش. فلماذا إذن لم ير جندي واحد في إقليم البروقنصلية ؟»[45]، وحتى لو شككنا هنا أيضا في نزاهة هذا الأخير، وافترضنا وقوع حوادث في إقليم البروقنصلية، فإن تلك الحوادث لم تكن على أي حال في مثل خطورة حوادث باغاي ونوميديا، وإلا لتركت صدى مماثلا في كتابات الدوناتيين أنفسهم، والحال أن هذه الكتابات لم تسجل سوى وقائع نوميديا[46].

وعلى هذا الأساس، فلماذا وقع ما وقع في نوميديا ولم يقع في البروقنصلية حيث مقر زعيم الكنيسة الدوناتية نفسه ؟ وهل يصح أن تتحمل الكنيسة الدوناتية برمتها مسؤولية تصرف أحد أساقفتها (أسقف باغاي) أو مجموعة من أساقفتها في

---

(40) أعلاه، ص 124–125 وص 196 وما بعدها.

(41) النص 1 في الملحق، Optat., III, 4; C.S.E.L, XXVI, p. 81 -

(42) أعلاه، ص 205.

(43) «Quid est imperatori cum ecclesia ?» Optat., III, 3, C.S.E.L, XXVI, p. 73 -

(44) أعلاه، ص 205، هـ 17.

(45) النص 1 في الملحق، Optat., III, 4 (C.S.E.L, 26, p. 81) -

(46) الكتابات الدوناتية الراجعة إلى هذه الفترة والتي وصلتنا هي عبارة عن كتابي آلام الشهداء الدوناتيين الذين سقطوا في هذا الاضطهاد (أعلاه، ص 203، هـ 5).

إقليم نوميديا ؟ وأخيرا، لماذا لم تبدأ عمليات العنف إلا عندما دخل الدوارون إلى حلبة الصراع ؟

لم يكن من قبيل الصدفة أن انطلقت أحداث العنف من نوميديا وعند مشارف باغاي بالذات. ذلك أن ظروفا خاصة جعلت من تلك المنطقة بالذات الإقليم المهيأ سلفا لوقوع مثل تلك الاصطدامات بين السلطة والسكان.

والمعروف أن نوميديا كانت مهد الدوناتية وقلعتها من أول الحركة إلى نهايتها[47] والأكيد أيضا أن الأرياف ظلت الحصن الحصين للكنيسة المضطهَدة[48]. فلا غرو أن تكون مقاومة هذا الإقليم لمهمة المبعوثين الإمبراطوريين قوية وعنيفة.

ومن جهة ثانية، يبدو من خلال ما رأيناه سابقا[49]، أن عمليات الدوارين الموجهة ضد المرابين والملاك والأسياد كانت هي الأخرى مركزة في نوميديا وبالضبط في جنوب تلك الولاية حوالي 340 (حركة «أكسيدو» و«فاسير»). وحتى في عهد أغسطين، ظلت منطقة باغاي حقلا رئيسيا لعمليات الدوارين[50]. لذا، فإن نوميديا تبدو وكأنها كانت نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية. وهذه النقطة في رأيي هي التي لم تبرز بصفة واضحة في الأبحاث السابقة عن الدوناتية[51].

---

(47) باعتراف المعاصرين أنفسهم كما سبقت الإشارة أعلاه، ص 195، هـ 115.

(48) النص 29 في الملحق، والنص 20.

(49) أعلاه، ص 127.

(50) النص 37 والنص 40. لم تكن الكنيسة الكاثوليكية ممثلة في مناظرة قرطاج بأي أسقف في باغاي.

- Lancel (S)., **Actes de la conférence de Carthage en 4II**, t. I. Introduction, S.C. n° 194, Paris, 1972, p. 160.

(51) لا أرى أن الأمر يتعلق أساسا بانتشار مغارس الزيتون في المنطقة، كما يعتقد طنكشتروم (أعلاه، ص 103—104) والراجح أن عدة عوامل تشابكت لتجعل من تلك المنطقة المجال المهيأ لقلاقل اجتماعية :

أ ــ منطقة كانت على الدوام تجذب الرحل وأشباه الرحل : في وقت الحصاد يعملون في الحقول وخلال الصيف يرعون ماشيتهم.

= - Despois (J.), La bordure saharienne de l'Algérie orientale, **R.A.**, 1942, p. 205.

لذا، فإن أعمال العنف المتعلقة بالمسألة الدوناتية لم تبدأ ــ أو على الأقل لم تأخذ طابعا خطيرا ــ إلا بعد دخول الدوارين إلى حلبة الصراع سنة 347، وفي المنطقة الجنوبية من نوميديا بالضبط.

لكن السؤال المطروح هو : من من العنصرين «الثوريين» اتخذ مبادرة التمرد سنة 347 ؟ أهم الأساقفة النوميديون (أسقف باغاي مثلا) الذين استاؤوا من تدخل الإمبراطور في شؤونهم، أم هم الدوارون الذين ربما اغتنموها فرصة لتبني قضية الدوناتية كتعبير ديني عن مطالبهم الاجتماعية، ولتصعيد نضالهم الاجتماعي ؟

لا يبدو أن الأساقفة الدوناتيين قد استساغوا تدخل الإمبراطور في ذلك الوقت في الشؤون الدينية لافريقيا، وإن كانوا قد قبلوا ذلك من قبل بل وسعوا إليه، طالما أنهم لم يتورعوا عن الاحتكام إلى الدولة منذ عهد قسطنطين كما سبقت الإشارة، وطالما أن دوناتوس الأكبر كان قبل هذه الأحداث بسنة واحدة (346) قد راسل قنسطنس ليعترف به كأسقف قرطاج الحق، وزعيم الكنيسة الافريقية، إثر وفاة خصمه الكاثوليكي «كايكيليانوس»[52]. ولكن الأساقفة الدوناتيين رفضوا بعثة الدولة إلى افريقيا لكونهم كانوا من غير شك يدركون تماما طبيعة هذا التدخل الذي رفع شعار التصالح و«بذل المساعي الحميدة» للتوسط بين الكنيستين المتنافستين، إلا أنه كان في الواقع تدخلا لصالح كنيسة بعينها، هي الكنيسة «الكاثوليكية» المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية والمتعاونة مع السلطة الرومانية. وربما كانت مهمة «بولس» و«مكاريوس» في المنطلق مهمة سلمية، وكان الغرض من هبات الإمبراطور إلى أساقفة الكنيستين ــ بدون تمييز ــ هو تهدئة الدوناتيين والتمهيد للرجوع إلى الوحدة الدينية والسلم الاجتماعية والسياسية في هذا

= ب ــ منطقة قبائل نزعت روما منها أراضيها (شعب المسلاميين Musulames الذي أبدى مقاومة صامدة منذ ثورة Tacfarinas. أعلاه، ص 68، هـ 45).

ت ــ منطقة الملكيات الكبرى حيث معظم السكان من المزارعين بالحصة أو من العمال المتنقلين وحيث كانت المدن أقل بكثير من البروقنصلية.

- Warmington, B.H., The North African provinces..., op. cit., p. 88.

ث ــ منطقة حدود حيث كان وجود الجيش يتطلب إتاوات إضافية لتموينه :

- Warmington (B.H)., ibid, p. 100.

(52) - Congar (Y.M.J)., B.A., 28, p. 715

الإقليم المهم من الإمبراطورية. غير أنه سرعان ما اتضح مدى تحيز المبعوثين إلى قضية الكنيسة الكاثوليكية. فبمجرد وصولهما إلى قرطاج، ذهبا إلى كنيسة «كَراتوس» Gratus — خلف كايكيليانوس —(53) للقيام بشعائرهما الدينية، وتجاهلا وجود دوناتوس. فكان من الطبيعي أن يفهم هذا الأخير أن قضيته قد حكم عليها مسبقا، ومن ثم رفض تدخل الإمبراطور (:«ما شأن الإمبراطور والكنيسة ؟»(54)) وحث أساقفته على رفض الهبات الإمبراطورية(55).

لذا، يمكن — نظريا — تبرير موقف الأساقفة الدوناتيين — ومن بينهم دوناتوس الباغائي — حيال البعثة الإمبراطورية، ذلك الموقف الذي — وإن وصل إلى حد رفض الهبات — لما كان من حيث المبدأ يتجاوز تعاليم رئيسهم في السلم الكنسي. غير أن ذلك الموقف المبدئي في حد ذاته لا يشكل سببا كافيا للقول بالتجاء الدوناتيين إلى العنف، على غرار ما ورد عند أبطاتوس. وهذا العنف — في رأيي — لم يكن ليتم لولا تدخل الدوارين «المناضلين» الذين «جابه» بهم الأسقف الدوناتي بولوس ومكاريوس، «صانعي الوحدة» كما يسميهما أبطاتوس. فالدوارون هم الذين قاموا بعملية الهجوم على فرسان الحامية العسكرية، وهم الذين انصب عليهم غضب الجنود فقتل منهم من قتل. وحتى لو صدقنا أن الأسقف هو الذي

---

(53) «كايكيليانوس» Caecilianus أسقف قرطاج الذي كان عدم الاتفاق على سيامته السبب المباشر لميلاد الانشقاق الدوناتي (312). كان إذن أول زعيم كاثوليكي على عهد الدوناتية، وبمواجهته، انتخب المنشقون «ماجورينوس» Majorinus الذي توفي بعد مدة قليلة فخلفه دوناتوس «الأكبر» الذي عُرف الانشقاق باسمه. توفي «كايكيليانوس» سنة 346. فخلفه «كَراتوس» على رأس أبرشية قرطاج والكنيسة الكاثوليكية.

(54) أعلاه، ص 211، هـ 43.

(55) - Monceaux (P)., H.L.A.C, IV, pp. 34 ss.
- Congar, Y.M.J., Introduction générale aux traités anti-donatistes, B.A. 28, p. 18 et note complémentaire, 5, p. 714.

يشير أغسطين إلى رفض الدوناتيين قائلا :
282 — عندما أرسلوا (الملوك) هداياهم لم تقبلوها.
283 — ناسين الرسل الذين تنبأوا في الماضي.
284 — بأن عظام ملوك الشعوب سوف يبعثون الهدايا إلى الكنيسة.
285 — رفضتم تلك العطاءات، ومن ثم فلستم مني (أي من الكنيسة).
286 — واضطررتم «مكاريوس» إلى الانتقام للشرور التي أصابته (على يدكم).
(النص 4 في الملحق). - Aug., Ps. C. Part. Donati, 282-86

جمعهم وحمسهم على القيام بهذا الهجوم، فإن العنصر الفعال في المقاومة كان يتمثل أساسا في الدوارين، بحيث لا يتحدث النص البتة عن دور سكان باغاي الذين كان من المفروض أن يشاركوا على الأقل في المقاومة التي نظمها أسقفهم.

وإذا كانت الأحداث تشير بقوة إلى الدوارين باعتبارهم العنصر الذي جابه بعنف تدخل البعثة الإمبراطورية، فمن الواضح أن هذا التدخل لم يأت بسبب رفض الإكليروس الدوناتي الإذعان لقانون قنسطنس، ولكن بسبب تمرد الدوارين.

فقد سبق أن رأينا أن الدوارين كانوا منذ حوالي 340 يقومون بأعمالهم التمردية تحت راية الدين وبقيادة «زعماء القديسين»، وذلك أحيانا ضد إرادة الأساقفة (أو بعض الأساقفة) أنفسهم[56]، لأن أعمال الدوارين كان من شأنها أن تؤلب الحكم ضد الكنيسة الدوناتية. وحسب أبطاتوس، فإن عدد الدوارين تزايد[57] رغم مجزرة «محلة أكطافا» (حوالي 340)، ربما لأنهم لم يتعرضوا لمضايقات جديدة من طرف السلطة[58]، أو ــ على الأرجح ــ لعجز السلطة عن مضايقتهم. ولا يصعب على المرء أن يتصور أن عمليات الدوارين «المناضلين» بزعامة «رؤساء القديسين»[59] تزايدت لتزايد عددهم، فأصبحوا بذلك يكونون خطرا كبيرا على الأمن في المناطق الجنوبية من نوميديا. وليس من المستبعد كما سنبحثه بعد قليل[60] أن يكون بعض رجال الدين الدوناتيين قد أبدوا نوعا من تعاطف مع الحركة التمردية لسبب أو لآخر. وأيا كان موقفهم من الدوارين، فإن تركز الحركة في المجال الحيوي للدوناتية (نوميديا الجنوبية) كان يقيم الدليل ــ لمن كان يبحث عن الدليل ــ على تبعية الدوارين للإكليروس الدوناتي وتحريض هذا الأخير للدوارين على التمرد.

والكاثوليكيون بطبيعة الحال هم الذين كانوا يبحثون عن هذا الدليل. لذا، لم

(56) أعلاه، ص 196 وما بعدها.

(57) - Optat., III, 4, C.S.E.L, 26, p. 83 : «Eorum postea Convalverat multitudo...»

(58) - Vannier, (O)., op. cit., p. 21

(59) على منوال «أكسيدو» و«فاسير» اللذين كانا يتزعمان بعض فرق الدوارين حوالي 340 (أعلاه، ص 120-121).

(60) أدناه، ص 223 وما بعدها.

يجدوا صعوبة في الحصول من قنسطنس على قانون جديد يؤكد حكم قسطنطين(61) ضد الدوناتية. ومن ثم كان وصول المبعوثين «بولس» و«مكاريوس» في مهمة «سرية»(62) تحت قناع «عد الفقراء» و«توزيع الصدقات عليهم» و«حث الكنيستين على الرجوع إلى الوحدة»(63)، ولكن كان هدفهم في الواقع هو سبر مدى صحة اتهامات الكاثوليك في حق الدوناتيين ومدى خطورة الأوضاع في افريقيا، وإلا فلماذا توجه المبعوثان توا إلى المناطق الجنوبية من نوميديا قبل أن يصعدا إلى المناطق الشمالية، بل قبل أن يتوجها إلى عاصمة الإقليم : قسنطينة ؟(64) إن توغلهما في تلك المنطقة التي لم تكن فقط قلعة الدوناتية ولكن أيضا مجال تمرد الدوارين(65) كان من شأنه أن يعطي للبعثة صبغة عملية تطهير «بوليسية» موجهة أساسا ضد أعمال عنف الدوارين. وفي هذا السياق ينبغي أن نتلقى بشيء من التحفظ ادعاء أبطاتوس بأن استعدادات الأسقف دوناتوس الباغائي هي التي حذت بالمبعوثين إلى طلب الحماية من «الكونت» «سلفسطير» وفرقته(66)، ويبدو من الأرجح أن المبعوثين كانا مصحوبين بالجنود منذ دخولهما إلى نوميديا(67)، لأن انعدام الأمن السائد في هذا الإقليم نتيجة عمل الدوارين كان يفرض عليهما أخذ الاحتياطات اللازمة : «فالطرق نفسها لم تكن آمنة» في عهد «أكسيدو» و«فاسير»(68). وأبطاتوس نفسه يميل إلى هذا التفسير، حين يقول

---

(61) - Martroye, (F)., La répression du Donatisme... op. cit., p. 45-46

(62) حسب أبطاتوس نفسه، أعلاه، ص 205.

(63) النص 1 في الملحق، ص 268 : - Optat., III, 4, C.S.E.L, XXVI, p. 81

«... لقد أتى بولس ومكاريوس لعد الفقراء وحثهم على الوحدة...».

نفس المصدر، ص 262 : - ibid, p. 83

«...وأمام هذه الوضعية الخطيرة، فإن حاملي الكنوز المخصصة للفقراء...».

(64) من المعلوم أن المبعوثين الرومانيين وصلا إلى قرطاج، ومن ثم كان بامكانهما التوجه مباشرة إلى قسنطينة عبر الطريق المارة بحوض المجردة (عبر «تاكست» : سوق أهراس).

(65) أعلاه، ص 206.

(66) النص الأول، ص 268 : «... فلم يكن في نيتهما الهجوم، ولكن الدفاع عن النفس في حالة تعرضهم لهجوم دوناتوس».

(67) - Vannier, O., Les circoncellions..., op. cit., p. 24
- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 354.

(68) النص 1 في الملحق، ص 269.
- Optat., III, 4, C.S.E.L, XXVI, p. 82.

نصا : «... وأمام هذه الوضعية الخطيرة، فإن حاملي الكنوز المخصصة للفقراء انتابهم الخوف، فارتأوا أن يلتمسوا من «الكونت» «سلفسطير» التدخل بالسلاح...»، قبل أن يضيف بأنهما «لم يكن في نيتهما الهجوم، ولكن الدفاع عن النفس (في حالة هجوم دوناتوس)»(69). وهذا ما يفهم أيضا من أحد نصوص أغسطين الذي يشير إلى أن الدوارين «بتمرداتهم الثورية والدموية كانوا يناوشون المبعوثين خطوة بخطوة خلال تحركهما عبر افريقيا»(70).

لا يهمنا الآن إذا كان مجرد قطع الطريق على البعثة المحملة بالأموال الوازع الأساسي لـ«مناوشة المبعوثين» واعتراض طريقهما عند مشارف باغاي(71)، ولكن يهمنا فقط أن نسجل أن تمرد الدوارين ربما كان السبب العميق في تدخل المبعوثين عسكريا في الجهات الجنوبية من نوميديا، وربما أيضا كان سببا في تدخل الإمبراطور نفسه في الشؤون الدينية لافريقيا بإيعاز من الكاثوليكيين. ونسجل أيضا أن هذا التدخل لم يتخذ طابع العنف بسبب «عصيان» الأساقفة لقانون الوحدة بقدر ما كان رد فعل السلطات على عنف الدوارين وتهديدهم للأمن في شمال الأوراس. ويتطابق هذا التفسير للأحداث مع سلوك البعثة الإمبراطورية، والعنف الذي طبع تصرف «مكاريوس» و«بولس» تجاه الدوارين والدوناتية على السواء.

وقد أوضح «مارطروا» F. Martroye(72) أن عمليات الردع التي قام بها المبعوثان الرومانيان جاءت من الناحية القانونية الصرفة كعقاب لتمرد باغاي، وأن ذلك تم طبقا للقانون العام الذي يعتبر المحرضين على التمرد والمترئسين له متهمين بالمس بأمن الدولة (majestas)، وأن المتواطئين معهم متهمون بممارسة الشغب العمومي. وجزاء الجريمة الأولى الإعدام، والعقوبة على الثانية الإعدام أو النفي(73). وهكذا لم يتعرض الأساقفة الدوناتيون لما تعرضوا له من نفي وحبس

---

(69) المصدر نفسه، النص 1 في الملحق، ص 268. - Optat, ibid, p. 83 -

(70) النص 9 في الملحق.

- Aug., C. Epist. Parmeniani, I, XI, I8; B.A. 28, pp. 254-256.

(71) سنرجع إلى هذه النقطة أدناه، ص 220–222.

(72) - Martroye, F., La répression du Donatisme..., op. cit., pp. 60-73

(73) الذي يعطي المصادر القانونية : Martroye, ibid, p. 70 - =

وإهانة وقتل[74] بسبب انتمائهم للمذهب الدوناتي (كما سيحدث بعد ذلك على عهد هنوريوس في سنتي 405 و412)، ولكن لكون السلطة اعتبرتهم «محرضين للدوارين أو متواطئين معهم» ومن ثم «ألحقت بهم العقوبات الصارمة وبكل من علقت به شبهة التعامل مع الدوارين»[75].

ويبدو بالفعل أن «بولس» و«مكاريوس» تجاوزا حدود مأموريتهما من الوجهة القانونية الصرفة[76]، وغاليا في التنكيل بالأساقفة الدوناتيين حسب شهادة الكاثوليكيين أنفسهم[77]. ومن غير شك أن «مكاريوس» برز «بصفة خاصة في عمليات القمع، لدرجة أن الدوناتيين كانوا يطلقون أحيانا على الكنيسة الكاثوليكية لقب «حزب مكاريوس» Pars Macarii[78]، وعلى تلك الفترة الاضطهادية : «أيام

= (ـــ عقوبة القتل بتهمة majestas بالنسبة للمحرضين والمترئسين :

- **Cod. Just.**, IX, VIII, 5.

ـــ جريمة الشغب العمومي :

- **Dig.**, XLVIII, VI, ad legam iuliam de vi publica, IO§1.

(74) انظر أعلاه، ص 206–207.

(75) - Martroye, ibid, p. 69

(76) الذي يعطي أمثلة على ذلك. - Martroye, ibid, p. 71-73 -

(77) مثلا: النص 3 في الملحق.

- Aug., Ps. C. Part. Donati, 151-154; 164-171; 188 et (B.A. 28, p. 171-177).

خاصة 151 : «وحتى لو تعدى «مكاريوس» حدود الشريعة المسيحية، و152 : فقد كان على أي حال ينفذ قانون عاهله بدفاعه عن الوحدة (الدينية)». (B.A. 28, p. 171)

لنلاحظ بصدد هذه الفقرة نظرة أغسطين إلى السلطة الزمنية (قانون العاهل) و«أسبقيتها» على العقيدة (الشريعة المسيحية).

والجدير بالملاحظة كذلك أن موقف أغسطين من «مكاريوس» كان متأرجحا بين التنديد (كما رأينا في هذا النص) والتحبيذ أو على الأقل التبرير. مثلا :

- C. Litt. Pet., II, XXXIX, 94 (B.A. 30, p. 357).

«M x Los» معناه «السعيد». نعم نحن من حزب مكاريوس !».

(78) مثلا، على لسان الأسقف الدوناتي «بتيليانوس» Petilianus.

- Aug., C. Litt. Petil., II, XXXIX, 92 (B.A. 30, p. 353).

«لا تمت القسوة إلى الطيبوبة بصلة، ولا الزندقة إلى الدين بعلاقة. لا يمكن أبدا أن يكون «حزب مكاريوس» حزبنا، لأنه يدنس شعائرنا بتقليده الماسخ لها...»، ورد أغسطين :

- ibid, II, XXXIX, 94 (B.A. 30, p. 355).

=

مكاريوس» tempora Macariana[79]. غير أن «غلظة» الرجل و«قسوته»[80] لا تفسران ذلك العنف البالغ الذي اتسمت به أعماله بقدر ما يفسره العنف الذي قوبل به، أي عنف الدوارين. يبدو إذن أن الأمور مرت في سنة 347 كما لو أن جرم الدوناتيين الرئيسي — في تقدير السلطة الرسمية — لم يكن يكمن في الانشقاق الديني بقدر ما كان يتجلى في تأليب عدد من السكان ضد تلك السلطة نفسها[81]. وبهذا المعنى، فإن المحرك الأساسي والعميق للأحداث لم يكن يتمثل — في نهاية المطاف — في الإكليروس الدوناتي — الذي ربما «تجاوزته الأحداث» إذ ذاك —[82]، ولكن في عنف الدوارين الذين كانوا يهددون الأمن في نوميديا باسم الدين («زعماء القديسين»، «المناضلين») وأحيانا ضد إرادة ذلك الإكليروس نفسه[83]. وعلى أي حال، يصعب فهم أحداث 347 — في إطار ما سبقها من أحداث وما تلاها من تطورات — إذا ما اعتمدنا رواية أبطاتوس وحدها، تلك الرواية التي تضع المسؤولية كلها على كاهل الأساقفة الدوناتيين وتجعل من الدوارين مجرد أداة طيعة بيدهم.

انطلاقا من هذه الملاحظات، يجدر بنا الآن أن نتناول بمزيد من الدقة طبيعة العلاقات بين حركتي الدوارين والدوناتية في سنة 347، قبيل أحداث باغاي وبعدها. فهل طرأ تغيير على هذه العلاقات منذ «سوء تفاهم» 340 أم أن أهداف الحركتين وطرق عملهما ظلت متباعدة ؟[84]. هل يمكن اعتبار ما وقع بنوميديا

ـــ «تنعتون بـ«حزب مكاريوس» العالم كله، الذي ينعم بوحدة الأواصر المسيحية... نحن نسميكم «حزب دوناتوس» وأنتم — كرد علينا — تبحثون عن شخصية تجعلون منا أتباعا لها...».

(79) - Gesta, I, 187; Ed. Lancel, S., S.C, n° 195, p. 830

(80) بعض الأعمال تركز على «نفسية» مكاريوس في تفسير صرامته وشدته. مثلا :

- Quinot, B., B.A. 30, note complémentaire 11 : «Marculus et Donatus, martyrs donatistes», p. 771-773.

(81) - Brisson, J.P., Autonomisme et Christianisme..., op. cit., p. 260

(82) حاول التملص من مسؤولية تمرد الدوارين باعطائه «الضوء الأخضر» للسلطة كي تتدخل ضدهم (أحداث «محلة أكطافا» سنة 340)، أعلاه، ص 197 وما بعدها.

(83) كما وقع سنة 340. (الهامش السابق).

(84) أعلاه، ص ص 198-201.

سنة 347 مؤشرا لتحالف بين الحركتين، أو أن تمرد الدوارين اتخذ فقط ـــ في تلك الظروف بالذات ـــ طابع الدفاع عن الدوناتية ضد تدخل السلطة ؟ وبتعبير آخر، ما هو الدافع من وراء هجوم الدوارين على البعثة الإمبراطورية ؟

لقد رأت Vannier أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بهجوم لصوص على قافلة، وهي ـــ في رأيها ـــ ظاهرة عادية في تلك الفترة المنحطة من تاريخ الامبراطورية[85]. لكن هذا الهجوم ـــ الذي كان أصلا بغرض الاستيلاء على الأموال التي كانت تحملها البعثة إلى الكنائس ـــ اتخذ طابع مقاومة دينية لمهمة «صانعي الوحدة» («بولس» و«مكاريوس»)، وبذلك ترى «فانيي» أن «اللصوص» خدموا قضية الدوناتيين ـــ نوعا ما ـــ «بدون شعور»[86]، فما كان من الأسقف الدوناتي إلا أن «بارك» عملهم وساندهم معنويا بدون أن يتدخل فعليا بالطريقة التي نسبها إليه أبطاتوس[87]. و«عندئذ فقط»، ربما انتبه دوناتوس (أسقف باغاي) إلى ما يمكن أن تجنيه الكنيسة المنشقة من فائدة بالتعاون مع الدوارين[88]. وهكذا ترى «فانيي» أن التحالف بين الدوارين والدوناتيين في باغاي تم بعد المعركة، وليس

(85) - Vannier, O., op. cit., p. 25

(86) - Vannier, O., ibid, p. 26

(87) - Vannier, O., ibid, p. 27

ويتفق معها «بريصون» في هذه النقطة :

- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit, p. 354.

(88) - Vannier, O., ibid, p. 26; Brisson, J.P., ibid, p. 354

يبدو أن رأي «بريصون» لم يكن قارا حول أحداث باغاي. فنجده في البداية يرفض أن تكون هذه الأحداث قد «ربطت وشائج التحالف بين الدوارين والدوناتيين» (ص 344)، لأن «انزلاق» حركة الدوارين «من ظاهرة اقتصادية إلى ظاهرة دينية» كان قد وقع «قبيل تدخل قسطنس ومنذ 340» (ص 350-351). إلا أن الكاتب يشكك في ذلك بعدئذ حيث يعتبر أن «لاشيء ـــ مع الأسف ـــ يسمح لنا بتأريخ نقطة انطلاق هذا التطور (الانزلاق من الاقتصادي إلى الديني) بكامل الدقة، علما بأنه كان مكتملا في عهد أغسطينوس... فهل نعتبر مع هذا الكاتب (أبطاتوس) أن حوادث 347 كانت المنعرج الحاسم لهذا التطور ؟ يبدو لنا أن هذا ـــ على الأقل ـــ هو الراجح» (ص 353). انظر في نفس الاتجاه، انتقاد Mandouze :

- Mandouze, A., Encore le Donatisme. Problèmes de Méthode posés par la thèse de J.P. Brisson, A.C, 1960, pp. 61-107 (p. 104).

قبلها كما ادعى أبطاتوس[89].

غير أن هذا التأويل — وإن كان يعترف بالدور الرئيسي الذي لعبه الدوارون في الأحداث — يرد حافز الدوارين إلى مجرد التلصص وقطع الطريق، الأمر الذي يتنافى مع ما نعرفه عن الحركة من تطلعات اجتماعية وأهداف مساواتية قبل أحداث باغاي[90] وبعدها[91]، وبالتالي فإنه يبقى — نوعاً ما — في مستوى نظرة أبطاتوس إلى الدوارين[92]. طبعا، ربما كانت كنوز «القافلة» تكون موارد إضافية لو استولى عليها الدوارون[93]، لكن تلك «القافلة» كانت في الواقع عبارة عن فرقة عسكرية بفرسانها وسلاحها، ولا يستطيع لصوص عاديون Latrones مهاجمتها بالإمكانات التي كانت متوفرة آنذاك. ولم يكن الدوارون — الذين لا يحملون إلا الهراوات —[94] ليعرضوا أنفسهم إلى متاعب وأخطار الهجوم على فرقة عسكرية مدججة بالسلاح، لمجرد السرقة. وأخيرا، فإن الدوارين — حسب أبطاتوس — لم يهاجموا القافلة نفسها، والتي كانت تحمل الكنوز، وإنما اعترضوا سبيل بعض الفرسان الذين سبقوا الفرقة إلى المدينة[95]، ومن ثم يبدو أن هناك حافزا آخر غير النهب — الذي لم يكن في العادة هدف الدوارين — هو الذي حدا بهم إلى مناوشة البعثة الرومانية.

ومن جهة ثانية، فإن تأويل Vannier لا يحل المشكل الرئيسي. فالسؤال المطروح هو تفسير «التحالف» بين الدوارين والدوناتيين في أحداث باغاي ونوميديا، سواء وقع هذا التحالف «قبل المعركة أو بعدها». لأن تلك الأحداث كانت أهم من أن تفسّر بصدفة «هجوم لصوص على قافلة». ويصعب أن نتصور

(89) - Vannier, O., op. cit, p. 26

(90) أعلاه، ص 121-123.

(91) أعلاه، ص 129-131.

(92) علما بأن أبطاتوس رغم ما وصف به الدوارين من نعوت محقرة لم يرد أعمالهم إلى مجرد التلصص ولم يعتبرهم على الأقل قطاع طرق بالمعنى العادي : Latrones.

(93) - Brisson, J.P., op. cit, p. 354 :
«En attaquant la mission impériale, ... on risquait de se procurer quelques ressources tout en manifestant sa volonté d'indépendance religieuse».

(94) أعلاه، ص 139.

(95) النص 1، (ص 269 في الملحق). - Optat., III, 4; C.S.E.L, XXVI, p. 84

أن دوناتوس — أو بعض زملائه — انتبهوا «فجأة» و«بعد الأحداث» إلى «ما يمكن أن تجنيه الكنيسة الدوناتية من تحالفها مع الدوارين». ولو لم يثبت لدى السلطات الرومانية بافريقيا وجود علاقة بين الدوارين والأساقفة النوميديين — أو بعضهم على الأصح — لما عاملوا أولئك الأساقفة بما عاملوهم به من عنف وتهديد وتنكيل[96]. وسواء صدقنا أبطاتوس بالحرف أو لم نصدقه، فإن دوناتوس أسقف باغاي «لعب دورا ما»[97] في الأحداث التي وقعت في ابرشيته، لأن موقفه «مبدئيا» كان موقفا معارضا للمبعوثين[98]. وفي اعتقادي أن دور دوناتوس كان يتعدى «صمته عن أعمال الدوارين ثم موافقته عليها بعد المعركة»[99]، وأنه ربما شارك فعليا بطريقة أو بأخرى في الأحداث. غير أني أعتقد أيضا — مع Vannier —[100] أن مثل هذا التعاون بين الدوارين والاكليروس الدوناتي كان محصورا في حالات معدودة وأوقات وأماكن معينة، وبالتالي فإنه لا يعبر بالضرورة عن موقف كبار الدوناتيين. فالثابت أن زعيمي الكنيسة الدوناتية : «دوناتوس» (313—355) و«بارمينيانوس» (363—391 أو 392) لم يتورطا في أي علاقة مع الدوارين[101]. ولا يبدو أن «باريميانوس» الزعيم الثالث (391/392 — 411 ؟)[102] كانت له علاقة مباشرة مع الدوارين رغم اعتماده على أبطاتوس التمكادي[103]. كما أن كبار الأساقفة في عهد أغسطين كانوا «يدعون» أنهم «لا يعرفون شيئا عن الدوارين»[104]، وهو ادعاء يمكن أن نفهم دوافعهم إليه، لأن

---

(96) أعلاه، ص 206—214.

(97) - Vannier, O., op. cit, p. 23

(98) أعلاه، ص 215.

(99) - Brisson, J.P., op. cit, p. 354

(100) - Vannier, O., idem (p. 23)

(101) - Vannier, O., p. 22

(102) لا نعرف شيئا عنه بعد 411. انظر :

- Lancel, S., **Actes de la Conférence de Carthage en 411,** t. I, S.C, n° 194, Paris, 1972, p. 277.

(103) اسقف تمكادي (Thamugadi) انظر أعلاه، ص 126، هـ 36.

(104) النص 7. أدناه، في الملحق.

أعمال الدوارين كانت تجلب الانتقاد والتنديد للكنيسة الدوناتية[105].

ولا يهمنا الآن إذا كان هذا مجرد ادعاء أو كان احتجاجا صادقا. المهم أن موقف الكنيسة الدوناتية «الرسمي» — إن صح التعبير —، أي موقف زعمائها وكبار أساقفتها لم يتغير كثيرا — من حيث المبدأ على الأقل —[106] تجاه تمرد الدوارين حتى بعد أن أصبح هؤلاء يمارسون أعمال العنف على أشخاص الكاثوليك وممتلكاتهم، أي حتى بعد أن اتخذ تمردهم مظهر حرب دينية ضد الكاثوليك.

غير أن هذا الموقف الرسمي لا ينبغي أن يحجب عن أعيننا وجود عدد من رجال الدين شمامسة وقساوسة، وحتى بعض الأساقفة الذين لم يتورعوا عن التعامل صراحة مع الدوارين، بل وأحيانا ترأسوا جماعاتهم[107].

ذلك أن طباعهم كانت قريبة جدا من طابع رعاياهم[108] خاصة في الأرياف، حيث كانوا يعيشون في نفس البيئة، وكانت الأبرشيات تقام أحيانا في أبسط القرى بل في المزارع والضيعات (Villae, Saltus, Fundi)[109]، لدرجة أن

(105) كانت قضية الدوارين «ورقة» مهمة في «استراتيجية» الكاثوليك الجدلية كما سبق أن رأينا (أعلاه، ص 185)، وكما سنرى أيضا في عهد أغسطين (أدناه، ص 244).

(106) أدناه، ص 242.

(107) مثل أولئك الاكليركيين الذين يتحدث عنهم أغسطين (أدناه، ص 239)، وربما أيضا أبطاتوس (التمكادي» (أعلاه، ص 126، هـ 36).

(108) الأمثلة متعددة. مثلا : «بوربوريوس» Purpurius، أسقف Limata الذي كان متهما بالفسق والفجور، بل وبقتل ابني أخته. وكان في مجمع دوناتي قد هدد بتحطيم رأس الأسقف «كايكيليانوس» ان هو جرؤ على القدوم إلى هذا المجمع للدفاع عن قضيته.

- **Aug., C. Cresc., III, XXVII, 30 (B.A. 31, p. 327).**
- **Aug., Brev. Coll., III, XV, 27 (B.A. 32, p. 201).**

(109) ومن ثم عددها الهائل في افريقيا، حوالي 600 حسب تقدير Chr. Courtois الذي أعاد النظر في لائحة الأبرشيات الواردة في مناظرة قرطاج (411)، وكذا في «لائحة الأقاليم والمدن الافريقية»، المعروفة بـ«لائحة 484».

- **«Notitia provinciarum et civitatum africae» (484).**
- **Courtois, Chr., les Vandales et l'Afrique..., op. cit, p. 110, n° 3, p. 111, n° 1 et p. 137.**

بينما — حسب نفس الكاتب — لم يكن عدد الأبرشيات يتعدى المائة في بلاد الغال، ونفس العدد تقريبا في مصر (**- Courtois, Chr., ibid, p. 137**).

الأسقف نفسه كان يظهر بمظهر قس أو راع بسيط، وأيضا لكونهم كانوا يختارون أحيانا من طرف الرعية نفسها(110).

وبالفعل، فقد كان هناك فرق كبير بين أساقفة المدن الكبرى الساحلية («قرطاج»، «هيبو») والأساقفة الذين كانوا على رأس الأبرشيات في القرى والأرياف داخل البلاد(111). فكان ممثلو القرى والضيع يذهبون إلى جثليق الإقليم، ويطلبون منه أن يرفع راعيهم إلى مرتبة أسقف ويجعل من بلدتهم ابرشية جديدة. ولم يكن «الاكليركيون (Clerici) الذين يعيشون في المدن يرغبون في الذهاب إلى تلك المناطق النائية، الشيء الذي كان يحتم على الجثليق أن يختار مرشحا في عين المكان(112). وبالتالي، فلم يكن من النادر أن يصبح أحد الفلاحين مكلفا بمهامه الدينية العليا في القرية أو في الضيعة. ونجد أمثلة في محضر مناظرة قرطاج لبعض الأساقفة الذين كانوا يجدون صعوبة في توقيع اللوائح، إذ كانت معرفتهم للغة اللاتينية معرفة ضئيلة(113). وكان صغار الكهنة في كثير من الأرياف ينحدرون أحيانا من أسر المزارعين بالحصة Coloni المرتبطين بالأرض وبالتالي، فقد كان عليهم أن يؤدوا الحصة إلى المالك الذي يعملون فوق أرضه. وكان بعضهم يرتقون أحيانا إلى منصب ديني أعلى فينتقلون إلى مكان آخر بقرار من الجثليق

(110) مثلا، انتخاب «سلفانوس» Silvanus على رأس أبرشية «قرطة» (قسنطينة) قبيل الانشقاق (305 أو 307) كما رأينا أعلاه، ص 173. والأمثلة متعددة : أغسطين نفسه هتف به الشعب ليكون كاهنا في كنيسة «هيبو» (Sermo. 355) وبتليانوس، الأسقف الدوناتي بالقسنطينة عينوه «رغما عنه»، حسب أغسطين :

- **Aug., Sermo ad Caesariensis Plebem, 8; B.A. 32, p. 443.**

إلخ... وكان الاختيار يقع في الغالب على أفراد لهم سمعة طيبة أو على أغنياء يمكن أن تستفيد الجماعة المسيحية من ثرائهم، كما وقع بالنسبة «لبنيانوس» Pinianus، زوج «القديسة ميلانيا» Melania الذي «تصارعت» حوله مدينتا «تاكست Thagaste و«هيبو ريجيوس» Hippo Regius، كل واحدة منهما تريد أن يصبح أسقفا لها.

(111) عن الأبرشيات الريفية، كما تبدو من خلال محضر مناظرة قرطاج، انظر :

- **Lancel, S., les Actes de le conférence de Carthage en 411, t. 1, introduction, S.C., t. 194, pp. 134-143.**

(112) - **Hamman, A.G., la Vie quotidienne en Afrique du Nord au temps de Saint-Augustin, Paris, Hachette, 1979, p. 270.**

(113) أسقف «زورا» Zura الكاثوليكي طلب من أحد زملائه أن يوقع في مكانه لأنه «يجهل الحروف» **- Gesta, I, 133 (éd. Lancel, S., S.C. n° 195, p. 750).**

(كبير أساقفة الإقليم)، ولكن هذا الأخير كان عليه أن يعوض المالك المعني عن فقدان المزارع الذي كان يعمل في أرضه والذي التحق بمهامه الجديدة[114].

فلا غرو إذن أن يكون هناك تقارب في التفكير بين الدهماء (ومن جملتها الدوارون) وبعض رجال الدين «الشعبيين» أو البسطاء في بعض الأرياف النوميدية. ولا يستبعد في هذا السياق أن يكون بعض الأساقفة قد أذعنوا لنوع من ضغط شعبي مارسته الجماهير المؤمنة في الأرياف، والتي كانت من غير شك تتعاطف مع أولئك «المصلحين الاجتماعيين» الذين نصبوا أنفسهم حماة للعبيد والمديونين والمظلومين[115]. ومن المحتمل أن هذه الجماهير ربما استاءت من الموقف الذي اتخذه بعض أساقفتها حيال الدوارين سنة 340[116]. وقد سبق أن سجلنا مؤشرا لهذا التعاطف بين الدوارين وبعض رجال الدين الدوناتيين في تصرف «كلاروس» ـــ كاهن «محلة سوبولوس» ـــ الذي «تردد» في تنفيذ تعاليم أسقفه القاضية بحرمان الدوارين من تشريف قتلاهم ودفنهم في الكنيسة (حوالي 340)[117]. وسوف تتكاثر الأمثلة لهذا التقارب في عهد أغسطين[118]. لذا، لا يستبعد أن يكون تعاطف أو تعاون من هذا القبيل قد وجد بين دواري 347 والأسقف الدوناتي

(114) - Hamman, A.G., op. cit., p. 285

(اعتمادا على : Reg. Eccl. Carth., C. 71; ED. E. Munier, p. 201).

(115) إن مثل هذا التعاطف يتجلى في كل الحركات الريفية المماثلة، حتى ولو كان أصحابها مجرد خارجين عن القانون (بل نظرا لخروجهم عن القانون)، شريطة أن لا يتعرض الفلاحون لسطو الثائرين ونهبهم من جهة، ومن جهة أخرى، أن يكون الفلاحون غير راضين على السلطة أو ممثليها. والأمثلة متعددة ابتداء من قطاع الطرق في البلدان المتوسطية (صقلية، كرسيكا) أو في امريكا اللاتينية (Cangeçeiros) إلى ثوار «ماوزيدنك» في الصين. عن ظاهرة قطع الطريق (banditisme) ودورها في المجتمعات الريفية، انظر Hobsbaum الذي يركز على صراع الطبقات :

- Hobsbaum, E.J., **Les bandits**, Paris, Maspéro, 1972.
- idem, **Les primitifs de la révolte dans l'Europe moderne**, Paris, Fayard, 1966, pp. 27-39.

وبمنظور آخر :

- Baechler, J., **Les phénomènes révolutionnaires**, Paris, P.U.F. 1970, p. 88-98.

(116) أعلاه، ص 196.

(117) أعلاه، ص 200.

(118) أدناه، ص 238-239.

باغاي وربما أيضا بعض زملائه النوميديين، إلا أن هذا التقارب — وإن كان يساعد على فهم بعض جوانب أحداث 347 — لا يكفي لتفسير موقف الدوارين من البعثة الرومانية. وبتعبير آخر، لا يبدو أن رواية أبطاتوس — التي تحمل الأساقفة الدوناتيين المسؤولية الكاملة والمباشرة في الأحداث — تفسر كل شيء، لأن أعمال الدوارين التمردية كانت موجودة قبل هذا التاريخ، ولأن الدوارين كانوا العنصر النشيط في المقاومة. كذلك، لا تفسر الدعاية الدوناتية — التي هدفت — حسب أبطاتوس — إثارة غضب السكان على مبعوثي الوحدة —[119] مبادرة الدوارين إلى حمل السلاح لو لم يكن لدى هؤلاء الأخيرين استعداد كاف للقيام بهذا العمل، ولو لم يكن يتماشى ونهجهم وأهدافهم. فلا حاجة هنا إلى التذكير بعجز الأساقفة الدوناتيين عن إقناع الدوارين بـ«الرجوع إلى الصواب في إطار الكنيسة»[120] حوالي 340.

إن وصول المبعوثين الرومانيين «صانعي الوحدة» مع فرقة من الجنود إلى نوميديا الجنوبية كان يحمل أكثر من معنى : فقد كان نذيرا لعهد جديد من الاضطهاد الديني، شبيه بالاضطهاد العنيف الذي عرفته المسيحية الافريقية — وخاصة في نوميديا —[121] في عهد ديقليديانوس (303–305)، كما اتخذ طابع حملة عسكرية رومانية ضد الأهالي[122] وعملية تطهير «بوليسية» ضد الدوارين[123]. ولاشك أن مختلف هذه المعطيات تظافرت وحذت بالدوارين إلى مناهضة السلطة،

(119) اعتمدت هذه الدعاية على ترويج خبر مفاده ان المبعوثين تلقيا الأوامر بوضع «صورة» في مذابح الكنائس لتكريمها. والواضح أن الدوناتيين كانوا يقصدون بهذه الدعاية تشبيه تدخل قسطنس باضطهاد ديقليديانوس الذي أرغم المسيحيون خلاله على السجود لصورة الأمبراطور وتقديم القرابين وإراقة الخمور تكريما له.

- **Optat., III, 12, C.S.E.L., XXVI, p. 100.**
- **Piganiol, A., l'Empire chrétien (325-395), Paris, P.U.F, 2e éd, 1972, p. 89.**

(120) أعلاه، ص 196.

(121) **- Congar, Y.M.J., B.A. 28, p. 11**

(122) من الملاحظ أن منطقة الأوراس ونوميديا الجنوبية ظلت عبر التاريخ منطقة مقاومة وتمرد على الأنماط الاقتصادية التي أدخلها المستعمر. بالنسبة للمعطيات الجغرافية وأثرها على التاريخ. يراجع على الخصوص مقال Despois :

- **Despois, J., la bordure Saharienne de l'Algérie orientale, R.A., 1946, pp. 197-219.**

(123) أعلاه، ص 216–217.

فكانوا يرون في مقاومتهم تلك حربا مقدسة، وأيضا حربا اجتماعية ضد الدائنين والملاك والأسياد الذين يشخصون الوجود الروماني[124]، لأن نفس سلطات القمع هي التي كانت تعترض سبيلهم. وكما أن السلطات الرومانية لم تكن تقيم فرقا واضحا بين التمرد الاجتماعي والتمرد الديني، فإن الدوارين لم يقيموا ــ من جهتهم ــ فرقا بين الاضطهاد الاجتماعي والاضطهاد الديني. ولا مراء في أن العامل الاجتماعي كان يلعب الدور الأساسي، لأن هؤلاء الدوارين لا يهاجمون الكنائس الكاثوليكية ولا يعترضون سبيل الأساقفة أو المؤمنين الكاثوليك، وليس هناك ما يؤكد، حتى نص أبطاتوس نفسه، أن الدوارين بهجومهم على البعثة الرومانية كانوا يقومون بحرب مذهبية ضد كنيسة بعينها أو لصالح كنيسة أخرى.

إننا نراهم لأول مرة يتدخلون في الصراع «الديني ــ السياسي»[125] بين الدوناتية والكاثوليكية، ولكن تدخلهم لم يكن دفاعا عن كنيسة دوناتوس ولا ضد الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان مناهضة للسلطة التي كانت تمثل جهاز القمع، وحامي الأوضاع العامة السائدة.

وإذا أمكن الحديث عن ظاهرة «انزلاق» تمرد الدوارين من الميدان الاجتماعي إلى الميدان الديني[126]، فإن هذا «الانزلاق» حدث مرتين :

أ ــ «انزلاق» المرة الأولى لا نملك عنه أي دليل صريح، لأن الدوارين منذ ظهورهم على مسرح الأحداث بهذه التسمية وبسماتهم التاريخية الأساسية (حوالي 340) كانوا ــ حسب أبطاتوس ــ يقومون بعملياتهم تحت رئاسة «زعماء القديسين» ويبحثون عن الاستشهاد»[127].

ب ــ «انزلاق» ثان يمكن أن نستشفه بعد تدخل قنسطنس وحوادث نوميديا. وربما كان أكثر أهمية من الأول، لأن اضطهاد بولس ومكاريوس وما نتج عنه

---

(124) انظر الفصل الأول، ص 68–69.

(125) أعتقد أن الصراع بين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دينيا صرفا، ولكنه كان سياسيا في عمقه، وإن كان من الصعب تحديد نسبة العناصر «السياسية» والعناصر «الدينية» في الدوناتية. (أعلاه، ص 26، هـ 20).

(126) أعلاه، ص 184–185.

(127) أعلاه، ص 182 (النص الأول في الملحق، ص 267–274).

من إضعاف الدوناتية وتثبيت أقدام الكنيسة الكاثوليكية «الرسمية» أعطى للصراع الديني أبعادا جديدة ووضوحا أكبر في أذهان الأفارقة، ومن بينهم الدوارون، فقد تزايد عدد الكنائس والأساقفة الكاثوليكيين تحت رعاية السلطة، وأصبح الوجود الكاثوليكي أمرا ملموسا في مختلف المناطق، حتى تلك التي كانت من قبل حصونا للدوناتية، ففي المجمع الكنسي الكاثوليكي الذي انعقد بقرطاج في سنة 348 برئاسة Gratus، افتتح هذا الأخير المجمع بالشكر لله على تدخل قنسطنس وإرساله مبعوثيه إلى افريقيا[128]، مما يبين أن الكاثوليك لم يحاولوا إخفاء فرحتهم وترحيبهم بتدخل الدولة إلى جانبهم. لقد تنفست كنيستهم الصعداء، بينما وُجهت إلى الكنيسة الدوناتية ضربة كادت أن تقضي عليها، لولا تبدل الظروف، وصعود «يوليانوس» إلى العرش (361–363)[129]. ومنذ ذلك الوقت أصبح واضحا للعيان أن مصالح الدولة الرومانية كانت تتطابق مع مصالح الكنيسة الكاثوليكية. ومنذ ذلك الوقت أيضا، أصبح من الجلي أن الحركة الدوناتية تمثل نوعا من معارضة تكتسي يوما بعد يوم طابع تمرد مسلح على النظام القائم.

عندئذ فقط يمكن أن نتصور أن الدوارين تبنوا قضية الدوناتية وتدخلوا في الصراع الديني ضد الكنيسة الرسمية. لذا، فإن التحالف ــ بهذا المعنى ــ بين الدوارين والدوناتيين لم يقع قبل أحداث نوميديا ــ كما ادعاه أبطاتوس ــ ولكن بعد ذلك[130].

(128) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 261

(129) نهج يوليانوس سياسة التسامح الديني مع مختلف المعتقدات التي كانت موجودة في الأمبراطورية، فاصدر قانونا في هذا الغرض في الأيام الأخيرة من سنة 361 / أو في بداية 362. فأرسل الأساقفة الدوناتيون يطلبون منه تطبيق هذا التسامح على كنيستهم. عندئذ، رجعوا من منفاهم واسترجعوا بالقوة كنائسهم المصادرة سنة 347، والتي كان الكاثوليك قد استولوا عليها.

- Martroye, F., La répression du donatisme et La politique religieuse de Constantin et de ses Successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., t. 73, 1914, p. 75.

(130) - Vannier, O., op. cit., p. 26

عن رأي «بريصون»، انظر الملاحظة أعلاه، ص 220، هـ 88.

كذلك، لا يبدو أن هذا التحالف كان ناتجا عن مبادرة الإكليروس الدوناتي بل فرضته ظروف نوميديا الخاصة، حيث التقاء التمرد الديني والاجتماعي والسياسي، وحيث فرض الدوارون نوعا ما طريقة عملهم (العنف) على الكنيسة المنشقة ـــ ربما بتشجيع من بعض رجالها ـــ، فاعطوا بذلك نفسا واتجاها جديدين «للقضية الدوناتية».

الفصل السابع
الدوارون والدوناتية
ثالثا : بعد سنة 347

أشرنا منذ البداية إلى أن الكتاب الكاثوليك كانوا يدمجون الدوارين في حركة الانشقاق الدوناتي إدماجا يصعب معه أحيانا الفصل بين الحركتين، وخاصة عند أغسطين[1]. غير أن بحثنا للعلاقات بين الدوارين والدوناتيين في الفترة السابقة لم يمكنا فقط من إبداء التحفظات حول موضوعية هؤلاء الكتاب ــ وخاصة أبطاتوس الذي كان يهمنا مباشرة في كتابه الثالث ــ لكن أيضا ساعدنا على إبراز التباين بين الحركتين في طرق العمل والتنظيم والأهداف، وجعلنا نستشف أن الدافع الحقيقي لبداية التعاون بين الحركتين كان من غير شك مواجهتهما لعدو مشترك يتمثل في السلطة الرسمية القامعة[2]. لذا، فإن المجال كان مهيأ لتلقي أحكام الكتاب الكاثوليكيين بمزيد من الحذر والتمحيص وخاصة في الفترة التي نتناولها الآن، أي ما بعد 347.

ولنشر من البداية إلى أن المصدر الرئيسي ــ إن لم نقل الوحيد ــ[3] هو

(1) أعلاه، ص 30 وص 171.

(2) أعلاه، ص 226 وما بعدها.

(3) هناك بالإضافة إلى أغسطين :

أ ــ تقارير مناظرة قرطاج (411م) :

- **Lancel, S., Actes de la conférence de carthage en 411, S.C., n° 194, 195 et 224, Paris, 1972-75.**

ولكن المتناظرين لم يتعرضوا إلا نادرا للدوارين (انظر الملحق الخاص بالنصوص وما بعدها).

ب ــ هناك أيضا ابطاتوس ولكن لفترة ما قبل 366 فقط (تاريخ صدور كتابه).

ج ــ أما الكتاب اللاحقون (Isidore, Beatus ,...)، فإنهم لم يشيروا إلا عابرا إلى الدوارين، مكتفين بالنقل عن أبطاتوس وأغسطين خاصة، ولا يمكن الاعتماد عليهم فيما نحن بصدده في هذا الفصل.

أغسطين. ذلك أن أقدم إشارات أغسطين ضد الدوناتية ترجع إلى حوالي 392 وآخرها يرجع إلى حوالي 428–429 قبيل وفاة أغسطين مباشرة. وخلال هذه الفترة الممتدة على ما يقرب من أربعين سنة، لم يفتأ الكاتب الكاثوليكي يصف تصرفات الدوارين ويندد بأعمالهم. لكن كتاباته تدخل في إطار الجدل الكلامي مع الدوناتيين، ولم يتناول الدوارين إلا عرضا ـــ وفي هذا الإطار بالضبط[4]. ورغم كثافة هذه الكتابات، فإن إشارات أغسطين إلى الدوارين تمتاز بتشابهها الكبير مع بعضها البعض، وتبدو مقولبة على نفس الشكل[5]. على أن عناصر «جديدة» تبرز من حين لآخر في هذه الإشارات، يمكن أن نستشف من خلالها نوعية العلاقات بين الدوارين والدوناتيين في هذه الفترة، وتطور هذه العلاقات بالمقارنة مع الفترة السابقة.

ويبدو لأول وهلة ـــ عند قراءة أغسطين ـــ أن حركة الدوارين أصبحت ملتحمة بالانشقاق الدوناتي وجزءا لا يتجزأ منه. فنراه يخلط بينهما في أكثر من فقرة. فيخاطب الدوناتيين وكأنه يقصد الدوارين[6]، ويعمم على الدوناتيين في بعض الفقرات تلك التصرفات التي ينسبها على سبيل الحصر إلى الدوارين في فقرات أخرى، كالانتحار طمعا في الحصول على الشهادة[7] (Martyre)، واستعمال وسائل التعذيب (طمس عيون الضحايا بالجير والخل)[8]، استعمال العصي[9]، إلخ... وعلى العموم، فإنه عندما يخاطب الدوناتيين يعدد في لائحة واحدة «جرائم» متنوعة كإعادة تعميد المسيحيين الذين دخلوا إلى الدوناتية[10]،

(4) انظر «دراسة المصادر»، ص 42–43.

(5) انظر الملحق الخاص بالنصوص (خاصة ص 279).

(6) مثلاً النص 23 ص 305–306 «آه لو استطعنا أن نصل إلى اتفاق معكم (يخاطب : Petilianus وزملاءه الأساقفة) بأن تلتزموا على الأقل بتطبيق القانون القديم : «العين بالعين، والسن بالسن»، وان لا ترفعوا عصيكم لمجرد كلمة تسمعونها منا». والمعروف أن الدوارين هم الذين اشتهروا باستخدام العصي في غاراتهم. (أعلاه ص 136). كذلك مخاطبا نفس الأساقفة : «أين شجاعتكم كدوارين ؟» (النص 24 في الملحق).

(7) النص 47 في الملحق.

(8) النص 39 ص في الملحق.

(9) النص 23 في الملحق.

(10) انظر أعلاه، ص 199، هـ 132.

وكالانشقاق والمرطقة ـــ وهي «جرائم» واضح أنها من عمل الإكليروس الدوناتي ـــ، وأيضا جرائم تدخل أكثر في «اختصاص» الدوارين كالقتل والتعذيب والنهب والتلصص[11].

والملاحظ في هذا الصدد أنه يؤكد على دوناتية الدوارين في بعض الفقرات معبرا عنهم بـ«الدوارين الدوناتيين»[12] أو بـ«دواريكم» (مخاطبا الدوناتيين)[13]، أو بـ«عصاباتكم»[14] أو بـ«دواري الدوناتيين»[15]، لكنه في الغالب يكتفي بالتعميم، فيقول «ذويكم» (uestri)[16]، ويقصد تارة رجال الدين الدوناتيين[17] وتارة الدوناتيين بصفة عامة، بما فيهم الدوارون[18].

وحسب أغسطين فإن الدوارين كانوا يشكلون رؤوس رماح الدوناتية وعساكرها، تهاجم بهم رجال الدين الكاثوليكيين وكنائسهم. فنراه يخاطب الدوناتي «كرسكونيوس» Cresconius حوالي 405–406 قائلا : «... بينما نعاني في كل يوم من الشرور المهولة التي يقوم بها «كهنتكم ودواروكم» وهي أدهى وأمر من شرور كل اللصوص والنهابين. إنهم يتوفرون على أسلحة مهولة ومن كل نوع، وتسكعهم الرهيب لا يزعج راحة الكنيسة وسلامها فحسب، ولكن راحة وسلام البشرية جمعاء. خلال هجماتهم الليلية، يجتاحون بيوت الكهنة الكاثوليك ويتركونها خاوية على عروشها، ويقبضون على الكهنة ويشبعونهم ضربا بالعصي ويجرحونهم ضربا بالسيف ثم يتركونهم بين الحياة والموت. ويضيفون نوعا غريبا من التعذيب لم يسمع به من قبل. ذلك أنهم يسكبون خليطا من الجير والخل ويولجونه في عيون ضحاياهم، فبدل اقتلاع عيونهم دفعة واحدة يفضلون تعذيبهم

(11) النص 51 في الملحق.

(12) النص 7 في الملحق.

(13) النص 28 والنص 21 في الملحق.

(14) النص 23 في الملحق.

(15) النص 52 في الملحق.

(16) النص 3 في الملحق «أن رجلنا (مكاريوس) أصبح في عداد الماضين، أما ذووكم فلم يتوقفوا بعد (عن مهاجمتنا)».

(17) النص 36، والنص 41 في الملحق.

(18) النص 33 في الملحق.

بيطء. وكانوا أول الأمر يستعملون الجير فقط، ولكنهم أضافوا إليه الخل بعد ذلك، عندما علموا أن ضحاياهم كانوا يشفون بسرعة»[19].

يبدو إذن أن الدوارين أصبحوا يهاجمون رجال الدين الكاثوليك ويمارسون عليهم شتى أنواع التعذيب. وإذا ما صدقنا أغسطين فإن الدوارين كانوا لا يعترضون سبيل رجال الدين الصغار فقط ولكن أيضا بعض الأساقفة. ففي حوالي 303–304، تعرض Servus أسقف Thubursicum-Bure[20] و Maximianus أسقف باغاي[21] لمحاولة اغتيال من طرف عصابات مسلحة بقيادة «اكليركيين» (صغار الكهنة) دوناتيين.

وعندما ذهبا إلى البلاط الإمبراطوري قصد إظهار جروحهما كي يعاينها الإمبراطور هنوريوس شخصيا، التقيا هناك بعدد من الأساقفة الأفارقة الكاثوليك الذين تعرضوا هم أيضا لاعتداءات مماثلة على يد عصابات دوناتية أخرى.

ويختم أغسطين حديثه عن مكسميانوس أسقف باغاي قائلا : «... وهناك (في إيطاليا) وجد (مكسميانوس) زميله أسقف Thubursicum-Bure الذي تحدثت عنه سابقا، وعددا كبيرا من الأساقفة الآخرين ضحايا اعتداءات شبيهة أو تكاد تكون في مثل عنفها. واتضح أنه لم يعد بإمكانهم الرجوع إلى ديارهم. وبعدئذ فإن الجنون الذي عرف به دواروكم ــ الذين كانوا يشكلون سندا رهيبا لاكليركييكم ــ اكتسب شهرة بغيضة في كل مكان. ومن ثم اللاشعبية الكبيرة التي أحاطت بكم، ومن ثم أيضا إحياء كل القوانين القديمة ضدكم وإصدار هذه القوانين الجديدة»[22].

والواقع أن «هنوريوس» لم يلبث أن أصدر مجموعة من القوانين والإجراءات ضد الدوناتية في السنة التالية (فبراير 405)[23] : خاصة وأن المجمع الكاثوليكي

(19) النص 31 في الملحق. يقارن كذلك مع النص 40 في الملحق.

(20) قريبا من طبرسق بتونس.

(21) قصر باغاي، قريبا من خنشلة في الجزائر. عن باغاي، انظر أعلاه، ص 120، هـ 9.

(22) النص 31 في الملحق.

(23) صدرت مجموعة من القوانين نجدها كلها بتاريخ 12 فبراير 405 في «جامع قوانين ثيدوسيوس».

=

المنعقد بقرطاج في شهر يونيو 404 قرر إرسال مبعوثين إلى البلاط الإمبراطوري لتسليمه طلبا بالتدخل بالقوة ضد الدوناتيين[24].

ويخاطب أغسطين الدوناتيين حوالي 411–412 بعد مناظرة قرطاج قائلا : «إنكم أنتم أيضا على بينة من كل الويلات التي يعاني منها ذوونا بسبب الجنون المسعور لإكليركيي ودواري حزب دوناتوس : فهناك كنائس أحرقت وأشخاص انتزعوا قسرا من بيوتهم التي نهبت أو هدم كل ما كان موجودا بها، وهم أنفسهم أشبعوا ضربا وتمزيقا وطمست عيونهم بل تجاوز المعتدون ذلك ولم يترددوا في قتل ضحاياهم : حقا ان انتزاع نور الحياة من رجل محتضر لهو أقل قسوة من انتزاع نور البصر من رجل على قيد الحياة...»[25].

وحسب أغسطين، فإن الدوارين كانوا أداة طيعة بيد الدوناتيين. فهو لا يرى في تزايد عمليات الدوارين في السنين السابقة، على صدور قوانين هنوريوس (405) إلا رد فعل الدوناتيين ضد تهجم الكاثوليك عليهم بصدد انشقاق المكسميانيين[26]. وهكذا، يرد على الدوناتي «كريسكونيوس» Cresconius

---

= - **Cod. Theod.**, XVI, 5, 38; XVI, 6, 3-4-5; XVI, 2.

وأهمية تلك القوانين تتجلى في كونها تعتبر الدوناتية هرطقة لأول مرة، وليس مجرد انشقاق كما كانت تعتبر من قبل :

- De Veer, A.C., dans **B.A.**, 31, note Complémentaire, n° 36, p. 813.

(24) اجتمع هذا المجمع الكاثوليكي بقرطاج في 16 يونيو 404 لبحث الوسائل القمينة بمواجهة عنف الدوناتيين (النص 53 في الملحق)، وأرسل مبعوثين إلى بلاط الإمبراطور هنوريوس في هذا الموضوع، هما الأسقفان : Theasius و Evodius.

- (**Cod. can. Eccl. Afr.**, 93, Mansi, III, 794-798; De Veer, A.C, **B.A**, 28, p. 812).

والملاحظ أن أغسطين لم يشر إلى مهمة هذين المبعوثين، وإنما ركز على شكوى الأساقفة الكاثوليكيين ضحايا عنف الدوارين.

- De Veer, A.C., ibid, p. 812-813.

(25) النص 41 في الملحق، كذلك النص 40.

(26) هو أهم انشقاق عرفته الدوناتية. اندلع بصورة مفاجئة في قرطاج عند نهاية سنة 392، ومن قرطاج انتشر في معظم الأقاليم الشرقية، وخاصة في إقليم «بيزاكينا» Byzacena (المزاق). تزعم هذا الانشقاق أحد شمامسة الزعيم الدوناتي «بريميانوس» Primianus آنذاك. وتبادل الرجلان قرارات الحرم (Excommunication) في مجامع عقدها كل زعيم مع أنصاره (مجمع «كابارسوسا» Cabarsussa سنة 393 قرر فيه المكسميانيون حرم بريميانوس وخلعه، مجمع =

(حوالي 405-406) قائلا : «عندما سمعنا نبأ قبول ذويكم لرجوع المكسميانيين

= «باغاي» سنة 394 : أدان فيه البريميانيون مكسميانوس وزملاءه). لجأ الفريقان إلى السلطة لانتزاع ممتلكات الكنيسة من الفريق الآخر، وتدخل «البريميانيون» بالقوة أحيانا لاسترجاع تلك الممتلكات من المكسميانيين. ولما انتصر البريميانيون سنة 397، قرروا العفو عن بعض الأساقفة المكسميانيين، وارجعوهم إلى حظيرة الكنيسة الدوناتية «الأرثدكسية» (أي خط «بريميانوس»). ومع ذلك، لم يمت الانشقاق المكسمياني، ولكنه ضعف كثيرا وأصبح محصورا في إقليم بيزاكينا.

- Monceaux, P., H.L.A.C., t. IV, pp. 57-62, 129-132.
- Brisson, J.P., Autonomisme et Christianisme..., op. cit., pp. 223-230.
- Congar, Y.M.J., note complémentaire 15, B.A., 28, pp. 724-725.

الانشقاقات الأخرى التي عرفتها الدوناتية «الأرثذكسية» عديدة إذا ما صدقنا أغسطين : «... انقسم الدوناتيون إلى ما لا نهاية، وأصبحوا هشيما من الفرق في افريقيا وحدها».

- Aug., C. Ep. Parm, XVIII, 37 (= B.A. 28, p. 373).

ولكننا لا نعرف إلا القليل عن بعضها. وأهم هذه الانشقاقات :

1 — أول انشقاق اندلع في موريطانيا القيصرية، وقاده Rogatus أسقف Cartennae (تنس غرب مدينة الجزائر) ما بين 362 و372 (منذ 363 حسب «مونصو» :

- Monceaux, P., R.H.R., t. 63, 1911, p. 187, n° 7.

لكن هذا الانشقاق ظل محصورا في أبرشية «كارطانا» والابرشيات المجاورة. وقد عانى «الروكاتيون» من رد فعل الخط «الارثذكسي» (الذي كان يتزعمه آنذاك «بارمينيانوس») الذي استغل ثورة الزعيم الافريقي فيرموس (372-375) لمحاولة القضاء عليهم. اختفت «الروكاتية» شيئا فشيئا، وآخر إشارة إليها عند أغسطين ترجع إلى حوالي 420.

(Monceaux, P., ibid, p. 188).

2 — انشقاق «كلاوديانوس» Claudianus حوالي سنة 380 في قرطاج. ربما كان «كلاوديانوس» هذا هو الأسقف الدوناتي بمدينة روما، الذي وقع في سوء تفاهم مع البابا «دماسوس» Damasus (366-384)، ثم مع «بارمينيانوس» في قرطاج. لم يتعد هذا الانشقاق مدينة قرطاج — على ما يبدو —، ولم يستمر إلا بضعة أعوام، بحيث التحق بالخط الدوناتي «الارثذكسي» في سنة 392. Monceaux, P., ibid, p. 189 -

3 — انشقاق «الاربانيين» Urbanenses في أحد أقاليم نوميديا. لا نملك عنه إلا إشارة واحدة عند أغسطين : (Aug., C. Cresc, LX, 73 (B.A. 31, p. 621 -

«... والاربانيين في ناحية من نواحي نوميديا، وغيرهم...».

4 — انشقاق «الارزوج» Arzuges في جنوب «بيزاكينا» Byzacena غير معروف أيضا.

- Monceaux, P., ibid, p. 189.

5 — يرى «مونصو» أن إحدى الفرق الدوناتية ربما كانت تلك التي يتحدث عنها نقش جنزي عثر عليه قريبا من مدينة صطيف بالجزائر (C.I.L. VIII, n° 8650)، والذي يرجع إلى بداية القرن الخامس. وهذا النقش كان لشخصين ينتميان إلى «فرقة تريكاريوس» Pars Trigarii.

- Monceaux, P., ibid, p. 191.

(إلى حظيرة الدوناتية)، وكانوا قد أدانوهم من قبل، فإننا نشرنا الخبر في كل الأرجاء[27] وبكل ما أوتينا من قوة. فلم يجد ذووكم أي جواب على أحداث قريبة العهد، واضحة وضوح الشمس، لذا، فإنهم أصبحوا يلجأون أكثر فأكثر، وبوقاحة متزايدة، إلى عنف الدوارين وعصاباتهم المجنونة، فبدأوا يستعملون الإرهاب ليحولوا بيننا وبين نشر الحقيقة الكاثوليكية ويمنعونا من اخزائهم وإظهار مغالطاتهم»[28].

وقد عجز الكاثوليك في محاولة إقناع الدوارين بالتوقف عن هذه الأعمال الخارجة عن القانون[29]، وتوجه إليهم أغسطين بالخطاب مباشرة، ولكن بدون نتيجة : «لكن من أخاطب، ومتى أخاطب ؟ إنني لا أجد وقتا ملائما للخطاب، حتى في الصباح، تجدهم (أي الدوارين) مخمرين، سكروا أو لازالوا سكرانين...»[30]. ومن ثم، فإنه يحمل الأساقفة الدوناتيين كل المسؤولية في عنف

---

(27) اعتمدت الدعاية الكاثوليكية على محاولة إظهار التشابه الموجود بين الانشقاق المكسمياني (سنة 392) والانشقاق الدوناتي قبله بثمانين سنة. ويمكن تلخيص تلك الدعاية كما تظهر عند أغسطين في عدة كتابات (مثلا : **C. Cresc., III, XV, 18, XXV, 28, B.A., 31, pp. 301-323**) كما يلي :

1 ـــ الدوناتيون «البريميانيون» نددوا بانشقاق «مكسيميانوس». فلماذا لا يقبلون هم أنفسهم الرجوع إلى الوحدة مع الكاثوليك الذين انشقوا عنهم ؟.

2 ـــ الدوناتيون لجأوا إلى السلطة، واستعملوا أحيانا عنف «عصاباتهم» ضد المكسيميانيين لاسترجاع ممتلكات كنيستهم. فلماذا يعيبون نفس التصرف الذي فعله الكاثوليك معهم، ويتهمونهم باضطهادهم ؟

3 ـــ الدوناتيون قبلوا رجوع الأساقفة المكسميانيين إلى حظيرتهم وبدون أن يعيدوا تعميدهم، وذلك على عكس المبدأ الدوناتي الذي يفرض إعادة تعميد المنشقين والهرطقيين، باعتبار أن التعميد الأصلي كان مدنسا. فلماذا يعيدون تعميد الكاثوليك الداخلين إلى مذهبهم ؟.

(28) النص 31 في الملحق.

- Aug., C. Cresc, III, XLV, 49 (B.A. 31, pp. 369-71).

(29) النص 22 في الملحق : «آه لو هادنتنا عصيكم !...» كذلك النص 23 في الملحق : «آه لو استطعنا أن نصل إلى اتفاق معكم...».

(30) النص 22 (الملحق) كذلك النص 35 (الملحق) : «... هذه المخلوقات (الدوارين والاكليركيين الدوناتيين) الفظة والبلهاء التي لا تفهم ولا تحتمل ما ننصحها به لخلاصها...».

الدوارين لأنهم يملكون ــ حسب قوله ــ القدرة على التأثير عليهم وصدهم عن الأعمال الشائنة[31]. أليسوا «أسياد»[32] الدوارين و«زعماءهم»[33] ؟ ألم يتخذوا منهم «عصاباتهم الشخصية» التي كانت «تقترف باسمهم يوميا وفي كل مكان» أشنع الجرائم ؟[34].

يتضح إذن أن لا فرق ــ في نظر أغسطين وزملائه الكاثوليكيين ــ بين حركتي الدوارين والدوناتيين فلم تكن إلا حركة واحدة هي الانشقاق الدوناتي. أما ذنب الدوارين الرئيسي، فهو أنهم كانوا يعملون تحت كنف الدوناتية ويمنعون بالقوة إخوانهم في المذهب من الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية[35]، وبالتالي فإن الإكليروس المنشق يتحمل مسؤولية تصرفاتهم، خاصة أعمال العنف الموجهة ضد الكنائس والأساقفة الكاثوليكيين.

إلى أي حد ينبغي أن نصدق أغسطين وزملاءه عندما يؤكدون أن تمرد الدوارين كان جزءا لا يتجزأ من الحركة الدينية الدوناتية ؟ هل حقا تخلى الدوارون عن برنامجهم الاجتماعي القديم و«انزلقوا» كليا إلى المطالبة الدينية ؟[36] هل ضيعوا حريتهم في العمل وأصبحوا تابعين لرجال الدين الدوناتيين تبعية تامة ؟

إن نصوص أغسطين ــ وإن كانت متشابهة كما أشرنا ــ لا تخلو من التناقض، أو على الأقل من التردد. ولنبدأ بمشكلة تبعية الدوارين للأساقفة الدوناتيين. إن تردد أغسطينوس في هذه القضية جدير بالانتباه. فنراه تارة يجعل من الدوناتيين «أسياد» أو «زعماء» الدوارين[37]، وتارة يفهم من كلامه أن الدوارين احتفظوا بنوع من الاستقلال في التنظيم والحرية في العمل. ويتبادر إلى الذهن ــ في الحالة الأولى ــ أنه لم يقصد سوى نوع من «زعامة روحية» أو نفوذ ديني كان

---

(31) النص 22 : «... لماذا لا تهدئون فرق الدوارين ؟...» الملحق.

(32) «circumcellionum mancipes» (النص 8 في الملحق).

(33) «magistros circumcellionum» (النص 16 في الملحق).

(34) النص 5 في الملحق.

(35) كان الدوارون يهاجمون بصفة خاصة رجال الدين الدوناتيين الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية. مثلا، النص 33 والنص 44 في الملحق.

(36) أعلاه، ص 227.

(37) أعلاه، هـ 32 وهـ 33.

الدوناتيون يمارسونهما على الدوارين. غير أنه يشير في فقرات أخرى إلى أن الدوارين كانوا يعملون مباشرة تحت إمرة «اكليركيين» Clerici دوناتيين. فنراه مثلا يخاطب خصومه في إحدى رسائله (409) : «تذكروا أعمال دواريكم وكهانكم (Clerici) الذين كانوا دوما رؤساء لهم !»[38]. وفي نص آخر يرجع إلى سنة 411م : «... بينما كان دواروهم يقترفون أشنع الجرائم تحت قيادة الكهنة»[39]. ونراه في فقرات أخرى (405–406) يتحدث عن الدوارين «كالحرس الخاص» للكهنة الدوناتيين[40].

بل إنه يشير إلى أن عددا من الأساقفة الدوناتيين ترأسوا شخصيا عصابات الدوارين[41]، وربما كان يقصد على الخصوص «أبطاتوس الجيادوني»[42]، وآخرون «كان بودهم أن يفعلوا مثله ولكن الإمكانات أعوزتهم»[43].

غير أن أغسطين من جهة ثانية، يشير في أكثر من مكان إلى أن موقف الإكليروس الدوناتي كان أبعد ما يكون عن الموافقة الكاملة على أعمال الدوارين، وإن الدوناتيين كانوا يتبرأون من عنفهم وأعمالهم الارهابية. وتتدرج احتجاجات الدوناتيين من ادعائهم أنهم بكل بساطة «يجهلون الدوارين»، إلى التأكيد بأنهم يحتملونهم صابرين. ففي رده على «بارمينيانوس» Parmenianus (حوالي سنة 400) يقول أغسطين : «عندما نحيط الدوناتيين علما باعتداءاتهم (الضمير عائد على الدوارين)، فإنهم يفعلون كما لو كانوا يجهلون هذه الفئة المكروهة، أو يدعون بكل وقاحة — وضد ما يعرفه الجميع جيدا — أن لا شأن لهم بهذه الاعتداءات... هذا إذا كان من المقبول أن يجهل أساقفة دوناتيون في عين المكان، في افريقيا، أفعال وحركات الدوارين الدوناتيين، أو يقولون أنه لا دخل لهم فيها»[44]. وفي

(38) - Ep. 105, 2, 3; ap. Monceaux, R.H.R., t. 64, p. 52

(39) النص 38 في الملحق.

(40) النص 31 والنص 35 في الملحق.

(41) - Enarr. in Psalm, 10, 5 et Epist., 44, 9

(42) النص 14 في الملحق. عن ابطاتوس «الجيلدوني» الأسقف الدوناتي «بتموكادي» (تمكاد حاليا بالجزائر)، انظر أعلاه، ص 126، هـ 36.

(43) النص 13 في الملحق.

(44) النص 7 في الملحق.

نص آخر يرجع إلى حوالي 405-406 : «... وحسب ما يظهر، فإن هذه الأعمال الشائنة لا تصل إلى آذان ذويكم...»(45). لكن الدوناتيين كانوا في الغالب يتحاشون الجواب عن هذه التهم، ويلتزمون الصمت، لذلك لم يرد اسم «الدوارين» بتاتا على لسانهم. غير أن أغسطين يشير أحيانا إلى أنهم كانوا يعلنون صراحة عدم رضاهم عن أعمال الدوارين، بشهادة هذين النصين : النص الأول يرجع إلى نهاية سنة 393 : «انظروا أي خبثاء تضمون في صفوفكم. فإذا كنتم، أنتم كذلك، تغضون عنهم، فلماذا لا يكون هذا الغض في إطار الوحدة ؟ (وحدة الكنيسة)»(46). أما النص الثاني فيرجع إلى حوالي سنة 400 : «... إنني أترك هذا جانبا (أعمال الدوارين) لأن هناك منكم من يحتج، إزاء هذه الأحداث، باستنكاره لها في الحاضر والماضي، إلا أنهم، — على حد قولهم — لا قدرة لهم فيها، فيستحملونها من أجل السلام (يقصد سلامة الكنيسة الدوناتية ووحدتها)»(47).

طبعا، ان هذه النصوص كلها كاثوليكية، وبودنا لو تحدث الدوناتيون أنفسهم عن موقفهم من الدوارين. ولكن الدوناتيين — كما سبق — لم يرد في كتاباتهم أبدا اسم الدوارين. ومع ذلك، فقد أثير مشكل الدوارين في مناظرة قرطاج سنة 411، فكان جواب الدوناتيين «ان ما يفعله الدوارون لا دخل للدوناتيين فيه»(48). يبدو إذن من الممكن القول بأن موقف الدوناتيين من الدوارين كان متذبذبا، فلا هم يستنكرون كليا تصرف الدوارين ولا هم يؤيدونه تماما. وربما كان أحسن مثال على ذلك موقف الأسقف Macrobius، زميل أغسطين وخصمه في مدينة Hippo (عنابة). فهذا الأسقف استعان بالدوارين ودخل برفقتهم

(45) يقصد هجوم الدوارين على منازل الأساقفة وعلى الكنائس الكاثوليكية. النص 32.

(46) النص 4.

(47) النص 14. كذلك النص 18 : «... فلماذا تقولون أنهم ليسوا أصحابكم، عندما ينسبون إليكم ؟...» (في الملحق).

(48) - Capitula, III, 297 (Lancel, S., Actes..., t. II, S.C. 195, p. 503)

- Brev. Coll, III, XI, 21, (B.A. 32, p. 183) وهو ما يؤكده أغسطين في ملخصه لأعمال المناظرة (النص 38 في الملحق).

منتصرا إلى «هيبو» في غضون عام 409[49]، لكنه لم يلبث أن سئم من تصرفاتهم بعد صدور قانون جديد للتسامح مع الكنيسة الدوناتية (409 أو 410)[50]، ويخاطبه أغسطين في رسالة بعث بها إليه : «إنكم تتعهدون بمنح التعويض للملاك المتضررين (من أعمال الدوارين). لكنكم لا ترغبون في الوفاء بوعدكم تماما، لأنكم تخشون عداوة اللصوص الجريئين الذين لم يتورع كهنتهم عن الاعتداء عليهم من قبل. ذلك أن الدوارين يتبجحون بالخدمات التي أسدوها إليكم سابقا. فهم يذكرونكم ويعددون أمامكم ما فعلوه من أجلكم قبل هذا القانون التسامحي الذي سررتم له غاية السرور لأنه أعطاكم الحرية. إن الفضل يرجع إليهم ـــ حسب ما يقولون ـــ في كون كهنتكم استطاعوا الاحتفاظ بملكياتهم وكنائسهم بعدما نهبوا ذوينا وطردوا كهاننا. فإذا أنتم أردتم معاملتهم بصرامة، فسوف تبدون شديدي النسيان للجميل والنكران للمعروف»[51].

وإذن، فإن موقف الدوناتيين من الدوارين لم يتغير كثيرا في جوهره على ما رأيناه في الفترة السابقة (340-347). فلم يكن هناك تطابق تام بين وجهة نظر الطرفين، خاصة فيما يتعلق بطريقة العمل، ومن ثم استنكار الاكليروس الدوناتي

(49) Epist. CVIII, 5, 14 (P. Monceaux, R.H.R., t. 64, 1911, p. 42). -

(50) لم يصلنا نص هذا القانون. ولكنه معروف عن طريق القانون التالي الذي ألغاه (والصادر في 25 غشت 410) وعن طريق المجمع الكنسي الذي عقده الكاثوليك في يونيو من نفس السنة. (Cod. Can. Eccl. Afric., 107; Mansi, III, 107) وحسب «مارطورا»، فإن قانون التسامح صدر سنة 409 :

- Martroye, F., La répression du donatisme et la politique religeuse de constantin et de ses successeurs en Afrique, M.S.N.A.F., 1914, p. 132.

ويرى «لانصيل»، أنه سبق بقليل المجمع الكنسي الكاثوليكي في يونيو 410، وبالتالي أنه صدر في تلك السنة.

- Lancel, S., Actes..., op. cit., t. I, S.C. 194, p. 22 et n° 4.

ويبدو أن السبب في صدور هذا القانون التسامحي هو محاولة «هنوريوس» عدم إثارة قلاقل في افريقيا في الوقت الذي كان الزعيم القوطي «الريك» Alaric يحاول الانقضاض على ذلك الإقليم. وبمجرد انتهاء هذا الخطر، صدر مرسوم جديد يلغي قانون التسامح السابق، وذلك في 25 غشت 410).

(Cod. Theod, XVI, 5, 51).
- Martroye, F., ibid., pp. 128-132.

(51) Aug., Ep. 108, 6, 18; ap. Monceaux, P., R.H.R., PP. 51-52 -

لأعمال العنف التي كان الدواررون يقومون بها. والملاحظ في نفس الوقت أن الدوارين لم يبتعدوا كثيرا عن أهدافهم الثورية ومناهضتهم للملاك. فقد كانوا يعارضون ـــ حسب هذا النص ـــ تعهد الدوناتيين بتعويض الملاك عن خسارتهم الناجمة عن «نهب» الدوارين[52]. ولكنهم في نفس الوقت أصبحوا يهاجمون الكاثوليكية وكهنتها. يبدو إذن أن حركة الدوارين في هذه الفترة قد انزلقت كثيرا إلى المقاومة الدينية، وأن الدوارين تبنوا الدوناتية قضية لهم. ولا يهمنا الآن إذا كانوا يرون في الكاثوليك أولا وقبل كل شيء أولئك الملاك الكبار والمرابين والأسياد[53]. أو أنهم كانوا يرون في الضوناتية أساسا نوعا من «دين الفقراء»[54]، كل ما يبدو بوضوح هو أن العنصر الديني أصبح ملتحما بالعنصر الاجتماعي، وأن المطالب الاجتماعية الأصلية أصبحت مزدوجة بمقاومة دينية. لكن ذلك الالتحام وهذا الازدواج لا يبرران القول بأن الحركتين لم تكونا إلا حركة واحدة كما يوهمنا به أغسطين أحيانا. كل ما يمكن أن يلاحظ هو أن نوعا من تحالف كان موجودا بين الطرفين، وأن هذا التحالف نما بالتدريج نظرا لظروف اضطهاد الحركتين، حتى وصل في هذه الفترة إلى أقصى متانتة.

وينبغي الآن محاولة تحديد هذا التحالف بمزيد من الدقة. وبادىء ذي بدء، يبدو أن موقف الدوناتيين من تمرد الدوارين لم يكن موحدا. فبجانب بعض الدوناتيين الذين كانوا يستنكرون عنف الدوارين[55]، كان هناك دوناتيون آخرون لم يتورعوا عن التعامل علانية مع الدوارين، وربما ترأسوا عصاباتهم. فالراجح أن كبار الشخصيات والأساقفة الدوناتيين كانوا في معظمهم يستنكفون عن التعامل مع الدوارين[56]. وذلك ما يوحي به هذا الاعتراف على لسان

(52) أعلاه، ص 130–131.

(53) - Frend, W.H.C., **The. Donatist Church...**, op. cit., p. 329

(54) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 358 ss

(55) النص 14 أعلاه، ص 239، هـ 44.

(56) لقد رأينا من قبل أن «دوناتوس الأكبر» وخلفه «بارمينيانوس» لم يعرف عنهما شيء من هذا القبيل. ويمكن تأكيد ذلك أيضا بالنسبة للدوناتيين الذين دخل معهم أغسطين في المجادلة الكلامية (انظر نقد المصادر). والواقع أن «ماكروبيوس» أسقف «هيبو» وحده هو الذي ذكر عنه أغسطين صراحة أنه تعامل مع الدوارين. وقد أشرنا سابقا إلى طبيعة هذا التعامل المشوب =

أغسطين : «حقا، لستم كلكم معربدون، ولا كلكم بخلاء، ولا كلكم رجال عنف، إلا أنكم جميعا هراطقة، ومن ثم فإنكم زنادقة مدنسون»[57].

يبدو إذن أن أغسطين ـــ رغم اعترافه بوجود عدد من الدوناتيين الذين يعزفون عن أعمال العنف، بل وبكون الأغلبية منهم كانت مسالمة ولكن تحت ضغط أقلية متطرفة ـــ[58] رغم اعترافه هذا، فإنه اغتنمها فرصة لاشراك كل الدوناتيين في تمرد الدوارين. فقد كان يدرك جيدا أن أعمال الدوارين التمردية كانت تشكل خطرا كبيرا على النظام الروماني وتهدد الإمبراطورية. وذلك ما يتجلى في هذا النص مثلا والذي كتبه إبان صدور قوانين هنوريوس ضد الدوناتية (405–406م) : «... إن هذه العقوبات خفيفة جدا، بل تكاد لا تعتبر إذا ما قابلناها بأعمال ذويكم الجنونية، إنكم تحملوننا حتى مسؤولية الإجراءات التي تتخذها السلطة الزمنية تحت الاضطرار ورغما عنها لكي تقي نفسها من اعتداءات ذويكم»[59].

ومن ثم فقد كان من السهل على الكاثوليكيين أن يقنعوا الدولة بالتدخل ضد الكنيسة الدوناتية، إذا هم استطاعوا أن يلوثوا سمعتها بإشراكها في تمرد الدوارين. لذا فإن احتجاجات الأساقفة الدوناتيين تتضمن جانبا من الصدق ـــ وإن لم تكن صادقة تماما كما سنرى بعد قليل ـــ[60]. ويمكن تفهم موقف «بتيليانوس» Petilianus أسقف قسنطينة[61] الذي «لا يريد أن يعاب على كنيسته وجود «مجرمين» كأبطاتوس الجيلدوني وكالدوارين في عدادها[62]. وكذا ينبغي تقدير موقف كريسكونيوس Cresconius، أحد النحاة المنتمين إلى الدوناتية[63] عندما

= بالحذر. أعلاه، ص 130–131. أما «ابطاتوس الجيلدوني» ـــ أسقف تمكاد ـــ فلم يذكر أغسطين صراحة أن عصاباته المسلحة كانت مكونة من الدوارين. أعلاه، ص 126، هـ 36.

(57) النص 17 في الملحق، كذلك النص 48 في الملحق.

(58) **(Monceaux, P., op. cit., p. 49); Ep. 185, 3, 14., 7, 30** -

(59) النص 34 في الملحق.

(60) أدناه، ص 250 وما بعدها.

(61) انظر الملحق، ص 293.

(62) النص 17 في الملحق.
كذلك : **C. Litt. Petil., II, X; 24; B.A. 30, p. 248** -

(63) انظر أعلاه، ص 154، هـ 36.

«ينكر» حماقات الدوارين وجنونهم وتقديسهم المدنس والمنكر لجثث المنتحرين»[64].

إن اتهام الكاثوليكيين للدوناتيين بمساندة الدوارين، بل وبدفعهم إلى التمرد لا يمكن أن يفهم إلا إذا وضع في إطار الظروف السياسية وظروف الجدل اللاهوتي بين الكنيستين، فمن الجهة الأولى كان الكاثوليكيون ــ تبعا لاستراتيجيتهم منذ البداية ــ[65] يحاولون أن يظهروا للسلطة الزمنية أن الشغب الناتج عن تمرد الدوارين، ينبغي إعزاؤه إلى الكنيسة المنشقة، وبالتالي فإن السبيل الوحيد للقضاء عليه هو القضاء على الدوناتية[66]. وفي آن واحد، ومن الجهة «الفقهية»، كانوا يودون الرد على ادعاء الدوناتيين بكون كنيستهم كانت «كنيسة القديسين والشهداء»، وأن القديسين وحدهم يملكون القدرة على التعميد، إذ أن صحة التعميد مرتبطة بقداسة خادم السر أو المعمد (Minister)[67]. فكان رد الكاثوليكيين أنه إذا كان ابطاتوس «الجيلدوني» والدوارون وأمثالهم يملكون قدرة التعميد، فأين «قداستهم» وهم يرتكبون أشنع الجرائم ؟[68].

لذا، فإن معظم الأساقفة الدوناتيين كانوا يودون البقاء بعيدا عن تصرفات الدوارين لئلا يحرجوا من هذا الجانب الفقهي في مجادلتهم مع الكاثوليكيين، وأيضا حفاظا على مصالح حزبهم وتفاديا لانتقام السلطة منهم.

غير أن هناك أيضا أسبابا أخرى ربما دفعتهم إلى تجنب الانزلاق كليا بالتعامل مع الدوارين. وربما يلمح إليها موقف «ماكروبيوس» Macrobius من دواري «هيبو»[69]. فالواضح من تصرفه أنه كان يرغب ــ على غرار عدد من زملائه ــ تعويض الملاك عن خسارتهم، وأن الدوارين كانوا يعوقون تنفيذ هذه الرغبة. ومن حقنا أن نتساءل عن السر في تعارض موقف كل من الدوارين

---

(64) النص 36 في الملحق، عن تقديس الشهداء، انظر أعلاه الفصل الرابع ص 162 وما بعدها.

(65) أعلاه، ص 216.

(66) النصوص 37 و48 في الملحق.

(67) كما سبقت الإشارة أعلاه، ص 199، هـ 132.

(68) النص 17 في الملحق.

(69) النص أعلاه، ص 240-241.

والأساقفة الدوناتيين في هذه النقطة بالذات (تعويض الملاك). فإذا كان من الواضح أن الدوارين لم يتغير موقفهم العدائي من الملاك على ما كان عليه منذ القرن السابق[70]، فإن موقف «ماكروبيوس» وزملاءه لم يكن متشددا تجاه الملاك حتى ولو كانوا أعداءهم في المذهب، حتى ولو كانوا مضطهديهم[71]. هل كان ذلك من قبيل «الرحمة المسيحية» والتسامح مع العدو ؟ هل كان ذلك خوفا من السلطة وتعبيرا مظهريا عن حسن النية خاصة بعد صدور قانون التسامح مع الدوناتيين ؟ لكن لماذا التخوف من الدوارين ؟ ألا يذكرنا هذا الموقف بحوادث Locus Octaviensis سنة 340 حين طلب الأساقفة الدوناتيون تدخل السلطة ضد الدوارين ؟[72].

إن احتراز الدوناتيين من تمرد الدوارين بل خوفهم منهم ظاهرة مثيرة للانتباه، لأنها قديمة وقارة في العلاقات بين الحركتين. ويمكن أن نفهم لماذا لم يركز عليها أغسطين بل لم تفلت منه إلا في فقرات قليلة جدا. ذلك لأنه لو ركز عليها لهدم أساس استراتيجية حزبه التي تعتمد ـــ كما رأينا ـــ على إشراك الدوناتيين في تمرد الدوارين بل وقيادتهم لهم. ومع ذلك، فمنذ حوالي سنة 393، نجده يخاطب الدوناتيين بصدد الدوارين قائلا : «ومع ذلك. فإنكم تستحملون هؤلاء الناس. أخطأ أو خوفا منهم ؟ لست أدري !»[73].

هل هذا «حال كل السياسيين الذين يفجرون القوى البهيمية بتهور، ثم يفزعون لكونهم أصبحوا غير قادرين على التحكم فيها» ؟[74] لا يبدو أن الأمر كان بمثل هذه البساطة التي تذكرنا بموقف بعض الكتاب الغربيين إزاء المظاهرات العمالية والحركات النقابية والسياسية في أوربا خلال القرن الماضي وفي القرن العشرين. فهذه القوى «البهيمية» كانت قادرة على الوصول إلى درجة معينة من التنظيم

---

(70) أعلاه، ص 128 وما بعدها.

(71) النصوص التي يتهم فيها الدوناتيون الكاثوليكيين بالاضطهاد وتأليب السلطة عليهم كثيرة. مثلا : في الوثيقة التي قرأها الدوناتيون في مناظرة قرطاج، أمام القاضي يصفون الكاثوليك بأنهم «مسلمو الكتب» Traditores، وأنهم مضطهدوهم :
«... Traditores persecutoresque nostri...» : **Gesta**, III, 258 = éd. Lancel, S.C. n° 224, p. 1194.

(72) أعلاه، ص 196.

(73) النص 2 في الملحق.

(74) Monceaux, P., **R.H.R.**, t. 64, 1911, p. 48 -

وأسلوب العمل وتطبيق المبادىء[75]. ثم إن تمرد الدوارين بخصائصه وجد قبل أن يتدخل الدوارون في النزاع الديني بين الكنيستين، أي قبل 347[76]. لذلك لا يعدو أن يكون قول من هذا القبيل جزءا من الاستراتيجية الكلامية التي تزعمها أغسطين.

ولنكن واضحين أكثر. إن نوعا من «انزلاق» (من المطالبة الاجتماعية إلى المطالبة الدينية) ربما حدث عند الدوارين، وربما عثرنا على أثر له في مهاجمتهم الكنائس والأساقفة الكاثوليكيين. غير أن تمرد الدوارين من المنطلق إلى النهاية احتفظ بطابعه المعادي للملاك والأسياد والمرابين، دون أن يكون للدوناتيين مسؤولية في هذه المطالبة الاجتماعية، بل إنهم بالعكس كانوا أحيانا يناهضونها[77].

ويمكن القول مع أحد المعاصرين (رغم تحيزه شبه الواضح للكاثوليكيين) أن الدوناتيين «لم يبدوا اهتماما خاصا بالمطالب الاجتماعية، والانتقام للمضطهدين ونزع الملكية من الملاك، وكلها نقط كانت تدخل في برنامج الدوارين»، وأنه «حتى لو افترضنا أن الكنيسة الدوناتية كانت «كنيسة الفقراء»، فإن ذلك لا يرجع إلى إيديلوجيا اجتماعية خاصة بها»[78].

وعلى هذا الأساس، هل كان الدوارون يمثلون خطرا على الدوناتيين أنفسهم ؟ إن الكنيسة الدوناتية ــ على غرار نظيرتها الكاثوليكية ــ كان لها أملاك وثروات لابد أنها كانت متمسكة بها[79]. كذلك كانت تضم في صفوف رعيتها بعض

---

(75) انظر الفصل الثالث، ص 121–125 وص 129–130.

(76) أعلاه، ص 180.

(77) ذلك ما يمكن أن يتجلى من لجوئهم إلى «الكونت» طورينوس «في إرجاع الدوارين إلى الطريق السوي»، كما رأينا، (أعلاه، ص 196). كذلك يمكن أن نستشف نفس الظاهرة في سوء التفاهم الذي يشير إليه أغسطين والذي نشب ــ حسب قوله ــ بين الدوناتيين والدوارين بصدد تعويض بعض الملاك عما ضاع منهم بسبب هجوم الدوارين (النص أعلاه، ص 240).

(78) - Congar, Y.M.J., Introduction générale aux «traités antidonatistes», B.A., 28, p. 35 et n° 2.

(79) يتجلى غنى الكنيسة الكاثوليكية في :

أ ــ البنايات الدينية : الكنائس والأضرحة وقد عثر على بعض الكنائس الدوناتية الفخمة التي تطلبت من غير شك أموالا كبيرة لبنائها. من أشهر تلك الكنائس، كنيسة ابطاتوس «الجيلدوني» بتمكاد :

=

الأغنياء كتلك السيدة التي أورثت ثروتها لبعض الدوناتيين وخاصة إلى أحد الأساقفة المدعو اغسطينوس. فما كان من أخيها ــ أحد النبلاء ــ إلا أن بعث بشكاية إلى الإمبراطور طالبا منه تطبيق الإجراءات اللازمة لإرجاع الإرث إليه. فاستجاب الإمبراطور لطلبه. ويروي أغسطينوس نهاية الحادث قائلا : «لقد أشار نص القرار إلى الدوارين توقعا لأي معارضة عنيفة من جهتهم وكذلك لطبيعة الإسعافات والوسائل القمينة بصدهم، لأن مثل هذه الحالات كانت عادية. فقد اشتهر الدوارون بمثل هذه الأعمال الشائنة، وأظهروا في عدة مشاجرات شراستهم، بحيث لم يكن بالإمكان أن يغضي المشتكي إلى الإمبراطور ولا الإمبراطور نفسه عن ذكر الدوارين»(80).

ويمكن أن نفهم من هذا النص علاوة على أن الكنيسة الدوناتية كانت تستفيد من عطاءات وإرث رعيتها، وزيادة على أنها كانت تضم أغنياء من مستوى السيدة المشار إليها، أن تدخل الدوارين لم يكن من شأنه أن يرغب الأغنياء في الانتماء أو البقاء في الكنيسة الدوناتية. فبالإضافة إلى انعدام الأمن الناتج عن أعمال الدوارين، كانت عصا السلطة تهددهم بتطبيق قوانين متزايدة الصرامة إذا ما تمادوا في انتمائهم إلى الانشقاق الديني، أو تغاضوا عن وجود الدوناتيين في أراضيهم.

ويبدو بالفعل أن السلطة أصبحت تضيق الخناق على الملاك أو من يقوم مقامهم

= - Albertini, E., Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste; Optat de Thamugadi, C.R.A.I., 1939, pp. 100-103.

ب ــ كانت الكنيسة الدوناتية تتلقى الإرث من بعض المؤمنين الأغنياء، كتلك السيدة التي يتحدث عنها أغسطين : Aug., C. Ep. Parm., I, XII, 20. (النص 10 في الملحق).

ت ــ كان بعض رجال الدين الدوناتيين يملكون الضيع أو يكترونها، مثلا : الضيعة التي اكتراها «كريسبنوس» Crispinus ــ أسقف كلاما Calama (كلمة) ــ، والتي أعاد فيها تعميد 80 مزارعا حسب أغسطين :

- C. Litt. Petil., II, LXXXIII, 184; B.A. 30, p. 448.

ونعرف من أغسطين أن كنيسة «هيبوريجيوس» كانت تملك «الفيلات» والضيع (villae, fundi) التي صودرت منها بعد 411 لفائدة الكنيسة الكاثوليكية :

- Aug., In Johannis Evangelium Tractus, VI, 25; ap. Monceaux, P., R.H.R., t. 63, 1911, p. 269.

والراجح أن «مشكل الثروات المادية» كان له أثر في الصراع بين الكنيستين. ويشير أغسطين إلى ذلك المشكل : (النص 52 في الملحق).

(80) النص 10 (حوالي 400م)، في الملحق.

(أكارو ضيعاتهم) ليقوموا بتنفيذ فعال للقوانين في أراضيهم. ففي قانون «هنوريوس» الصادر سنة 405، نجدُ أن الملاك الذين يسمحون بانعقاد تجمعات دوناتية فوق أراضيهم يدانون وتصادر منهم ضيعهم. وإذا تمت تلك التجمعات بدون علمهم، وبإذن من «أكاري ضيعاتهم» Conductores أو «وكلائهم» Procuratores بها، فإن هؤلاء الأخيرين يتعرضون للجلد والنفي لمدى الحياة[81]. ونجد مقتضيات مشابهة في القانونين الصادرين بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاج (411)، وقد أشرنا إلى مقتضياتهما سابقا، ورأينا بصفة خاصة أن الضغط أصبح مركزا على أكاري الضيعات ــ سواء منها تلك التي كانت بيد الإمبراطور أو تلك التي كانت بملك الخواص ــ إذ أصبحوا مهددين في قانون 414 بفسخ عقدتهم مع مالكي الأراضي[82].

ولا يبدو أن السبب في تهاون بعض الملاك وبعض «الأكارين» في تطبيق القوانين على فلاحيهم وعبيدهم يرجع إلى كونهم كانوا متشبثين أكثر من غيرهم بالدوناتية، بل إن المشرع اعتبرهم ضمنيا كاثوليكيين، بما أنه أوكل إليهم تطبيق القانون على الأشخاص الموجودين تحت إشرافهم ورعايتهم (عبيد، مزارعون، دوارون). بل يبدو من الراجح أنهم كانوا يتحاشون المواجهة مع اليد العاملة تحت إشرافهم بسبب مشاكل مذهبية، لأنهم لن يربحوا أي شيء من تلك المواجهة التي يمكن ــ بالعكس ــ أن تلحق الضرر بانجاز الأعمال الفلاحية وبالسير العادي للأعمال في الضياع[83]. إذ لا ينبغي أن ننسى أن الأكارين ــ وهم الذين تشددت مقتضيات القانون عليهم بصفة خاصة ــ كانوا يستغلون الأرض في مقابل أداء إتاوة، وكل ما كانوا يرجونه هو قبل كل شيء تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح. أما بالنسبة للملاك، فمهما اختلفت مشاربهم العقائدية (مشركين أو دوناتيين أو كاثوليك، فإنهم كانوا ــ على الأرجح ــ يعاكسون أي محاولة «تدخل حكومي» في شؤون ضيعاتهم، وذلك للحفاظ على سلطتهم واستقلالهم في أراضيهم[84].

(81) - **Cod. Theod.**, XVI, 6, 4; Martroye, F., La répression du donatisme..., **M.S.N.A.F**, 1914, p. 86.

(82) قانون 412 وقانون 414. أعلاه، ص 87 وما بعدها وص 90 وما بعدها.

(83) - Saumagne, Ouvriers agricoles..., **A.H.E.S.**, 1934, p. 358

(84) - Warmington, B.H., **The North African provinces from Diocletian to the Vandal Conquest**, Oxford, 1952, p. 102.

وكان موقفهم هذا متعصبا لدرجة أن أغسطين ــ الذي عمل جهده في إقناع بعضهم بالضغط على فلاحيهم كي يكفوا عن الدوناتية ــ[85] كان حوالي سنة 401 يرى أن مفاتحتهم في هذا الموضوع كانت تتضمن عدة مخاطر[86] وكانت القديسة «ميلانيا» نفسها ــ وكانت كاثوليكية متحمسة ــ تملك أراضي قرب مدينة «ثاكست» Thagaste (سوق أهراس بتونس) يوجد بها أسقف دوناتي حوالي سنة 410[87].

لذا، يذهب كثير من الباحثين إلى أن الشيء الذي أخر سقوط الدوناتية كان الموقف المتذبذب الذي اتخذه الملاك منها، وتهاونهم في تطبيق القوانين الصادرة ضدها على فلاحيهم[88]. ولكن تشدد الدولة اتجاه الملاك و«أكاري الضياع» المتهاونين تزايد باستمرار، خاصة بعد سنة 411، الشيء الذي كان من شأنه ــ على رأي أولئك الباحثين ــ أن يغير من موقفهم السابق وأن يدفع بهم إلى ممارسة الضغط الكافي على السكان الموجودين في أراضيهم، وبالتالي أن يعجل بالقضاء على الدوناتية. ومثل هذا التحليل يتضمن كثيرا من الصواب، لكنه يبدو غير كاف لتفسير كل التطورات. فإذا كان فشل القوانين يرجع من غير شك إلى عدم اكثرات بعض الملاك و«الأكارين» ــ «حتى ولو كانوا كاثوليكيين» كما يقول قانون 412 ــ[89] فإنه يرجع بدون مراء أيضا إلى حيوية الدوناتية التي استطاعت أن تجتاز أزمات صعبة كاضطهاد سنة 347[90]. وأهم من ذلك، يحق للمرء أن يتساءل عما إذا كان السبب في تغيير موقف الملاك هو تشدد الدولة اتجاه غير المكثرتين منهم بتطبيق القوانين على فلاحيهم الدوناتيين. إننا نعرف أن الدولة كانت ضعيفة أمام هؤلاء الملاك، بحيث كانت عاجزة عن إرغامهم على

---

(85) مثلا نجح في محاولته مع «باماخيوس» Pammachius، وفشل مع «فيستوس» Festus، انظر أعلاه، ص 63.

(86) Ep. LVIII, 3, Warmington, B.H., idem -

(87) Vita. S. Mel., 21; Warmington, B.H., idem -

(88) مثلا : Warmington, B.H., ibid., p. 102 -
- Tengström, E., **Donatisten und Katholiken...**, (cité Supra, p. 97, n° 4) d'après le compte-rendu de Lancel, S., **R.E.L.**, 1965, p. 640.

(89) أعلاه، ص 88.

(90) بعد صدور قانون قنسطنس، وهي الأحداث التي ذكرتها بتفصيل في الفصل السابق.

تسديد الضرائب[91]. ومهما اختلفت مصالح الدولة ومصالح الملاك، فإن الطرفين معا كانا يرغبان أولا وقبل كل شيء في الحفاظ على أمن البلاد، واستغلالها في كامل الطمأنينة (تموين إيطاليا بالنسبة للدولة، موارد الضيع بالنسبة للملاك). لذا، لا نبعد عن الصواب إذا اعتبرنا أن تغير موقف معظم الملاك ينبغي البحث عنه في سبب آخر غير تشدد سياسة الدولة تجاههم. ويبدو من الأقرب إلى الصواب أن نبحث عنه في التطورات التي عرفتها الدوناتية نفسها في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس.

إن التطور الرئيسي ـــ في اعتقادي ـــ يكمن في التقارب المتزايد بين الدوارين والدوناتيين. ومهما كانت طبيعة ذلك التقارب وأسبابه، فإن الكنيسة الدوناتية ظهرت للعيان متورطة في قضية الدوارين الذين كانوا لا يهاجمون الملاك والأسياد والدائنين فقط، ولكن أيضا الكنائس الكاثوليكية ورجال الدين الكاثوليك، أي أنهم أصبحوا يعملون لصالح كنيسة بعينها هي الكنيسة الدوناتية ـــ سواء كانت هذه الأخيرة راغبة أو متحفظة ـــ. لقد تدخلوا في الصراع الديني وأصبحوا جزءا منه، وعلى هذه النقطة ركز أغسطين وزملاؤه دعايتهم الموجهة إلى الدولة (البعثات إلى الامبراطور) وإلى الملاك (رسائل أغسطين). ومن ثم، فالواضح أن مصلحة الملاك أصبحت تقتضي مكافحة الدوناتية. طبعا، ربما ظل بعض الملاك الدوناتيين متشبثين بعقيدتهم[92]، ولكن معظم الملاك كانوا منذ نهاية القرن الرابع إما من

---

(91) مثلا القانون الصادر في 25 فبراير 429 (Cod; Theod, XI, I, 34) يقتضي أن لا يحبس المالك من طرف المكلف بالضرائب، وأن تترك له مهلة أربعة أشهر ليسدد ما عليه من ضريبة عن طيب خاطر، وإذا لم يفعل بعد تلك المهلة، فلتسدد الضريبة مكانه.

- Courtois, Chr., les Vandales..., op. cit., p. 133.

كذلك، تراجع الدولة فيما يتعلق بفرض الضريبة على الملاك المجاورين للأراضي المهجورة حسب قانون 31 يناير 412 (Cod. Theod, XI, I, 31).

- Le Pelley. CL., Déclin ou Stabilité de l'agriculture africaine au Bas-empire ? A propos d'une loi d'Honorius, A.A., t. I, 1967, p. 143.

انظر كذلك أعلاه، ص 60 وما بعدها.

(92) كما يوحي بذلك قانون 412 الذي ينص على غرامات بالنسبة للدوناتيين من مختلف الفئات الاجتماعية (أعلاه، ص 89) وكما يوحي به أيضا قانون 414 الذي يعاقب الملاك المتهاونين في تطبيق الحظر على الدوناتية، حتى ولو كانوا كاثوليكيين. (أعلاه، ص 90-91).

المشركين وإما من الكاثوليك[93]. لذا، يمكن القول أن تغير موقف الملاك تجاه الدوناتية كان له أثر مهم على التعجيل بسقوطها، لكن ذلك التغيير ربما لم يأت من خوفهم من الدولة بقدر ما كان ناجما عن خوفهم من تطور الدوناتية.

وإذا كانت الدوناتية قد أصبحت عقيدة منفرة للملاك، فإن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية كانت تلوح لهم برغد الأمن والاطمئنان على ممتلكاتهم. الوعد والوعيد. لذلك يمكن أن نتصور أن من جملة الأسباب التي منعت الاكليروس الدوناتي من التقارب التام مع الدوارين كان خوفهم على ممتلكاتهم وممتلكات بعض الأغنياء من رعيتهم. وربما كان هذا السبب المبتذل أو «الزمني» أكثر أهمية من السبب «الفقهي» الذي رأيناه سابقا. وهذا على الأقل ما يمكن أن يوحي به «استغلال» الدوناتيين للدوارين في بعض الأحيان.

إن تنكر الاكليروس الدوناتي للدوارين لم يكن ليمنعه من استغلالهم في الفترات العصيبة التي اجتازتها الكنيسة المنشقة. وربما ساعدتنا بعض نصوص أغسطين على إدراك نوعية هذا «الاستغلال». فمنذ سنة 393، نجد أغسطين يخاطب الدوناتيين بصدد موقفهم من الدوارين : «لكن إذا طردهم (يقصد الدوارين) زعماؤكم، فلن يجدوا نصيرا لبسط سلطانهم»[94]. وفي رده على «بتيليانوس» ــ أسقف القسنطينة ــ حوالي سنة 400م يصرح : «... الواقع أن شرذمتكم المنشقة تستمد قوتها في غالب الأحيان ــ لا من صولجان الله وعصاه ــ ولكن من عصيهم هم، تلك العصي التي تعتقدون أنها تجعلكم في مأمن من قوانين روما نفسها...»[95].

إن أقوال أغسطين هذه لا تخلو من تضخيم[96]، ولكن المرء يستطيع أن يفهم

(93) Warmington, B.H., The North African provinces..., op. cit., p. 92 -

(94) النص 3 في الملحق.

(95) النص 18 في الملحق.

(96) عن تضخيم الكاثوليكيين لأعمال الدوناتيين بصفة عامة، يلاحظ كيف استغلوا جروح بعض الأساقفة الذين سافروا إلى إيطاليا للتشكي لدى الإمبراطور، ودعوته إلى معاينة «مدى عنف» الدوناتيين. وكانت شكواهم هذه إحدى وسائلهم للضغط على هنوريوس واقتلاع «مرسوم الوحدة» منه، أعلاه، ص 235. انظر كذلك تصوير أغسطين لجروحهم في النص 31 في الملحق. وعلى النقيض من ذلك، يلاحظ سكوت أغسطين عن عنف بعض الكاثوليكيين وتهجمهم على الدوناتيين في بعض المناطق، وهو عنف نستشفه فقط من بعض الفقرات في =

أن التعاون الذي وجد بين الحركتين المضطهَدتين ـــ ربما انطلاقا من 347 ـــ[97] كان يظهر بوضوح في الفترات العصيبة التي اجتازتها الكنيسة الدوناتية. وفي الواقع، ضيق الخناق تدريجيا على الكنيسة المنشقة بعد انتهاء فترة التسامح في عهد يوليانوس «المرتد» (362)، وخاصة على عهدي ثيدوسيوس Theodosius (379–395م) وهنوريوس Honorius (395–423م)[98]. ولنلاحظ

= كتابات أغسطين، وعلى لسان بعض الأساقفة الكاثوليكيين خلال مناظرة قرطاج. (عن هذا العنف، انظر أعلاه، ص 157، هـ 48).

(97) أعلاه، ص 228.

(98) لائحة القوانين الصادرة ضد الدوناتية في عهد «هنوريوس» :

ـــ 13 مارس 395 : قانون «اركاديوس» و«هنوريوس» يؤكد قوانين «ثيدوسيوس» ضد أصحاب البدع.

ـــ 23 مارس 395 : قانون هنوريوس، موجه إلى «فيكاريوس» افريقيا Hierius، يؤكد فيه الامتيازات الممنوحة إلى الكنائس ويضمن للكهنة الحماية من أصحاب البدع أو الانشقاقات.

ـــ 13 مارس 398 : قانون إمبراطوري في موضوع متابعة «المفترين» (ربما أنصار «جيلدو» من الدوناتيين).

ـــ 12 فبراير 405 : «مرسوم الوحدة» بين الكنيستين Edictum de Unitate وأربعة قوانين ضد الدوناتية، أحدها يعتبر الدوناتية هرطقة.

ـــ 25 فبراير 405 : قرار هنوريوس يأمر بنشر القانون الذي أصدره يوليانوس «المرتد» لصالح الدوناتية في سنة 362، والطلب الذي بعث به الدوناتيون في هذا الشأن إلى ذلك الإمبراطور. (غرض هنوريوس من نشر ذلك القانون هو فضح الدوناتيين).

ـــ 5 مارس 405 : قانون وجهه هنوريوس إلى Diomitius ـــ بروقنصل افريقيا إذ ذاك ـــ يأمر بإعلان ونشر مرسوم الوحدة الصادر في 12 فبراير 405.

ـــ 8 دسمبر 405 : قانون آخر موجه إلى نفس البروقنصل يحثه فيه على تطبيق القوانين ضد الدوناتية.

ـــ 15 نونبر 407 : ـــ قانون بعث به هنوريوس إلى البروقنصل Prophyrius في نفس الشأن.
ـــ قانون ضد «الجبليين» Montenses (دوناتيي روما).

ـــ 24 نونبر 408 : قانون آخر إلى البروقنصل «دوناتوس» Donatus.

ـــ 27 نونبر 408 : قانون آخر ضد أصحاب البدع في افريقيا.

ـــ 13 يناير 409 : قانون ضد الدوناتيين.

ـــ 15 يناير 409 : قانون آخر ضد الدوناتيين.

ـــ بداية 410 : مرسوم إمبراطوري ؟ للتسامح مع الدوناتيين، قام بتنفيذه هرقليانوس Heraclianus كونت افريقيا. =

جيدا أن الإكليروس الدوناتي ظل في هذه الفترة أيضا يحاول إقناع الدولة بأنه يمثل الكنيسة الكاثوليكية[99]. كما أنه لم يتورع عن اللجوء إلى السلطات في بعض الظروف الخاصة لمحاولة التخفيف من حدة القمع الذي تعرضت له الكنيسة الدوناتية أو لالتماس العقوبات ضد المنشقين عن الدوناتية «الأرثذكسية»[100]. حقا، لقد اضطروا إلى هذا التصرف اضطرارا في هذه الفترة، خاصة وأن الكاثوليكيين كانوا يستأثرون بمسامع السلطة ولا يتورعون في توجيهها لصالحهم[101]. ولكن المرء لا يمكن أن ينكر أن سياسة الزعماء الدوناتيين

= — 25 غشت 410 : قانون جديد يبطل مرسوم التسامح.
— 14 أكتوبر 410 : قانون هنوريوس يأمر فيه «ماركلينوس» بتنظيم ورئاسة مناظرة بين ممثلي الكنيستين الافريقيتين.
— 30 يناير 412 : مرسوم الوحدة بين الكنيستين.
— 17 يونيو 414 : قانون ضد الدوناتيين مبعوث إلى البروقنصل يوليانوس.
— 30 غشت 414 : قانون مبعوث به إلى نفس البروقنصل يؤكد الإجراءات السابقة ضد الدوناتيين.

- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., n. 2, pp. 265-66.

(99) في سنة 313 عند بداية الانشقاق، بعثوا رسالة إلى قسطنطين يحتكمون فيها إليه. (أعلاه، ص 176). وفي سنة 346، بعث دوناتوس «الأكبر» إلى قسطنس يطلب الاعتراف بأنه زعيم الكنيسة الافريقية بعد موت «كايكيليانوس». (أعلاه، ص 213). وحتى في خضم مناظرة قرطاج التي مثلت بداية النهاية بالنسبة للدوناتيين (411)، لم يتخل الدوناتيون عن هذا المطلب. مثلا تدخل «بتيليانوس» : «ليسجل في المحضر (محضر المناظرة) أنهم سموا أنفسهم «كاثوليكيين»، وأن هذا الادعاء لا يشكل حكما مسبقا ضدنا... نعم ! إن الكنيسة الكاثوليكية الحقة عندنا...».

- **Gesta**, III, 22 = Ed. Lancel, S., **S.C.** n° 224, p. 996.

كذلك الفقرات التالية، خاصة : :

- **Gesta**, III, 75 (éd. Lancel, S., **S.C.** n° 224, p. 1038).

(100) في سنة 362، طلب الدوناتيون من يوليانوس «المرتد» تطبيق قانون التسامح الديني على كنيستهم. وفي قضية الانشقاق «الماكسيمياني» (392م)، تدخلوا لدى المحاكم ولدى «البروقنصل» لانتزاع الكنائس وممتلكاتها من يد المنشقين. وفي 406، بعثوا وفدا إلى رافينا (العاصمة آنذاك) للتفاوض مع أحد كبار الموظفين في محاولة التخفيف من وطأة القمع بعد مرسوم هنوريوس وقوانينه ضد الدوناتية (405).

- **Gesta**, III, 141; Ed. Lancel, S., **S.C.**, n° 224, p. 1094.

(101) انظر النصوص : 22، 32، 35، 48 إلخ...

اتسمت بشيء من التجاوز للمبادىء[102] وان أقل ما يقال عنها أنها اتسمت «بالواقعية» أو «البرغماتية» في بعض الفترات.

غير أن التعاون الذي وجد أحيانا بين الدوارين والدوناتيين كان ظرفيا ومشوبا بنوع من الحذر والتخوف من جانب الدوناتيين. كما أنه كان لا يكتسي فعالية نسبية إلا لوجود جناح متطرف في الكنيسة الدوناتية نفسها. وقد رأينا نفس الظاهرة في الفترة السابقة[103]. وفي هذه الفترة أيضا يبدو أن الكنيسة كانت منقسمة على نفسها : جناح معتدل يمثله الزعماء والاكليروس الأعلى، وهو الجناح الذي لا يحبذ التعامل مع الدوارين أو يسود استغلالهم بدون أن يتورط في الاعتراف بمشروعية أعمالهم، وجناح متطرف يمثله بعض الأساقفة كأبطاتوس الجيلدوني، وعدد من رجال الدين الصغار، أولئك «الاكليركيون» الذين يتحدث عنهم أغسطين[104] والذين يصفهم مع الدوارين بهذه النعوت : «... هذه المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تدرك ولا تحتمل ما ننصحه بها لمصلحتها...»[105]. وذلك يذكرنا بموقف «كلاروس» — كاهن Locus Subbulensis — الذي تردد كثيرا في تنفيذ تعاليم أسقفه القاضية بمنع الدوارين من «دفن قتلاهم في بيت الله»[106]. فمثل هؤلاء الكهان كانوا أقرب من رؤسائهم إلى الجماهير الشعبية، خاصة في الأرياف. هناك فقط، يمكن أن نتحدث عن تعاون حقيقي بين الدوارين والدوناتيين.

خلاصة القول أن الأمور تمت في عهد أغسطين كما لو أن الدوناتيين سقطوا في فخ نصبه لهم الكاثوليك بمهارة فائقة، لاشك أن أسقف «هيبو ريجيوس» كان من ورائها. وتسلسلت المعطيات كالتالي : حركة الدوارين تهدد الأمن في البلاد بمهاجمتها الملاك. وبما أن الدوارين دوناتيون، فالدوناتية تتحمل مسؤولية تهديد الأمن. الدوناتيون يحتجون أن «لا يد لهم» في حركة الدوارين لكن الكاثوليك يطلبون منهم التنكر للحركة. الدوناتيون لا يستطيعون لأسباب متعددة منها أن

---

(102) أحيانا، مبادىء أساسية في المذهب، كإعادة التعميد، أعلاه، ص 199.

(103) أعلاه، ص 201.

(104) أعلاه، ص 233.

(105) النص 35 في الملحق.

(106) أعلاه، ص 201.

الدوارين يمثلون أنصارا أقوياء يمكن أن ينقلبوا ضدهم. الدولة تضرب الدوناتية وحركة الدوارين تساند الدوناتية وتهاجم الكاثوليك، إلخ...

وجد الدوناتيون أنفسهم على ما يبدو في حلقة مفرغة، فلا هم يستطيعون التنكر للدوارين ولا هم يستطيعون إقناع السلطة بأن لا يد لهم في الحركة. وكلما تعذر عليهم ذلك كلما تعرضوا للاضطهاد، فأصبحوا في حاجة أكبر إلى الدوارين وتشبث بهم الدوارون أكثر. وهكذا، دواليك. والنتيجة التي تهمنا هي أن حلفا غير معلن تكون بالتدرج بين الدوناتيين والدوارين، وكانت بدايته في أحداث 347، على الأرجح. وبعدئذ أصبح من المحتم أن يتقوى ذلك الحلف كلما تقوى الحلف الآخر لمواجهته. أي الحلف الذي استطاع أن يكونه الكاثوليك مع السلطة الزمنية الحامية لهم. لذا كيف نعجب أن حركة الدوارين أصبحت موجهة ضد الكاثوليك خاصة وأن الملاك أصبحوا في معظمهم في نهاية القرن الرابع كاثوليكيين(107) ؟ إن ما وقع يمكن إدراكه بسهولة ولا حاجة إلى تأويل فقهي للدوناتية قصد الوصول إلى أنها كانت كنيسة الفقراء. فالمشكل لم يطرح هكذا في البداية، ولم يكن الأمر يتعلق إلا بالانفصال عن «المتخاذلين». حقا، كان الانفصال «سوسيولوجيا» أو بالأحرى «جسديا»(108) (حسب تعبير أغسطين) وليس على المستوى الروحي كما كان يكتفي به الكاثوليك. حقا كان بإمكان هذا الانفصال السوسيولوجي بين «المتخاذلين» وذريتهم (الكاثوليك) من جهة وبين الشهداء وخلفهم (الدوناتيون) من جهة أخرى ــ أن ينزلق إلى انفصال بين الأغنياء والفقراء، كما حاول «بريصون» إظهاره(109). إلا أن هذا الانزلاق نفسه لم يأت بسبب اعتبارات دينية، ولكن للأسباب السياسية التي ذكرناها. فالأغنياء لم يكونوا كلهم كاثوليك، والفقراء لم يكونوا كلهم دوناتيين، ومن ثم فالمعادلة

---

(107) - Warmington, B.H. **The North african provinces..**, op. cit, p. 92 et p. 102
- Frend, W.H.C., **The Donatist Church...**, op. cit., p. 329.

(108) حسب تعبير أغسطين : «(المؤمنون) يخرجون من وسط المذنبين وينفصلون عنهم بالقلب ــ مؤقتا ــ... خشية أن يكونوا السبب في انفصال روحي عن الأخيار بدل الانفصال الجسدي عن الأشرار».
- Aug., **C. Ep. Parm.**, II, XVIII, 37; **B.A.** 28, p. 373.
- cf. Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., pp. 131-132.

(109) - Brisson, J.P., ibid, p. 356 ss

بين جزءي الطرفين غير صحيحة. والمعادلة الأصلية هي التي كانت قائمة بين «المتخاذلين» و«المضطهِدين» من جهة وبين «الشهداء» والمضطهَدين من جهة أخرى، والتناقض الأصح كان بين السلطة الرومانية العاملة على إقرار النظام الاجتماعي والسياسي القائم وبين المتذمرين من هذا النظام الروماني : دوناتيين مضطهَدين ودوارين. بهذا المعنى فقط، يمكن أن ندرك كيف أن الانشقاق الديني اتخذ صبغة مقاومة «وطنية» للوجود الروماني، وأنه تعاون مع الزعيمين الافريقيين الثائرين على روما «فيرموس» و«جيلدو». وينبغي أن لا ننسى أن الكنيسة الدوناتية ظلت تسعى إلى اعتراف الدولة بها، على أنها كانت الكنيسة الكاثوليكية الحقة، وأنها لم تتورع عن اللجوء إلى السلطات الرومانية وإلى المحاكم لاسترجاع ممتلكاتها وبناياتها من المنشقين عن خطها «الأرثدكسي».

إن القول بأن الدوناتية كانت كنيسة الفقراء لا يمكن أن يقبل إلا بتحفظ. وبدقيق العبارة، ان الدوناتية أصبحت من حيث تكوينها السوسيولوجي تضم نسبة كبيرة من الفقراء في نهاية القرن الرابع لا بسبب مبادىء خاصة أو إيديلوجية مسيحية متميزة تمدح الفقر وتندد بالثروة. بل إن انتماء أولئك الفقراء إليها هو الذي أدى في نهاية المطاف إلى ظهور بوادر في تلك الايديلوجيا، ولكن بوادر طفيفة ومستعملة لأغراض جدلية[110]. إن انتماء الدوارين إلى الدوناتية يرجع إلى ظروف الاضطهاد التي كانت تعاني منها الكنيسة الدوناتية، ورغم أن «مونصو» جعل من الدوارين عصابات من اللصوص، فإنه أدرك تماما أن الحلف بين الدوارين

(110) مثلا في الرسالة التي قرأها أحد أساقفتهم خلال مناظرة قرطاج (411) : «عندما نعيب عليهم (أي على الكاثوليك)، اضطهادهم لنا... لا يتورعون عن التهرب والقول بأن بعضا منا اضطهدوا «المكسميانيين»، مع أن هناك فرقا كبيرا بين كوننا أردنا استرجاع ممتلكات كنيسة إخواننا الفقراء...، وكونهم (الكاثوليك) سحقوا مجموع الشعب المسيحي بشتى الأضرار... عندما انتهكت بكارة العذارى المنذورات، وعندما أُبعِد الأغنياء، وسُلِب الفقراء، وعندما صودرت الكنائس... إلخ».

- **Gesta, III, 258; Ed. Lancel, S., S.C. n° 224, p. 1219.**

عن هذه البوادر انظر «بريصون» :

- **Brisson, J.P., Autonomisme et Christianisme...**, op. cit., p. 352.

والدوناتية لم يكن إلا حلف المتذمرين، وجبهة المضطهَدين[111] ضد أصحاب الأمر في البلاد : الملاك والكنيسة الكاثوليكية. وربما كان عليه أن يضيف أن تلك الحركة لم تكن إلا دليلا آخر على فشل الاستعمار الروماني في افريقيا، ومقاومة السكان لكل ما جره من استغلال واختلال للتوازن الاقتصادي والاجتماعي.

(111) - Monceaux, P., **R.H.R.** 64, Paris, 1911, p. 53 ss

وكذلك :

- Courtois, Chr., **les Vandales et l'Afrique**, op. cit., pp. 147-148.

خاتمة

يمكنني الآن أن أخرج ببعض النتائج والملاحظات من هذا البحث. لقد كانت القضايا الرئيسية التي تطرحها دراسة الدوارين هي ماهيتهم وطبيعة حركتهم وعلاقتهم بالدوناتية. وهذه المشاكل الثلاثة ـــ كما اتضح في سياق البحث ـــ مترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا، لدرجة أنه استعصى علي أحيانا أن أتطرق إلى مشكل دون إثارة الآخر. على أنه كان من اللازم ـــ في اعتقادي ـــ بعد أن طرحت مشكل الدوارين بمعطياته في المصادر التي تطرقت إليهم ـــ، أن أبدأ بدراسة الإطار الاقتصادي والاجتماعي الذي تحرك فيه الدوارون. وبما أن مجال الدوارين كان ـــ حسب ما وصلنا من شهادات مختلفة ـــ الأرياف الافريقية، فإنني ألقيت في الفصل الأول نظرة على الحالة في تلك الأرياف خلال فترة ظهور الدوارين وحركتهم. وركزت بصفة أساسية على نظام ملكية الأرض واستغلالها. وقد خرجت من دراستي تلك بالنتائج التالية :

ـــ **أولا** : تركز الملكية العقارية بيد عدد قليل من الأشخاص معظمهم غير قاطنين في البلاد، وتزايد نفوذهم وثروتهم على حساب الملاك المتوسطين والصغار.

ـــ **ثانيا** : وجود يد عاملة بتلك الملكيات الشاسعة، عبارة عن عبيد أو مزارعين بالحصة Coloni أو عمال موسميين.

ـــ **ثالثا** : تفاقم وضعية المزارعين بالحصة على الخصوص، وتطورهم خلال القرن الرابع إلى شبه أقنان مرتبطين بالأرض.

لم تكن هذه الأوضاع المتردية خاصة بافريقيا، بل كانت شبه عامة في عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بعد إصلاحات ديقليديانوس وقسطنطين خاصة. ولكن الشيء الذي كان يميز افريقيا هو وجود عدد مهم من العمال الأحرار الموسميين، على نمط «حصاد مكثر».

وهؤلاء العمال المتنقلون يشكلون ظاهرة قديمة وثابتة في افريقيا، ويرتبط وجودهم بنمط عيش الترحال الذي كان سائدا في بعض السهوب الافريقية لدى

عدد من السكان، والذي لم تستطع روما أن تقضي عليه رغم ما حاولته من تحديد مجالات الشعوب وتضييق الخناق عليها كي تستقر في تلك المجالات أو تلتحق للعمل في الضيعات، أو تجتاز الحدود الرومانية إلى الصحراء. وكانت هذه اليد العاملة الموسمية تتنقل عبر الأقاليم للمشاركة في مختلف غلات السنة من حصاد وقطف العنب والزيتون.

مكنتني دراسة الفئات الاجتماعية الموجودة بالأرياف الافريقية أن أطرح بوضوح أكبر في الفصل الثاني مشكلة ماهية الدوارين، وأن أحاول الإجابة عليها. وللوصول إلى هذا الغرض، انطلقت من نوعين من المعطيات.

أ ــ معطيات أحد قوانين «هنوريوس» الصادر ضد الدوناتيين في سنة 412، والذي يحدد قيمة الغرامات والعقوبات المفروضة على الدوناتيين بتناسب مع الإمكانات الاقتصادية لكل فئة من الفئات الاجتماعية الموجودة في افريقيا في تلك الفترة.

ب ــ معطيات يمكن استنباطها من الكتابات الكاثوليكية، والتي تشير إلى الدوارين في خضم الجدل الفقهي والمساجلة الكلامية مع الدوناتيين.

ويتضح من دراسة قانون هنوريوس ــ والتي تبعت فيها «صوماني» Saumagne ــ أن الدوارين كانوا يشكلون فئة اجتماعية مكونة من رجال يعيشون في الضيع الكبرى التي كانت في حوزة الإمبراطور أو الملاك الكبار، وهناك، كانوا يعملون تحت سلطة الوكلاء على تلك الضيع procuratores أو مؤجريها من أصحابها conductores. وحسب ترتيب الدوارين في قائمة الفئات المغرمة، وتبعا كذلك لقيمة الغرامة المفروضة عليهم، يتجلى أن الدوارين كانوا يحتلون مكانة وضيعة في المجتمع ولكنهم كانوا أحرارا وفي مرتبة أعلى من العبيد والمزارعين بالحصة.

كان علي أن أرى بعد ذلك مدى تطابق معطيات هذا القانون مع معطيات إشارات الكتاب الكاثوليك إلى الدوارين. فوجدت أن تلك المعطيات ــ بعد تجريدها مما علق بها من شتم وقذف ــ تتلاءم تمام التلاؤم مع معطيات قانون «هنوريوس».

ومن ثم، كان ينبغي البحث عن الدوارين من بين الفئات العاملة في الأرياف،

والتي عرضت لها في الفصل الأول. فوجدت أن المعطيات السابقة لا تنطبق تماما إلا على فئة العمال الموسميين والمتنقلين، كما اقترحه «صوماني» سابقا.

على أن رأي صوماني ـــ الذي تبعه عدد من الباحثين من بينهم «بريصون» Brisson على الخصوص ـــ تعرض في السنين الأخيرة لعدة انتقادات، وأعطي اقتراحان جديدان لتفسير ماهية الدوارين. وقيل إنهم نوع من رهبان متنقلين (كالدرون Calderone)، وقيل أيضا إنهم رواد الأضرحة (Frend). فكان علي أن أعرض هذين الرأيين وأناقشهما. ورأيت في نهاية المطاف أنهما لا يرتكزان على دلائل متينة، وفي الأخير رجحت رأي «صوماني» على أن الدوارين كانوا من العمال الموسميين.

وفي الفصل الثالث، بدأت الحديث عن القضية الرئيسية الثانية التي يطرحها الموضوع، والتي تتعلق بطبيعة حركة الدوارين. وقد انقسم الباحثون حول هذه القضية إلى تيارين : تيار يركز على الطبيعة الاجتماعية والثورية لحركة الدوارين، وتيار يرى أن تلك الحركة كانت دينية أساسا. وقد خصصت للجوانب الاجتماعية الفصل الثالث وللجوانب الدينية الفصل الرابع.

ففي الفصل الثالث، رجعت إلى مختلف الشهادات والإشارات إلى تلك الطبيعة الاجتماعية. وانطلقت من أقدم إشارة صريحة إلى عمليات الدوارين، وتتبعت تلك الإشارات حتى آخر ما ورد عند أغسطين. وفي مختلف تلك الإشارات يتجلى أن حركة الدوارين كانت موجهة ضد الملاك والأسياد والمرابين، لحماية المستضعَفين من العبيد والمزارعين. أي أن جوانبها الاجتماعية لا يمكن أن تنكر. ولذا، كان من اللازم أن أرجع إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية القمينة بتعليل تصرفات الدوارين. فاعتمدت أساسا على نتائج دراستي في الفصل الأول لتلك الظروف، وناقشت رأي «بيكار» الذي يرى أن تزايد السكان في افريقيا خلال «الفترة الرومانية» يعلل حركة الدوارين. ورأيت ـــ على عكس هذا الباحث ـــ أن الأسباب الرئيسية تكمن على الأرجح في التطورات التي عرفتها افريقيا منذ القرن الثالث، والتي تفاقست خطورتها خلال القرن الرابع، إثر الإصلاحات الجبائية، وتزايد ضغط الملاك على الفلاحين. وقد تجلت مظاهر تلك الأزمة في هجر الملاك لبعض الأراضي التي كان استغلالها غير مربح بالنسبة لهم. وفي نفس

الوقت تزايد ضغط الأفارقة الأحرار على الحدود الرومانية، وبدأوا يتسللون داخل تلك الحدود، ويلتحق بعضهم بصفوف العمال الموسميين، مما يفسر أن الدوارين كانوا في معظمهم من العناصر غير المرومنة أو قليلة الترومن. وكان احتكار الملاك الكبار من الرومان أو المترومنين للأراضي من جهة، وتناقص فرص العمل بالنسبة للدوارين من جهة أخرى، من جملة الأسباب التي أدت إلى قيام حركة الدوارين. ولم يكن الدوارون بأي حال من الأحوال مجرد لصوص أو قطاع طرق، ولم يهدفوا تخريبا فوضويا يصيبون به ضحاياهم بدون تمييز، كما تدعي الكتابات الكاثوليكية، ولكن حركتهم كانت منظمة لها مبادؤها وأهدافها وطرق عملها.

على أن حركة الدوارين لم تكن خالية من المظاهر الدينية، حسب شهادات الكتاب الكاثوليك. وأبرز تلك السمات الدينية ــ حسب أولئك الكتاب ــ كانت «الانتحار» قصد الحصول على درجة الشهادة، وكذلك زيارة أضرحة الشهداء. وقد تعرضت لهذه السمات في الفصل الرابع.

وبعد تحليل بعض النصوص الكاثوليكية ومقارنة تصرفات الدوارين الدينية بتصرفات غيرهم في افريقيا وخارجها، وجدت أن بعض المظاهر المنسوبة إلى الدوارين دون غيرهم لم تكن في الواقع حكرا على تلك الفئة، من ناحية أولى، وأن النصوص الكاثوليكية ــ من ناحية ثانية ــ بالغت في تلك التصرفات نظرا لظروف الجدل الفقهي بين الدوناتيين والكاثوليك الأفارقة. ووصلت في نهاية التحليل إلى أن تلك السمات الدينية ــ التي يركز عليها Frend خاصة ــ لا ترقى لكي تعطي حركة الدوارين طبيعة دينية محضة، ولا تعلل تصرفاتهم تجاه الملاك والأسياد والمرابين.

وتعرضت بعدئذ إلى القضية الرئيسية الثالثة في بحثي، والتي اعتبرتها محور الموضوع وجانبه القمين بالوصول إلى توضيحات حول كنه الحركة، وتحديد الأدوار لكل من الدوناتية والدوارين. فقمت برصد لعلاقات الدوارين بالدوناتية من بزوغ الانشقاق في الكنيسة الافريقية إلى صدور القوانين الصارمة التي انهارت إثرها الكنيسة الدوناتية. وميزت بين ثلاثة مراحل في تلك العلاقات.

خصصت الفصل الخامس من دراستي لبحث المرحلة الأولى من تلك العلاقات. ووقفت على الإرهاصات الأولى لحركة الدوارين، ثم قمت بدراسة

لأقدم الصلات بين الدوارين والدوناتية على ضوء نص ابطاتوس. وكانت النتيجة أن تلك الصلات لم تكن علاقة تبعية للدوارين تجاه الاكليروس الدوناتي، وأن أهداف الطرفين لم تكن متطابقة، وإن كان الدوارون في معظمهم ينتمون إلى تلك الكنيسة. على أنني رجحت أن حركة الدوارين لم تكن ــ منذ ذلك الوقت ــ خالية من الاهتمامات الدينية، ولكن تلك الاهتمامات لم تكن إلا صبغة سطحية تسترت بها مطالب اقتصادية واجتماعية تتجلى بوضوح في مناهضة الدوارين للملاك والأسياد والمرابين من جهة، ومناصرتهم للعبيد والمديونين من الجهة المقابلة.

وفي الفصل السادس، تطرقت إلى أحداث نوميديا في سنة 347، واعتبرتها منعرجا هاما في العلاقات بين الدوارين والدوناتية، وفي تطور التاريخ الدوناتي بصفة عامة. وخلال هذه الأحداث وبعدها، توثق التحالف والتآزر تدريجيا بين الدوارين والاكليروس الدوناتي، وخاصة منه الكهنة الصغار في الأرياف النوميدية، والذين كانوا يعيشون في ظروف مشابهة لظروف رعيتهم من البسطاء. بحيث تمت على الأرجح عملية تقارب وتفاعل بين حركة الدوارين كحركة اجتماعية، والدوناتية كحركة دينية مضطهَدة من لدن السلطات الرومانية. وفي هذا التاريخ ــ على الأرجح ــ انزلقت حركة الدوارين من المطالب الاجتماعية إلى المطالب الدينية.

وفي الفصل السابع والأخير، وقفت على مظاهر هذا الانزلاق، وعلى حدوده أيضا في عهد أغسطين. فجمعت النصوص المتعلقة بالموضوع وأبرزت بعض التناقضات فيها. ووصلت في نهاية المطاف إلى أن الدوارين أصبحوا يعملون جنبا إلى جنب مع الكنيسة الدوناتية وضد الكاثوليك. وفي هذا، لا مناص من تصديق أغسطين الذي يعطي بعض المعلومات الدقيقة عن تصرفات الدوارين تجاه الأساقفة ومهاجمتهم للكنائس الكاثوليكية، خاصة وأن بعض الوثائق الرسمية تدعم ذلك. ولكن أغسطين نفسه يشير إلى أن الدوارين ظلوا يهاجمون الملاك ويحمون العبيد والمزارعين، أي أن أهداف الدوارين الأصلية لم تختف تماما، وكذلك أيضا لم يختف الحذر الذي كان الاكليروس الدوناتي يعامل به الدوارين، رغم تقارب ملحوظ فرضته ظروف اضطهاد الدوناتية. ومن ثم العلاقات المتشعبة التي ربطت الدوارين والاكليروس الدوناتي في هذه الفترة. وفي اعتقادي أن حركة الدوارين ــ رغم ما طبعها من سمات دينية لا يمكن إنكارها ــ ظلت حركة اجتماعية بالأساس، وأن السر فيها يكمن في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفتها

البلاد في تلك الفترة وفي اعتقادي أيضا أن التحالف الذي تم بين الدوناتيين والدوارين، والذي تطور في اتجاه اندماج متزايد بين الحركتين لم يكن بسبب إيديولوجيا اجتماعية خاصة كانت تميز الدوناتية عن الكاثوليكية منذ البداية. فالفوارق العقائدية كانت شبه منعدمة بين الكنيستين. ولكن ظروف اضطهاد الدوناتية أدت بالدوناتيين ـــ رغما عنهم، على ما يبدو ـــ إلى الاعتماد أكثر فأكثر على الفئات الدنيا من المجتمع، ومن بينها فئة الدوارين.

ملـحــق

أهم النصوص المعتمد عليها
في هذا البحث بنصها الأصلي
وترجمتها إلى العربية

النص الأول : الفصل الرابع من الكتاب الثالث لأبطاتوس :

هذا النص يؤرخ من القرن الرابع، وهو جزء من كتاب القديس أبطاتوس الميلي الذي عاش على وجه التقريب من 320 إلى 392م. وكان أسقفا في مدينة Milev (ميلة حاليا بالجزائر على بعد 50 كلم شمال غرب القسنطينة). والقديس أبطاتوس أول كاتب كاثوليكي دخل في الجدل الكلامي مع الدوناتيين ووصلتنا كتاباته[1].

والنص الذي نحن بصدده جزء من المؤلف الوحيد الذي خلفه أبطاتوس والذي خصصه للرد على بارمينيانوس Parmenianus، زعيم الدوناتيين وأسقفهم بقرطاج من 363 إلى 391[2]. لا يعرف بالضبط العنوان الذي أعطاه أبطاتوس لمؤلفه، لكن الكتاب يعرف بأحد العنوانين الآتيين :

أ ـــ «الرد على بارمينيانوس الدوناتي» Contra Parmenianum donatistam

ب ـــ «في انشقاق الدوناتيين» De schismate donatistarum

استطاع «مونصو» أن يصل إلى تحديد تاريخ نشر الكتاب لأول مرة بالفترة الفاصلة ما بين أكتوبر 366 وغشت 367. وكانت النشرة الأولى تضم ستة «كتب» (libri)، ثم صدرت نشرة ثانية بعد ذلك في 384 أضيف إليها كتاب سابع[3].

عثر على عدة نسخ مخطوطة من الكتاب[4]، ونشره Dupin لأول مرة في باريس سنة 1700[5]، ثم القس Migne في «الجامع اللاتيني لكتابات أباء

(1) انظر دراسة المصادر والمراجع، أعلاه، ص 37-40.

(2) كان هذا الأخير قد كتب كتابا ضد الكنيسة الكاثوليكية ما بين 362-366، لا نعرفه إلا من خلال رد ابطاتوس عليه في الكتاب الذي يهمنا هنا. انظر أعلاه، ص 2.

(3) Monceaux, P., **H.L.A.C.**, t.5, P. 251

(4) Duchesne, L., Le dossier du donatisme, **M.E.F.R.** 1890, P. 593

(5) Louis-Ellies Dupin, **Sancti Optati Afri Milevitani Episcopi de Schismate Donatistarum libri septem**, Paris, 1700; Amsterdam, 1701.

الكنيسة» Patrologia latina (1866−1844)[6]، وأخيرا C. Ziwsa في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» Corpus scriptorum Ecclesiasticorum latinorum[7] وهو في طريق الترجمة بالفرنسية والنشر في سلسلة «مصادر المسيحية» «Sources chrétiennes»[8].

وفيما يلي النص كاملا كما ورد في نشرة C. Ziwsa في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية»[9].

p.81 4. Quicquid itaque in unitate facienda aspere potuit geri, uides, frater parmeniane, cui debeat inputari. a nobis catholicis petitum militem esse dicitis; si ita est, quare in prouincia proconsulari tunc nullus armatum militem uidit ? ueniebant Paulus et Macarius, qui pauperes ubique dispungerent et ad unitatem singulos hortarentur; et cum ad bagaiensem ciuitatem proximarent, tunc alter Donatus, sicut supra diximus, eiusdem ciuitatis episcopus, inpedimentum unitati et obicem uenientibus supra memoratis obponere cupiens praecones per uicina loca et per omnes nundinas misit, circumcelliones agonisticos nuncupans, ad praedictum locum ut concurrerent inuitauit, et eorum illo tempore concursus est flagitatus, quorum dementia paulo ante ab ipsis episcopis inpie uidebatur esse succensa. nam cum huiusmodi genus ante. unitatem per loca singula
p.82 uagarentur, cum Axido et Fasir ab ipsis insanientibus sanctorum duces appellarentur, nulli licuit securum esse in possessionibus suis; debitorum chirographa amiserant uires, nullus creditor illo tempore exigendi habuit libertatem, terrebantur omnes litteris eorum, qui se sanctorum duces fuisse iactabant, et si in obtemperando eorum iussionibus tardaretur, aduolabat subito multitudo insana et praecedente terrore creditores periculis uallabantur, ut qui propraestitis suis rogari meruerant, metu mortis humiles inpellerentur in preces. festinabat unusquisque debita etiam maxima perdere et lucrum conputabatur euasisse ab eorum iniuriis. etiam itinera non poterant esse tutissima, quod domini de uehiculis suis excussi ante mancipia sua dominorum locis sedentia seruiliter cucurrerunt. illorum

(6) - P.L., XI, col. 883-1104

(7) - Ziwsa, C.S.E.L., t. XXVI, Vienne, 1893

(8) صدرت أخيرا تلك النشرة المنتظرة بتحقيق «ميراي لابروس» :

Labrousse, M., **Traité contre les Donatistes**, 2 vol., S.C. 412-413, Paris 1995-96 (Optat, III, 4 in t. II, pp 36-46).

(9) - Ziwsa, C., C.S.E.L., t. 26, Vienne, 1893, pp. 81-85

iudicio et imperio inter dominos et seruos condicio mutabatur. unde cum uestrae partis episcopis tunc inuidia fieret, Taurino tunc comiti scripsisse dicuntur huiusmodi homines in ecclesia corrigi non pdsse; mandauerunt, ut a supra dicto comite acciperent disciplinam. tunc Taurinus ad eorum litteras ire militem iussit armatum per nundinas, ubi circumcellionum furor uagari consueuerat. in loco Octauensi occisi sunt plurimi et detruncati sunt multi, quorum corpora usque in hodiernum per dealbatas aras aut mensas potuerunt numerari. ex quorum numero cum aliqui in basilicis p.83 sepeliri coepissent, Clarus presbyter in loco Subbulensi ab episcopo suo coactus est, ut insepultam faceret sepulturam. unde proditum est mandatum fuisse fieri, quod factum est, quando nec sepultura in domo dei exhìberi concessa est. eorum postea conualuerat multitudo. sic inuenit Donatus Bagaiensis, unde contra Macarium furiosam conduceret turbam. ex ipso genere fuerant, qui sibi percussores sub cupiditate falsi martyrii in suam perniciem conducebant. inde etiam illi, qui ex altorum montium cacuminibus uiles animas proicientes se praecipites dabant. ecce ex quali numero sibi episcopus alter Donatus cohortes effecerat ! hoc metu deterriti illi, qui thesauros ferebant, quos pauperibus erogarent, inuenerunt in tanta necessitate consilium, ut a Siluestro comite armatum militem postularent, non per quem alicui uim facerent, sed ut uim a Donato supra memorato episcopo dispositam prohiberent. hac ratione factum est, ut miles uideretur armatus. iam quicquid subsecutum est, uidete, cui debeat aut possit adscribi. habebant illic uocatorum infinitam turbam est annonam conpetentem constat fuisse praeparatam; de basilica quasi publica fecerant horrea expectantes, ut uenirent, in quos furorem suum exercere potuissent; p.84 et facerent, quicquid illis / dementia sua dictasset, nisi praesentia armati militis obstitisset. nam cum ante uenturos milites metatores, ut fieri adsolet, mitterentur, contra apostoli praecepta conpetenter suscepti non sunt, qui ait : cui honorem, honorem, cui uectigale, uectigal, cui tributum, tributum; nemini quicquam debueritis. qui missi fuerant cum equis suis, contusi sunt, missi ab his, quorum nomina flabello inuidiae uentilastis. ipsi magistri fuerunt iniuriae suae, et quid pati possent, ipsi praerogatis iniuriis docuerunt. reuerterunt uexati milites ad numeros suos, et quod duo uel tres passi fuerant, uniuersi doluerunt. commoti sunt omnes, iratos milites retinere nec eorum praepositi ualuerunt. sic admissum est, quod in inuidiam unitati factum esse memorasti; haec et cetera uestra et suas causas habent et quas ostendi personas obnoxias. hoc nos nec uidimus quidem sed uobiscum audiuimus. si auditus facit reos, tenemus uos socios, p.85 quia similiter audistis; si a facto / auditus inmunis est, quod ab aliis uobis prouocantibus factum est, nobis non debet inputari. querelam per ordinem deponitis sub leontio, sub Ursacio iniuriatos esse quam plurimos, sub Paulo et Macario aliquos necatos, a sequentibus eorum nescio quos ad

tempus esse proscriptos. quid hoc ad nos, quid ad ecclesiam catholicam pertinet ? quicquid obiecistis, uos fecistis, qui pacem a deo commendatam noluistis libenter excipere cariorem aestimantes hereditatem schismatis quam praecepta proposita saluatoris. arguistis operarios unitatis : ipsam unitatem inprobate, si potestis ! nam aestimo uos non negare unitatem summun bonum esse. quid nostra, quales fuerint operarii, dummodo quod operatum est, bonum esse constet ? nam et uinum a peccatoribus operariis et calcatur et premitur et sic inde deo sacrificium; oleum quoque a sordidis et nonnullis male uiuentibus et inmunda loquentibus conficitur et tamen in sapore, in lumine, etiam in sancto chrismate simpliciter erogatur.

ص.81 «أخي «بارمينيانوس»، إنك ترى الآن على من تقع مسؤولية كل الاجراءات الكريهة التي اتخذت في سبيل (اقرار) الوحدة[10] — تقولون أننا — معشر الكاثوليك — طلبنا تدخل الجيش — فلماذا إذن لم ير جندي واحد في إقليم «البروقنصلية»؟[11] لقد أتى بولس PAULUS ومكاريوس MACARIUS لعد الفقراء وحثهم على الوحدة. وعندما اقتربا من مدينة باغاي Bagai[12]، أراد «دوناتوس» DONATUS الثاني — أسقف المدينة — إقامة العراقل للوحدة وإثارة المشاكل للوافدين على المدينة، لذا بعث المنادين إلى الأماكن القريبة وإلى كل الأسواق ليستنفر الدوارين المناضلين âgonisticos[13]، ويطلب منهم التجمع في مكان عينه لهم. وهكذا طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة أنفسهم يرون قبل قليل جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة[14]. ذلك أنه قبل (صدور

(10) المقصود هو الوحدة الدينية أي رجوع «المنشقين» إلى حضن الكاثوليكية.

(11) المقصود طبعا : افريقية البروقنصلية Africa proconsularis، التي كانت تمثل تقريبا الجزء الشمالي الشرقي من تونس الحالية. والتي ظل الوالي عليها من قبل الإدارة المركزية هو «البروقنصل» Proconsul. عن الأقاليم الرومانية بعد اصلاح ديقليديانوس، انظر أعلاه، ص أ هـ 1.

(12) قصر باغاي حاليا في الجزائر، قريبا من مدينة خنشلة (شمال شرق الأوراس). انظر ص 114 هـ 1.

(13) عن معنى هذا النعت : «مناضلين»، انظر ص 145–148.

(14) الجملة شيئا ما غامضة، والترجمة الحرفية هي كالتالي : «وعندئذ طلب تجمع أولئك الذين كان الأساقفة أنفسهم — على ما يظهر — قد أشعلوا جنونهم بطريقة مدنسة». غير أن الجملة هكذا لا يبقى لها معنى في سياق النص. والراجح — كما تراه Vannier ان أبطاتوس يعيب =

ص.82 قانون) / الوحدة، لم يكن أحد يأمن على ممتلكاته عندما كان أولئك البشر يتسكعون في أماكن مختلفة، وعندما حصل اكسيدو Axido وفاسير Fasir من أولئك الحمق على لقب «زعيمي القديسين». فلم تعد للاعترافات بالديون أية قيمة. ولم يصبح باستطاعة أي دائن أن يرغم مديونه على الأداء. أصبح الكل يعيش في رعب خوفا من رسائل (كذا !) أولئك الذين يتبجحون بصفتهم «زعماء / القديسين». وإذا ما تباطأ أحد في تنفيذ مطالبهم، فإنه كان يعرض نفسه لعصابة مجنونة تصل فجأة، ويسبقها رعب رهيب، فتحيط الدائنين بالمخاطر. وهكذا، فبدل أن يتلقى الدائنون الشكر على عملهم، أرغموا تحت التهديد على التصاغر، وأصبح كل واحد منهم يسرع في التخلي عن الديون التي منحها مهما كانت كبيرة، وأصبح الربح كل الربح أن يفلت الواحد من ضربات الدوارين. والطرق نفسها لم تكن آمنة : فقد حدث لبعض الأسياد أن أنزلوا من عرباتهم وأرغموا على الهرولة أمام خدمهم الذين تبوءوا مقاعد الأسياد. هكذا قرر أولئك الناس قلب وضعية الأسياد والعبيد رأسا على عقب. وقد جلبت تلك التصرفات الحقد على أساقفة حزبكم /، فبعثوا ــ على ما يقال ــ برسالة إلى «الكونت»[15] طورينوس Taurinus يخبرونه فيها أن مثل هؤلاء الناس لا يمكن ارجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة، لذا طلبوا منه ارجاعهم إلى الطريق السوي. واستجابة لهذا الطلب، أرسل طورينوس جنودا مسلحين إلى الأسواق حيث اعتاد الدوارون القيام بأعمالهم الخرقاء./ وهكذا، تم قتل العديد منهم (أي الدوارين) وجرح عدد كبير آخر في «محلة اكطافا» Locus octaviensis[16]. ولازالت الأضرحة البيضاء (dealbatae arae)

= على الأساقفة الدوناتيين كونهم استعانوا بالدوارين مع أنهم طلبوا ــ قبل مدة قليلة من ذلك ــ تدخل الجيش ضدهم. وهذا ينسجم أكثر مع ما سيأتي في النص.

- **Vannier, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'optat, R.A., 1926, pp. 19-20.**

(15) قائد الجيش في ابرشية افريقيا، انظر ص 118 هـ 3.

(16) مكان مجهول في نوميديا. انظر ص 119 هـ 1.

ص.83 والطاولات (mensae) تسمح لحد الساعة بتعداد جثتهم./ وقد بدأوا يدفنون بعض موتاهم في الكنيسة، لكن «كلاروس» Clarus، القس بـ«حملة سوبولوس»[17] Locus subbulensis، أرغم من طرف أسقفه على منعهم من القيام بذلك الدفن. لذا، فإنه ـــ على ما يقال ـــ تقرر تعميم هذا المنع (من الدفن) بما أنهم حرموا من الدفن في بيت الله.

وقد تزايد عدد الدوارين بعد ذلك. وهكذا تمكن دوناتوس الباغائي من حشد جمهرة ثائرة لمواجهة مكاريوس Macarius. وكانت هذه الجمهرة تضم أولئك الذين كانوا يضربون أنفسهم، والذين كانت رغبتهم في الحصول على استشهاد باطل توصلهم إلى الهلاك. وفي صفوفهم أيضا أولئك الذين كانوا يلقون بأنفسهم وأرواحهم المدنسة من قمم الجبال. من كل هؤلاء/ جند دوناتوس جموعه ! وأمام هذه الوضعية الخطيرة، فإن حاملي الكنوز المخصصة للفقراء انتابهم الخوف، فارتأوا أن يلتمسوا من الكونت سلفسطير Silvester التدخل بالسلاح، لا ليمارسوا العنف ضد أي أحد، ولكن ليمنعوا العنف الذي نظمه الأسقف دوناتوس./ ولهذا السبب، وُجدت الفرقة العسكرية ـــ إنكم ترون الآن على من تقع مسؤولية الأحداث ـــ لقد كانت عندهم هناك حشود لا تحصى استحضروها. ومن الثابت أنهم جمعوا المؤن الكافية لاطعام تلك الحشود. أولئك الذين كانوا يترقبون مجيء الرجال الذين سوف يمارسون عليهم أعمالهم الخرقاء، حولوا الكنيسة إلى اهراء عمومية[18]/.

ص.84 وكانوا على وشك الانسياق مع/ حماقتهم لولا وجود الجنود الذي منعهم من ذلك. وكالعادة، كان بعض جنود الاستطلاع metatores يسبقون زملاءهم، فلم ينالوا الاستقبال اللائق بهم، على عكس ما جاء في تعاليم الرسول : «اعطوا الإكرام لمن له الإكرام، والجزية لمن له الجزية،

(17) مكان مجهول أيضا في نوميديا. نفس الملاحظة.

(18) أي مخازن الحبوب، على غرار المخازن التي كانت موجودة في الإقليم، والتي كان يودع بها حصيلة ضريبة المؤن annona المفروضة على السكان.

والإثاوة لمن له الإثاوة، وبعدها لا تكونون مدينين لأحد/ بشيء»[19]. هؤلاء الفرسان الذين أرسلهم أولئك الذين أثارت دعايتكم الحقد عليهم (أي المبعوثين الامبراطوريين) تعرضوا للضرب. والعنف الذي مورس عليهم وعانوا منه، جاء على يد أولئك الذين حرضوا عليه وأعطوا عليهم المثال بما مارسوه من عنف سابقا. التحق الجنود الجرحى ببقية الفرقة العسكرية وتأثروا كلهم لما أصاب اثنين أو ثلاثة منهم./ ولم يتمكن قادة الجيش من ضبط جنودهم الغاضبين. وهكذا وقع ما وقع لمواجهة الحقد ولصالح الوحدة (الدينية)، فعانيتم من ذلك ما عانيتم. لقد كشفتُ عن الأسباب والمسؤوليات في هذه الأحداث وفي كل الأعمال الأخرى. إننا لم نر هذا بالعين، ولكننا سمعنا به كما سمعتم به أيضا. فإذا كان مجرد السماع بشيء/ يلصق التهمة بالسامع، فإننا نعتبركم شركاء لنا في الإثم، طالما أنكم سمعتم الخبر بنفس الطريقة (التي سمعناه بها)، وإذا كان السماع ص.85 بالخبر شيئاً/ والفعل شيئاً آخر لأن الفاعلين كانوا أجانب مستفزين، فليس من المقبول أن نتحمل مسؤولية الفعل. لقد رفعتم الشكوى في عهد «لينتيوس» Leontius، وفي عهد «ارساكيوس» Ursacius[20] بدعوى أن العديد منكم أصابهم حيف، ثم في عهد «بولوس» Paulus و«مكاريوس» Macarius[21] لأن بعضكم قُتلوا، وأخيرا في عهد من جاء بعدهما لأنهم نفوا من لست أدري بصفة مؤقتة. فما هو ذنبنا في كل هذا ؟ ما دخل/ الكنيسة الكاثوليكية في هذا ؟ لقد قاومتم بكل الأشكال ولكن بدون جدوى، فأنتم الذين تصرفتم، وأنتم الذين لم تقبلوا عن طيب خاطر السلام الذي طلبه الله منكم. أنتم الذين أعطيتم لتركة الانشقاق ثمنا أكبر من قيمة تعاليم المنقذ. وتعترضون قائلين بأنكم صانعو

(19) رومية، 13، 7 : «فاعطوا الجميع حقوقهم. الجزية لمن له الجزية والجباية لمن له الجباية والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام».

(20) «كونتان» Comites تكلفا بتطبيق القوانين على الدوناتيين بعد صدور حكم قسطنطين ضدهم سنة 316.

(21) المبعوثان الامبراطوريان اللذان أرسلهما قسطنس إلى افريقيا في سنة 347. عن أحداث تلك السنة ومهمة المبعوثين انظر الفصل السادس.

الوحدة. ناهضوا الوحدة ما استطعتم إلى ذلك سبيلا ! فلا أعتقد أن بوسعكم أن تنكروا/ أن الوحدة هي أغلى المكاسب. ماذا يعفينا من قيمة الفاعل إذا كانت صحة النتيجة مضمونة[22]. فالعمال الذين يدوسون العنب ويعصرونه مذنبون، لكن العصير — كما هو — يقدم قربانا إلى الله. ان الذين يصنعون الزيت أشخاص وسخون، وأحيانا ذوو تصرفات شائنة وغلظة كبيرة/، ومع ذلك فإن الزيت يستخدم للطهي والإنارة: بل كزيت مقدس أيضا.

النصوص : 2 و3 و4 من كتاب «مزمور ضد حزب دوناتوس» لأغسطين :

النصوص التالية تؤرخ من نهاية سنة 393. كتبها أغسطين وهو في بدايات عهده بمهمة راع (presbyter) كاثوليكي في كنيسة «هيبو ريجيوس» Hippo Regius (عنابة بالجزائر الحالية). وقبل أن يصبح أسقفا على ابرشيتها.

وهذه النصوص عبارة عن فقرات من نشيد ديني (مزمور) ضد حزب دوناتوس : (Psalmus contra partem Donati) نظمه أغسطين في أسلوب شعبي متداول ليسهل على رعيته من البسطاء والأميين حفظه وترتيله في بعض المناسبات[23]. ويدعو أغسطين في هذا النشيد إلى الوحدة الكاثوليكية. ويرجع

---

(22) المقصود بالفاعل المعمد ومقدم الأسرار، والنتيجة التعميد. وهذه النقطة كانت محط خلاف بين الدوناتيين والكاثوليك، بحيث كان الدوناتيون يرفضون التعميد الذي يتم على يد غير الاطهار (على يد غير «القديسين» Sancti)، وبصفة خاصة المتخاذلين الذين «سلموا» الكتب في فترة اضطهاد الدولة للمسيحيين (Traditores) أي الكاثوليك في اعتبارهم. أما أبطاتوس والكاثوليك، فيرون أن مقدم السر minister يمكن أن يكون مذنبا، ومع ذلك فإن خدمته تكون مقبولة، لأنه يعمل باسم المسيح والكنيسة. فلا حاجة إلى إعادة تعميد المسيحيين حتى ولو تلقوا التعميد على يد «المنشقين». أما الدوناتيون فكانوا يعيدون تعميد كل الكاثوليك الذين التحقوا بمذهبهم. عن هذه النقطة، انظر مثلا :

- **Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale, Paris, De Baccard, 1958, P. 133 ss.**

(23) هذه الطريقة لم تكن جديدة. وقد سبق «لبارمينيانوس» الدوناتي أن نظم هو الآخر أناشيد كان الدوناتيون يرتلونها : Ep. 55, 18, 34

- **Congar, Y.M.J., B.A., t. 28, Paris, 1963, P. 140.**

إلى تاريخ الانشقاق ليضحد «ادعاءات» خصومه الدوناتيين، ويجيب كذلك على اتهاماتهم لكنيسته بشأن الاضطهاد الذي يعانون منه على يد السلطة الزمنية. كان أغسطين حينذاك لم يطلع بعد على بعض الوثائق الهامة وبعض الأحداث من تاريخ بدايات الدوناتية، إذ كانت معلوماته تنحصر في ما ورد عند أبطاتوس[24].

كان الكتاب يعرف عن طريق مخطوطات، ترجع إلى القرن الخامس عشر للميلاد، أو إلى القرن الثاني عشر[25]، ثم عثر على مخطوط جديد يرجع إلى القرن التاسع، وفيه بعض ما كان ينقص المخطوطات السابقة. وقد نشر هذا المخطوط Dom Lambot في سنة 1935[26]. ثم تلته نشرات أخرى[27] أخذت المخطوط الأخير بالاعتبار، منها نشرة «المكتبة الأغسطينية» التي اعتمدتها[28]. وفيما يلي النصوص وترجمتها :

النص الثاني : **Psalmus contra partem donati, 88-92**[29]

88 Multos enim nunc habetis
qui uobis displicent ualde,
89 nec tamen hos separatis
a uestra communione.
90 Non dico de illis peccatis,
quae potestis et negare :
91 fustes, ignes, mortes dico,
quae committunt uestri in luce;

(24) انظر دراسة المصادر، أعلاه، ص 4.

(25) - Congar, Y.M.J., **B.A.** 28, P. 143-145

(26) - Dom Lambot, C., texte complété et amendé du «Psalmus contra partem donati» de Saint Augustin, **Revue Bénédictine**, t. 47, 1935, pp. 312-330.

(27) بالإضافة إلى نشرة «المكتبة الأغسطينية»، هناك نشرتان :

- Bulst, W., **Hymni Latini Antiquissimi. 85. Psalmi 3**, Heidelberg, s.d. (1956), pp. 139-146; 169-170-198.

- Anastasi, R., **Aurelii Augustini Psalmus contra partem Donati**, Padoue, 1957.

(أما نشرة «الجامع اللاتيني لكتابات آباء الكنيسة» (**Patrologiae Latinae**, 43, col. 23-32) ونشرة «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» (C.S.E.L., 51, pp. 3-15) فقد اعتمدت على المخطوطات غير الكاملة).

(28) - **B.A.**, t. 28, pp. 150-191 (traduction de G. Buissou; introduction et notes de Y.M.J. Congar).

(29) - **B.A.**, t. 28, p. 162

92 et tamen suffertis illos
uel errore uel timore.

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

88 ما أكثر الذين عندكم اليوم ممن يزعجونكم !

89 ومع ذلك، فلا تفصلونهم أبدا عن رحمكم.

90 أنا لا أتكلم عن الذنوب التي يمكن أن تنكروها.

91 ولكن عن الضربات والحرائق وجرائم القتل التي يقترفها ذووكم[30] في وضح النهار.

92 ومع ذلك، فإنكم تتحملونهم، إما خطأً وإما خوفا.

النص الثالث : Psalmus contra partem Donati, 144-163[31]

144 Clamatis uos de Machario
et nos de circumcellione.
145 Illud nostrum iam transactum est,
uestri non cessant usque hodie.
Habet paleas area nostra:
uos hoc solum uultis esse.
Vos enim non uultis pacem.
Illi minantur de fuste,
et utinam minarentur,
et non tunderent cotidie.
Hos si expellunt isti uestri,
non habent per quos regnare.
150 Vos qui gaudetis de pace, modo uerum iudicate.
Modum si excessit Macharius
conscriptum in christiana lege,
uel legem regis ferebat
cum pugnaret pro unitate.
p.172 Non dico istum nil peccasse,
sed peiores uestros esse.
Quis enim praecepit illis
per Africam sic saeuire ?
155 Non Christus, non imperator
haec probatur permisisse,

(30) كثيرا ما يقصد أغسطين الدوارين بـ«ذويكم» (Vestri) يقارن مثلا مع النص 3.

(31) - B.A., t. 28, pp. 170-172

fustes et ignes priuatos
    et insaniam sine lege.
Quia scriptum est : reconde gladium,
    scelus non putant in fuste,
non ut homo non moriatur,
    sed ut conquassetur ualde
et postea moriatur inde,
    iam cruciatus in languore.
Sed tamen si miserentur,
    occidunt et uno fuste.
Fustes Israheles uocant
    quod deus dixit cum honore,
ut plus uastent ipsum nomen
    quam corpus quod caedunt inde.
Vos qui gaudetis de pace, modo uerum iudicate.

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

144 إنكم تتشكون من «مكاريوس»[32]، ونحن نتشكى من الدوارين.

145 أما رجلنا (مكاريوس) فقد أصبح في عداد الماضين، وأما رجالكم فلم يتوقفوا بعد.

146 (حقا) ان في بيدرنا area تبن[33]، ولكنكم تريدون أن تكونوا كلكم تبنا.

147 فأنتم لا ترغبون في السلام، ورجالكم يلوحون بالعصا.

148 لو اكتفوا بالتهديد ولم يضربونا في كل يوم لهان الأمر،

149 لكن لو طردهم زعماؤكم، فلن يجدوا لهم نصيرا.

---

(32) مكاريوس Macarius أحد المبعوثين الاثنين (الآخر هو بولس Paulus) اللذين أرسلهما الإمبراطور قنسطنس إلى افريقيا في سنة 347، لمحاولة اقناع الدوناتيين بالرجوع إلى الوحدة الدينية مع الكاثوليك. وقد اشتهر مكاريوس بعنفه في معاملة الأساقفة الدوناتيين خلال قيامه بمهمته. ونلاحظ هنا أن موقف أغسطين من تصرفات مكاريوس لم يكن موقف تأييد. أنظر، أيضا أعلاه، ص 217–218.

(33) إشارة إلى التشبيه الوارد في الكتاب المقدس بين اليوم الآخر وساحة الحصاد، حيث يمثل التبن المذنبين والأشرار، والحَب يمثل المؤمنين والأخيار : انجيل متى الاصحاح الثالث، 12 : «الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ».

150 يا من تحبون السلام، احكموا الآن وقولوا أين الحق[34].
151 وحتى لو كان مكاريوس قد تجاوز الحدود التي حددتها الشريعة المسيحية.
152 فحسبه في ذلك أنه كان ينفذ قانون العاهل بالعمل لصالح الوحدة.
153 أنا لا أقول إنه لم يقترف أي ذنب، ولكن ذويكم أشر منه.
154 من ذا الذي أمرهم بإلحاق كل الأضرار بهذه الأرض الافريقية ؟
155 لا المسيح ولا الامبراطور لم يسمحا بتلك الفظاعات :
156 ضربات وحرائق وأعمال خرقاء تقترف بدون قانون.
157 وقد قيل (في الكتاب المقدس) : «رد سيفك إلى مكانه»[35]. أما هم فلا يتورعون عن الضرب بالعصا.
158 لا ليقتلوا ضحيتهم ولكن ليشبعوها تكسيرا.
159 فتموت من جراء ذلك الضرب، بعد أن ينهك التعذيب قواها.
160 ولو أخذتهم الشفقة من ضحيتهم لكانت ضربة واحدة كافية لقتلها.
161 يسمون هراواتهم «اسرائيل»، وهو اسم قاله الله للتشريف[36]،
162 فيلطخون الاسم (اسرائيل) نفسه أكثر مما يهينون الجسم بضرباتهم.
163 يا من تحبون السلام، احكموا الآن وقولوا أين الحق.

يلاحظ في البيت 144 طريقة أغسطين في الجدل مع الدوناتيين. فهو في العادة لا يذكر الدوارين إلا عندما يكون بصدد الرد على الاتهامات الموجهة إلى الكاثوليك بشأن لجوئهم إلى السلطة الزمنية،

---

(34) هذا البيت يكون نوعا من لازمة تتكرر في النشيد بعد كل دور (20 دورا في المجموع). ويسمى hypopsalma وهو الذي كان يحفظه الجميع ويرددونه مع المرتل.
- (Congar, Y.M.J., B.A. 28, p. 141).

(35) انجيل متى، الإصحاح 26، 52 : «فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».

(36) التكوين، الإصحاح 32، آية 28 : «فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت».
ربما كانت تسمية «إسرائيل» التي أطلقها الدوارون على عصيهم كلمة بونيقية حسب الاشتقاق «اسرا» و«ايل» : جندي الله. حسب M. SIMON.

- Simon, M., le Judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne, **Revue d'Histoire et de philos. relig**, XXVI, Strasbourg, 1946, p. 21.

وهناك معادلة في رأيه بين اضطهاد الدولة للدوناتيين و«اضطهاد» الدوارين للكاثوليك. وهذه قاعدة شبه عامة في إشارات أغسطين إلى الدوارين، نجدها هنا ملخصة في جملة واحدة.

النص الرابع : **Ps. C. Part. Donati, 282-294**(37)

Quando enim dona miserunt
noluistis acceptare
et obliti estis prophetas,
qui illud praedixerunt ante,
quod gentium reges magni
missuri essent dona ecclesiae.
Quae dona cum respuistis,
ostendistis uos non esse
p.190 et Macharium coegistis
suum dolorem uindicare.
Sed ego quid uobis feci,
mater uestra in toto orbe ?
Expello malos quos possum,
quos non possum cogor ferre.
Fero illos, donec sanentur,
aut separentur in fine.
Vos me quare dimisistis
et crucior de uestra morte ?
Si multum malos odistis,
quales habetis uidete.
Si et uos toleratis malos,
quare non in unitate.
ubi nemo rebaptizat
nec altare est contra altare ?
Malos tantos toleratis,
sed nulla bona mercede.

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

282 عندما أرسلوا (أي الملوك) هداياهم، لم تقبلوها(38).

---

(37) B.A., t. 28, pp. 188-190 -

(38) إشارة إلى الهدايا التي بعث بها الإمبراطور قنسطنس إلى أساقفة افريقيا (كاثوليك ودوناتيين) كي يوزعوها على الفقراء ويصلحوا بها كنائسهم (347). وقد بعث لهذا الغرض «بولس»=

283 ناسين الرسل الذين تنبأوا في الماضي.
284 بأن عظام ملوك الشعوب سوف يبعثون الهدايا إلى الكنيسة[39].
285 رفضتم تلك العطاءات، ومن ثم فلستم مني (أي من الكنيسة).
286 واضطررتم «مكاريوس» إلى الانتقام للشرور التي أصابته (على يدكم).
287 لكن، أنا، أمكم في العالم بأسره، ما هو ذنبي ؟
288 أطرد الأشرار ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وإلا فإنني أحتملهم.
289 أحتملهم حتى شفائهم، أو حتى التنقية[40] في اليوم الآخر.
290 فلماذا هجرتموني، وبموتكم عذبتموني[41].
291 إذا كان الأشرار يرزعونكم، فانظروا أي أشرار عندكم ؟
292 وإذا كنتم ـــ أنتم أيضا ـــ تحتملونهم، فلم لا تحتملونهم في الوحدة (الدينية مع الكاثوليك).
293 حيث لا يود أحد إعادة تعميد أحد[42]، ولا إثارة مذبح ضد مذبح ؟[43]
294 إنكم تحتملون العديد من الأشرار لكن بدون أي ثواب حسن.

= و«مكاريوس». لكن الدوناتيين رفضوا تلك الهدايا. عن هذه الأحداث، انظر الفصل السادس ص 205 وما بعدها.

(39) اشعيا، الاصحاح التاسع والأربعون، 23 : «ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزي منتظروه». كذلك، اشعيا، الاصحاح الستين، آية 11—12 : «تنفتح أبوابك دائما. ليلا ونهارا لا تغلق. ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم. 12. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم». كذلك، رؤيا يوحنا، الإصحاح الحادي والعشرون، 24—26.

(40) إشارة إلى التشبيه الوارد في الكتاب المقدس بين اليوم الآخر وساحة الحصاد، كما رأينا في النص السابق، أعلاه، ص 277، هـ 33.

(41) انشقاق الدوناتيين عن الكنيسة يمثل موتهم حسب أغسطين.

(42) سبقت الإشارة إلى إعادة تعميد المسيحيين الوافدين على الكنيسة الدوناتية. وكانت هذه العادة (التي لها جذور قديمة) مثار خلاف بين الدوناتيين والكاثوليك. انظر أعلاه، ص 274، هـ 22.

(43) المقصود طبعا هو إثارة كنيسة ضد كنيسة، أي إقامة كنيسة منشقة عن الخط الكاثوليكي.

النصوص : 5 إلى 13 من كتاب «الرد على رسالة بارمينيانوس» لأغسطين :

تؤرخ النصوص التالية من حوالي سنة 400[44]. وهي مقتبسة من كتاب آخر لأغسطين كتبه ضد الكنيسة الدوناتية. وجاء الكتاب «ردا على رسالة بارمينيانوس»، الزعيم الدوناتي : Contra Epistulam Parmeniani[45]. كان هذا الأخير قد رد على أحد الفقهاء الدوناتيين تيكونيوس Tyconius الذي انشق عن كنيسته لاعتبارات فقهية ولكن بدون أن يلتحق بالكاثوليك الذين ظلوا في اعتباره أبناء «المتخاذلين» traditores[46]. وكان من شأن رد «بارمينيانوس» على «تيكونيوس» أن ينزع من الكاثوليك إمكانية الإستفادة من انشقاق ذلك الفقيه الدوناتي عن كنيسته الأصلية. فقرر أغسطينوس ـــ بطلب من زملائه الكاثوليك ـــ أن يجيب على رسالة بارمينيانوس نقطة بنقطة، وهي الطريقة التي اتبعها فيما بعد مع خصومه الدوناتيين الآخرين : «بتيليانوس»، «كريسكونيوس»، «كاودنتيوس»...

تتألف رسالة أغسطين من ثلاثة كتب Libri، أولها يهمنا بصفة خاصة، لأن

(44) - Congar, Y.M.J., B.A. 28, p. 201

(45) بارمينيانوس هو أسقف قرطاج والزعيم الدوناتي بعد دوناتوس من 362 إلى 392 على وجه التقريب.

(46) أحد كبار الفقهاء المسيحيين، ألف عدة كتب وصلنا بعضها : (P.L., t. XCIII, P.L.S., t.I) ويبدو أنه كان له تأثير مهم على أغسطين، وعلى المفكرين المسيحيين اللاحقين خلال العصر الوسيط الأوربي. كان يعتبر أن الدوناتيين كانوا مخطئين في قضية إعادة التعميد، وفي اعتبار كنيستهم كنيسة القديسين والاطهار، وفي حصر كنيستهم على افريقيا. ومنذ حوالي 370، كتب في هذا الموضوع مؤلفا («في الحرب الداخلية» : «De bello intestino»)، ثم كتابا آخر حوالي 375 «عرض فيه مختلف تلك القضايا» : «Expositiones diversarum causarum» فجاء رد «بارمينيانوس» عليه في حوالي سنة 378، نعرفه من خلال كتاب أغسطين الذي نحن بصدده. لم يقتنع تيكونيوس على ما يبدو، لذا، فإن مجمعا دوناتيا قرر حرمه حوالي 380. ومع ذلك، فلم يلتحق تيكونيوس بالكنيسة الكاثوليكية. من أهم أعماله «كتاب القواعد» «Liber regularum» الذي كتبه حوالي 382، تناول فيه مناهج تفسير الكتاب المقدس. وكذا ترجمة رؤيا «يوحنا» والتعليق عليها. وهذا الأخير ضاع باستثناء بعض الشذرات، ولكن الكتاب اللاحقين الذين تناولوا التعليق على «الرؤيا» اقتبسوا منه الكثير (خاصة الكاتب «بياتوس» Beatus).

- Monceaux, P., H.L.A.C., V, pp. 165-219.
- Congar, Y.M.J., note complémentaire 10 : Parménier et Tyconius, B.A. 28, p. 718-720.

أغسطين يرجع فيه إلى الحجج التاريخية. أما الكتابان الثاني والثالث، فقد تناول فيهما الكاتب بصورة خاصة الجوانب الفقهية، ولكنه استشهد فيهما أحيانا بأحداث تاريخية معاصرة له، وخاصة التناقض الذي وقع فيه الدوناتيون بصدد الانشقاق المكسمياني[47].

المؤلف معروف بواسطة عدة مخطوطات ترجع إلى القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر[48]. والنشرات متعددة هي الأخرى[49]، نذكر منها خاصة نشرة «ميني» Migne في «الجامع اللاتيني لكتابات آباء الكنيسة» Patrologiae latinae[50]، ونشرة Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسيـة» (C.S.E.L)[51]، ونشرة «المكتبة الأغسطينية» (B.A) التي اعتمدتها[52].

النص الخامس : Aug, C. Ep. Parm., I, VIII, I4[53]

Et si quid temporalis molestiae passi fuerint per certissimum atque rectissimum ordinem potestatum, cum ipsi priuatis furiosorum agminibus multo grauiora passim atque cotidie nulla regia, nulla ecclesiastica lege committant, nos corporum persecutores uocant, se animarum interfectores non uocant, cum priuata licentia nec corporibus parcant.

«وإذا ما لحقهم أي ضرر على يد السلطات الزمنية بأمر ناجع وعادل منها، وبالرغم من الأضرار الأكثر خطورة التي تقترفها عصاباتهم الشخصية المكونة من الحمقى والمسعورين، في كل يوم وفي كل مكان باسمهم وبدون أي تفويض لا من الامبراطور ولا من الكنيسة، ــ إذا ما لحقهم أي ضرر، فإنهم يسموننا «مضطهدين»

---

(47) انشقاق «مكسميانوس» عن الخط الدوناتي الذي كان يتزعمه «بريميانوس» (خلف بارمينيانوس) سنة 392. انظر أعلاه، ص 241، هـ 1.

(48) - Congar, Y.M.J., **B.A.** 28, p. 205

(49) - Ibid, p. 206

(50) - P.L., t. XLIII, col. 33-108

(51) - **C.S.E.L.**, t. LI, Vienne, 1908, pp. 19-141

(52) - **B.A.**, t. 28; traduction G. Finaert; introduction et notes par Y.M.J. Congar, Paris, Desclée de Brouwer, 1963, pp. 208-480.

(53) - **B.A.**, t. 28, p. 242. (= **C.S.E.L.**, t. 51, p. 35)

نضطهد أجسامهم، وينسون أن يسموا أنفسهم قتلة الأرواح، وهم الذين لا يحترمون الأرواح ولا الأبدان».

يلاحظ في هذا النص أن أغسطين يوحي بأن حركة الدوارين شملت «كل مكان». وفي نصوص أخرى نجده يقول أنها شملت كل افريقيا[54]. ولكن مثل هذه التصريحات، لا يمكن أخذها بكامل الدقة لتوطين حركة الدوارين[55]. نظرا للسياق الذي وردت فيه، والذي يدخل في إطار الجدل الكلامي، كما يتضح في هذا النص.

ويلاحظ كذلك المعادلة التي يضعها أغسطين بين تدخل السلطات الرسمية ضد الدوناتيين من جهة، وعنف الدوارين الدوناتيين من الجهة المقابلة، لكن السلطات الرسمية «عادلة» حسب أغسطين، أما عنف الدوارين، فليس عادلا، لأنه لم يأت لا بتفويض من الامبراطور ولا من الكنيسة (الكاثوليكية، طبعا). ونجد هذه الفكرة، باستمرار عند أغسطين الذي يصف عنف الدوارين بأنه «عنف خاص أو حر» Privata violentia، وليس بأمر من الدولة، كما سنرى مثلا في النص التالي.

النص السادس : Aug., C. Ep. Parm., I, X, I6[56]

An quia de religione uitiosa uel falsa nihil curandum est talibus potestatibus ? sed multa iam de paganis diximus et de ipsis daemonibus, quod persecutiones ab imperatoribus patiantur. an et hoc displicet ? cur ergo ipsi ubi possunt templa subuertunt et per furores circumcellionum
p.248 talia/ facere aut uindicare non cessant ? an iustior est priuata uiolentia quam regia diligentia ?

«هل السلطات الزمنية لا ينبغي أن تتدخل في قضية ديانة سيئة أو خاطئة (كما يزعم الدوناتيون)؟ لكننا تحدثنا سابقا وبصفة مطولة عن المشركين (pagani) والشياطين (daemones) وعن اضطهادهم بقوة

---

(54) النصان : 7 و23.

(55) الإشارات الدقيقة إلى عمليات الدوارين تتعلق بنوميديا وبعض المناطق المجاورة من البروقنصلية. وقد حاولت توطين حركة الدوارين انطلاقا من تلك الإشارات في الخريطة III.

(56) B.A., 28, pp. 246-248 -

على يد الأباطرة[57]. هل هذا أيضا لا يسرهم ؟ فلماذا إذن يحطمون
ــ هم أيضا ــ معابد (المشركين) حيثما أمكن لهم لك، ولا يتوقفون
ص.248 عن مثل تلك الأعمال، ويمارسون العنف بواسطة الدوارين ؟ هل
يا ترى كان العنف الخاص[58] أكثر عدلا من السلطة الامبراطورية ؟».

Aug. C. Ep. Parmeniani, I, XI, I7[59] النص السابع :

Fortassis enim dicunt grauiora se perpessos a catholicis imperatoribus quam isti fecerunt uel per reges barbarorum Rogatistis uel per iudices catholicorum imperatorum maximianistis uel etiam faciunt per furorem circumcellionum quibuscumque potuerint. quasi uero inde quaestio est, utrum grauiora patiantur quam faciunt, quod quidem nullo modo concesserim. multa enim eorum saeuissima et acerbissima numerantur,
p.252 immo numerari non possunt, quae si pauciora/ essent uel eos in quos admittuntur minus affligerent, eo ipso essent certe grauiora, quod[60] non ab ordinatis potestatibus iubentur, sed extraordinariis furoribus admittuntur....

sed haec non tam multa sunt, quam multa cotidie per furiosos ebriosorum iuuenum greges quibus principes constituunt, qui primum tantummodo fustibus, nunc etiam ferro se armare coeperunt, qui circumcellionum notissimo nomine per totam Africam uagantur et saeuiunt, contra omnem ordinem legum potestatumque committunt. quorum scelera cum ad eos deferuntur, fingunt se ignorare tale hominum genus uel omnino ad se non pertinere contra quam omnes norunt ore impudentissimo affirmant; neque hanc saltem uocem totius orbis accipiunt, multo probabilius ueriusque dicentis nescire se quid in Africa gestum sit siue a parte Donati siue contra partem Donati, si licet in ipsa Africa Donatistis episcopis Donatistarum circumcellionum uel facta nescire uel dicere ad se non pertinere.

---

(57) إشارة إلى قوانين هنوريوس الصادرة في سنة 399 ضد المشركين، والتي تأمر بتحطيم أصنامهم ومعابدهم، وتحرم إقامة حفلاتهم، وتعاقب بالإعدام من أقدم منهم على إقامة الشعائر الوثنية. - Aug., **C. Ep. Parm.**, I, IX, 15 (**B.A.** 28, p. 245)

عن مكافحة الدولة للوثنية، انظر مثلا : - Petit, P., **H.G.E.R.**, t. III, pp. 129-131

(58) أي الذي يمارسه أفراد لا ينتمون إلى الدولة، كما رأينا في النص السابق.

(59) - **B.A.** 28, pp. 250-252

(60) ترقيم الصفحات في نشرة : **C.S.E.L**

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«ربما اعترضوا (أي الدوناتيين) قائلين أنهم عانوا من (اضطهاد) الأباطرة الكاثوليك أكثر مما مارسوه ــ هم أنفسهم (الدوناتيون) ــ على «الروكَاتيين»[61] بواسطة ملوك «المتبربرين» Barbari[62]، وعلى المكسميانيين[63] بواسطة قضاة الأباطرة المسيحيين[64]، وعلى كل ما أمكن من الضحايا بواسطة الدوارين. كما لو أن القضية تتعلق بمعرفة ما إذا كانوا قد قاسوا أكثر مما جعلوا الآخرين يقاسون منهم ! وحتى لو كانت القضية هكذا، لما سلمت أبدا بصحة ادعائهم. ان أعمالهم البالغة في القسوة المروعة والرهيبة كثيرة العدد، بل أصبحت لا تعد
ولا تحصى. وحتى لو كانت قليلة العدد، وكانوا يضربون ضحاياهم ص.252
بعنف أقل، لكانت أعمالهم ــ مع ذلك ــ تكتسي خطورة أكبر طالما أنها لم تقترف بإذن من السلطات الرسمية، ولكنها تركت لنزوات الشر تتحكم فيها بلا قانون... لكن كل هذا (تدخل الدولة ضد الدوناتيين) لا يصل في الواقع إلى خطورة الأعمال المهولة العديدة التي يقومون بها في كل يوم ــ رغما عن كل ما تقتضيه القوانين والسلطات ــ بواسطة العصابات المجنونة المكونة من شبان سكارى، يعينون زعماءهم. كان أولئك الشبان في الأصل يتوفرون على عصي، أما الآن، فأصبحوا يتسلحون أيضا بالحديد، ويتسكعون عبر افريقيا كلها. ويعيثون فيها فسادا، وهم الذين يحملون اسم الدوارين، ذلك الاسم الشهير. وعندما نحيط الدوناتيين علما بأفعالهم الشائنة، فإنهم يتظاهرون

(61) الروكاتيون : انشقاق داخل الدوناتية قاده «روكاتوس» Rogatus ــ أسقف «كارطنا» Cartennae بموريطانيا القيصرية حوالي 370، انظر أعلاه، ص 241، هـ 1.

(62) يقصد فيرموس Firmus الزعيم الافريقي الذي قاد ثورة في موريطانيا القيصرية على الرومان (372–375). عن فيرموس، انظر أعلاه، ص 135 هـ 1.

(63) انشقاق آخر داخل الكنيسة الدوناتية، قاده «ماكسميانوس» Maximianus حوالي 392. انظر أعلاه، ص 241 هـ 1.

(64) يشير أغسطين إلى الدعاوي التي أقامها الدوناتيون «الارثدكسيون» على الماكسميانيين المنشقين، أمام المحاكم لانتزاع الكنائس من خصومهم. انظر كذلك أعلاه، ص 262 هـ 2.

بجهل تلك الشرذمة البغيضة، أو يؤكدون بوقاحة عكس ما يعرفه الجميع حق المعرفة، أنه لا علاقة لهم بها. والحال أنهم لا يقبلون تصريح العالم بأسره الذي يقول أنه على جهل بما وقع في افريقيا سواء على يد حزب دوناتوس أو ضد حزب دوناتوس[65] : وهو تصريح أقرب إلى الصواب والعقل من تصريحهم هم (بأنهم يجهلون تصرفات الدوارين). هذا إذا كان من الممكن للأساقفة الدوناتيين في افريقيا أن يجهلوا في عين المكان حركات وسكنات الدوارين الدوناتيين، أو أن يقولوا أنهم لا يد لهم فيها».

يلاحظ في هذا النص أن الدوارين كانوا ـــ حسب الكاتب ـــ يعترضون سبيل «كل ما أمكن من الضحايا»، ولكننا نعلم من نصوص أخرى أنهم كانوا يوجهون ضرباتهم إلى أطراف معينة : الملاك والأسياد والدائنين[66].

ويلاحظ أيضا أن عمليات الدوارين تكاثرت «في كل يوم»، وأن هناك تطورا في أسلحتهم التي كانت من قبل عبارة عن العصي («الاسرائيلات» Israeles). والتي أصبحت الآن تتضمن أسلحة حديدية. ونعرف من نص آخر أنهم كانوا يستعملون السيوف والبلطات[67].

ويلاحظ أيضا أن أغسطين يؤكد أنهم يتسكعون «عبر افريقيا كلها»، ولكن هذا التصريح ربما كان من قبيل التضخيم والمغالاة لاظهار الأضرار الناجمة عن الانشقاق. أما المناطق التي نجد فيها ذكرا دقيقا لأعمال الدوارين، فتنحصر في نوميديا شمال الأوراس (خاصة منطقة باغاي)، والاقليم الخلفي لمدينة Hippo Regius[68].

ويلاحظ أخيرا أن أغسطين لا ينكر أن الأساقفة الدوناتيين كانوا لا يودون

(65) إشارة متكررة عند أغسطين إلى أن الدوناتيين انسلخوا عن الكنيسة العالمية، مع أن العالم لم يقترف أي ذنب، وربما لم يسمع قط بما وقع في افريقيا خلال اضطهاد ديقليديانوس، من كون بعض الأساقفة تخاذلوا خلال الاضطهاد، وهي التهمة التي وجهها دوناتوس وزملاؤه إلى «كايكيليانوس» عند قيام الانشقاق.

(66) النصان الأول (أعلاه، ص 279) و42 (أدناه، ص 353).

(67) النص 25 ص 318.

(68) انظر أعلاه الفصل الثالث. كذلك محاولة توطين الحركة في الخريطة III.

التورط في التعامل مع الدوارين صراحة، ولكنه يؤكد أن الدوناتيين هم الذين كانوا يعينون زعماء «عصابات» الدوارين. وقد رأينا أن الدوارين في عهودهم الأولى كانوا هم الذين يختارون زعماءهم حسب ما جاء عند أبطاتوس (النص الأول).

النص الثامن : **Aug. C. Ep. Parm., I, XI, I8**(69)

Sed, ut dicere coeperam, non hoc modo quaeritur, utrum patiantur grauiora quam faciunt, sed utrum aduersus haereticos et schismaticos fieri tale aliquid.

p.254 Liceat; si enim dicunt non licere, cur ipsi faciunt ? si autem licere fatentur, etiamsi ostendant, quod nullo modo possunt, grauiora se perpeti a catholicis imperatoribus quam ipsi per iudices eorum uel per reges barbarorum schismaticis suis fecerunt uel per insaniam circumcellionum omni generi hominum faciunt, neque hoc mirandum(70) est, si plus possunt principes quam missi a principibus iudices, si plus possunt Romani imperatores quam barbari reges, et si morito grauiora legibus patitur latro quam contra leges ipse committit. unde merito constitutionibus iustis grauiora patiuntur circumcellionum mancipes quam faciunt circumcelliones.

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«وكما قلت سابقا، فإن القضية لا تكمن اليوم في معرفة ما إذا كان الدوناتيون يعانون أكثر مما يعاني ضحاياهم، ولكن في ما إذا كان من الجائز التدخل بهذه الطريقة (أي العنف) ضد أصحاب البدع
ص.254 والانشقاق. فإذا أجابوا بالنفي، فلماذا إذن يقدمون هم أنفسهم على ذلك ؟ وإذا أجابوا بنعم، فعليهم مع ذلك أن يثبتوا ـــ لو استطاعوا ـــ أن ما يعانونه من الأباطرة الكاثوليكيين أقسى مما مارسوه على منشقيهم بواسطة قضاة الملوك الكاثوليك(71) أو بواسطة الملوك المتبربرين(72)،

(69) - B.A. 28, pp. 252-254

(70) ترقيم الصفحات في : C.S.E.L.

(71) المقصود ـــ كما في النص السابق ـــ القضاة الذين لجأ إليهم الدوناتيون «الارثذكسيون» لانتزاع الكنائس وممتلكاتها من يد الماكسميانيين المنشقين.

(72) المقصود «فيرموس» Firmus الذي استعان به الدوناتيون ضد «الروكاتيين» المنشقين عنهم (كما في النص السابق).

وأقسى كذلك مما يمارسونه بواسطة جنون دواريهم على كل ما أمكن من الضحايا.

لا عجب في كون الملوك لهم قدرة أكبر من قدرة القضاة الذين يعثهم الملوك، وكون الأباطرة الرومان لهم قدرة أكبر من قدرة الملوك المتبربرين، وكون العقوبات التي تلحق باللص حسب العدالة والقانون أقسى مما يقوم به ذلك اللص ضد القوانين. لذا، فمن الانصاف وطبقا للاجراءات العادلة أن يعذّب أسياد الدوارين أكثر مما يعذّب الدوارون ضحاياهم».

النص التاسع : **Aug, C. Ep. Parm., I, XI, I8**(73)

Sic et tunc, cum post terminum causae, in qua se isti a catholica praeciderunt, consequenter agi coepisset, ut basilicas non tenerent, et tenerent imperialibus resistendo iussionibus et sic resistendo, ut uis illa circumcellionum notissima praeualeret, addendo etiam insuper, ut cum
p.256 donis ecclesiae/ quos miserat imperator per Africam euntes turbulentissimis et saeuissimis seditionibus agitarent, tales in eos leges proferebantur, ut ne ipsas quidem basilicas quae non erant unitatis, sed a separatis atque in suo iam schismate constitutis fuerant fabricatae, reti -(41)(74)-nere sinerentur, qua in re iam suas iniurias potestas regia uindicauit. quid enim ualent iuste possidere inimici iustitiae ?

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«... ذلك ما حدث قديما بعد صدور الحكم الذي جعلهم (أي الدوناتيين) ينشقون عن الكنيسة(75). فقد حاولنا (أي الكاثوليك) منعهم من الاحتفاظ بكنائسنا، إلا أنهم احتفظوا بها رغما عن أوامر الامبراطور. وكانت مقاومتهم تلك لأوامر الامبراطور من التعنت بحيث
ص.256 أن عنف الدوارين الشهير رجح الكفة لصالحهم، وأكثر من ذلك، فإن هؤلاء بتمرداتهم الثورية والدموية قاموا بمناوشة مبعوثي الامبراطور

(73) B.A. 28, pp. 254-256 -

(74) ترقيم الصفحات في : C.S.E.L.

(75) الظاهر أنه يقصد الحكم الذي أصدره قسطنطين ضد الدوناتيين سنة 316، والذي تلته مصادرة كنائسهم واضطهاد بعض أساقفتهم في قرطاج خاصة.

المحملين بالصدقات إلى الكنيسة، وتتبعوهما خطوة بخطوة عبر افريقيا[76]، لذا، صدرت ضدهم قوانين لا تسمح لهم حتى بالاحتفاظ بالكنائس التي لم تكن للوحدة والتي كانوا قد بنوها بعد انفصالهم وإقامة انشقاقهم. ففي تلك القضية، انتقمت السلطة الامبراطورية توا من المظالم التي لحقت (بنا). فهل يملك بالعدل أعداء العدل شيئا ؟».

يستعمل هذا النص أحيانا كدليل على أن حركة الدوارين ظهرت منذ الاضطهاد الأول الذي عانى منه الدوناتيون غداة حكم قسطنطين عليهم سنة 316[77]. ولكن النص ــ كما هو واضح ــ يشمل كل الفترة الممتدة من 316 إلى 347. وإشارة أغسطين إلى «تمردات الدوارين الثورية»، ومناوشتهم للبعثة الإمبراطورية تتعلق بأحداث 347. (وهي ــ على الأرجح ــ إشارة مقتبسة من كتاب أبطاتوس (النص الأول أعلاه). لذا، لا يبدو من الممكن اعتماد هذا النص لإعطاء توقيت دقيق لبداية حركة الدوارين، كما رأينا في الفصل الخامس.

النص العاشر : Aug., C. Ep. Parm., I, XII, 20[78]

Sunt et aliae iussiones generales, quibus eis uel faciendi testamenta uel per donationes aliquid conferendi facultas adimitur uel ex donationibus aut testamentis aliquid capiendi. nam in quadam causa cum homo nobilis imperatoribus supplicasset, quod soror eius, quae de parte Donati fuerit, cum defungeretur, in nescio quos communionis suae et maxime in quendam Augustinum episcopum eorum plurima contulisset, ex illa generali lege (42)[79] praeceptum, est, ut omnia fratri restituerentur; ubi etiam circumcellionum mentio facta est, si more suo uiolenter obsisterent, quo genere auxiliorum et amminiculis repellerentur.

---

(76) إشارة إلى مهمة المبعوثين الامبراطوريين «بولس» Paulus و«مكاريوس» Macarius في سنة 347. عن هذه الأحداث ــ التي وقعت في نوميديا، وخاصة قرب مدينة باغاي، انظر الفصل السادس.

(77) - Monceaux, P., l'Eglise donatiste. organisation et caractères, **R.H.R.**, t. 64, Paris; idem, **H.L.A.C.**, IV, p. 179.

(78) - **B.A.** 28, p. 258 = **C.S.E.L.**, 51, pp. 41-42

(79) ترقيم الصفحات في : **C.S.E.L.**

Sic enim noti, sic multis proeliis probati sunt, ut de his et supplex imperatoris et imperator tacere non posset.

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«وتوجد كذلك اجراءات عامة أخرى تنزع منهم حق الايصاء ومنح الهبات أو استلامها، أو استلام الإرث. فنجد في إحدى القضايا أن رجلا من النبلاء قدم شكوى إلى الأباطرة يعرض فيها أن أخته ـــ التي كانت من حزب دوناتوس ـــ ماتت وأوصت بعدة ممتلكات لبعض الأشخاص من فرقتها وخاصة للمدعو «أغسطين» Augustinus أحد أساقفتهم. فجاء القرار (من الأباطرة) ـــ طبقا لذلك القانون العام ـــ بأن يعاد الكل إلى أخ تلك المرأة. وتضمن نص القرار كذلك إشارة إلى الدوارين، توقعا لأي معارضة عنيفة من جهتهم وكذلك لطبيعة الاسعافات والوسائل القمينة بصدهم، لأن مثل تلك الحالات كانت عادية. فقد اشتهر الدوارون بمثل تلك الأعمال الشائنة، وأظهروا في عدة مشاجرات شراستهم، بحيث لم يكن بالإمكان أن يغضي المشتكي إلى الامبراطور، ولا الامبراطور نفسه عن ذكر الدوارين».

يلاحظ في هذا النص مدى الخطورة التي كان يمثلها الدوارون على التطبيق العادي للقوانين في افريقيا، طالما أن رسالة المشتكي وجواب الامبراطور توقعا معارضة من طرفهم. ويلاحظ ـــ عرضا ـــ أن الكنيسة الدوناتية كانت حتى هذه الفترة، أي حوالي سنة 400، تضم عددا من الأغنياء. ولكن تصرفات الدوارين لم يكن من شأنها أن ترغب أولئك الأغنياء في البقاء في تلك الكنيسة. ومن ثم، يمكن تفسير موقف الأساقفة الدوناتيين من الدوارين، الذي كان موقفا متذبذبا. وكذلك يمكن أن ندرك أن أغلبية الملاك كانوا في عهد أغسطين من الكاثوليك.

النص الحادي عشر : Aug., Contra Ep. Parm., II, II, 6.[80]

«...Cur non se respiciunt, quorum et cateruae gregum furiosorum huc atque illuc armatae ferro ac fustibus uolitant et tam crebris ubi potuerint stragibus nequaquam in tanta immanitate satiantur, ubi per busta

(80) B.A. 28, p. 278 = C.S.E.L., 51, p. 50 -

cadauerum eorun cum feminis, quae cum illis passim commixtae contra ordinem rerum divinarum et humanarum diebus ac noctibus evagantur, tanta feruet ebrietas, ut inde insaniam cotidianàm non solum alios insectandi, sed etiam se ipsos praecipitandi concipiant ?».

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«فلماذا لا ينظرون إلى أنفسهم، هم الذين تطير سربهم يمينا وشمالا على شكل عصابات من المجانين المتسلحين بالسيوف والعصي ؟ يضاعفون من المذابح حيثما استطاعوا، ومع ذلك لا تروي قسوتهم الجمة غليلها. ففي وسط المحرقات التي تلتهب فيها الجثث[81]، وسكرهم برفقة النساء[82] اللواتي يتسكعن معهم في كل مكان ليلا ونهارا وفي اختلاط (جنسي) مخالف للقوانين البشرية والإلهية، يلتهب تملهم التهابا ويوحي إليهم في كل يوم بأفكار حمقاء. فلا يكتفون بالهجوم على الغير، ولكنهم يلقون بأنفسهم من أعلى الجروف[83]».

النص الثاني عشر : Aug., C. Ep. Parm., II, IX, 19.[84]

«... An cum moechis particulam suam forte non ponunt, qui greges ebrios sanctimonialium suarum cum gregi bus ebriis circumcellionum die noctuque permixtos vagari turpiter sinunt ?».

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«هلا كانوا (أي الدوناتيون) في عشرة مشتركة مع الزانين، وهم الذين يتركون عصابات عذاراهم المنذورات[85] تختلط مع فرق الدوارين السكارى ليل نهار في تسكع مخز ؟».

---

(81) جثث الدوارين، إذا ما قارنا مع النص 27، ص 322.

(82) هن النساء المنذورات لخدمة الكنيسة Sanctimoniales.

(83) كان الارتماء من أعلى الجروف إحدى طرق الدوارين في «الانتحار» ــ حسب أغسطين ــ (أنظر النص 27) وحسب أغسطين دائما، فإن هدف الدوارين من «الانتحار» كان الحصول على درجة الشهادة. وقد عرضت لهذا المشكل في الفصل الرابع خاصة صص 150—162.

(84) B.A. 28, pp. 308-310 = C.S.E.L., 51, p. 65 -

(85) المقصود ــ كما في النص السابق ــ النساء المنذورات لخدمة الكنيسة الدوناتية.

Aug., Contra Ep. Parm., III, III, 18[86] **النص الثالث عشر :**

«... Unde ergo tanti greges circumcellionum ? unde tantae turbae conuiuiorum ebriosorum et innuptarum sed non incorruptarum innumerabilia stupra feminarum ? unde tanta turba raptorum auarorum faeneratorum ? unde tam multi per suas quique regiones notissimi tantundem uolentes sed non tantum ualentes Optati ?».

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

«لكن من أين تأتي تلك الفرق المتراصة من الدوارين ؟ من أين تأتي تلك العصابات المكونة من القاصفين والسكارى، وذلك الفجور العارم لنساء بدون أزواج[87]، لكن ليس بدون ارجاس ؟ وكل ذلك القطيع المكون من النهابين والبخلاء والمرابين ؟ وكل أولئك «الأبطاتوسات» كل واحد منهم مشهور في منطقته، لهم نفس رغبة أبطاتوس[88]، إن لم تكن لهم نفس امكاناته ؟».

النصوص من النص الرابع عشر إلى النص الخامس والعشرين :

تاريخ كتابة هذه النصوص، وظروف كتابتها :

النصوص التالية مقتبسة من كتاب أغسطين : «الرد على رسالتي بتيليانوس» Contra litteras Petiliani.

يدخل عمل أغسطين هذا في إطار المحاورة الجدلية التي قام بها مع زعماء الكنيسة الدوناتية وكبار أساقفتهم وشخصياتهم. وكان بتيليانوس ـــ أسقف القسنطينة (قرطة Cirta سابقا) ـــ أحد هؤلاء الأساقفة. وكان قد كتب حوالي 398–399 «رسالة إلى الأساقفة والشمامسة» الدوناتيين «Epistula ad presbyteros et diaconos» ضمنها انتقادات لاذعة للكنيسة الكاثوليكية. وعلى هذه

(86) B.A. 28, p. 438 = C.S.E.L., 51, p. 122 -

(87) إشارة أيضا إلى العذارى المنذورات moniales.

(88) المقصود ابطاتوس «الجيلدوني» أسقف تموكادي Thamugadi الذي ترأس فرقا مسلحة في جنوب نوميديا وتعاون مع «جيلدو» في ثورته ضد الحكم المركزي الروماني، أعلاه، ص 121 هـ 5.

الانتقادات، أجاب أغسطين في رده الأول على تلك الرسالة في بداية سنة 400 (الكتاب الأول من «الرد على رسالتي بتيليانوس»)، ثم بصورة مطولة في رده الثاني حوالي سنة 400 (الكتاب الثاني من «الرد على رسالتي بتيليانوس»). وفي هذا الرد الثاني، استعمل أغسطين طريقة حوار مباشر مع خصمه، بحيث كان يورد رسالة بتيليانوس فقرة بفقرة، ويجيب على كل واحدة بالترتيب. وفي الأخير، دعا خصمه إلى الجواب، فلبى بتيليانوس الطلب، وكتب «الرسالة إلى أغسطين» «Epistula ad Augustinum» في نفس السنة 401 على ما يبدو. وأخيرا، جاء رد أغسطين على تلك الرسالة حوالي سنة 403 (الكتاب الثالث من «الرد على رسالتي بتيليانوس»)(89).

وهكذا، فإن النصوص التي بين أيدينا ترجع إلى فترة ما بين 400 و403 تقريبا.

المخطوطات والنشرات :

يعرف لهذا الكتاب خمس مخطوطات حتى الآن ترجع إما إلى القرن الحادي عشر واما إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر(90). ونشر عدة مرات، نذكر من أهم النشرات : نشرة Migne في «الجامع اللاتيني لكتابات آباء الكنيسة» Patrologiae latinae، الجزء 43(91)، ونشرة Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» **«Corpus scriptorum Ecclesiasticorum latinorum»**، الجزء 52(92). ونشرة «المكتبة الأغسطينية» Bibliothèque augustinenne(93) التي اعتمدتها.

النص الرابع عشر : **Aug., C. Litteras Petiliani, I, XXIV, 26.** (94)

«Vestros autem fructus si consideremus, omitto tyrannicas in ciuitatibus et maxime in fundis alienis dominationes, omitto furorem

(89) - Quinot, B., Introduction générale au «Contra Litteras Petiliani», **B.A.** 30, pp. 9-41

(90) - Quinot, B., ibid, p. 123-124

(91) - **P.L.**, XLIII, col. 246-387

(92) - **C.S.E.L.**, LII, pp. 3-227

(93) - **B.A.** 30, Paris, 1967, pp. 132-188 (liber primus); pp. 222-560 (liber secundus); pp. 582-744 (liber tertius).

(94) - **B.A.** 30, pp. 178-180 = **C.S.E.L.**, 52, p. 20

circumcellionum et praecipitatorum ultro cadauerum cultus sacrilegos et profanos, bacchationes ebrietatum et sub uno Optato Gildoniano decennalem totius Africae gemitum; omitto ista, quia sunt in uobis
p.180 quidam qui haec sibi displicere/ ac semper displicuisse proclament. Sed ea se dicunt, quia comprimere non possunt, pro pace tolerare».

وفيما يلي ترجمة النص إلى العربية :

لنر ثماركم أنتم ! إنني أترك جانبا تصرفاتكم السلطوية والاستبدادية في المدن وخاصة في ضيع الغير[95]. وأترك جانبا عنف الدوارين المجنون، والتقديس المدنس والملحد الذي يقدسون به جثث المنتحرين، والحفلات القاصفة التي يقيمها السكارى، وفي عهد أبطاتوس «الجيلدوني»[96] لوحده، عشر سنوات كاملة أنت خلالها افريقيا تحت وطأته. اترك كل هذا جانبا طالما أنه يوجد من بينكم بعض الذين
ص.180 يعترضون إزاء تلك الأحداث بعدم موافقتهم لها حاضرا وماضيا، ويضيفون قائلين أنهم لا قدرة لهم فيها. ولذلك، فهم يحتملونها صابرين في سبيل (الحفاظ على) الوحدة».

النص الخامس عشر : Aug., C. Litt. Petil, II, XIV, 33.[97]

«Porro si nos uelimus probare uos esse interfectores prophetarum, non imus longius, ut per loca singula colligamus, quas furiosi uestri principes circumcellionum et ipsae cateruae uinulentorum atque

(95) ربما كانت إشارة إلى أحد الأساقفة الدوناتيين Crispinus أسقف «كلاما» Calama (كَلمة بتونس) الذي أعاد تعميد مزارعي إحدى الضيعات. وكانت تلك الضيعة من أملاك الإمبراطور، فاكتراها الأسقف حسب التأجير الطويل المدى emphytheosis.
- Augustin, C. Litt. Petit., II, LXXXII, 184 (= B.A. 30, p. 448).

(96) أبطاتوس أسقف «تمكادي» Thamugadi (تمكّاد حاليا شمال جبال الأوراس بالجزائر). يلقب بـ«الجيلدوني» لصداقته مع «كونت» افريقيا Gildo — أخي الزعيم فيرموس Firmus — والذي ثار على السلطة الرومانية من 396 إلى 398. قاد ابطاتوس فرقا مسلحة في جنوب نوميديا، ويبدو أنه كان يمارس العنف على أعدائه، وخاصة المنشقين الماكسيميانيين، بالتعاون مع جيلدو. (أعلاه، ص 121، هـ 5).

(97) - B.A. 30, p. 256 = C.S.E.L., 52, pp. 37-38

insanorum non tantum ediderint ab initio (33)[98] schismatis uestri, sed omnino edere non desinant strages».

وفيما يلي ترجمة النص :

«زيادة على هذا، وإذا أردنا أن نثبت أنكم قتلة الرسل، فليس من الصعب الوقوف إقليما بإقليم على كل ما اقترفه ومازال يقترفه جنون زعماء دواريكم وعصاباتهم المكونة من السكيرين والمجانين منذ بداية انشقاقكم، و لم يتوقفوا حتى الآن عن القيام بالمجازر».

يوحي هذا النص بأن حركة الدوارين ترجع إلى بداية الانشقاق الدوناتي. لكنه من الصعب أخذ تصريح أغسطين مأخذ الدقة لتأريخ ظهور حركة الدوارين، طالما أن مقصد أغسطين في جدله مع الدوناتيين هو اظهار قدم الأضرار الناجمة عن انشقاقهم، وفي مقدمة تلك الأضرار، أعمال الدوارين. وقد ناقشت هذه النقطة في الفصل الخامس[99]. ونفس الملاحظة يمكن أن تنطبق على ما يوحي به أغسطين في هذا النص من شمول حركة الدوارين عدة أقاليم[100].

النص السادس عشر : **Aug., C. Litt. Petil, II, XX, 46.**[101]

«... Et tamen quaerimus a uobis, quos uestrum a nostris probetis occisos. Nullam quidem legem ab imperatoribus datam ut occideremini recolo. illi autem, de quibus maximan inuidiam facere soletis, Marculus et Donatus, ut moderatius dixerim, incertum est utrum se ipsi praecipitauerint, sicut uestra doctrina non cessat cotidianis exemplis, an uero alicuius potestatis iussu praecipitati sint. Si enim incredibile est
p.280 magistros circumcellionum solitas mortes sibimet intulisse, quanto incredibilius potestates Romanas insolita supplicia iubere potuisse !».

«لكننا نسألكم طالبين منكم الادلاء بالحجج : من هم ذووكم الذين قتلهم ذوونا ؟ لا أجد أي قانون امبراطوري يأمر بقتلكم. اما

---

(98) ترقيم الصفحات في : C.S.E.L.

(99) ص 176–185.

(100) كما في النص 7 في الملحق.

(101) B.A. 30, pp. 278-280 = C.S.E.L. 52, p. 46 -

دوناتوس[102] وماركولوس[103] اللذين تستعملون اسميهما لاذكاء حقدكم، فلا يعرف بصراحة هل رميا بنفسهما من المرتفعات تلقائيا — على غرار مافتيء أعضاء حزبكم يعطون المثال عليه يوميا —، أو
ص.280 أن قرار إحدى السلطات حكم عليهما بذلك. غير أنه إذا كان من الغريب أن يكون أسياد الدوارين قد قضوا على حياتهم بتلك الطريقة المعتادة عندهم، فمن الأغرب أن تكون السلطات الرومانية قد أمرت بممارسات تعذيبية متناقضة مع عاداتها».

النص السابع عشر : Aug., C. Litt. Petil., II, XXXIX, 93.[104]

«... Ut enim de uitiis ceteris taceam, numquid ebriosi partem faciunt sobriorum aut deputantur auari in parte spientium ? si mansueti homines lucis uocabulum tenent, furor circumcellionum ubi nisi in tenebris deputabitur ? cur ergo per tales baptismus datus apud uos ualet et per quoslibet in orbe terrarum idem Christi baptismus non ualet ? cernis nempe ad illud uos esse ab orbis terrarum communione separatos, ut non quidem sitis omnes ebriosi nec omnes uiolenti, sed omnes haeretici ac per hoc omnes impii et omnes sacrilegi».

ترجمة النص :

«لنضع الرذائل الأخرى جانبا. هل يدخل السكيرون في عداد الزاهدين، وهل يعد البخلاء في زمرة الحكماء ؟ وإذا كان ذوو الحلم يطلق عليهم اسم الأنوار، فأي صفة نعطيها للدوارين إن لم تكن الظلمات ؟ فلماذا يجوز التعميد الذي يعطيه هذا النوع من البشر ولا يجوز نفس التعميد المسيحي الذي يعطيه أي ساكن من سكان الكون[105] ؟ هل ترى الآن نتيجة قطعكم الرحم مع سكان

---

(102) دوناتوس أسقف باغاي الذي قاوم المبعوثين الامبراطوريين «بولس» و«مكاريوس» واستعان بالدوارين سنة 347، حسب ما جاء في نص ابطاتوس. (النص الأول).

(103) أسقف دوناتي ترجع وفاته إلى نفس الأحداث التي وقعت بنوميديا في سنة 347 عثر على ضريح له في Vegesela (قصر الكلب قريبا من خنشلة بالجزائر). أعلاه، ص 155.

(104) B.A. 30, p. 354 = C.S.E.L., 52, p. 76 -

(105) إشارة إلى تشدد الدوناتيين بصدد شخص خادم السر (minister). فهم يعتبرون أن خادم=

الكون ؟ طبعا، لستم كلكم سكيرين ولا كلكم بخلاء ولا كلكم رجال عنف، ولكنكم أصحاب بدعة (هرطقة)، من ثم فإنكم كلكم ملحدون ومدنسون».

يلاحظ في هذا النص أن أغسطين لا ينكر على الدوارين امكانية إعطاء التعميد. فهو يعتبرهم مسيحيين. وهذا يمكن أن يمحو الشكوك التي ربما تخامر المرء حول عقيدة الدوارين. فلو كان أغسطين يشك في نصرانية الدوارين لما تردد في الإشارة إلى ذلك. ولكنه وجه إليهم كل الانتقادات ووصمهم بكل الصفات الشائنة، (السكر، والاختلاط اللا أخلاقي مع العذارى المنذورات Sanctimoniales، والتلصص... إلخ...)، ومع ذلك فلم يتهمهم أبدا بأنهم وثنيون أو مشركون[106].

النص الثامن عشر : Aug., C. Litt. Petil., II, XLVII, 110[107]

«... Sed etsi pars uestra esset ecclesia dei, certe fatereris istum psalmum non ibi pertinere ad furiosas cateruas circumcellionum. Aut si et ipsi per semitas iustitiae deducuntur, quare negatis eos comites uestros esse, cum uobis obiciuntur, quamuis plerumque paucitatem concisionis uestrae
p.374 non uirga et baculus dei, sed fustes eorum con/solentur, quibus uos et aduersus leges Romanas tutos esse arbitramini; in quos incurrere quid est aliud quam ambulare in medio umbrae mortis ? sed non timet mala cum quo dominus est. Certe tamen non audebis dicere etiam istorum furiosorum esse uerba quae in hoc psalmo cantantur, et tamen habere eos baptismum non solum confitemini, sed profitemini».

وفيما يلي ترجمة النص :

«وحتى لو اعتبرنا حزبكم كنيسة الله، فسوف تعترف بأن هذا المزمور[108] لا ينطبق على عصابات الدوارين المجنونة. فإذا كانوا هم

= السر أو المعمد ينبغي أن يكون طاهرا منزها عن كل الشوائب، «قديسا» Sanctus لذا كانوا يعتبرون كنيستهم «كنيسة القديسين» ecclesia sanctorum، وأنه لا تعميد يصح خارجها. أعلاه، ص 203 هـ 2.

(106) أنظر أيضا النص 18.

(107) B.A. 30, pp. 372-74 = C.S.E.L., 52, p. 84 -

(108) استشهد «بتيليانوس» بالمزمور الثالث والعشرين لداوود. ويرد عليه أغسطين انطلاقا من نفس المزمور.

أيضا مهتدين إلى سبل البر[109]، فلماذا تقولون إنهم ليسوا أصحابكم عندما يعابون عليكم ؟ حقا، إن حفنة المنشقين التي تكونونها تجد تعزيتها في أغلب الأحيان ــ لا في عصا الله وعكازه ــ[110] ولكن في هراواتهم، هم الذين تعتقدون أنهم يضعونكم في مأمن من قوانين روما نفسها. هل مقابلة هذه العصابات وجها لوجه تعتبر شيئا آخر غير السير في الظلمات القاتلة ؟[111] لكن لا يخاف شرا من معه الله. حقا، لن تجرؤ على تطبيق كلام المزمور على أولئك المجانين، ومع ذلك، فهم معمدون، وتعترفون بتعميدهم بل وتجاهرون به».

يلخص هذا النص موقف بعض الدوناتيين من الدوارين. فهم في حاجة إلى الدعم الذي يشكله الدوارون لكنيستهم، وفي نفس الوقت يتهربون من مسؤولية أعمالهم عندما تعاب عليهم. لكن هذا الموقف المتذبذب لم يشمل كل الدوناتيين، فقد كان بعضهم ــ خاصة بعض رجال الدين الصغار ــ يتعاونون صراحة مع الدوارين في بعض المناطق، على ما يبدو من نصوص أخرى لأغسطين[112].

النص التاسع عشر : **Aug., C. Litt. Petil., II, XLIX, 114.**[113]

«... Deinde uellem mihi diceres, confessores illi uestri quando se ipsos praecipitant, cui ducunt martyrium, utrum christo qui talia suggerentem diabolum reppulit, an potinus ipsi diabolo qui talia Christo facienda suggessit. Duae sunt maximae uiles atque usitatae mortes eorum qui se ipsos interimunt, laqueus et praecipitium. Tu certe dixisti in primis partibus huius epistulae : «laqueo traditor periit, laqueum talibus dereliquit.» hoc ad nos omnino non pertinet; neque enim ueneramur nomino martyrum eos qui sibi collum ligauerunt. Quanto autem nos probabilius in uos dicimus : «magister traditoris diabolus praecipitium Christo suadere uoluit et repulsus est !» quid ergo dicendi sunt quibus

(109) إشارة إلى نفس المزمور، 3 : «يهديني إلى سبيل البر من أجل اسمه».

(110) إشارة إلى نفس المزمور، 4 : «... عصاك وعكازك هما يعزياني».

(111) المزمور 22، 4 : «أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معي».

(112) النصوص : 31، 32، 33، 35، 38، 41.

(113) B.A. 30, pp. 380-82 = C.S.E.L. 52, p. 87 -

hoc suasit et auditus est ? quid enim nisi inimici Christi, amici autem diaboli, discipuli seductoris condiscipuli traditoris ? spontaneas enim mortes ab uno magistro utrique didicerunt, ille laqueum, isti praecipitium».

وفيما يلي ترجمة النص :

«وبعدئذ، بودي أن تحدثني عن شهدائكم المشاهير، عندما يلقون بأنفسهم من المرتفعات، لمن يؤدون الشهادة ؟ هل للمسيح الذي رفض مثل تلك الوساوس، أو للشيطان الذي وسوس إلى المسيح بها ؟ هناك وسيلتان للموت منحطتان جدا يستعملهما المنتحرون : الحبل والجرف. والحال أنك أنت الذي قلت في رسالتك هذه[114] : «الحبل قضى على حياة «المتخاذل»[115]، وقد ترك حبله لأمثاله»[116]. هذا شيء لا يتعلق بنا بتاتا، فنحن لا نقدس الذين شنقوا أنفسهم على أنهم شهداء. لذا، فكم نحن على صواب عندما نقول لكم : إن سيد «المتخاذل» traditor، ـــ الشيطان ـــ، أراد أن يوسوس إلى المسيح بالارتماء من أعلى، ولكنه رُدَّ على أعقابه ! فكيف ننعت الذين وسوس إليهم بذلك ونجح معهم ؟ كيف ننعتهم، إن لم يكن بأنهم من أعداء
ص.382 المسيح وأصدقاء الشيطان، وبأنهم تلاميذ الغاوي وزملاء المتخاذل ؟ انتحارهم لقنهم إياه معلم واحد : الشنق له (ليهوذا) والجرف لهم (للدوارين المنتحرين)».

النص العشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, LXXXIII, 184[117]

«... An uero uiolentis incursibus circumcellionum uestrorum, qui sub uestro principatu furiosis agminibus militant, non ex agris undique

(114) رسالة «بتيليانوس» إلى أغسطين («Epistula ad Augustinum»).

(115) traditor : حرفيا «مسلمو الكتاب المقدس» إلى السلطة المضطهدة إبان مطاردة الدولة الوثنية للمسيحيين. وكان هذا الفعل يعتبر «خيانة» للدين المسيحي.

(116) إشارة إلى يهوذا الذي سلم المسيح إلى بيلاطس، ثم خنق نفسه. (انجيل متى، اصحاح 27، 4–5).

(117) B.A. 30, p. 448 = C.S.E.L. 52, pp. 114-115 -

pelleremur, (115)[118] nisi uos obsides in ciuitatibus teneremus, qui quoquo modo ipsam faciem publicam et honestorum reprehensionem si non timore, uel pudore ferre nolitis ?».

وفيما يلي ترجمة النص :

«... هلا كانت الغارات العنيفة التي يقوم بها دواروكم — الذين يحاربون على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم — تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن ؟ أنتم الذين — على أي حال — لا تودون مواجهة أنظار الشعب وتأنيب الأخيار، إن لم يكن عن خوف، فعن حشمة على الأقل».

يستفاد من هذا النص[119] أن عمليات الدوارين كانت مركزة في البوادي، وأن الدوناتيين أصبحوا في هذه الفترة (حوالي سنة 400) يمثلون الأقلية في عدة مدن. وهذا التوزيع السوسيولوجي للدوناتيين ربما ساعد على إدراك مدى الأهمية المتزايدة للدوارين في تطور التاريخ الدوناتي، شيئا فشيئا — على ما يبدو — فرض الدوارون طريقة عملهم (العنف) على مجموع الدوناتيين، بما فيهم القاطنون في المدن والذين كانوا أحيانا يتخذون موقفا غير صريح من الدوارين.

النص الحادي والعشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, LXXXV, 188-189[120]

188. Petilianus dixit : «Numquid igitur caedem uel schismaticis deus iussit inferri ? qui si omnino praeciperet, uos deberetis occidi ab aliquibus Scythis ac barbaris, non tamen a christianis».

189. Augustinus respondit : «Vestri circumcelliones quiescant, et nolo nos de barbaris terras».

ترجمة النص :

188. «بتيليانوس» : «هل حقا أمر الله بأن يقتل المنشقون ؟ لو أمر بذلك فعلا، لكنتم أحق بأن تُقتلوا، ولكن بيد الأسقوذيين[121] والمتبربرين لا بيد المسيحيين».

(118) ترقيم الصفحات في : .C.S.E.L.

(119) نفس الفكرة وردت بتعبير مماثل في النص 29.

(120) - B.A. 30, pp. 454-456 = C.S.E.L., p. 117

(121) اسقوذيا هو الاسم الذي كان يطلقه الاغريق على البلاد الواقعة بين جبال الكارباط=

189. رد أغسطين : «ليهدأ دواروكم، ولا ترهبنا بالمتبربرين !».

يمكن أن يوحي هذا النص بنوع من ارتباط أو تداع بين فكرة الدوارين وفكرة المتبربرين عند أغسطين. ونجد في نص آخر أن الكاتب ينعت الدوارين بـ«سلالة المتبربرين»[122]. غير أن النصين معا غير صريحين، والنص الذي نحن بصدده يمكن أن لا يفهم في هذا الاتجاه. ومع ذلك نشير إلى هذه الامكانية طالما أن مختلف الشهادات تبرز أن الدوارين كانوا في معظمهم من السكان غير المرومنين، الذين لا يفهمون اللغة اللاتينية، وتركز على وضعيتهم الاقتصادية الوضيعة[123].

النص الثاني والعشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, LXXXVIII, 195[124]

«195. Augustinus respondit : «Cur ergo tali uoce non compescitis arma circumcellionum ? an praeter euangelium uos loqui arbitremini, si dixeritis : «qui fuste usus fuerit, fuste morietu date ergo ueniam, quia nec illos, a quibus marculum praecipitatum esse querimini, potuerint prohibere maiores nostri». neque enim scriptum est in euangelio : «qui aliquem praecipitauerit, praecipitio morietur». atque utinam, sicut illa uel transacta sunt, sic istorum ligna cessarent ! quamquam fortasse irascimini, quod legionibus uestris esti non legibus, saltem uerbis subtrahimus armaturam, quia ea solis saeuire fustibus dicimus. uetus quippe ista eorum militia fuit, nunc autem nimium profecerunt. nam inter uinulenta conuiuia et cum feminis maritos non habentibus liberam comitandi uagandi iocandi bibendi pernoctandi licentiam non solum fustes tornare, sed etiam ferrum uibrare et fundas circumagere didicerunt, SED cur eis non dicam - quo animo dicam et quo illi accipiant nouerit deus -: «insani, gladius Petri quamuis adhuc carnali motu animi, tamen
p.464 pro Christi corpore in corpus persecutoris exertus/ est; uestra uero arma aduersus Christum diuisa sunt, corpus eius cui ille caput est, id est ecclesia eius, per omnes gentes est. ipse hoc dixit et ascendit in caelum, quo eum

= Carpathes ونهر «الدون» Don. حوالي سنة 650 ق.م، هيمن الاسقوذيون على شمال ايران، ثم أسسوا لهم مملكة في جنوب روسيا. في القرن الثاني الميلادي، اختفى ذكرهم من التاريخ.

- The Oxford Classical Dictionary, 2nd edition, 1970, p. 968.

(122) النص 32.

(123) انظر الفصل الثاني ص 83-85.

(124) - B.A. 30, p. 462-46 = C.S.E.L. 52, p. 120-121

furor Iudaeorum sequi non potuit, et membra eius in corpore quod ascendens commendauit furor uester oppugnat. pro istis membris aduersus uos saeiunt et uobis resistunt, quicumque in catholica paruae adhuc fidei eo (121)[125] animo sunt quo Petrus fuit, cum ferrum pro Christi nomine strinxit. sed multum interest inter uestram persecutionem et istorum. uos similes estis seruo sacerdotis Iudaeorum, quia seruientes principibus uestris aduersus ecclesiam catholicam, id est aduersus Christi corpus, armamini; isti autem tales sunt qualis tunc Petrus fuit, qui pro Christi corpore. id est pro ecclesia, etiam corporaliter pugnant. sed si ipsi dicitur ut quiescant, sicut Petro tunc dictum est, quanto magis uobis dicendum est, ut haeretico furore deposito ad ea membra pertineatis pro quibus illi sic dimicant ! sed laesi a talibus etiam nos odistis et, tamquam aures dexteras perdideritis, Christum sedentem ad patris dexteram non auditis. sed quibus loquar aut quando eis loquar, quibus nec horam inuenio uinum etiam mane ructuantibus siue iam ebriis siue adhuc ? quin immo et minantur non solum illi, sed de illis otiam episcopi ipsorum, parati negare ad se pertinere quod fecerint».

وفيما يلي ترجمة النص :

195. «أجاب أغسطينوس : «لماذا لا تهدئون بهذا الكلام[126] فرق الدوارين ؟ هل تنوون تحريف الإنجيل وتقولون : «كل الذين يأخذون الهراوة بالهراوة يهلكون» ؟ فلتسامحونا إذن، لأن أسلافنا لم يقدروا على منع أولئك الذين رموا «ماركلوس» Marculus من المرتفع[127]، وهذا ما تعيبونه علينا، لأنه غير مكتوب في الإنجيل أيضا : «كل الذين يرمون (الغير) من أعلى يُرمى بهم من أعلى». هذه الأحداث التي تعيبونها علينا ملفقة أو قديمة، ليت هراواتهم هي الأخرى توقفت عن الضرب.

(125) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

(126) كان بتيليانوس قد استشهد بانجيل متى، الاصحاح 26، 51–52 :

«51. وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه.

52. فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».

(127) ماركولوس، أحد الشهداء الدوناتيين، سقط خلال أحداث نوميديا سنة 347. انظر أعلاه، ص ص 154–155.

ربما يغيظكم أن ننزع من فيالقكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن طبقا للقوانين، فبالخطاب على الأقل : ذلك أننا لا نعزو قسوتهم إلا إلى هراواتهم. تلك الهراوات التي كانوا يستعملونها سابقا في هجماتهم. أما الآن، فقد حققوا تقدما ملحوظا. فخلال سكرهم، وبرفقة نساء غير متزوجات[128] يستبيحون معهن الاختلاط والتسكع والممازحة، وشرب الخمر، والعلاقات الجنسية، لم يتعلموا التلويح بالهراوات فحسب، ولكن أيضا إشهار السيوف وتدوير المقاليع. لكن، لِمَ لا أقول لهم ذلك ؟ — الله يعلم بأي شعور أخاطبهم وبأي شعور يستمعون إلي —: «أيها الحمقى، ان بطرس لما استل الحسام من غمده، فعل ذلك مدفوعا بشعور بشري حقا، ولكنه فعله دفاعا عن جسد
ص.464 المسيح وضد جسد أحد المضطهدين[129]. أما أنتم فضد المسيح تشهرون أسلحتكم، ضده وضد رأس جسده، أي رأس كنيسته التي تمتد بين كل الشعوب[130]. هذا ما قاله المسيح قبل صعوده إلى السماء حيث لم يستطع حنق اليهود أن يتبعه. ضد أعضاء هذا الجسد — الذي يمثل صعوده عظمتها (أي الكنيسة) — يتكالب حنقكم !

لصالح تلك الأعضاء، وضدكم، ينتصب إيمان الكاثوليك متحمسا للصراع والمقاومة، ذلك الإيمان الذي لازال في حداثة سنه[131]،

(128) العذارى المنذورات للكنيسة الدوناتية. عن هذا الجانب من حركة الدوارين، انظر أعلاه، ص 163.

(129) الهامش أعلاه، ص 314.

(130) يستشهد أغسطين برسالة بولس إلى أهل كولسي، الإصحاح الأول، 18 : «وهو رأس جسد الكنيسة...».

(131) يقصد أغسطين بالكاثوليك هنا — كما سيتضح من سياق النص — السلطات الرومانية التي كانت من قبل تضطهد المسيحية والتي أصبحت الآن (بعد قسطنطين) تدافع عنها ضد المنشقين. وتتكرر الفكرة عند أغسطين (النصوص : 32، 41، 53). ومهما كان هدف الأباطرة من مناصرة الكاثوليكية (قناعات دينية لدى بعضهم، استراتيجية سياسية لتدعيم وحدة الامبراطورية سياسيا عن طريق الوحدة الدينية) فالواضح وجود تطابق في المصالح بين الكنيسة الكاثوليكية الافريقية والدولة الرومانية. لذا، نجد الدوناتيين يهاجمون «الملوك» (النص 24) والكاثوليك يمدحونهم (النص 53).

والذي تحدوه نفس المشاعر التي حدت بطرس على اشهار الحديد دفاعا عن اسم المسيح. لكن هناك فرقا كبيرا بين اضطهادكم واضطهادهم (أي الكاثوليك). فأنتم تشبهون عبد الكاهن اليهودي[132]، لأنكم تتسلحون تحت أوامر زعمائكم ضد الكنيسة الكاثوليكية، أي ضد جسد المسيح، أما هم، فيوجدون في وضع (مشابه لوضع) بطرس، ويحاربون حتى بأجسامهم من أجل (الدفاع عن) جسم المسيح، أي الكنيسة. وإذا قيل لهم أن يبقوا في هدوء كما طُلب من قبل من بطرس، فكم أنتم في حاجة إلى أن يقال لكم ان تتخلوا عن جنون الهرطقة وأن تنضموا إلى تلك الأعضاء (أي الكنيسة) التي يكافحون من أجلها ! لكن واحسرتاه ! لقد ضربوكم[133] ولذلك تبغضوننا أيضا، تماما كما لو ضاعت منكم الأذن اليمنى، فلا تسمعون المسيح جالسا إلى يمين الأب !»[134].

لكن، من أخاطب ومتى أخاطب ؟ إنني لا أجد وقتا ملائما لذلك، حتى في الصباح، تجدهم (أي الدوارين) مخمرين قد سكروا أو لازالوا سكرانين. بل إنهم لا يتورعون عن التهديد، هم وأساقفتهم الذين تبنوا قضيتهم والذين تجدهم مع ذلك مستعدين لادعاء أنهم لا يد لهم فيما فعلوا».

يستفاد من هذا النص على الخصوص التطور الذي عرفته أسلحة الدوارين : فبعد أن كانوا يستعملون هراواتهم المشهورة (الاسرائيلات Israeles)[135]، أصبحوا يستعملون الأسلحة الحديدية والمقاليع.

(132) الذي شهر بطرس سيفه عليه وقطع أذنه (متى، الإصحاح 26، 51. أعلاه، ص 314 هـ 1).

(133) هنا يتضح أن أغسطين كان يقصد السلطات الرسمية عند ذكره للكاثوليك في بداية النص. (الملاحظة في الهامش 4 ص 315).

(134) هنا ينتهي خطاب أغسطين إلى الدوارين.

(135) النص 3 ص 287.

النص الثالث والعشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, XCI, 201[136]

«Itane uero uos accepta alapa praebetis alteram maxillam ? non istam uobis famam furiosa uestra agmina per totam Africam cum terribili turpitudine passin uagantia compararunt. utinam uobiscum paciscerentur homines, ut saltem secundum ueterum legem oculum pro (123)[137] oculo, dentem pro dente peteretis, non pro auditis uerbis fustes erigeretis !».

ترجمة النص :

«أحقا بعد اللطمة الأولى، تقدمون الخد الآخر ؟[138] ليست هذه هي الشهرة التي أكسبتكم عصاباتكم المجنونة التي تجول برعبها وخزيها في كافة افريقيا[139]. ليتنا توصلنا إلى اتفاق معكم بأن تقفوا عند تطبيق القانون القديم، فلا تطلبوا إلا العين بالعين، والسن بالسن، ولا ترفعوا هراواتكم لمجرد كلمة تسمعونها (منا) !».

النص الرابع والعشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, XCII, 208.[140]

«... Cur ergo imperatores nostros, id est nostrae communionis, non commemorasti ? an timuisti, ne reus maiestatis accusareris ? ubi est circumcellionica fortitudo ?».

---

(136) - B.A. 30, p. 468 = C.S.E.L., 52, p. 122-123

(137) ترقيم الصفحات في نشرة : .C.S.E.L

(138) رداً على بتيليانوس الذي استشهد بانجيل متى، الاصحاح الخامس، 39 : «وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا».

(139) يعتمد «كالدرون» على تصريح أغسطين : «في كل افريقيا» per totam africam (في هذا النص وفي النص 7 أعلاه، ص 293)، وكذا على تصريحات مشابهة عند بوسيديوس Possidius (كاتب سيرة أغسطين) (Possidius, Vita Aug., 10) لقول بأن حركة «الدوارين ـــ الرهبان» شملت كل افريقيا.
- Calderone, circumcelliones, **Parola del Passato**, vol. XII, fasc. CXIII, 1967, p. 99 et n. 14.
وقد سبقت مناقشة هذه النقطة أعلاه، ص 98 وما بعدها.

(140) - B.A. 30, p. 494 = C.S.E.L. 52, p. 133

ترجمة النص :

«لماذا لم تذكر الأباطرة الذين من عقيدتنا ؟[141] هل خفت من تهمة المس بأمن الدولة[142] ؟ لكن أين شجاعتكم كدوارين ؟».

النص الخامس والعشرون : Aug., C. Litt. Petil., II, XCVI, 222[143]

«Respicite paululum cateruas, quae non antiquo more parentum suorum solis fustibus armantur, sed et secures et lanceas et gladios addiderunt».

«القوا نظرة على عصاباتكم التي لم تعد تتسلح بالهراوات كما كان آباؤهم يفعلون في الماضي، بل أيضا بالشواقير والحراب والسيوف !...»[144].

النصوص من السادس والعشرين إلى الثلاثين :

النصوص التالية مأخوذة من «الرسالة إلى الكاثوليك في موضوع فرقة الدوناتيين» Epistula ad Catholicos de Secta donatistarum.

وقع خلاف بين المتخصصين حول كاتب هذه الرسالة. هل هو أغسطين أو شخص آخر[145].

(141) كان بتيليانوس في رسالته قد أشار إلى أن «المسيحية لم تجد في الملوك إلا مضطهدين لها»، وقال : «إن أباطرتكم وقضاتكم ماتوا موتا رهيبا لقاء اضطهادهم لنا». وفي تعداده للملوك بدأ بالامبراطور «نيرو» وأنهى بالامبراطور «ماكسميانوس» (زميل ديقليديانوس على الجزء الغربي من الامبراطورية وشريكه في اضطهاد المسيحيين من 303 إلى 305). وبذلك لم يذكر بتيليانوس أي امبراطور مسيحي.

- C. Litt. Petil. II, XCII, 202; B.A. 30, pp. 468-476.

(142) قانون majestas في التشريع الروماني يعاقب كل من قام بعمل مناهض للدولة. كان أول قانون من هذا النوع هو الذي صدر سنة 103 (lex Apuleia) ثم صدر قانون في عهد سلا Sulla (lex Cornelia de Majestate). وكان يعاقب بالنفي كل من ثبتت عليه تلك التهمة (موظف أو مجرد مواطن). ثم تزايدت خطورة العقوبات في العهد الامبراطوري (الإعدام بالموت).

- The OxF. Classic. Dict., S.V. majestas, pp. 640-41.

(143) - B.A. 30, p. 512 = C.S.E.L., 52, p. 140

(144) إشارة جديدة إلى تطور أسلحة الدوارين. يقارن مع النص 3 والنص 22.

(145) انظر دراسة المصادر، أعلاه.

موضوع الرسالة وظروف كتابتها :

تدخل هذه الرسالة أيضا في إطار ما كتبه الكاثوليك ضد الدوناتية. وهي موجهة إلى الكاثوليك — كما يدل عليه عنوانها — إلا أن الكاتب كثيرا ما يوجه الخطاب إلى الدوناتيين (النص 29 أدناه). تمت كتابة هذه الرسالة في مدينة «هيبو ريجيوس» Hippo Regius (عنابة)[146] يرجع تاريخ كتابة هذه الرسالة — حسب تخمين Congar — إلى نهاية سنة 401 أو بداية سنة 402[147].

لا يوجد حاليا للرسالة إلا مخطوطان أصليان يرجعان إلى القرن الحادي عشر[148]. أما النشرات[149]، فأهمها نشرة Migne في «الجامع اللاتيني لكتابات آباء الكنيسة» (P.L)[150]، ونشرة Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» (C.S.E.L.)[151]، ونشرة «المكتبة الأغسطينية» (B.A)[152] التي اعتمدتها.

النص السادس والعشرون : Epistyla ad Catholicos, XVI, 41.[153]

«... Si ergo sponsus ab sponsa tamquam de loco familiarius dilecto et cubili quodam suo secreto interrogatus responderet esse in meridie, multo probabilius ecclesia catholica in his membris suis hoc agnosceret, quae sunt in Aegypto in milibus seruorum dei, qui per heremum sancta societate uiuunt, perfectionem praecepti euangelici studentes tenere quo dictum est : uis esse perfectus ? uade uende omnia quae habes et da pauperibus, het habebis thesaurum in caelis, et ueni sequere me. quanto enim melius ibi secretius pascere et cubare, id est requiescere, filius dei diceretur quam in turbis inqietis furiosorum circumcellionum, quod malum Africae proprium est!».

---

(146) يذكر الكاتب ذلك (V ، 9) **Ep. ad Cath.**, V, 9; **B.A.** 28, p. 524. -

(147) Congar, Y.M.J., **B.A.** 28, p. 495 -

(148) Ibid, p. 498 -

(149) Ibid, p. 499 -

(150) **Patrologiae latinae**, t. XLIII, col. 391-446 -

(151) **Corpus Scriptorum Ecclesiaticorum Latinorum**, t. LII, Vienne, 1909, pp. 231-322 -

(152) **B.A.** 28, 1963, pp. 502-706 : traduction de G. Finaert; introduction et notes par Y.M.J. Congar. -

(153) **B.A.** 28, p. 622 = **C.S.E.L.** 52, p. 286 -

وفيما يلي ترجمة النص :

«حتى لو سألت الحبيبة حبيبها[154] عن مكان إقامته المفضل، وعن خلوته حيث يأخذ راحته، وحتى لو أجاب أن هذا المكان هو «الظهيرة» Meridies[155] فإن الكنيسة الكاثوليكية يمكن أن تعتبر — وببراهين أقوى (من براهين الدوناتيين) — أن المقصودين (في الآية) هم أعضاؤها القاطنون بمصر. أولئك الآلاف من خدام الله الذين يكوّنون مجتمعا طهورا في كل أطراف الصحراء، مجتهدين في الحفاظ على قداسة كلمة الانجيل : «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء ليكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني»[156]. فما أجدر هذا المجتمع بأن يكون مكان الرعي وخلوة ابن الله، بدل تلك القطعان الصاخبة من الدوارين، تلك البلية الخاصة بافريقيا !».

يرى «كالدرون» S. Calderone في هذا النص دليلا على أن الدوارين كانوا رهبانا متنقلين[157]. ويستنتج ذلك من «المقارنة» التي يقيمها أغسطين بين رهبان

---

(154) أي سألت الكنيسة المسيح يسوع.

(155) إشارة إلى نشيد الأناشيد، الإصحاح الأول، الآية 7 : «اخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى أين تربض عند الظهيرة...» يذكر أغسطين أن الدوناتيين كانوا يعتمدون هذا النص للقول بأن افريقيا هي المقصودة بكلمة meridies، وان هذه الكلمة تعني «الجنوب»، وبالتالي افريقيا (الموجودة جنوب ايطاليا)، ومن ثم، فإن الكنيسة الحق حسب هذا التأويل الدوناتي هي التي ظلت موجودة في افريقيا، لأنها خلوة المسيح ومكان إقامته المفضل. أما أغسطين. فيرى أن meridies تعني «الظهيرة»، أي الوقت الذي تصل فيه الشمس إلى أعلى نقطة، وأن المعنى المقصود هنا مجازي، وليس جغرافيا. وفي الكتاب المقدس، نجد استعمال الكلمة بالمعنى الجغرافي (جنوب) في يشوع، اصحاح 18، الآية 5 وما بعدها، حزقيال، الإصحاح العشرون، الآية 46 وما بعدها.
(اعتمدت هنا على النشرة العربية للكتاب المقدس الصادر عن جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، بيروت، لبنان 1970، وقارنتها بالترجمة الفرنسية للكتاب المقدس — ترجمة L. Second عن النصوص الأصلية بالعربية والإغريقية (1978).

(156) متى، الإصحاح 19، 21.

(157) - Calderone, S., Circumcelliones, **Parola del Passato,** vol. XII, fasc. CXIII, 1967, pp. 100-101.

مصر والدوارين في افريقيا. وكما يتضح في هذا النص، فإن أغسطين ــ بالعكس ــ يرى فرقا ساطعا بين «المجتمع الطاهر» الذي يمثله نساك الصحراء المصرية، و«القطعان الصاخبة» التي يكونها الدوارون في افريقيا، ويرى أن الدوارين كانوا يشكلون «بلية خاصة بافريقيا». وعليه، فهذا النص لا يبعد في الواقع عن جو الجدل الكلامي بين أغسطين والدوناتيين، ولا يشكل إشارة صريحة إلى أن الدوارين كانوا رهبانا. ولو كانوا كذلك، لأشار إليهم أغسطين بهذه الصفة، وأظهر الفرق الموجود بين الرهبان الكاثوليك و«الرهبان» الدوناتيين. هذا إضافة إلى أن الدوناتيين كانوا مناهضين لنظام الرهبنة[158].

النص السابع والعشرون : **Ep. Ad Cath., XIX, 50**[159]

«... Aut quia tales sunt apud eos circumcellionum principes, aut quia tanta mala committunt circumcelliones, aut quia sunt apud eos, qui se per abrupta praecipitent uel concremandós ignibus inferant, quos ipsi sibimet accenderunt, aut trucidationem suam etiam inuitis hominibus terrendo extorqueant et tot spontaneas et furiosas mortes, ut colantur ab hominibus, appetant, aut quod ad eorum sepulcra ebriosi greges uagorum et uagarum permixta nequitia dio noctuque se uino sepliant flagitiisque corrumpant».

«... أوْ لأن في صفوفهم يوجد زعماء الدوارين المشؤومون، أو لأن الدوارين يقترفون جرائم عديدة، أو لأن من بينهم من يرتمون في المنحدرات، ويلقون بأنفسهم في لهيب المحارق التي أشعلوها لاحراق أنفسهم، وينتزعون من الناس رغما عنهم وبالإرهاب الحركة التي تقتلهم[160]، ويبحث العديد منهم عن الانتحار بجنون ابتغاء الحصول على تقديس البشر، أو لأن عصاباتهم السكرانة من المتسكعين ــ رجالا ونساء ــ تلتقي عند أضرحة ذويهم في تجمعات فاسقة، فيغرقون أنفسهم في السكر ليل نهار، ويدنسون أنفسهم في أعمال الفجور».

(158) نوقشت هذه النقطة أعلاه، الفصل الثاني : «ماهية الدوارين».

(159) - B.A. 28, p. 648 = C.S.E.L. 52, p. 297

(160) المقصود يرغمون المارة على قتلهم، كما يتضح ذلك في نص آخر (النص 43).

هذا النص من النصوص الرئيسية التي يعتمدها W.H.C. Frend لتدعيم أطروحته القائلة بأن الدوارين كانوا «زوار الأضرحة». ومن ثم ينطلق لاعطاء اشتقاق جديد لكلمة Cellas = Martyrs' shrines، أضرحة الشهداء(161). وقد تعرضنا لظاهرة تقديس الشهداء في الفصل الرابع(162).

النص الثامن والعشرون : Ep. ad Cath., XX, 53-54.(163)

«... Item iure culpandi sunt, qui turbide ataque inordinate in eos cohercendos insiliunt, qui nulla sibi lege subiecti sunt.

Proinde circumcellionum uestrorum inordinatas licentias et superbas insanias iuste reprehendimus, etiam aliquibus (302)(164) pessimis uiolenti sunt, quia illicita illicite uindicare et ab illicitis illicite deterrere non est bonum. cum uero et innocentes uel causa incognita ueliniquissimis inimicitiis persequuntur, quis eorum sceleratissima latrocinia non perhorrescat ?.

ترجمة النص :

«... وينبغي التنديد حقا بأولئك الذين يندفعون حشودا مجنونة وفوضوية لعقاب أشخاص لا يضعهم أي قانون تحت طائلتهم.

54. إننا على حق عندما نندد بالفوضى والفجور والعجرفة البالغة عند دواريكم، حتى عندما يهاجمون الأشرار، فليس من الخير في شيء أن يُنتقَم من الظلم بالظلم، وأن يُقاوَم الجور بالجور. أما عندما يضطهدون الأبرياء بحافز مجهول أو دافع الحقد الجائر، فمن لا يستفظع تلصصهم الشائن ؟».

يشكل هذا النص اعترافا من طرف الكاتب بأن الدوارين كانوا — أحيانا على الأقل — يهاجمون الأشرار للانتقام من جورهم. وتتأكد هذه الملاحظة من نصوص

---

(161) Frend, W.H.C., circumcellions and monks, J.T.S., 1969, p. 544, n. 8 -

(162) أعلاه، ص 167-172.

(163) B.A. 28, p. 658 = C.S.E.L. 52, p. 301-302 -

(164) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

أخرى تشير إلى أن الدوارين كانوا يدافعون عن العبيد والمديونين(165). وقد ركز J.P. Brisson على هذا النص لتدعيم الطابع الاجتماعي لحركة الدوارين(166).

Ep. ad Cath., XX, 55.(167) **النص التاسع والعشرون :**

«... ut, si aliquid uestri in nostros uiolenter fecerint, tuno uos, quos tamquam absides in fundis et in ciuitatibus habemus, non qualia uestri faciunt patiamini, sed per ordinata iudicia subiecti legibus damno pecuniario uapuletis. quod si uobis graue uidetur, uestri uobis[a] parcant et quiescant; si autem in uos[b] non quiescendo illi saeuiunt qui uel sub uobis uel uodiscum sunt, quid de nobis conqueramini non habetis, qui in uestra uel uestrorum potestate posuimus, ut etiam sectantes haeresem uestram nulla damna patiamini, si nullas catholica siue a uobis siue a uestris uiolentias patiatur. quodsi aliquae factae fuerint uobis inuitis et compescere non ualentibus, misericorditer ipsis damnis et iuste admonemini, quales habeatis a quibus uos contaminari non putatis, atque hinc intellegere cogimini, quam inanes calumnias esclesiae Christi toto orbe diffusae faciatis, neque iam nobis obiciatis quod persequimur uos, sed uestris potius, si et nos suis uiolentiis infestari et uos publicis legibus malunt conteri quam se a solito furore sedari. si quid sane a nostris christianae caritatis modum uotumque non custodientibus odise et perniciose patimini, non esse illos nostros cito dixerim. sed aut futuros si se correxrint, aut in fine separandos si in malitiva perdurarint; nos
p.666 tamen nec propter pisces malos retia / rumpimus nec propter uasa in contumeliam facta domum magnam desermus. quodsi uos quoque illos, a quibus talia catholica patitur, non esse uestros. eadem regula dicitis, probate animum uestrum, corrigite errorem, amplectimini uni (305)(168) tatem spiritus in uinculo pacis. nam si nec uos illi contaminant nec nos isti, non nobis inuicem alienis criminibus calumniemur : in una caritate frumenta crescamus, simul usque ad uentilabrum paleam toleremus».

a) (uobis) nobis Migne.
b) (uos) nos Migne.

«... وهكذا، فإن أنصاركم إذا ما مارسوا عنفهم ضدنا، فإنكم

(165) النص الأول والنص 42.

(166) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, Paris, 1958, pp. 333-334

(167) - **B.A.** 28, pp. 664-666 = **C.S.E.L.** 52, pp. 304-305

(168) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

تؤدون الثمن عن ذلك، أنتم الذين تحتجزكم كرهائن في الضيعات وفي المدن(169). لكننا لا نستعمل طرقكم : فعلى يد السلطات الشرعية وفي احترام تام للقوانين، نود أن نعاقبكم بالغرامة(170). وإذا رأيتم أن هذه الاجراءات قاسية، فما على ذويكم إلا أن يراعوكم(171) ويحافظوا على الهدوء. فإذا لم يهدأوا وتكالبوا عليكم(172)، وهم أناس تحت أوامركم أو معكم، فلا يحق لكم أن تتشكوا منا، لقد وضعنا في أيديكم أو في أيدي ذويكم وسيلة (أو شرط) اتباع بدعتكم بدون أن يلحقكم أي ضرر : شريطة أن لا تعاني الكنيسة الكاثوليكية من عنفكم أو عنف ذويكم. وإذا حصل شيء من ذلك العنف رغما عنكم وبدون أن تستطيعوا ردعه، فإن الأضرار اللاحقة تشكل في حد ذاتها إنذارا رؤوفا وعادلا : لأنها تظهر لكم أي نوع من البشر يحتويه حزبكم، ومع ذلك فلا تعتبرون أنفسكم مدنّسين (بوجودهم بين ظهرانيكم)، وهكذا يرغمكم على إدراك مدى تفاهة الاتهامات(173) التي تفترونها على كنيسة المسيح الممتدة على الكون بأسره. لا تتهمونا بعدئذ بأننا نضطهدكم، ولكن وجهوا تلك التهمة إلى رجالكم، إذا كانوا يفضلون مناوشتنا بأعمال العنف وسحقكم تحت قوانين الدولة، بدل التوقف عن هيجانهم المعتاد. طبعا، إذ كان بعض ذوينا لا يلتزمون القوانين

---

(169) يقارن مع النص 20.

(170) المقصود الغرامة المفروضة على أصحاب البدع (haeretici) والتي نص عليها قانون ثيدوسيوس في 15 يونيو 392 (Cod. Theod., XVI, 5, 21). وتبلغ قيمتها عشرة أرطال من الذهب. وقد طلب الكاثوليك تطبيق هذه الغرامة على عدد من رجال الدين الدوناتيين : على أبطاتوس الجيلدوني سنة 395، لكن بدون جدوى. (Aug. C. Litt. Petil., II, 83, 184 = B.A. 30, p. 446). ولكنهم نجحوا في تطبيقها على Crispinus أسقف «كلاما» Calama (كَلمة بتونس حاليا) سنة 403 .(Aug., C. Cresc., III, XLVII, 51 = B.A. 31, p. 376).

- Warmington, B.H., The North African provinces..., 1954, p. 98.

(171) يراعونا (درس Migne).

(172) علينا (درس Migne).

(173) المقصود اتهامات الدوناتيين للكاثوليك بتخاذل سلفهم خلال اضطهاد ديقليديانوس، وتسليمهم الكتاب للسلطات (Traditio).

والأوامر التي تقتضيها الرحمة المسيحية، ويلحقون بكم المتاعب
والاضرار، فإنني أبادر بالقول أنهم ليسوا منا : قد يصبحون منا إذا
ص.666 تابوا عن فعلهم، أما إذا تمادوا في غيهم، فينبغي إزاحتهم حتى النهاية.
ولكننا ــ على أي حال ــ لا نمزق الشبكة بسبب الأسماك
الرديئة[174] ولا نهجر البيت الكبير بسبب الأواني المخصصة لأغراض
دنيوية[175]. لكن، إذا اتبعتم نفس النهج من جهتكم، وتخليتم عن
الذين يسيئون إلى الكنيسة الكاثوليكية، فاعطوا الحجة إلى حسن
نيتكم، وتعالوا إلى الوحدة في العقيدة برباط السلام. لأنه إذا كانت
عناصركم الرديئة لا تدنسكم فنحن أيضا لا تدنسنا عناصرنا الرديئة.
لذا، علينا أن لا يعيب بعضنا على البعض أعمال الآخرين، ولننْمُ سواء
كالزرع الطيب المجتمع على البر، ولنحتمل التبن إلى يوم
الحصاد»[176].

يمكن أن يلاحظ في هذا النص أن الكاتب كان يقيم نوعا من تمييز بين الدوناتيين «المسالمين» و«العناصر المشاغبة»، التي تتمثل في الدوارين أساسا. ومع أنه يشير

---

(174) إشارة إلى متى، الإصحاح الثالث عشر، 47 وما بعدها : «47. أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة في كل نوع. 48. فلما امتلأت أصعدوها على الشاطيء وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية. وأما الاردياء فطرحوها خارجا. 49. هكذا يكون في انقضاء العالم. يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار. 50. ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». كثيرا ما استعمل الكاثوليك هذا التشبيه (بين فرز الأخيار والأشرار في اليوم الآخر، وفرز السمك الجيد من الرديء بعد صعود الشبكة على الشاطيء) وذلك ليدحضوا الدوناتيين في قولهم بضرورة التمييز بين القديسين والمذنبين في الحياة الدنيا. عن ضرورة هذا الانفصال السوسيولوجيّ وارتباطه الوثيق بالقداسة عند الدوناتيين :

- **Brisson, J.P., Autonomisme et Christianisme..., op.cit, pp. 123-188.**

(175) إشارة إلى رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس، الإصحاح الثاني، 20 : «ولكن في بيت كبير ليس آنية من ذهب وفضة فقط، بل من خشب وخزف أيضا، وتلك للكرامة وهذه للهوان». وذلك للتعبير عن نفس الفكرة : عدم الانفصال (في هذه الدنيا) عن المذنبين.

(176) إشارة إلى تشبيه آخر في الكتاب المقدس : متى، الاصحاح 13، 24 وما بعدها : «30. دعوهما ينميان كلاهما معا إلى الحصاد. وفي وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزما ليحرق. وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني».

إلى أن هذه العناصر «المشاغبة» تنتمي إلى الكنيسة الدوناتية، فهو يحث الدوناتيين على التخلي عنها، لكي لا يعاب عليهم «أعمال الآخرين». وهو يدرك أيضا ــ على ما يبدو ــ صعوبة تحكم الدوناتيين في تلك العناصر، ويعترف أن أعمال العنف ربما كانت تتم «رغما عنهم، وبدون أن يستطيعوا ردعها». والملاحظ كذلك أن «جريمة» الانشقاق ليست في رأي الكاتب أخطر من «جرائم» الدوارين وعنفهم، على عكس ما يبدو في نصوص أخرى[177]. بل إن الكاتب هنا يترك للدوناتيين حرية اتباع مذهبهم «بدون أن يلحقهم أي ضرر»، لكن شريطة أن لا تعاني الكنيسة الكاثوليكية من عنف الدوناتيين (الدوارين). وهذا أيضا يشكل نقطة التقاء بين مصالح الدولة التي تحاول الحفاظ على الأمن (لجلب قمح افريقيا على الخصوص)، ومصالح الكنيسة الكاثوليكية التي تريد الاستئثار بمراكزها في افريقيا.

النص الثلاثون : **Ep. ad Cath., XX, 56.**[178]

> «... nec iuste de persecutionibus conquerimini, quas grauiores ipsa perpetitur quo latius diffunditur, ac fide et spe et caritate omnia tolerat non tantum talia, qualia uestri circumcelliones et eorum similes ubi possunt membris eius infligunt, sed omnia uariarum iniquitatium scandala per uniuersum mundum scatentia».

ترجمة النص :

«... ليس من حقكم أن تتشكوا من الاضطهادات (التي تلحقكم). فالكنيسة تعاني ــ هي الأخرى ــ من اضطهادات أدهى وأمر، خاصة وأن (الكنيسة) ممتدة على مناطق بعيدة. ومع ذلك، فإنها تتحمل كل الاضطهادات بإيمان وأمل وإحسان. ولا يتعلق الأمر فقط بأضرار شبيهة بالتي يلحقها دواروكم وأمثالهم بأعضاء الكنيسة حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلا : ولكن هناك أيضا كل الفضائح التي تأتي بسبب الجور بشتى أشكاله والتي تتكاثر في مجموع الكون...».

---

(177) «... ان يصطدم أخوكم البريء بأسلحة الدوارين المستعدين لقتله، أفضل من أن يصادف ألسنتكم المتعطشة لإعادة تعميده».

- Aug., C. Litt. Petil., II, LXXXVI, 191 = B.A. 30, p. 459.

(178) - B.A. 28, p. 666 = C.S.E.L. 52, p. 305

النصوص من الواحد والثلاثين إلى السادس والثلاثين :

هذه النصوص من كتاب أغسطينوس «الرد على «كريسكنيوس» النحوي والدوناتي»، «Contra Cresconium Grammaticum et donatistam».

ـ تاريخ وظروف كتابة هذه الرسالة :

تدخل هذه الرسالة في إطار ما كتبه أغسطينوس ضد الدوناتية. جاءت ردا على كريسكنيوس، أحد المثقفين الدوناتيين، وأول دوناتي هاجم أغسطينوس مباشرة[179]، بحيث كتب رسالة طويلة ينتقد فيها الأسقف الكاثوليكي ويعقب على الرد اللاذع الذي كان قد رد به على الرسالة الأولى لـ«بتيليانوس» أسقف قسنطينة[180]. ويرى De Veer أن كريسكنيوس كتب رسالته حوالي سنة 400 أو 401[181]. أما رد أغسطينوس عليها فقد جاء في سنة 406 على وجه التقريب[182].

ـ أهمية الكتاب بالنسبة لموضوعنا :

في الكتاب، يعطي أغسطينوس وصفا دقيقا في كثير من الأحيان لتصرفات الدوارين وهجومهم على الأساقفة والشمامسة الكاثوليك، ويتحدث عن أسلحتهم، وطرق تعذيبهم لضحاياهم.

ـ المخطوطات والنشرات :

للكتاب عدة مخطوطات، تتراوح في تاريخها ما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر[183]. أما النشرات، أحدثها نشرة Migne في «الجامع اللاتيني لكتابات آباء

---

(179) لا نعرف كريسكنيوس إلا من خلال رد أغسطين عليه. وقد كان يمارس مهنة «نحوي» grammaticus، أي أنه كان يعلم الأطفال قواعد النحو والأدب، قبل أن يلجوا أبواب البلاغة والفنون «الحرة»، وبعد أن يكونوا قد تلقوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب.

(180) رسالة بتيليانوس إلى كهنة وشمامسة قسنطينة (حوالي 398) ورد أغسطين عليها في الكتاب الأول من «الرد على رسالتي بتيليانوس» (بداية سنة 400). أعلاه.

(181) - De Véer, A., B.A. 31, p. 19 (introduction)

(182) بعد 12 فبراير 405، أي بعد تاريخ صدور قوانين هنوريوس ضد الدوناتية. تلك القوانين التي يشير إليها أغسطين في كتابه (النص 31، أدناه).

(183) - B.A. 31, pp. 59-61

الكنيسة» (P.L)، الجزء الثالث والأربعون، ونشرة Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» (C.S.E.L) الجزء الثاني والخمسون (ص ص 325–582)، وأخيرا نشرة «المكتبة الأغسطينية» التي اعتمدتها[184].

النص الحادي والثلاثون . Aug., C. Cresc., III, XLII, 46 - XLV, 49.[185]

«XLII.46. Deinde commemorans etiam nescio quos mortuos, quos a nostris dicis occisos, tamquam in campo facundiae tuae positus latissine exaggeras locum, in quo uobis uidemini (453)[186] similes martyrum, cum cotidie uestrorum incredibilia patiamur facta clericorum et circumcellionum multo peiora quam quorumlibet latronum atque praedonum. namque horrendis armati cuiusque generis telis terribiliter uagando non dico ecclesiasticam, sed ipsam humanam quietem pacemque perturbant, nocturnis adgressionibus clericorum catholicorum inuasas domos nudas atque inanes relinquunt, ipsos etiam raptos et fustibus tunsos ferroque concisos semiuiuos abiciunt. insuper nouo et antehac inaudito sceleris genere oculis eorum calcem aceto permixto infundentes et infercientes, quos euellere conpedio poterant, excruciare amplius eligunt quam citius excaecare. nam primo tantum calce ad hoc facinus utebantur, sed posteamquam illos, quibus hoc fecerant, cito salutem reparasse didicerunt, acetum addiderunt.

XLIII. 47. Omitto ante quanta commiserint, quibus easdem leges aduersus errorem uestrum constitui coegerunt, magis christiana mansuetudine temperatas quam in tam magna scelera ui congrui exertas. episcopus catholicus a Thubursicubure Seruus nomine cum inuasum a uestris locum repeteret et utriusque partis procuratores proconsulare praestolarentur examen, repente sibi in oppido memorato uestris armatis
p.364 inruentibus uix uiuus aufugit. a quibus pater eius presbyter ae/tate ac moribus grauis ea caede, qua uehementer adflictus est, post dies paucos excessit e uita. Maximianus episcopus catholicus Bagaiensis dicta inter partes iudiciaria sententia basilicam fundi Caluianensis euicerat, quam uestri inlicite aliquando usurpauerant. hanc cum iure perspicuo retineret, in ea ipsa sub altari quo confugerat, eodem supra se (454)[187] fracto

(184) - B.A. 31, 1968; (traduction de G. Finaert; introduction et notes par A.C. De Véer). pp. 70-642.

(185) - B.A. 31, p. 36 2-370 = C.S.E.L. 52, p. 452-56

(186) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

(187) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

eiusque lignis aliisque fustibus, ferro etiam crudeliter caesus totum illum locum sanguine obpleuit. acceperat autem et grande uulnus in inguine, unde cruore largius effluente continuo moreretur, nisi maior eorum crudelitas per occultam dei misericordiam profuissent. nam cum membris ex ea parte nudatis semiuiuus insuper pronusque traheretur, exundantes uenas latenter puluis obstrusit. inde nostrorum manibus cum ferretur, rursus illis inruentibus uiolenter extortus est grauiusque mulcatus et de excelsa turri noctu praecipitatus subter cinere stercoris molliter iacebat exceptus, sensu amisso uix extremum spiritum tenens. ibi eum transiens quidam pauper inuenit, cum uentris exonerandi causa ad eum deuertisset locum. agnouit autem, cum pauidus suam coniugem adcerseret, quam proculuerecundia dimouerat, lucernam ferentem. tunc eum ambo peruexerunt domum uel miserando uel aliquid etiam licelli sporando cum siue uiuus seu mortuus, collectus tamen nostris ostenderetur. quid plura , mirabili curatione sanatus est, uiuit, plures in eius corpore cicatrices quam membra numerantur. hunc ad transmarinas terras occisum a uestris fama
p.366 nuntiauerat et eius facino/ris inmanitas grauisque indignatus, quaquaerum audiri potuit, dolore horrendo cuncta commouerat. quo posteaquam ipse secutus est recentissimae cicatrices eius famae illud mendacium defenderunt; nam quem tunc inspicientes uix crederent uiuum, non temere illa iactasse uidebatur occisum. hic cum illic inuenisset collegam Thubursicensem, quem paulo ante commemoraui, et alios nonnulos similia uel non multo inferiora perpessos, nec eis ad propria (455)[188] reuertendi ulla facultas patere uideretur, et quia circumcellionum uestrorum nobilis furor horrendum praebens uestris clericis satellitium usque quaque odiosissime innotuit, ingens in uos conflagrauit inuidia atque inde factum est, ut et praeteritae omnes contra uos leges excitarentur et istae conderentur nouae. quarum tamen uniuersarum seueritas si uestrorum inordinatae ac sine ulla leges grassanti saeuitiae comparetur, mira lenitas appellanda est. his enim magis tanta potestate accepta mansuetudo catholica commendatur quam haeretica inmanitas plectitur, immo uero in nos caedes rapinas incendia caecitates excogitando minando exercendo audacius et insanius debacchatur.

XLIV. 48. Haec enim ego commemorare uolui, per quae factum est, ut his nostris temporibus aduersus uos ista imperialia statuta ferrentur, immo aduersus errorem uestrum. nam quid tam, si sapiatis, potest esse
p.368 pro uo/bis ? ceterum omnia quae uel anteriarum litteris didici uel ipse cognoui saeua facta uestrorum, quibus ab initio diuisionis uestrae usque

(188) ترقيم الصفحات في نشرة : .C.S.E.L.

ad hoc tempus ecclesiam catholicam persecuti sunt, si uelim retexere, quae lingua, qui stilus, quantum tempus otiumque sufficiat ?.

XLV. 49. ...audi ergo quaedam, quae ipse sum expertus. cum receptorum a uestris Maximianensium quos damnauerant causam cognouissemus et eam quaquauersum poteramus feruenti diffamaremus instantia, illi rebus tam recentibus et tanta manifestatione clarentibus quid respondere possent non inuenientes solito crebrius et audacius
p.370 circumcellionum uiolentiis turbisque furentibus nos a praedi/canda catholica ueritate suaque fallacia conuincenda deterrere coeperunt».

ترجمة النص :

ص.362 XLII. 46. «ثم تذكر بعد ذلك أيضا بعض الأموات الذين قلت أن ذوينا قتلوهم. وقد وجدت الباب مفتوحا لإظهار فذلكة لسانك، فزدت في توسيع المجال الخطابي الذي شبهت فيه أنفسكم بالشهداء. هذا بالرغم من أننا نعاني في كل يوم من الشرور المهولة التي يقوم بها كهنتكم[189] ودواروكم، وهي أدهى وأمر من شرور كل اللصوص والنهابين. إنهم يتوفرون على أسلحة مرعبة من كل نوع، وتسكعهم الرهيب لا يزعج راحة الكنيسة وسلامها فحسب، ولكن راحة وسلام البشرية جمعاء. خلال هجماتهم الليلية، يجتاحون بيوت الكهنة الكاثوليك ويتركونها خاوية على عروشها. ويقبضون على صغار الكهنة ويشبعونهم ضربا بالعصا، ويجرحونهم ضربا بالسيف، ثم يتركونهم بين الحياة والموت، ويضيفون نوعا غريبا من التعذيب لم

(189) Clerici : الكهنة. على رأس كل ابرشية، كان هناك أسقف episcopus، وبجانبه عدد من الكهنة Clerici. يسمون هكذا لأنهم يختارون لخدمة الكنيسة (حرفيا : «يوضعون جانبا»). هذا الفرق بين الكهنة والعامة اتضح أكثر فأكثر منذ بداية القرن الرابع، وظهر في القوانين في عهد قسطنطين (Cod. Theod., XVI, 2,2). يشكل الكهنة جماعة «الاكليروس» في الابرشية، ويضم : الكهنة الكبار : الرعاة : présbyteri والشمامسة diaconi، ثم الكهنة الصغار : المرافقون acolythi والقراء lectores... نفس التنظيم كان موجودا في الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية.

- Monceaux, P., l'Eglise donatiste. Organisation et caractères, **R.H.R.**, t. 63, 1911, pp. 270-271.
- Hamman, A.G., **La Vie quotidienne à Carthage au temps de Saint-Augustin**, Paris, 1979, p. 282.

يسمع به قط : ذلك أنهم يسكبون خليطاً من الجير والخل ويولجونه بعمق في عيون ضحاياهم. وهكذا، فبدل اقتلاع عيونهم دفعة واحدة، يفضلون تعذيبهم على هينة حتى لا يعمونهم بسرعة. وكانوا أول الأمر يستعملون الجير فقط، ولكنهم أضافوا إليه الخل بعد ذلك عندما علموا أن ضحاياهم كانوا يشفون بسرعة.

47. إنني أطرح جانبا كل الجرائم التي اقترفتموها سابقا والتي أرغمت (الأباطرة) على تشريع القوانين المذكورة ضد ضلالكم، وهي في الواقع قوانين لطّفت الرحمة المسيحية تطبيقها (عليكم) أكثر مما هي قوانين تعاقب جرائمكم المروعة بما يلزم من الحزم.

كان «سرفوس» Servus ــ أسقف «ثبرسكوم بوري» -Thubursicum Bure ــ[190] يطالب بـ(ارجاع) محلة كان ذووكم قد استولوا عليها. وكان ممثلو الفريقين ينتظرون قرار «البروقنصل»[191]. وفجأة، في تلك القرية، ارتمى ذووكم بأسلحتهم عليه (على سرفوس)، فلم ينج
ص.364 بالفرار حيا إلا بصعوبة. أما أبوه الذي كان كاهنا محترما من حيث سنه وفضائله، فإنه مات بعد أيام قليلة إثر الجروح الخطيرة التي سببتها ضرباتهم.

أما «ماكسميانوس» Maximianus ــ الأسقف الكاثوليكي بباغاي[192] Babaï ــ فإنه حصل على حكم قضائي ارجع إليه الكنيسة الموجودة بضيعة «كالفيا» Calvia[193] ــ التي كان ذووكم قد احتلوها جورا لمدة قصيرة. وكان محتفظا بها بحكم قانون واضح لا

---

(190) تبرسق حاليا بتونس.

(191) والي افريقيا «البروقنصلية» الذي يوجد مقره بقرطاج. عن هذا الإقليم في القرن الخامس، انظر : ص 12 ــ هـ 1، والخريطة III.

(192) قصر باغاي، قرب مدينة خنشلة بالجزائر الحالية، انظر أعلاه، ص 114، هـ 1.

(193) Fundus calvianensis من الراجح أنها ضيعة كانت بيد أحد الملاك يدعى Calvianus. وفي تلك الضيعات كانت تقام كنائس صغيرة لتجمعات المزارعين، بل أحيانا كان يعين بها أساقفة. (ومن ثم العدد الهائل للابرشيات في افريقيا بالمقارنة مع باقي أقاليم الإمبراطورية، انظر أعلاه، ص 119، هـ 1).

غبار عليه. هوجم (ماكسميانوس) من طرف ذويكم، فاعتصم تحت المذبح لكنهم حطموه فوق رأسه. وبكسرات الخشب وبضربات الهراوات والسيوف، أشبعوه ضربا لاذعا وكسوا بالدم كل أرضية المكان. والحالة أنه أصيب ــ من جملة ما أصيب به من جروح ــ بجرح في ثنية فخذه، فكان دمه يسيل بغزارة، وكاد أن يموت من جراء ذلك، لولا لطف إلهي خفي استعمل قسوتهم البالغة ضد قصدهم : ففوق ذلك الجزء المعرى من الجسم، بدأوا يجرونه فوق التراب الذي أغلق (سيلان) الدم من العروق. أخذه ذوونا من ذلك المكان، لكن المهاجمين تسارعوا، وانتزعوه منهم بالقوة، وعذبوه بقسوة، ثم لما حان الليل، رموه من أعلى أحد البروج. غير أنه (مكسميانوس) سقط فوق ركام لين من الغبار وبقي هناك مغمى عليه بين الموت والحياة. وإذا برجل فقير يمر من هناك، وينحرف جانبا لضرورة طبيعية، فيعثر على «مكسميانوس». اقشعر بدن الرجل (لرؤية جروح مكسميانوس)، ونادى على زوجته التي كانت قد انزوت في مكان منعزل بدافع الحياء من زوجها، والتي كانت تحمل بيدها مصباحا. تعرف الرجل على الأسقف. فأخذه الاثنان وحملاه إلى بيتهما، إما شفقة به وإما أملاً كذلك في الحصول على مكافأة صغيرة، لأنهم إذا ما سلموه حيا أو ميتا إلى ذوينا، فسوف يعطون الدليل على أنهم آووه. وباختصار، شفي (ماكسميانوس) بمعجزة أو تكاد، ولازال حيا، لكن عدد جروحه يتعدى عدد أعضائه. وكانت شائعة قد وصلت قبل ذلك إلى ما وراء البحر[194]، مفادها أن ذويكم قتلوه. وقد أثارت وحشية ذلك القتل
ص.366 وشناعة تلك المعاملة حزنا وروعا في كل مكان. عندما مثل (ماكسميانوس) شخصيا هناك بعد مدة قصيرة، كانت رؤية جراحه

(194) إلى إيطاليا، وربما يقصد أغسطين البلاط الإمبراطوري. لكن، من أوصل تلك الشائعة ؟ من المحتمل أن المجمع الكنسي الكاثوليكي المنعقد بقرطاج في 16 يونيو 404 والذي أرسل أسقفين مبعوثين إلى الإمبراطور قصد التشكي كانت له علاقة بتلك الوشاية، ولكن أغسطين لم يشر هنا إلى مقررات وتوصيات ذلك المجمع. (نص تلك المقررات أدناه، النص 53، ص 367-368).

ـــ التي لم تلتئم بعد تماما ـــ كافية لتفسير نبأ وفاته الكاذب : فعند رؤيته كان من الصعب أن يصدق المرء بأنه كان حيا، لذا، فلم يعتبر نبأ قتله من سبيل المجازفة.

وهناك (فيما وراء البحر)، وجد (ماكسميانوس) زميله أسقف «ثبورسيكوم ـــ بوري» Thubursicum - Bure[195] الذي تحدثت عنه سابقا، وعددا كبيرا من الأساقفة الآخرين ضحايا اعتداءات شبيهة أو تكاد تكون في مثل عنفها. واتضح أنه لم يعد بإمكانهم الرجوع إلى ديارهم. وبعدئذ، فإن الجنون الذي عرف به دواروكم ـــ الذين كانوا يشكلون حرسا رهيبا لكهنتكم ـــ اكتسب شهرة بغيضة في كل مكان. ومن ثم اللاشعبية الكبيرة التي أحاطت بكم، ومن ثم أيضا إحياء كل القوانين القديمة[196] ضدكم وإصدار هذه القوانين الجديدة[197].

ومع ذلك فإذا قورنت صرامة كل هذه القوانين بقساوة ذويكم التي تضرب خبط عشواء وبدون قانون، فلا يمكن أن تعتبر تلك القوانين إلا آية من الرحمة واللين. هذه القوانين ـــ التي تمنحنا كل القوة ـــ تعطي الدليل في الواقع على الرأفة الكاثوليكية أكثر مما تعاقب قسوة أصحاب البدع، تلك القسوة التي تخترع ضدها أعمال القتل والنهب والحريق وطمس العيون، وتهددنا بكل هذا وتنفذ التهديد، فتزداد تجمعات الفسق والفجور جرأة وجنونا.

XLIV. 48. أردت هنا أن أذكّر بهذه الأحداث التي كان من نتائجها في وقتنا الراهن صدور هذه القرارات الامبراطورية ضدكم، أو
ص.368 بالأحرى ضد ضلالتكم، ذلك لأنكم لو كنتم عقلاء، فهل هناك شيء أكثر من هذا (القرارات الامبراطورية) لصالحكم ؟[198] والواقع أنني

(195) أي الأسقف Servus الذي سبق الحديث عنه.

(196) انظر لائحة تلك القوانين، أعلاه، ص 261، هـ 1.

(197) القوانين التي أصدرها هنوريوس في سنة 405 أعلاه، ص 240، هـ 1.

(198) في فقرة أخرى لأغسطين، نجده يشبه أصحاب البدع بالمرضى، والرادعين لهم بالأطباء. ويتساءل : هل الطبيب يضطهد مرضاه عندما يداويهم ؟ (النص 35).

لو أردت تعداد كل الفظاظات التي اطلعت عليها عند الأقدمين أو التي تعرفت عليها بنفسي، والتي اضطهد بها ذووكم الكنيسة الكاثوليكية منذ بداية انشقاقكم[199] إلى يومنا هذا، فأي لسان وأي قلم وأي وقت سوف يلزمني لذلك ؟

XLV. 49.... اصغ إلى بعض الأحداث المستقاة من تجربتي الشخصية. عندما سمعنا قبول ذويكم برجوع «الماكسميانيين» (إلى حظيرة الدوناتية «الأرثدكسية»)[200] ــ وكانوا قد أدانوهم من قبل ــ، فإننا نشرنا الخبر في كل الأرجاء، وبكل ما أوتينا من قوة. فلم يجد ذووكم أي جواب على تلك الأحداث القريبة العهد والواضحة وضوح الشمس. لذا، فإنهم أصبحوا يلجأون أكثر فأكثر ــ وبوقاحة
ص.370 متزايدة ــ إلى عنف الدوارين وعصاباتهم المجنونة، فبدأوا يستعملون الطرق الإرهابية ليحولوا دوننا ودون نشر الحقيقة الكاثوليكية وليمنعونا من اقحامهم واظهار مغالطاتهم».

النص الثاني والثلاثون : Aug., C. Cresc., III, XLVII, 51-XLVIII, 52.[201]

«... neque enim aliter innotesceret, quid adiutorio Christi ecclesia catholica in suos inimicos posset et nollet, non secundum haereticam praesumptionem priuato furore circumcellionibus saeuientibus, sed secundum propheticam ueritatem iugo domini dei subditis regibus.......
p.378 ... ut nec post imperiale rescriptum aurum illud fisco Crispinus expenderit, indulgentiam illi Catholicis episcopis impetrantibus, et nunc inter ipsas etiam recentissimas leges proscriptionem uestris episcopis comminantes in re propria securus sedeat et catholici clerici inter manus circumcellionum clericorumque uestrorum domos, uictum, salutem ac lumen corporis pendant.

---

(199) يقارن مع النص 15.

(200) انشق الماكسميانيون عن الخط الارثذكسي سنة 392 ثم رجع بعضهم بعد ذلك إليه حوالي 396 تحت ضغط ابطاتوس الجيلدوني حسب ما رواه أغسطين. أنظر أعلاه، ص 241، هـ 1، وص 242، هـ 1.

(201) B.A. 31, p. 376-378 = C.S.E.L. 52, p. 459-460 -

(460)[202] XLVIII. 52. Haec qui faciunt quid aequos dicam latronibus, piratis, truculento alivui generi barbarorum, quando nec ipsi omnium crudelitatum magistro diabolo conparandi sunt ? ille sanctum uirum Iob omnibus eius rebus ablatis grauissimo uulnere a capite usque ad pedes percussit».

ترجمة النص :

«... والا، فلن يتضح (للناس) أي سلطة تملكها الكنيسة الكاثوليكية بعون المسيح، لردع أعدائها، ولكنها لا تستعملها[203]. وتلك السلطة لا تتجلى في اللجوء إلى دوارين يمارسون عنفهم الخاص[204] عن قناعات بدعية، ولكن إلى الملوك الرازحين تحت نير الرب المولى طبقا للنبوءة الحقيقية...

ص.378 وحتى بعد صدور قرار الامبراطور، فإن «كريسبنوس» Crispinus لم يؤد ذلك الذهب[205] إلى الخزينة. وحتى وقتنا الراهن، ورغم القوانين الحديثة[206] التي تهدد أساقفتكم بالنفي، فإنه «كريسبينوس» لازال يقطن في ملكيته بأمن وأمان، بينما يتخلى الكهنة الكاثوليك — تحت تهديد دواريكم وكهنتكم — عن بيوتهم ومؤنهم وصحتهم

---

(202) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

(203) يشير أغسطين إلى القوانين الصادرة ضد الدوناتية والتي يقول أن الكاثوليك بإمكانهم استعمالها أو عدم استعمالها ضد الدوناتيين. وأن عدم استعمالها حتى ذلك الوقت كان دليلا على «رأفتهم المسيحية». ومع ذلك، فنحن نعرف أنهم طلبوا تطبيق قانون الغرامة النقدية على أبطاتوس الجيلدوني، ولم يفلحوا في ذلك (أعلاه، ص 325، هـ 2).

(204) يقارن مع النص 28.

(205) أحد الكهنة الدوناتيين التابعين لابرشية «كلاما» Calama (كَلمة بتونس) هو غير الاسقف الذي يحمل نفس الاسم في نفس الابرشية. قاد جمهرة يبدو أنها كانت مكونة من الدوارين. وهاجم الأسقف الكاثوليكي بنفس المدينة (بوسيديوس : Possidius). وقد أقام الكاثوليك دعوى عليه، فصدر قرار امبراطوري يعاقبه بأداء عشرة أرطال من الذهب، طبقا لقانون ثيدوسيوس الصادر سنة 392. (انظر كذلك أعلاه، ص 325، هـ 2). لكن «أغسطين» — على قول «بوسيديوس» (Vita Augustini, XII) تدخل لدى السلطات لكي تعفو عن «كريسبنوس».

(206) قوانين هنوريوس الصادرة في سنة 405، انظر أعلاه، ص 240، هـ 1.

ونور بصرهم[207].

XLVIII. 52. بماذا أنعت أصحاب هذه الجرائم ؟ هل أكتفي بالقول أنهم لصوص أو قراصنة أو سلالة من المتبربرين السفاكين، والحالة أنه لا يصح تشبيههم حتى بالشيطان، سيد كل الفظاعات ؟ لقد انتزع (الشيطان) من أيوب ـــ الرجل الصالح ـــ كل ممتلكاته، وجرحه جرحا أليما من رأسه إلى قدميه، ولكنه مع ذلك ترك له مكانا سليما لعينين سليمتين، فلم يطمسهما، بالرغم من أن جسم ذلك الرجل سلم إليه كي يفعل به ما يشاء»[208].

يلاحظ في الفقرة الأخيرة من هذا النص أن من بين النعوت التي يصف بها أغسطين الدوارين وبعض الكهنة الدوناتيين وصفه لهم بأنهم سلالة من المتبربرين. وربما كانت تلك إشارة أخرى إلى قلة ترو منهم، وعدم معرفتهم للغة اللاتينية[209].

النص الثالث والثلاثون : Aug., C. Cresc., III, XLVIII, 53.[210]

«Restitutus quidam in regione Hipponiensi uester presbyter fuit. qui cum ad catholicam pacem, antequam istis imperialibus legibus iuberetur, ueritatis ratione permotus manifesta uoluntate transisset, de domo sua raptus est a clericis et circumcellionibus uestris, luce palam in castellum proximum ductus et multitudine spectante nihilque resistere audente ad furentum arbitrium fustibus caesus, in lacuna lutulenta uolutatus, amictu iunceo dehonestatus posteaquam satis excruciauit oculos dolentium ridentiumque satiauit, inde ductus ad alium locum, quo nemo nostrorum audebat accedare, duodecimo uix uix die dimissus est».

«كان أحد كهنتكم في ناحية «هيبوريجيوس» ـــ ويدعى «رستتوس» Restitutus ـــ قد هزته دراسة الحقيقة فدخل إلى الوحدة الكاثوليكية عن طيب خاطر قبل صدور أوامر القوانين الامبراطورية. انتزعه

(207) إشارة إلى طمس عيونهم بالجير والخل، كما في النص 31، ص 333.

(208) أيوب، الإصحاح الثاني، يشير أغسطين هنا إلى كون الدوارين الدوناتيين كانوا يطمسون عيون ضحاياهم بالجير والخل (النص 31).

(209) انظر الفصل الثاني، ص 83 وما بعدها.

(210) B.A. 31, p. 380 = C.S.E.L. 52, p. 460 -

كهنتكم ودواروكم من بيته ثم قادوه إلى القرية المجاورة علانية وفي وضح النهار. وتحت أنظار الجمهور الذي لم يجرؤ فيه أحد على معارضتهم، أشبعوه ضربا بالهراوات ودحرجوه في بركة ضحلة وألبسوه حصيرة من الأعشاب استهزاءاً به. وعندما تألم لهذا المنظر من تألم وضحك له من ضحك ذهبوا به إلى مكان آخر[211] حيث لم يجرؤ أحد من ذوينا على الاقتراب منه، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أحد عشر يوما».

يبدو أن الدوارين كانوا يهاجمون بصفة خاصة الكهنة الدوناتيين الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية، كما نرى هنا بالنسبة لرستتوس، وكما سنرى أيضا بالنسبة لروكَاتوس ـــ أسقف «اسوراس» ـــ الذي قطعوا لسانه[212]. لذا، فإن أغسطين يرى أن الكثير ممن لم يلتحقوا بالكنيسة الكاثوليكية لم يفعلوا ذلك إلا خوفا من اضطهاد الدوارين[213]. ومن ثم يرى بعض الباحثين أن ذنب الدوارين الرئيسي في نظر السلطات الرسمية، وفي نظر أغسطين هو منعهم لإخوانهم في المذهب من الالتحاق بالكاثوليك[214]، وربما تبدو هذه النظرة تبسيطية إلى حد ما، إذا لم يكن هناك تطابق تام في الأهداف بين الأساقفة الكاثوليك والسلطة، وإنما التقاء عدة مصالح. فإذا كان الكاثوليك يودون قبل كل شيء انتزاع الكنائس (وممتلكاتها) من الدوناتيين، فإن السلطة ـــ كما هو طبيعي ـــ كانت تود أن تقضي على الفتنة والاضطرابات الدينية والاجتماعية في افريقيا.

النص الرابع والثلاثون : **Aug., C. Cresc., III, XLIX, 54.**[215]

«Aufer itaque de medio superuacuas inuidias molestiarum, quas regalibus iussis pro uestro patimini perperuas et prope nullas pro magno furore uestrorum, inputantes etiam nobis, quae ab ipsis terrnis

---

(211) كان الدوارون يذهبون بضحاياهم إلى مكان سري، ويرغمونهم على تدوير رحى المطاحن، كما نجد في النص 42.

(212) النص 44.

(213) - Aug., C. Cresc. III, XLVIII, 53; **B.A.** 31, p. 382

(214) - Tengström, E., **Donatisten und Katholiken.**, Goteborg, 1964, p. 69
- (apud Frend, W.H.C., circumcellions and monks, **J.T.S.**, 1969, p. 543).

(215) - **B.A.** 31, p. 382 = **C.S.E.L.** 52, p. 461

potestatibus, ut uestrorum impetus a sua salute depellant, necessitate fiunt, non uoluntate».

«أزح من النقاش تلك الاتهامات الوقحة عبثا حول العقوبات التي تلحقها بكم الأوامر الامبراطورية بسبب ذنبكم، هذه العقوبات خفيفة جدا وتكاد لا تعتبر، بالنظر إلى جنون ذويكم المسعور، إنكم تحملوننا حتى الاجراءات التي تتخذها السلطات الزمنية تحت الاضطرار وليس عن طيب خاطر لوقاية نفسها من هجمات ذويكم».

يظهر هذا النص أن أغسطين لم يفته أن حركة الدوارين كانت لا تهدد الكنيسة الكاثوليكية فحسب، ولكن أمن البلاد وسلامها. ويشير الحكم الذي أصدره القاضي «ماركلينوس» Marcellinus إثر انتهاء مناظرة قرطاج — والذي يمثل موقف السلطة الامبراطورية — إلى ذلك بصراحة، فيقول أن الدوارين كانوا يعكرون صفو الأمن[216].

النص الخامس والثلاثون : Aug., C. Cresc., IV, L, 60 - LI, 61.[217]

«... non solum et iniustos pati, uerum etiam et iustos facere posse persecutionem. aut si eam quae iuste fit non esse apellandam persecutionem putas, nec uos a nobis nec uestros a nostris persecutionem poteris probare perpessos, magisque nos demonstrabimus eam nos perpeti a clericis et circumcellionibus uestris, qui corde duro et insulso nec intellegentes nec ferentes, quod eis consulimus ad salutem, tanto in nos furore saeuiunt, ut ea quae nobis faciunt nec numerare nec commemorare nec digne uerbis explicare sufficiam.

LI. 61. Proinde cum freniticus medicum uexat et medicus freniticum ligat, aut ambo inuicem persequuntur aut, si persecutio nisi quae male fit non est, non utique persequitur medicus freneticum, sed freneticus medicum. saeuitia igitur uestra et uiolentissima audacia per circumcelliones uestros clericorum uestrorum satellites omnibus nota conprimenda fuit legibus, quae contra uos latae sunt, et quodammodo conliganda».

---

(216) النص 55.

(217) B.A. 31, p. 592 = C.S.E.L. 52, p. 558 -

ترجمة النص :

«يمكن القول أن الظالمين يجوز أن يعانوا من الاضطهاد، لكنه يمكن القول أيضا أن العادلين يجوز لهم أن يمارسوه. وإذا اعتبرت أنه لا ينبغي وصف الاضطهاد العادل بأنه اضطهاد، فلن تستطيع أن تثبت أنكم عانيتم اضطهادا على يدنا، ولا ذووكم على يد ذوينا، بل نحن الذين سوف نثبت عندئذ أننا نعاني من اضطهاد كهنتكم ودواريكم، تلك المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تفهم ولا تحتمل ما ننصحها به لخلاصها والتي تمارس ضدنا أعمال عنف مسعور لا تكفي كلماتي لتعدادها والتذكير بها وعرضها عرضا مناسبا.

LI. 61. ومن جهة أخرى، عندما يسيء المريض المسعور إلى طبيبه، فيربطه ذلك الطبيب ويوثقه، فاما أن الاثنين يضطهدان أحدهما الآخر، واما أن الاضطهاد الوحيد هو الاضطهاد السيء. وبكل تأكيد، فإن الطبيب ليس هو الذي يضطهد المريض، ولكن المريض هو الذي يضطهد الطبيب. لذا، نظرا لقسوتكم وأعمال العنف الجريئة التي يقترفها دواروكم التابعون لكهنتكم، فإنه كان من اللازم كبح جماحكم بالقوانين الصادرة ضدكم، وكان من اللازم توثيق جنونكم نوعا ما».

يلاحظ في هذا النص على الخصوص تركيز الكاتب على التعاون بين الدوارين والكهنة الدوناتيين. بل إنه يقول أن الدوارين كانوا تابعين للكهنة. ولكنه لحد الساعة لم يعط إلا مثالا واحدا على هذا التعاون : كريسبونوس، (النص 32). الذي لم يكن أسقفا، ولكن كاهنا بسيطا (Clericus) في ابرشية «كلاما». لذا، فإن مثل هذا التعاون لم يشكل قاعدة عامة، ولم يهم إلا فئة من الدوارين وبعض رجال الدين الدوناتيين من صغار الكهنة على الخصوص[218].

النص السادس والثلاثون : Aug., C. Cresc., IV, LXIII, 77.[219]

«... negas eas quas dixi tyrannicas uestrorum in fundis alienis

(218) الفصل السابع، ص 244-245.

(219) B.A. 31, p. 630 = C.S.E.L. 52, p. 577 -

dominationes et bacchationes ebrietatum : nega quantum potes; non uereor, ne propterea nobiscum uos pigeat concordare. non in uos tale aliquid dixi, qualia Maximianenses damnati a uobis audire meruerunt. negas furorem circumcellionum et praecipitatorum ultro cadauerum cultus sacrilegos et profanos».

ترجمة النص :

«إنك تنكر بعض الأحداث التي ذكرتُها كتسلط ذويكم واستبدادهم في ضياع الغير[220]، وكتجمعات الفسق والفجور التي يجتمع فيها المعربدون[221]. انكر ذلك ما شئت ! فلا أعتقد أن في هذا ما يمنعكم من الاتفاق معنا. لم أقل عنكم أي شيء يشبه ما استحق الماكسميانيون المدانون سماعه من فمكم. إنك تنكر حمق الدوارين وجنونهم وتقديسهم المدنس والملحد لجثث المنتحرين»[222].

النصوص من السابع والثلاثين إلى الأربعين :

النصوص الأربعة التالية مقتبسة من كتاب أغسطين : «ملخص محضر المناظرة مع الدوناتيين» : «Brevicus collationis cum Donatistis».

ــ ظروف كتابة هذا العمل وتاريخه[223] :

في سنة 411، انعقدت بأمر من الامبراطور هنوريوس مناظرة بين الأساقفة الدوناتيين والكاثوليك تحت رئاسة قاض معين من طرف الامبراطور وبهدف اظهار من هي الكنيسة الكاثوليكية الحقة من بين الكنيستين المتناحرتين[224]. كان القاضي

(220) إشارة إلى كريسبينوس، أسقف «كَلاما» Calama الذي أعاد تعميد المزارعين في إحدى الضيع التي اكتراها من الامبراطور.
- (Aug., C. Litt. Petil., II, 83, 184, B.A. 30, p. 449).

(221) تجمعات الدوارين التي وصفها أغسطين في عدة فقرات، مثلا النص 12.

(222) عن ظاهرة الانتحار وتقديس الشهداء، انظر أيضا النصوص 47، 48، 36 والفصل الرابع، ص ص 150-162.

(223) أنظر أيضا دراسة المصادر، ص 37.

(224) رسميا ــ بطبيعة الحال ــ، أما في الواقع، فإن الكنيسة الدوناتية كان محكوما عليها مسبقا (مهما يقوله بعض الباحثين حول «نزاهة» المناظرة). ولا أدل على ذلك من كون القوانين السابقة (وخاصة قانون 405) كان قد أدان الدوناتية بصفتها هرطقة.

Marcellinus قد سهر على كتابة الوقائع المفصلة للجلسات الثلاث التي دارت خلالها المناظرة، وسهر أيضا على نشر المحضر ليطلع عليه الجميع. وقد وصلنا جزء مهم من هذا المحضر عن طريق نشرة «ماركيلوس» (أحد المشاركين في المناظرة)[225]. أما ملخص أغسطين الذي نحن بصدده، فهو تلخيص لنشرة هيأها أغسطين بنفسه[226]، وذلك لتسهيل قراءة المحضر الطويل، وفي نفس الوقت لتوجيه الرأي العام ـــ بطبيعة الحال ـــ. ورغم طابعه «التوجيهي» و«الدعائي»، فإنه يمثل مصدرا هاما لمعرفة الوقائع التي لم تصلنا في المحضر الرسمي (نهاية الجلسة الثالثة على الخصوص). وقد كتب الكتاب بعد انتهاء المناظرة في نهاية نفس السنة (411)[227].

ـــ المخطوطات والنشرات :

لا يعرف أي مخطوط للكتاب منذ سنة 1506. وكل النشرات اللاحقة أخذت عن : Amerbach الذي نشر الكتاب في مدينة Bâle في تلك السنة[228]. أهم النشرات نشرة Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات المسيحية» **(C.S.E.L)**، الجزء الثالث والخمسون، ص ص 39–92، ونشرة «المكتبة الأغسطينية» **(B.A)**، الجزء الثاني والثلاثون[229] التي اعتمدتها.

النص السابع والثلاثون : **Aug., Brevic. Coll., III, VIII, 13.**[230]

«De persecutionibus etiam, quas perpeti se queruntur, multa in suis litteris posuerunt nec tamen respondere aussi sunt ad illud, quod in mandato catholicorum dictum est, quod ipsi primitus apud Constantinum imperatorem accusauerunt Caecilianum, qui de imperatorum legibus conqueruuntur, (in) inuidiam catholicorum exaggerantes siue mortes, quas eorum circumcelliones sibimet ipsis inferunt, siue omnia, quae non communione Donati, sed pro sceleribus, quibus uiolenter saeuiunt nefarieque uiuunt, per leges publicas disciplinasque patiuntur, sicut etiam

---

(225) أنظر نقد المصادر، ص 39 وكذلك أدناه، ص 369–370.

(226) **B.A.** 32, p. 58 -

(227) ibid, p. 77 -

(228) ibid -

(229) **B.A.** 32, 1965, pp. 94-242; traduction G. Finaert, introduction et notes de E. Lamirande -

(230) **B.A.** 32, p. 162 = **C.S.E.L.** 53, p. 63 -

de oppido Bagaitano commemorasse aussi sunt, ubi manifestatum est, quanta mala commiserint et quam minora perpessi sunt».

ترجمة النص :

«وقد ركز الدوناتيون في رسالتهم[231] كذلك على الاضطهادات التي عانوا منها حسب شكواهم. لكنهم لم يجرؤوا على الرد على ما جاء في توصية الكاثوليك[232] من كون الدوناتيين كانوا أول من اتهم «كايكيليانوس» لدى الإمبراطور قسطنطين[233]. وهم الذين أصبحوا الآن يتشكون من القوانين الإمبراطورية ولا يتورعون عن إثارة الحقد على الكاثوليك بالتركيز في خطبهم على النهاية الحقيرة التي ينهي بها الدوارون حياتهم أو على كل المتاعب التي تلحقهم من تطبيق قرارات الدولة عليهم لا بسبب انتمائهم إلى جماعة دوناتوس ولكن عقابا على الجرائم التي تزرع الرعب والعنف وتجعل تصرفاتهم من الفظاعة بمكان[234]. وهكذا فإن الدوناتيين جرؤوا على الحديث عـن

---

(231) الرسالة التي قرأوها أمام قاضي المناظرة في اليوم الثالث، التي تضمنت عرضا لآرائهم وحججهم. وهي رسالة طويلة قرأها الأسقف الدوناتي Habetdeum :

- Gesta, III, 258 = Ed. Lancel, S.C. n° 224, pp. 1195-1219.

(232) mandatum catholicorum : توصية تضمنت توكيل ممثلين عن الكاثوليك في المناظرة وعرضا لقضية الكاثوليك : قرئت في اليوم الأول من المناظرة :

- Gesta, I, 55 = Ed. Lancel, S.C. n° 195, pp. 643-671.

(233) تعثرت بداية المناظرة بسبب الجدل الذي قام بين الدوناتيين والكاثوليك، حول من هو المدعي، ومن هو المدعى عليه في هذه المحاكمة. وكان الدوناتيون يرون أن تحديد هذه المسألة أمر ضروري قبل بداية أي مناقشة، وأن على الكاثوليك أن يعترفوا أنهم هم الذين لجأوا إلى السلطة لإقامة هذه المحاكمة. ولكن الكاثوليك كانوا يرون أن المتهمين هم الدوناتيون الذين ينعتون الكاثوليك بأبناء «المتخاذلين»، وأنهم كانوا أول من لجأ إلى السلطة في بدايات الانشقاق حين اتهموا «كايكيليانوس» بتسليم الكتاب المقدس (traditio) خلال اضطهاد ديقليديانوس (الملتمس الذي بعثوا به إلى قسطنطين على يد البروقنصل Anullinus : أعلاه، ص 177، هـ 3).

(234) إشارة جديدة من طرف أغسطين إلى أن الدولة كانت ترى في أعمال الدوارين قبل كل شيء خطرا على الأمن. والإشارات المشابهة في النصوص : 10، 50، 55.

باغاي[235] بحيث كانت فرصة للوقوف على فظاعة الجرائم التي ارتكبوها هناك والعقوبات الخفيفة التي لحقتهم جراء ذلك».

النص الثامن والثلاثون : Aug., Brevic. Coll., III, XI, 21.[236]

«... hoc est ad imperatorem Constantinum, accusantes miserunt, nec de persecutionibus, quod aliquid ab imperatoribus pro ecclesia catholici peterent, cum eorum circumcelliones ducibus clericis tam horrenda mala commiterunt. ubi frustra responderunt nihil hoc ad sacerdotes pertinere, cum clericis ducibus illi talia fecisse asserebantur».

ترجمة النص :

«لم يكن من حقهم أيضا أن يتحدثوا عن الاضطهاد بذريعة أن الكاثوليك طلبوا من الأباطرة القيام بشيء ما لصالح الكنيسة[237]. بينما يقترف دواروهم جرائم فظيعة تحت قيادة الكهنة. وهنا أجابوا بأن أساقفتهم لم يكن لهم يد في ذلك[238] فكان جوابهم بدون جدوى لأننا أكدنا أن الدوارين اقترفوا تلك الجرائم تحت قيادة الكهنة».

يلاحظ في هذا النص تحفظ الأساقفة الدوناتيين تجاه تصرفات الدوارين وربما أيضا بعض صغار كهنتهم. وهذا يدعم ما لاحظناه من كون التعاون الصريح بين الدوارين والدوناتيين كان محصورا في بعض الحالات، وأن معظم الأساقفة

---

(235) أثار الدوناتيون في رسالتهم الأحداث التي وقعت في باغاي في سنة 347.
- Gesta, III, 258 (Ed. Lancel, S., S.C. 224, p. 1219).
ولكن الكاثوليك ــ على ما يبدو (ضاع الجزء الأخير من محضر مناظرة قرطاج، ولا نعرفه إلا من خلال ملخص أغسطين) ــ قفزوا على تلك الأحداث و«اغتنموا فرصة ذكر «باغاي» ــ كما يقول أغسطين هنا ــ لإثارة الحوادث المتأخرة التي وقعت في تلك المدينة، أي مهاجمة الدوناتيين للأسقف ماكسميانوس حوالي سنة 404 (النص 31).

(236) - B.A. 32, p. 182 = C.S.E.L. 53, p. 70

(237) ربما كان الدوناتيون يقصدون مساعي الكاثوليك لدى هنوريوس في سنة 404 (ارسالهم لمبعوثين إلى الإمبراطور لطلب تدخل الدولة ضد الدوناتيين). وهي مساعي كللت بالنجاح، بحيث تلاها صدور قوانين هنوريوس الصارمة ضد الدوناتية في 12 فبراير 405.

(238) يمكن التأكد من كلام أغسطين بمقارنته مع ما ورد في ملخص «ماركيلوس» للمناظرة (النص 54 أدناه).

الدوناتيين كانوا لا يودون التورط في التعامل مع الدوارين[239].

النص التاسع والثلاثون : Aug., Brev. Coll., III, XI, 22.[240]

«Ibi etiam cum dictum esset, quod calce et aceto humanos oculos persecuti sint, in quo scelere diabulum crudelitate (71)[241] peruicerunt, qui hoc in sancti uiri carne non facit quam in potestatem acceperat affligendam, hic Donatistae quaesierunt, utrum qui faciunt filii essent diaboli an qui patiuntur; quasi catholici aliud quam passiones suas dixerint immanissimas a clericis et circumcellionibus eorum».

ترجمة النص :

«وبهذا الصدد، قلنا أيضا للدوناتيين أنهم اضطهدوا بعض الرجال بحيث رموا في عيونهم الجير والخل، وهو تعذيب فاقوا فيه الشيطان قسوة بحيث إن هذا الأخير لم يصل إلى ذلك الحد في تعذيبه لجسم الرجل القديس (أيوب) رغم أنه تسلمه ليعذبه كما يشاء[242]. وعندئذ سأل الدوناتيون : من هم أبناء الشيطان، هل هم المضطهِدون أم ضحاياهم ؟ وكأن الكاثوليك تحدثوا عن شيء آخر غير الآلام بالغة المرارة التي يعانون منها على يد كهنة الدوناتيين ودواريهم».

النص الأربعون : Aug., Brev. Coll., III, XI, 23.[243]

«Sed cum iterum Donatistae persecutiones quas patiuntur exaggerantes suorum quasdam mortes commemoratent in oppido Bagaiensi, responsum est a catholicis eos hoc passos esse, dum eorum uiolentiae resisteretur, quam et iudici inferre conati sunt. in illo oppido commemorauerunt catholici ab eis horrenda esse commissa, ita ut etiam basilica esset incensa et in ignem missi codices santi, mortes autem illorum magis esse ex consuetudine quam habent, ut se ipsi praecipitent».

---

(239) الفصل السابع، ص 245 وما بعدها.

(240) **B.A.** 32, p. 184 = **C.S.E.L.** 53, pp. 70-71 -

(241) ترقيم الصفحات في نشرة : **C.S.E.L**.

(242) أيوب، الإصحاح الثاني.

(243) **B.A.** 32, p. 186 = **C.S.E.L.** 53, p. 71 -

ترجمة النص :

«لكن الدوناتيين أثاروا ــ من جديد ــ النهاية الأليمة التي عرفها بعض أصحابهم (الدوارين)(244) في مدينة باغاي. وكان هدفهم من ذلك التدخل تضخيم الاضطهاد الذي يدعون أنهم يعانون منه. وكان جواب الكاثوليك أن أولئك الناس لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظّمت ضد أعمالهم العنيفة، ذلك العنف الذي هددوا به القاضي نفسه. كما ذكّر الكاثوليكيون بالجرائم الشنيعة التي اقترفوها في تلك المدينة حيث أحرقوا الكنيسة ورموا الكتاب المقدس في النار أما نهايتهم الأليمة، فتعزى ــ حسب ما يظهر ــ إلى عادتهم في الانتحار بالارتماء من أعلى المرتفعات».

يلاحظ في هذا النص التفسير المتناقض الذي أعطاه الكاثوليك لموت الدوارين. ففي البداية، أكدوا أن الدوارين «لقوا حتفهم خلال المقاومة التي نظمت ضد أعمالهم»، أي في اشتباك مع خصومهم. وفي الأخير، عزوا نهايتهم إلى الانتحار(245).

النص الحادي والأربعون :

Aug., Ad donatistas post collationem, XVII, 22.(246)

النص التالي مأخوذ من كتاب أغسطين «إلى الدوناتيين بعد المناظرة» Ad donatistas post collationem.

تناول أغسطين في هذا الكتاب نفس الموضوع الذي طرقه في «ملخص محضر مناظرة قرطاج». فهو تكميل له وشرح إضافي لآراء الكاثوليك.

ــ ظروف كتابته وتاريخها :

بعد صدور الحكم على الدوناتية إثر انتهاء مناظرة قرطاج، وإعلانه للجمهور في 26 يونيو 411، حاول الدوناتيون استئناف الحكم، وبعثوا بطلب في الموضوع

(244) أنظر الملاحظة في الهامش 2.

(245) ناقشت هذه النقطة في الفصل الرابع.

(246) B.A.. 32, pp. 302-304 = C.S.E.L. 53, p. 121 -

إلى الامبراطور هنوريوس. ولكن هذا الأخير أيد القرار السابق، ودعمه بقانون يؤكد كل الاجراءات السابقة ضد الدوناتية، وذلك في 30 يناير 411 (النص 57 أدناه، ص 371). وأمام الحملة التي شنها الدوناتيون لشرح موقفهم واتهاماتهم لقاضي المناظرة بأنه كان متحيزا لجانب الكاثوليك، أراد أغسطين أن يبدي من جهته رأي الكاثوليك ويدافع عن «نزاهة» القاضي. أتم أغسطين كتابة هذا العمل قبل فبراير 412 وبعد انهاء كتابة «ملخصه لمحضر المناظرة». أي في شتاء 411-412[247].

ـ المخطوطات والنشرات :

يعرف للكتاب عدة مخطوطات أقدمها يرجع إلى القرن السادس، وأحدثها إلى القرن الثالث عشر[248]. نشرهُ Petschenig في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» (C.S.E.L)، الجزء الثالث والخمسون، ص ص 97-162. وعنه أخذت نشرة «المكتبة الأغسطينية» (B.A) الجزء الثاني والثلاثون[249]، التي اعتمدتها.

«... nam quanta mala nostris fecerint furiosissimi clerici et circumcelliones partis Donati, nostris et uos. incensae sunt ecclesiae, missi in flammas codices sancti, incensae etiam priuatae domus, rapti homines de sedibus suis, et omnibus quae inerant ablatis aut perditis ipsi caesi laniati excaecati. nec ab homicidio potuit temperari, quamuis sit mitius huic luci morientem quam istam lucem auferre uiuenti. uentum est ad homines, non ut retenti aliquo ducerentur, sed tantum ut ista paterentur. nec tamen nostros ideo iustificamus, quia ista perpessi sunt, sed quia pro christiana ueritate, pro Christi pace, pro ecclesiae unitate perpessi sunt. illi autem sub tam multis, sub tam seueris legibus et sub tanta ecclesiae catholicae quam dominus ei tribuit potestate quid tale patiuntur ? si quando enim morte multantur, aut ipsi se occidunt aut eorum cruentae uiolentiae dum resistitur occiduntur, non pro communione partis Donati nec pro errore sacrilegi schismatis, sed pro
p.304 apertissimis faci/noribus et scelerabus suis, quae more latronum inmani furore et crudelitate committunt. pro parte autem Donati uix aliquid tale patiuntur, quale Caecilianum Donato instante passum esse dixerunt».

---

(247) B.A. 32, p. 89-162 -

(248) ibid -

(249) B.A. 32, 1965, pp. 248-392; traduction de G. Finaert; introduction et notes par E. Lamirande -

«إنكم ـــ أنتم أيضا ـــ على بينة من كل الويلات التي يعاني منها ذوونا بسبب الجنون المسعور لكهنة ودواري حزب دوناتوس : فهناك كنائس أحرقت، وكتب مقدسة رُميت في النار، وحتى المساكن الخصوصية أحرِقت، وأشخاص انتُزعوا قسرا من بيوتهم التي نُهب أو هُدم كل ما كان موجودا بها، والأشخاص أشبعوا ضربا وتمزيقا طمست عيونهم، بل تجاوز المعتدون ذلك إلى قتل ضحاياهم. حقا، إن انتزاع نور الحياة من رجل محتضر لهو أقل قسوة من انتزاع نور البصر من رجل على قيد الحياة. كما اعترضوا سبيل أشخاص لا بغرض القبض عليهم والذهاب بهم إلى مكان ما[250]، ولكن لتعذيبهم هكذا، بكل بساطة. ومع ذلك فإننا لا نعلن أن ذوينا على حق لمجرد أنهم عانوا من هذه الأضرار، ولكنهم على حق لأنهم عانوا ما عانوه في سبيل الحقيقة المسيحية وسلام المسيح ووحدة الكنيسة. أما هم فرغم كل القوانين الصارمة (الصادرة ضدهم) ورغم السلطة العظيمة التي منحها الله للكنيسة الكاثوليكية، فهل يعانون شيئا من هذا القبيل ؟ إذا حصل أن لحقتهم المنية فإن ذلك يرجع إلى كونهم يقتلون أنفسهم أو إلى كونهم يُقتلون في حالة تلبس بجريمة العنف الدموي[251]، لا بسبب اعتناقهم الدوناتية، ولا بسبب إثم انشقاقهم المدنس، ولكن لقاء
ص.304 جرائمهم التي يقترفونها يوميا في غرار اللصوص. وبجنون وقسوة لا يتصوران. أما ما يعانونه في سبيل حزب دوناتوس فلا يتعدى المتاعب القليلة التي تشبه ـــ حسب قولهم ـــ ما عاناه «كايكيليانوس» من جراء اتهامات دوناتوس له».

النص الثاني والأربعون : **Ep. CLXXXV, IV, 15.**[252]

النص التالي مأخوذ من رسالة وجهها أغسطين في سنة 417 إلى بونيفاكيوس

(250) كان الدوارون يحتجزونهم في مكان سري. (يقارن مع النص 33 والنص 42).

(251) نفس الملاحظة كما في النص 40.

(252) C.S.E.L. 57, pp. 13-14 -

Bonifacius[253] الوكيل العسكري المكلف بتنفيذ القوانين الصادرة على الدوناتيين. وهي رسالة طويلة معروفة أيضا بعنوان : De correctione Donatistarum «في عقاب الدوناتيين»[254]. وكان هدف أغسطين من كتابتها إعطاء «الإرشادات» الكافية للموظف الامبراطوري في موضوع الدوناتية، وحثه بنفس المناسبة على الصرامة في معاملة «أولئك الذين لم يريدوا الإذعان للقوانين الامبراطورية»، على حد قوله[255].

وفيما يلي النص اللاتيني وترجمته :

«... Et prius quidem quamistae leges a catholicis imperatoribus mitterentur, pacis atque unitatis Christi paulatim doctrina crescebat et in cam quisque, sicut discebat et uolebat et poterat, ex ipsa parte transibat, cum tamen apud illos perditorum hominum dementissimi greges in diuersis causis quietem innocentium perturbabant. quis non dominus seruum suum timere compulsus est, si ad illorum patrocinium confugisset , quis euersori minari saltem audebat aut auctori ? quis consumptorem apothecarium, quis quemlibet poterat exigere debitorem auxilium eorum defensionemque poscentem ? Timore fustium et incendiorum mortisque praesentis pessimorum seruorum, ut liberi abscederent, tabulae frangebantur. Extorta debitoribus chirographa reddebantur. quicumque dura illorum uerba contempserant, durioribus uerberibus, quod iubebant, facere cogebantur. Innocentium, qui eos offenderant, domus aut deponebantur ad solum aut ignibus cremabantur. Quidam patres familias honesto loco nati et generoso cultu educati uix uiui post eorum caedes ablati sunt uel iuncti ad molam et eam in gyrum ducere tamquam iumenta contemptibilia uerbere adacti sunt».

ترجمة النص :

«قبل أن يصدر الامبراطوران الكاثوليكيان[256] هذه القوانين،

---

(253) هو نفس الشخص الذي أصبح فيما بعد «كونت» افريقيا حوالي 422 والذي وجهت إليه تهمة التعامل مع الوندال ومساعدتهم في الاستيلاء على افريقيا (429–430). وكان منذ سنة 427 قد أعلن انفصال افريقيا عن السلطة المركزية الرومانية.

- Courtois, Chr., **Les Vandales et l'Afrique...**, op.cit., p. 156.

(254) - **C.S.E.L.** 57, pp. 1-44

(255) - **B.A.** 28, p. 15

(256) لا يقصد بصيغة الجمع a catholicis imperetoribus كل الأباطرة الذين تدخلوا ضد الدوناتية =

كانت عقيدة سلام المسيح ووحدة المسيح تنتشر شيئا فشيئا، بل اعتنقها بعض الأفراد من حزبهم، كل حسب ثقافته ورغبته وامكاناته، مع أنه كان عندهم في ذلك العهد جماعات من الحمقى لا إيمان لهم، يعكرون طمأنينة الأبرياء لأسباب مختلفة. فمن من الأسياد من لم يرتجف خوفا من عبده إذا ما وضع نفسه (هذا العبد) تحت حمايتهم ؟ ومن كان يجرؤ على تهديد أحد من هؤلاء المخربين أو من كان يحميهم ؟ ومن كان يقدر على المطالبة بالتعويض ممن نهبوا بيوت مؤنه أو من أي مديون إذا ما طلب نجدتهم وحمايتهم ؟ لقد كان الناس يمزقون عقود شراء أحقر العبيد ويطلقون سراحهم خوفا من السوط والحريق والقتل المبين. وكانت القروض تُنتزع قسرا من الدائنين لترجع إلى المديونين. أما الذين لم يعبأوا بانذاراتهم القاسية، فكانوا يرغَمون على تنفيذ ما طُلب منهم بضربات أكثر قسوة. وقد حدث لبعض أرباب الأسر من ذوي النسب المحترم والثقافة عالية أن نجوا بحياتهم بأعجوبة من تحت الضرب، أوغُلوا إلى رحى وأرغِموا على تدويرها تحت السوط، كالحيوانات».

النص الثالث والأربعون : **Aug., Ep. CLXXXV, IV, 15.**[257]

النص مأخوذ من نفس الرسالة التي بعث بها أغسطين إلى «بونيفاكيوس» Bonifacius في بداية سنة 417. وفيما يلي النص وترجمته :

«... Quis eos, qui eorum caedibus extincti sunt, uindicare temptauit, nisi quod propria de illie poenas poscabat insania, cum alii prouacandis in se gladiis hominum, quos, ut ab eis ferirentur, morte terrebant, alii per uaria praecipitia, alii per aquas, alii per ignes se in mortes uoluntarias usquequaque mittebant et animas ferales a se sibi inlatis suppliciis proiciebant ?».

= خلال القرنين الرابع والخامس، ولكن فقط «هنوريوس» وزميله الإمبراطور على الجزء الشرقي «أركاديوس». ذلك أن الصياغة العادية للقوانين الإمبراطورية كانت في تلك الفترة تشتمل دائما على اسمي إمبراطوري الشرق والغرب.

- Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, op.cit., p. 330, n° 2.

(257) C.S.E.L. 57, p. 14-15 -

ترجمة النص :

«من ذا الذي حاول الانتقام لضحايا ضرباتهم اللهم إلا جنونهم ذاته هو الذي يعاقبهم ؟ فبعضهم يوجهون إلى صدورهم سيوف الغير ويهددونهم بالموت كي يضربوهم الضربة القاضية، وبعضهم يقضون على حياتهم بالماء أو بالنار في كل مكان، ويلفظون أنفاسهم الأخيرة كالحيوانات في عذاب جسدي حكموا به على أنفسهم»[258].

النص الرابع والأربعون : **Gesta cum Emerito, 9.**[259]

النصان التاليان مأخوذان من كتاب أغسطين : «محضر المناظرة مع الأسقف الدوناتي اميريتوس» : «Gesta cum Emerito donatistarum episcopo» في نهاية صيف سنة 418، سافر أغسطين إلى مدينة قيصرية Gaesarea، (شرشال بالجزائر)، عاصمة موريطانيا القيصرية برفقة بعض الأساقفة الكاثوليك من البروقنصلية. هناك التقى في الكنيسة الدوناتية (المصادرة لفائدة الكاثوليك) بأسقفها السابق أميريتوس Emeritus الذي كان أحد كبار الشخصيات الدوناتية، وممثليها السبعة في مناظرة قرطاج. ثم اللقاء بين الرجلين في جلستين (18 و20 سبتمبر 418)، وكتاب أغسطين هو محضر تلك المناظرة[260].

لا يعرف للكتاب حاليا إلا مخطوط واحد من القرن الثالث عشر[261]. نشر الكتاب في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية»[262]، وفي «المكتبة الأغسطينية»[263] التي اعتمدتها.

(258) تطرقت لظاهرة الانتحار أو الاستشهاد الإرادي عند الدوارين في الفصل الرابع.

(259) - **B.A.** 32, p. 476 = **C.S.E.L.** 53, p. 192

(260) - Monceaux, P., **H.L.A.C.**, VI, p. 145 ss
- **B.A.** 32, pp. 397 ss.

(261) - **B.A.** 32, p. 144

(262) - **C.S.E.L.** 53, pp. 181-196

(263) - **B.A.** 32, 1965; trad. G. Finaert, introd. et notes : E. Lamirande, (pp. 450-486)

وفيما يلي النص وترجمته :

«... Nam in loco unius ipsorum Praetextati Assuritani alium iam ordinauerant nomine Rogatum, qui modo catholicus est, cui exercitus istorum, id est agmen circumcellionum, linguam, linguam et manum praecidit».

ترجمة النص :

«... وكانوا قد عينوا مكان «برايطكسطاتوس» Praetextatus — أسقف «اسوراس» Assuras —[264] أسقفا آخر يدعى «روكاتوس» Rogatus وهو الآن كاثوليكي. لكن عساكرهم، — أقصد عصابات الدوارين —، قطعت لسانه ويده»[265].

النص الخامس والأربعون : Aug., Gesta cum Emer., 12.[266]

«... ideo sudamus, ideo laboramus, ideo inter eorum arma et cruentas
p.464 furias circumcellionum (196)[267] periclitati sumus et adhuc reliquias eorum qualicumque donata a deo patientia toleramus».

ترجمة النص :

«وإذا كنا نكد ونجهد، وإذا كنا قد خاطرنا بأنفسنا في وسط فرقهم
ص.484 المسلحة وجنون دواريهم السفاكين، ولازلنا حتى الآن نتحمل بقاياهم بكل ما حبانا الله من صبر، فما ذلك إلا لأن الشجرة تبحث عن عروشها، والقطيع يبحث عن النعجة الضالة بعيدا عن حظيرة المسيح».

(264) خلال انشقاق ماكسميانوس عن جثليق الكنيسة الدوناتية («بريميانوس» Primianus) كان «باريطكسطاتوس» هذا من بين الأساقفة الذين ناصروا «ماكسميانوس» وانسلخوا عن الدوناتية «الأرثدكسية». ويخبرنا أغسطين أن أبطاتوس الجيلدوني مارس ضغطا على بعض الأساقفة المنشقين — خاصة «برايطكسطاتوس» و«فيلكس» Felix، أسقف «موستي» Musti. وأرجعهما إلى الوحدة الدوناتية حوالي 396. (Assuras، حاليا هي «زنفور»، وMusti هي «هنشير رطبو» وكلاهما بالديار التونسية في ناحية مدينة الكاف).

(265) نفس الملاحظة كما في النص 33 أعلاه.

(266) - B.A. 32, pp. 484-486 = C.S.E.L. 53, pp. 195-196

(267) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

يلاحظ إذن أن أعمال الدوارين لم تتوقف بعد سنة 411 وما تلا مناظرة قرطاج من مطاردة للدوارين وتضييق الخناق عليهم في الضيعات بواسطة الملاك وأكاري الأراضي. ومع ذلك، فيتبين أيضا أن الأمر لا يتعلق إلا بمناوشات خفيفة.

النصوص من السادس والأربعين إلى الثاني والخمسين :

النصوص التالية مقتبسة من كتاب أغسطين : «الرد على كَاودنتيوس، أسقف الدوناتيين».

ـــ موضوع الكتاب : «Contra Gaudentium donatistarum episcopum»

«كَاودنتيوس» هو الأسقف الذي خلف ابطاتوس «الجيلدوني»[268] على رأس ابرشية «ثموكادي» Thamugadi (تمكاد حاليا بالجزائر)، بعد موت هذا الأخير حوالي نهاية 398. كان أحد الممثلين السبعة للكنيسة الدوناتية في مناظرة قرطاج. حوالي 420، أصدر «دولكيتيوس» Dulcitius ـــ الوكيل الامبراطوري المكلف بتطبيق القوانين على الدوناتيين ـــ قرارين بإرجاع ما بقي بيد الأساقفة الدوناتيين من كنائس إلى الكاثوليك. وكان كاودنتيوس قد استرجع إحدى كنائسه «بثموكادي» التي كانت أحد معاقل الدوناتية. وفي تلك الكنيسة، التحق به عدد من الدوناتيين المتحمسين ورفضوا تسليم البناية إلى السلطة، مهددين باحراقها والاحتراق معها. وكتب كاودنتيوس في الموضوع رسالتين إلى الوكيل دولكتيوس. وهذا الأخير ـــ أمام تعقد المشكل ـــ بعث بالرسالتين إلى أغسطين، الذي رد عليهما في هذا الكتاب.

ـــ أهمية الكتاب بالنسبة لموضوعنا :

تتجلى في تعرض أغسطين بالتفصيل لظاهرة «الانتحار» أو «الاستشهاد الإرادي» عند الدوارين. وفي الكتاب أيضا، يعطي أغسطين تعريفا بالدوارين، وإشارة إلى التطور الذي طرأ على تصرفاتهم عند ذلك التاريخ.

(268) عن أبطاتوس «الجيلدوني» انظر أعلاه، ص 121، هـ 5.

ـ تاريخ كتابة «الرد على كاودنتيوس» :

يؤرخ للكتاب ما بين 418 و422، ربما حوالي 420 حسب مونصو[269].

ـ المخطوطات والنشرات :

لا يعرف حاليا إلا مخطوط واحد للكتاب، يرجع إلى القرن الثالث عشر[270]. ونشر الكتاب في «الجامع اللاتيني للكتابات الكنسية» (C.S.E.L)[271]، وفي «المكتبة الأغسطينية» (B.A)[272] التي اعتمدتها.

النص السادس والأربعون : **C. Gaud., I, XXVI, 29.**[273]

«... Quomodo gaudentes odio saeculi pressuris eius non succumbitis, sed laetamini, cum uos ipsos uelitis occidere, ne molestias qualescumque patiamini, et mori eligitis non ab aliis occisi pro ueritate Christi, sed a uobis ipsis pro parte Donati ? ista circumcellionum est insania, non martyrum gloria».

ترجمة النص :

«كيف (تقولون) ان حقد السلطة الزمنية يفرحكم حتى ان ضرباتها لا تنهككم بل تكون مصدر ابتهاجكم، مع أنكم تنوون قتل أنفسكم للتملص من المتاعب التي تهددكم، ومع أنكم اخترتم الموت ـ لا تحت ضربات الغير في سبيل المسيح ـ ولكن بأيديكم وفي سبيل حزب دوناتوس ؟ ان هذا من قبيل جنون الدوارين لا من باب أمجاد الشهداء !».

---

(269) - Monceaux, P., H.L.A.C., VI, pp. 189-199
- B.A. 32, p. 504.

(270) - B.A. 32, p. 505

(271) - C.S.E.L. 53, pp. 201-274

(272) - B.A. 32, 1965; trad. G. Finaert; introd. et notes par E. Lamirande, pp. 510-684

(273) - B.A. 32, p. 572 = C.S.E.L. 53, p. 227

النص السابع والأربعون : C. Gaud., I, XXVII, 30.[274]

«... ad diabolum sine dubio pertinetis, cum tria genera mortis, aquam ignem praecipitium, in uestris mortibus frequentatis».

ترجمة النص :

«ان الشيطان يضعكم من غير شك في قائمة ذويه، بما أنكم تنتحرون بهذه الطرق الثلاث : الماء والنار والارتماء من الجروف»[275].

النص الثامن والأربعون : C. Gaud., I, XXVII, 31 - XXIX, 33.[276]

XXVII. 32. Verba epistulae : «An non ista, inquit, persecutio est, quae tot milia innocentum martyrum artauit ad mortem ? christiani enim secundum euangelium spiritu prompti, sed carne infirmi a sacriliga, contaminatione caminorum reperto compendio suas animas rapuerunt, imitati presbyteri Raziae in Macohaba eorum (580)[277] libris exemplum, nec frustra timentes. quisquis enim in eorum manus inciderit, non euasit. sed quantum uelint faciant; quod certum est, dei esse non possunt qui faciunt contra deum». ad haec responsio : Apertissime omnino quam persecutionem patiamini et uerissime confiteris; ipsa est enim de qua iam dixi, quae in sanctis scripturis de quibusdam impiis satis euidenter expressa est, de quibus dictum est quia persecutionem patiuntur ab ipsis factis suis. quod quidem dici de uobis conuenientissime potest, etiamsi uos aliorum manus propter uestra sacrilegia trucidarent. nam et latrones et quilibet homines rei criminum capitalium, cum iustis legibus puniuntur, non dicendi sunt persecutionem pati nisi ab ipsis factis suis. sed nunc plane cum parcente uobis mansuetudine christiana ita in uos saeuit uestra dementia, ut, quomadmodum dicis, «caminorum reperto compendio»

---

(274) - B.A. 32, p. 576 = C.S.E.L. 53, p. 228

(275) يستشهد أغسطين هنا بنصوص من الكتاب المقدس :
— متى، الاصحاح 17، 15 : «... يقع كثيرا في النار وفي الماء». (الغلام الذي يرمي به الشيطان في الماء والنار، والذي شفاه يسوع وأخرج منه الشيطان).
— متى، الاصحاح الرابع، 6 : «وقال الشيطان له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل (من أعلى جناح الهيكل)».

(276) - B.A. 32, pp. 578-584 = C.S.E.L. 53, pp. 230-232

(277) ترقيم الصفحات في نشرة B.A.

uestras animas rapiatis, omni modo uos a uobis ipsis pati persecutionem nimia est impudentia si negatis, quando uos utrumque completis, et unde iuste pereatis et quod peritis. sic autem dicis tot hominùm milia esse qui hoc faciunt, quasi non etiam ista sit non parua causa, cur ab huiusmodi magisterio uestro Africa liberetur. eorum est enim hominum genus, cui hoc malum persuadere potuistis, qui sole (ba) nt haec et antea facere, maxime cum idolilatriae licentia usque quaque ferueret, quando isti pagamorum armis festa sua frequentantium irrue (231)[278] - bant. uouebant autem pagani iuuenes idolis suis quis quot occideret. at isti gregatim hinc atque inde confluentes tamquam im amphitheatre a uenatoribus more immanium bestiarum uenabulis se oppositis ingere - (582)[279] bant, furentes moriebantur, putrescentes sepeliebantur, decipientes colebantur. praeter haec sunt saxa immania et montium horrida praerupta uoluntariorum creberrimis mortibus nobilitata uestrorum. aquis et ignibus rarius id agebant, praecipitiis greges consumebantur ingentes. aetatis nostrae hominibus res notissimas loquor. quis enim nescit hoc genus hominum in horrendis facinoribus inquietum, ab utilibus operibus otiosum, crudelissimum in mortibus alienis, uilissimum in suis, maxime in agris territans, ab agris uacans et uictus sui causa cellas circumiens rusticanas, unde et circumcellionum nomen eccepit, uniuerso mundo paene famosissimum Africani erroris opprobrium ?

XXIX. 33. Ex hoc igitur genere quis ignorat quam multi antea per diuersas mortes ibant et peribant, et nunc in illorum comparatione quam pauci suis ignibus ardeant ? sed si putas moueri nos óportere, quia isto modo tot milia moriuntur, quantum existimas nos habere consolationis, quod a tanta dementia partis Donati, ubi non sulum nefariae diuisionis error, uerum etiam furor iste lex facta est, longe atque incomparabiliter plura milia liberantur ? neque enim isti, qui pereunt, illerum saltem numero aequantur, qui ex ipso genere nunc iam tenentur ordine disciplinae colendisque agris amisso circumcellionum et opere et nomine inseruiunt, seruant castitatem, tenent unitatem : quanto (584)[279] minus coaequantur isti perditi numero utriusque sexus non solum puerorum et puellarum, iuuenum et uirginum, uerum etiam coniugatorum et senum, quorum innumerabiles ex Donatistarum nefaria dissensione in pacem Christi ueram et catholicam transeunt ! isti quippe, qui se incendunt, nec tot homines sunt quot loca sunt populis plena, qui ab exitiali peste

(278) ترقيم الصفحات في نشرة .C.S.E.L.

(279) ترقيم الصفحات في نشرة .B.A.

erroris illius et furoris (232)[280] per hanc instantiam perficiendae unitatis eruuntur. numquidnam. obsecro, sanum misericordiae potest esse consilium, ut simul cum illis isti omnes aeternis gehennarum suppliciis seruentur, ne illi in istorum comparatione perpauci suorum caminorum ignibus exurantur ? ut enim omnes cum Christo uiuant, magnis canatibus et uotis agendum est; sed si hoc per quorundam furorem fieri non potest, saltem ut non omnes cum diabolo percant laborandum est».

ترجمة النص :

«XXVIII, I. 32. نص الرسالة[281] : «أليس اضطهاداً هذا الوضع الذي أرغم آلاف الشهداء الأبرياء على الموت ؟ إن المسيحيين ـــ الذين قال عنهم الإنجيل أن أرواحهم نشيطة ولكن أجسامهم ضعيفة ـــ[282] وجدوا في المحرقة طريقا مختصرا لانتزاع أرواحهم من الوسخ المدنس مقتدين في ذلك مثال «رازياس» أحد القدماء المذكورين
ص.580 في كتاب المكابيين[283]. وتخوفهم ليس بدون سبب لأن كل من سقط بأيديهم (أي أيدي السلطات المضطهدة) لا ينجى. لكن ليفعلوا ما يشاؤوا ! الأكيد هو أنه لا يمكن أن يكون المرء من الله ويتصرف ضد الله».

---

(280) ترقيم الصفحات في نشرة .C.S.E.L.

(281) رسالة كاودنتيوس. اعتمد أغسطين طريقة تقديم كلام كاودنتيوس فقرة بفقرة ثم الإجابة على كل واحدة منها على حدة.

(282) انجيل متى، الإصحاح السادس والعشرون، 41 : «أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف».

(283) **II Macchab.**, XIV, 41-46 -

كتاب «المكابيين» من الكتب المختلفة (apocryphes)، لم يعثر على نصه الأصلي بالعبرية. يتألف من ثلاثة كتب : الأول يروي اضطهاد «انطيوخوس» الرابع ـــ ملك السلوقيين ـــ لليهود (176-175 ق.م)، ومقاومة اليهود بزعامة الكاهن Mattathias وأبنائه، خاصة يهوذا Juda الملقب بـ«مكابيوس» Macchabaeus («المطرقة»؟). أما الكتاب الثاني، فيرجع إلى نفس الأحداث، ولكنه يركز أكثر على الجانب الديني والعبرة التي ينبغي أن تؤخذ من هذا الاضطهاد. أما الكتاب الثالث، فلا علاقة له بثورة «المكابيين»، ويروي كيف لقي ملك مصر «بطلمايوس» الرابع «فيلوباطور» (222-205 ق.م) عقاب الله على معاملته ليهود الاسكندرية، وكيف أصبح في الأخير حاميا لهم.

- Jacob. E., **l'Ancien Testament**, Paris, P.U.F., Q.S.J., 1970, p. 109-110.

الرد على النص : هذا أوضح اعتراف وأحقه على نوعية الاضطهاد الذي تعانون منه ؟ إنه الاضطهاد الذي تحدثتُ عنه سابقا والذي نجده مذكورا بكثير من الوضوح في الكتاب المقدس بصفته اضطهادا يخص بعض الكفار، وعنهم قيل أنهم سيعانون اضطهاد أفعالهم ذاتها. وهذا ينطبق تمام الانطباق عليكم حتى لو قتلتكم يدُ الغير بسبب تدنيسكم. فعندما تعاقب القوانين العادلة اللصوص وغيرهم من المجرمين المستحقين القتل، لا يمكن اعتبارهم من المضطهدين، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن أفعالهم هي التي تضطهدهم. أما أنتم، ففي الوقت الذي ترفق بكم الرحمة المسيحية، يسعى جنونكم سعيا حثيثا إلى هلاككم، فيقودكم إلى ما سميّته بطريق المحرقة المختصر لينتزع منكم الحياة، وعلى أي حال، فإنكم تضطهدون أنفسكم بأنفسكم، ومن السفاهة أن تنكروا ذلك، طالما أنكم تعطون الدليل في آن واحد على هلاككم وعلى ما يبرر ذلك الهلاك. تقول ان هناك آلاف الرجال الذين يفعلون هذا الفعل (الانتحار). كما لو أن ذلك لم يكن في حد ذاته سببا آخر — وسببا لا يستهان به — لتخليص افريقيا من قبضتكم الروحية. ان أولئك الذين استطعتم اقناعهم بفكرة اقتراف هذا الإثم ينتمون في الواقع إلى سلالة أولئك الرجال الذين اعتادوا في القديم أن يقدموا على نفس العمل، خاصة عندما كانت عبادة الأوثان منتشرة في كل مكان. عندئذ، كانوا يرتمون على جماهير المشركين (pagani) الشاهرين سلاحهم والمتأهبين لإقامة شعائرهم، فكان الشبان من المشركين ينذرون لأوثانهم كل من تمكنوا منهم من الضحايا. أما المتعصبون السذج، فكانوا يهرعون إليهم جماعات من كل جانب، شأنهم شأن الحيوانات المفترسة التي يطاردها القناصون في الحلبة، وكانوا يلقون بأنفسهم على الحراب الثاقبة.
ص.582 وهكذا، كانوا يحصلون في نوبتهم الجنونية على الموت، وفي حالتهم المتعفنة على ضريح، وفي خداعهم على مقدسين(284). وبالإضافة إلى

(284) هذه الإشارة إلى جذور تاريخية لظاهرة الانتحار إشارة غير معتادة عند أغسطين. يرى لوبيلي علاقة «غير واعية» بين هذه الانتحارات وتقديم الأضاحي البشرية :

Lepelley (Cl.), «Juvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique antique», Ant. Afr., 15, 1980, 261-271.

هذا، هناك أيضا تلك الصخور الناتئة والحفر السحيقة في الجبال، التي اشتهرت بسبب الموت الإرادي الذي يقدم عليه ذووكم بها في غالب الأحيان، بحيث نادرا ما كانوا يلجأون إلى الماء والنار، بل كانت المنحدرات الجبلية هي التي تبتلع منهم الفرق العديدة(285). إنني أتحدث عن وقائع يعرفها المعاصرون حق المعرفة. فمن منا لا يعرف ذلك النوع من الناس الذين لا يكفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستنكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة في قتل أنفسهم، يرهبون البوادي خاصة لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول «الاهراء» الريفية(286) بحثا عن القوت ــ ومن ثم تسميتهم بالدوارين ــ، من منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه أشهر أو تكاد تكون أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الإفريقي.

XXIX. 33. من منا يجهل كيف أن العديد من أولئك الناس كانوا سابقا يتعاطون كل أشكال الانتحار، وكيف قل الآن نسبيا عدد الذين يلقون بأنفسهم أحياء في الحرائق التي يشعلونها ؟ لكن إذا كنت تعتقد أننا سوف نأسى على آلاف الرجال الذين يقضون على حياتهم بهذا الشكل، فتصور مدى الارتياح العميق الذي نشعر به لكون آلاف الآخرين ــ وهم أكثر بكثير من المنتحرين ــ، بدأوا يتحررون من حزب دوناتوس وحماقته المجنونة، ذلك الحزب الذي نصب شريعة له ليس فقط خطيئة الانشقاق المدنس، ولكن أيضا تلك الانتحارات المجنونة. ان أولئك الذين لازالوا يمارسون الانتحار لا يصل عددهم إلى عدد أمثالهم الذين أصبحوا الآن يلتزمون النظام والانتظام، والذين

---

(285) إشارة أغسطين إلى انتحار الدوارين بهذه الطريقة عديدة (مثلا النصوص : 11، 27، 48). وربما كان المنتحرون بهذه الطريقة يقلدون أحد شهداء الدوناتيين المشهورين : «ماركلوس»، الذي لقي حتفه سنة 347. أعلاه، ص 154-155.

(286) احتفظت بترجمة G. Finaert لكلمة Cellas rusticanas وقد ناقشت الاشتقاقين الآخرين الذين اقترحهما كل من W.H.C. Frend و S. Calderone لكلمة «Circumcelliones»، ومعنى Cellas rusticanas في رأيهما. وذلك في الفصل الثاني، ص 98 وما بعدها.

تخلوا عن اسم الدوارين وعن عمل الدوارين، وبدأوا يفلحون
ص584 الحقول[287]، يلتزمون العفاف ويحافظون على الوحدة. وما أقل اليوم عدد أولئك اليائسين بالمقارنة مع الآخرين رجالا ونساء، فتيانا وفتيات، شبانا وشابات، متزوجين وعجزة، الذين يغادرون أفواجا انشقاق الدوناتية المدنس ويلتحقون بوحدة المسيح الحقة والكاثوليكية ! نعم، إن أولئك الذين يحرقون أنفسهم لا يتعدى عددهم حتى عدد المحلات الآهلة جدا بالسكان، والتي خلصتها الاجراءات الرسمية[288] من كارثة ذلك الانشقاق وذلك الجنون. هل الشفقة الحقيقية أن نتركهم جميعا ــ الأخيرون والأولون ــ[289] لعذاب جهنم خالدين حتى نمنع الأولين ــ وهم حفنة قليلة ــ من حرق أنفسهم في المحارق التي يشعلونها لأنفسهم ؟ ليعش الكل مع المسيح ! هذا هو الهدف الذي يستحق كل الجهود وكل التمنيات. لكن إذا حال جنون البعض دون الوصول إلى هذا الهدف، فمن الواجب على الأقل محاولة منع الكل من الهلاك مع الشيطان.

النص التاسع والأربعون : C. Gaud., I, XXXI, 37.[290]

«... dictum est, quod se ueriliter de muro praecipitauit in turbas : nec nos dicimus eum hoc fecisse muliebriter. quamquam uos, qui multum exemplo isto profecistis, etiam feminas uestras hoc facere docuistis : sed fatemur hoc etiam ipsas non facere muliebriter, sed uiriliter, non tamen salubriter, quia non fideliter».

(287) يمكن أن نلمس في هذه الإشارة تعبيرا عن رغبة الدولة في تثبيت الدوارين في حقولهم، ورضا أغسطين على تحقيق هذا الهدف.

- Warmington, B.H., **The North African provinces...**, op.cit., p. 88.

(288) القوانين المطبقة ضد الدوناتيين من 412 إلى تاريخ كتاب أغسطين (420) (أعلاه، ص 261، هـ 1).

(289) الأخيرون : الذين دخلوا إلى الكاثوليكية، الأولون : الذين «تمادوا في تعصبهم».

(290) - **B.A.** 32, p. 596; **C.S.E.L.** 53, p. 236

ترجمة النص :

«قد قيل عنه[291] عندما ارتمى على جماعة من الجنود من أعلى السور أن عمله هذا كان عملا رجوليا. ونحن من جهتنا لا نقول بأن عمله كان عمل أنثى. لكنكم أخذتم العبرة من هذا المثال، ولقنتموه لنسائكم أيضا، ونعترف أنهن يقمن به بكامل الرجولة، لا كأنثيات، ولكن ذلك لن ينفعهن لخلاصهن، لأنه عمل مخالف للعقيدة»[292].

النص الخمسون : C. Gaud., I, XXXV, 45.[293]

«... Quod autem de militibus facis inuidiam, si utique ista cura, sicut iam docuimus, in scripturis sanctis pertinere demonstratur ad reges, per quos id acturi sunt aduersus rebelles circumcelliones et insanos eorum siue participes siue principes nisi per subditos milites ?».

ترجمة النص :

«إنك تشجب استعمال الجنود (في ردع المنشقين). لكن الكتاب المقدس يعطي الدليل — كما عرضنا سابقا — على أن تلك المهمة منوطة بالملوك. فبأي وسيلة سوف يؤدونها ضد الدوارين الثائرين وأنصارهم أو زعمائهم المخبولين إذا لم يكن بفضل جنودهم الأوفياء ؟»[294].

النص الحادي والخمسون : C. Gaud., I, XXXVI, 46.[295]

«... Unde etiam quaedam sanctimoniales uesrae grauidae per saxa se miserunt et dissilietibus uteris homicidiorum scelere etiam stuprorum

(291) المقصود «رازياس» Razias في كتاب «المكابيين» :
- II Macchab, XIV, 37, ap. Lamirande, E., in B.A. 32, p. 595, n° 5.

(292) إشارة إلى العذارى المنذورات لخدمة الكنيسة الدوناتية moniales اللائي كن يتسكعن مع الدوارين وينتحرن أيضا بالارتماء من الجروف، على قول أغسطين، يقارن مع النصوص : 51 و12 و13 و15.

(293) - B.A. 32, p. 614; C.S.E.L. 53, p. 244

(294) يظهر هذا النص على الخصوص مدى خطورة الدوارين، وضرورة استعمال الجيش لردعهم.

(295) - B.A. 32, p. 618 = C.S.E.L. 53, p. 246

scelera prodiderunt, existimantes, si hoc modo in se uindicassent, nullo iam modo uindicaturum deum. sicut et uos putatis, quae sacrilegio schismatis et haeresis uel depraedando detrumcando excaecando, postremo etiam rebaptizando catholicos et quaelibet alia potuerunt a uobis nefanda commiti, isto modo posse quo uos occiditis expiari».

ترجمة النص :

«ولهذا، فإن بعض عذاراكم[296] الحوامل يلقين ــ هن أيضا ــ بأنفسهن من أعلى الجروف، فينفلق بطنهن، ويكشف انتحارهن الاجرامي عن جرائم فسقهن. وهن يعتقدن أنهن بانتقامهن هذا من أنفسهن، سوف ينجين من انتقام خالقهن. وتعتقدون أن رجس الانشقاق أو الهرطقة، أو أعمال النهب والتمثيل بالضحايا وطمس العيون[297] وجرائم القتل، وأخيرا تعميد الكاثوليك[298]، وكل الجرائم الأخرى التي اقترفتموها ــ سوف تكفرون عن كل هذا بمجرد انتحاركم !».

النص الثاني والخمسون : **C. Gaud., I, XXXVI, 51.[299]**

«... nec res eorum a catholicis auferuntur, sed potius inquiruntur eisque multa, quantum fieri potest, correctis reddenda seruantur. (251)[300] sed stabunt catholici non solum aduersus gentiles, a quibus ueri martyres expoliati sunt, uerum etiam aduersus circumcelliones Donatistarum, quia et ipsi abstulerunt labores eorum. uerum de his pecuniaribus laborius faci ior causa est, cum etiam illi, quorum erant, ad pacem catholicam transeunt. ecce cotidie, si quis ad nos transitum fecerit, reddimus pecuniam uestem fructus uassa rura tecta uestrorum: uos quomodo nobis reddituri estis membra nostrorum ?».

(296) هناك نصوص أخرى تعرفنا عن العذارى الدوناتيات (moniales) مثلا : النصوص : 11 و12 و13 و15 و49.

(297) بالجير والخل كما في نصوص أخرى (النص 31 مثلا).

(298) عن هذا المبدأ الدوناتي، انظر أعلاه، ص 203، هـ 2.

(299) B.A. 32, p. 630; C.S.E.L. 53, p. 250-251 -

(300) ترقيم الصفحات في نشرة : C.S.E.L.

ترجمة النص :

«... والواقع أن الكاثوليك لا يسرقون (من الدوناتيين) ثرواتهم، بل يضعون لائحة جرد لها، ويحتفظون بها لكي يردوها مضاعفة قدر الإمكان إليهم، بمجرد رجوعهم إلى الطريق السوي. وعلى العكس، فإن الكاثوليك أجدر بإقامة الدعوى ـــ لا على الوثنيين الذين نهبوا شهداءهم الحقيقيين[301] فحسب ـــ، ولكن على دواري الدوناتيين أيضا، لأنهم انتزعوا منهم (من الكاثوليك) ثمار كدهم وكدحهم.

إن مشكلة الثروات المادية يمكن أن تحل في الواقع بسهولة، عندما يلتحق أولئك الذين كانت بملكهم بالسلام الكاثوليكي. وفعلا، فإننا في كل يوم نُرجع إلى الملتحقين بنا نقودَ ذويكم وملابسهم وفواكههم وأوانيهم وحقولهم وديارهم[302]. لكن أنتم، كيف تستطيعون إرجاع الأعضاء (التي قطعتموها) إلى (أجسام) ذوينا ؟».

النص الثالث والخمسون :
المجمع الكاثوليكي المنعقد بقرطاج في 16 يونيو 404[303].

«... Unde quia impletum est erga eos episcopale ac pacificum officium, et illi qui veritati respondere nequiverunt, ad immanes violentias sunt conversi : ita ut multos episcopos multosque clericos (ut de laicis taceamus) insidiis oppresserint, ecclesias etiam aliquas invaserint, aliquas invadere pertentaverint, ipsorum iam clementiae est consulere, ut ecclesia catholica, quae eos religioso utero in Christo genuit, et fidei firmitate nutrivit, eorum etiam prospectione muniatur, ne temerarii homines religiosis temporibus infirmos populos terrendo praevaleant : quoniam

(301) إشارة إلى أن الكاثوليك لا يعترفون بدرجة الشهادة «للمنتحرين» الدوناتيين.

(302) يعطينا هذا النص ـــ بصفة غير مباشرة ـــ فكرة عن ثروات الكنيسة الدوناتية ـــ ونعلم من جهة أخرى أن بعض الابرشيات كانت غنية، وكانت لها حقول واسعة يعمل بها مزارعون (مثلا في الحقل الذي اكتراه «كريسبينوس» : النص 14، أعلاه، ص 305، هـ 1) وكانت تستفيد من توريث بعض الأغنياء بعض ممتلكاتهم لها (النص 10).

(303) **Concilia Africae**, a. 325-a. 525, éd. Munier (Ch.), Corpus Christianorum, series latina, Turnhout, CXLIX. 1974, p. 212, L. 1020-1036; cf. Brisson, J.-P., Autonomisme et Christianisme..., op. cit., p. 272.

seducendo depravare non possunt. Nota est enim, et saepe legibus conclamata circumcellionum, qua furiunt, detestabilis manus, quae etiam ipsorum religiosissimorum supra principum frequentibus sanctionibus condemnata est, adversus quorum furorem possemus non insolita, nec a scripturis sanctis aliena impetrare praesidia quando apostolus Paulus (Act., XXIII) sicut in apostolorum Actibus fidelibus notum est, factiosorum conspirationem militari etiam submovit auxilio».

ترجمة النص :

«... وبما أن الأساقفة الكاثوليك قاموا بواجبهم السلمي تجاههم (أي الدوناتيين)، وان هؤلاء الناس، الذين لم يستطيعوا دحض الحقيقة، بلغوا في ارتكاب فظاظاتهم المروعة إلى حد اغتيال عدد كبير من الأساقفة والكهنة ــ بغض النظر عن أفراد آخرين من العامة ــ، والاستحواذ على العديد من الكنائس ومحاولة الاستيلاء على كنائس أخرى، فإنه أصبح من الآن فصاعدا على الأباطرة الحلماء أن يسهروا بعنايتهم على الكنيسة الكاثوليكية التي أنجبتهم في المسيح بفضل رحمها الورع وأسبغت عليهم نعمة الإيمان القوي، وان يمنعوا السفهاء ــ في أيامنا الورعة هذه ــ من بسط سلطانهم بالقوة على المؤمنين الضعفاء، عندما تستعصي عليهم الهيمنة بالإغراء والتضليل. والكل يعرف ــ ومن إشارات القوانين نفسها في غالب الأحيان ــ تلك القطعان الكريهة من الدوارين، التي يمارسون (أي الدوناتيين) بواسطتها جنونهم، والتي أدانتها المراسيم المتكررة الصادرة عن الأباطرة الورعين السالفين(304). وبودنا أن نلتمس ضد جنونهم حماية لن تكون خارقة للعادة ولا متناقضة مع الكتاب المقدس، بما أن بولس الرسول

(304) هي من غير شك أحكام إمبراطورية في حالات جنائية خاصة كتلك التي رواها أغسطين عن تشكي أحد الأغنياء إلى الإمبراطور من كون أخته أورثت ممتلكاتها للكنيسة الدوناتية، فجاء حكم الإمبراطور يقضي بارجاع الممتلكات إلى رافع الشكوى (النص 10، أعلاه). لذا، فإن جامع القوانين لم يحفظ كل هذه الأحكام ولم يرد ذكر الدوارين إلا نادراً (في قانون 412 و484، أعلاه، الفصل الأول، ص 78).

— بشهادة ما جاء في «أعمال الرسل» —[305] نجا بفضل حماية الجنود من مؤامرة اغتيال دبرها له المتمردون».

النص الرابع والخمسون : Capitula, III, 296.[306]

النص التالي مقتبس من الملخص، أو «الفهرس» الذي وضعه «ماركيلوس» Marcellus لنشرته لمحضر مناظرة قرطاج. و«ماركيلوس» هذا لا يعرف عنه إلا ما قاله عن نفسه في مقدمة نشرته، أي أنه كان memorialis، أي من بين الموظفين المكلفين بتسجيل أعمال المناظرة قصد نشرها حسب الاجراءات التي اتخذها القاضي «ماركلينوس» Marcellinus[307].

تتكون نشرة ماركيلوس لمحضر المناظرة من ثلاثة أجزاء : المقدمة، والفهرس ووقائع المناظرة نفسها. وتعرف هذه النشرة عن طريق مخطوط واحد يرجع إلى أواسط القرن التاسع[308]. نشر الكتاب سبع مرات من القرن 16 حتى الآن[309]. وآخر نشرة علمية هي التي نشرها S. Lancel في سلسلة «المصادر المسيحية»[310]، وهي التي اعتمدتها.

297. Vbi dicunt donatistae quod circumcelliones faciunt ad sacerdotes minime pertinere.

ترجمة النص :

«297. وفيه[311] قال الدوناتيون أن ما يفعله الدوارون لا يهم الكهنة».

---

(305) أعمال، الإصحاح الثالث والعشرون.

(306) - S.C., n. 195, p. 502 = P.L. XI, col. 1248

(307) أنظر دراسة المصادر، أعلاه.

(308) عن تاريخ هذا المخطوط : (Parisinus 1546).
- S.C., n° 194, p. 367 ss.

(309) - S.C., ibid, pp. 373-375

(310) - S.C., n° 194, 195, 224, Paris, 1972-75

(311) أي في هذا التدخل خلال المناظرة.

النص الخامس والخمسون : Edictum[312]

هذا النص مأخوذ من القرار الذي أصدره القاضي «ماركلينوس» بتاريخ 26 يونيو 411[313]. وهو غير القرار الذي أصدره إثر انتهاء المناظرة مباشرة في يوم 8 يونيو 411، والذي ضاع مع معظم الجزء الأخير من محضر المناظرة. والوثيقة التي نحن بصددها هي عبارة عن الاجراء التطبيقي الذي اتخذه القاضي بعد صدور الحكم على الدوناتيين[314].

> «... Hii autem qui in praediis suis circumcellionum turbas se habere cognuscunt, sciant, nisi eorum insolentiam omnimodis conprimere et refrenare gestierint, maxime ea loca fisco mox occupanda; siquidem tam catholicae legi quam quieti publicae ut eorum conquiescat insania in hac parte consulitur...».

ترجمة النص:

> «والذين كانوا على علم بوجود فرق الدوارين فوق أراضيهم، فليعلموا أنهم إذا لم يسعوا إلى ردع اجراءاتهم وكبح جماحهم بكل الوسائل، فإن تلك الأراضي سوف تصادر لفائدة الدولة، لأن محاولة تهدئة جنونهم معناه السهر على احترام القانون الكاثوليكي واحترام الأمن العمومي في آن واحد».

النص السادس والخمسون : Gesta, III, 174.[315]

النص التالي مأخوذ من محضر مناظرة قرطاج خلال الجلسة الثالثة أو اليوم الثالث. وهي الجلسة الرئيسية التي أثيرت فيها مختلف القضايا من المسائل الفقهية إلى تبادل الحجج التاريخية. وللأسف، لم تصلنا وقائع تلك الجلسة كاملة، إذ ضاع

---

(312) - S.C., 224, p. 978 = P.L., XI, col. 1420

(313) - S.C., ibid, p. 978 = P.L., ibid., col. 1420

نص الوثيقة موجود كاملا في :

- S.C., ibid., pp. 972-978 = P.L., ibid., col. 1418-1420.

(314) - Lancel, S., in S.C. 224, p. 976, n. I

(315) - S.C., 224, p. 1120 = P.L., XI, 1393

منها الثلثان حسب تقدير Lancel[316]. ولا يرجع ذلك إلى نشرة «ماركيلوس» نفسها (التي يعطينا فهرسُها المفصل وقائع الجزء الضائع من المحضر)، ولكن إلى المخطوط الوحيد الذي وصلنا للمحضر[317].

«... Aut si putant se habere aliquid ueritatis, non eam furiosis circumcellionum uiolentiis contra publicam quietem sed tranquilla rationis redditione defendant...».

ترجمة النص :

«وإذا كانوا يعتقدون أنهم أصحاب حقيقة ما، فليدافعوا عنها لا بأعمال العنف الجنوني الذي يقوم بها دواروهم ضد النظام العمومي، ولكن بشرح هادىء لحججهم»[318].

يلاحظ في هذا النص مدى تطابق موقفي كل من الكاثوليك والسلطات الرسمية تجاه عنف الدوارين، وتركيزهما على الأمن العمومي. وهذا كان يدخل من غير شك في استراتيجية الكاثوليك لاقناع الدولة بالتدخل ضد الدوناتيين.

النص السابع والخمسون : Cod. Theod., XVI, 5, 52.[319]

قانون هنوريوس الصادر في 31 يناير 411.

«Idem AA. Seleuco P(raefecto) P(raetori)o .... nisi ex die prolatae legis omnes donatistae, tam sacerdotes quam clerici laicique, catholicae se, a qua sacrilege descivere, reddiderint, tunc inl (ustres) singillatim poenae nomine fisco nostro auri pondo quinquagintà cogantur inferre, spectabiles auri pondo quadraginta, senatores auri pondo triginta, clarissimi auri pondo viginti, sacerdotales auri pondo triginta, principales auri pondo viginti, decuriones auri pondo quinque, negotiatores auri pondo quinque, plebei auri pondo quinque, circumcelliones argenti

(316) - S.C., n° 367

(317) - ibid., p. 366

(318) ومن ثم محاولات الكاثوليك لاقناع الدوناتيين بعقد مناظرة بين ممثلين عن الكنيستين. ولكن الدوناتيين كانوا في غالب الأحيان لا يستجيبون لهذه الرغبة. عن محاولات أغسطين شخصيا في هذا الصدد : B.A. 32, pp. 27-32

(319) - Ed. de Mommsen, Th. et Meyer, P., Berlin 1930, pp. 872-873. ap. Martroye, F., la répression du donatisme..., M.S.N.A.F., t. LXXIII, Paris, 1914, n. I., pp. 134-135.

pondo decem. Qui nisi a condoctoribus, sub quibus conmanent, vel procuratoribus executori exigenti fuerint praesantạti, ipsi teneantur ad poenam, ita ut nec domus nostrae homines ab hujuscemodi concura habeantur immunes. Uxores quoque eorum maritalis segregatim multa constrigat.

Eos enim, quos nequaquam inlata damna correxerint, facultatum omnium publicatio subsequetur.

Servos etiam dominorum admonitio vel colonos verberum crebrior ictus a prava religione revocabit, ni malunt ipsi ad praedicta ictus a prava religione revocabit, ni malunt ipsi ad praedicta dispendia, etiam si sunt catholici, retineri...... Dat. III Kal. Feb. R(a)v(ennae) Honor(io) IX et Theod (sio) V AA. Conss (30 Janvier 412)».

ترجمة النص :

«من الامبراطور هنوريوس والامبراطور ثيدوسيوس[320]، إلى «سلوكس»، الوكيل على الولايات...[321] اعتبارا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين ــ سواء منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة ــ بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها منتهكين الحرمات، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا، وذلك حسب ما يأتي : «المشاهير» inlustres[322] : 50 رطلا من الذهب، «الاشراف» Spectabiles[322] : 40 رطلا من الذهب،

---

(320) ثيدوسيوس II، خلف اركاديوس على الجزء الشرقي من الامبراطورية (من 408 إلى 450).

(321) كانت الامبراطورية الرومانية مقسمة في نهاية القرن الرابع إلى أربع نواح كل واحدة عليها نوع من وال أكبر praefectus praetorio وهذه النواحي هي : الشرق والبريا الشرقية، وايطاليا ــ افريقيا ــ البريا الغربية، وأخيرا بلاد الغال. وكانت هذه النواحي الكبرى مقسمة إلى ابرشيات diocoesis (منها ابرشية افريقيا) على رأس كل ابرشية وال في عاصمة الابرشية يسمى «فيكاريوس» Vicarius وأخيرا كانت الابرشيات مقسمة إلى أقاليم أصغر (مثلا في ابرشية افريقيا، هناك إقليم البروقنصلية، وبيزاكينا والإقليم الطرابلسي ونوميديا قرطة، وموريطانيا الصطيفية وموريطانيا القيصرية)، عن إدارة الولايات بعد اصلاحات ديقليديانوس :

- Piganiol, A., **L'Empire chrétien (325-395)**, Paris, 1972, pp. 353-359; pp.
- Petit. P., **H.H.E.R.**, t. III : **le Bas-Empire**, Paris, 1974, pp. 70-75; pp. 154-157.

(322) لم تكن الطبقة «السيناتورية» مكونة من أفراد كانوا أعضاء في مجلس الشيوخ أو انتسبوا =

«السيناتورات» : Senatores[322] : 30 رطلا من الذهب، «اللامعون» Clarissimi[322] : 20 رطلا من الذهب، «أعيان الإقليم» Sacerdotales[323] : 30 رطلا من الذهب، «أعيان المدن» Principales[324] : 20 رطلا من الذهب، أعضاء المجالس البلدية : decuriones[324] : 5 أرطال من الذهب، التجار negotiatores : 5 أرطال من الذهب، «عامة المدن» Plebei : 5 أرطال من الذهب، الدوارون Circumcelliones : 10 أرطال من الفضة. وفي حالة ما إذا لم يقدم «الاكارون»[325] Conductores الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم «وكلاء الإمبراطور»[326] Procuratores إلى «المكلف بتنفيذ القانون (executor) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون

= إلى أسر أولئك الأعضاء (كما كان الحال في عهد الجمهورية الرومانية والإمبراطورية المبكرة)، بل أصبح هذا اللقب تشريفيا يمنحه الإمبراطور لمن يشاء من الاغنياء. وفي نفس الوقت كانت ممارسة بعض الوظائف العليا تدخل تمايزا داخل الطبقة السيناتورية. فنجد الأغلبية الساحقة تحمل لقب «اللامعين» : Clarissimi، وفوقها يحمل بعض الأفراد لقبين تشريفيين إضافيين إلى «أنبل النبلاء» : «الاشراف» Spectabiles وفوقهم في الهرم الاجتماعي والإداري : «المشاهير» Inlustres.

- **Gagé, J., Les classes sociales dans l'Empire Romain, Paris, 1971, p. 35.**

انظر أيضا أعلاه، ص 52.

(323) أعيان الإقليم الذين يحضرون حفلات الولاء للامبراطور في عاصمة الإقليم. (أعلاه، ص 50، هـ 3).

(324) كان «الديكوريون» يمثلون طبقة مالكة وحاكمة في المدن، ولكنها عرفت ضعفا متزايدا خلال القرنين الثالث والرابع. وتدل قيمة الغرامة المفروضة على أفراد هذه الطبقة (5 أرطال من الذهب) والتي تساوي الغرامة المفروضة على التجار وحتى على عامة الحضريين (5 أرطال أيضا) انها فقدت كثيرا من مركزها الطلائعي السابق. واستطاع بعض الأفراد من هذه الطبقة أن ينجوا من هذا التطور الخطير، بل أن يستفيدوا منه على حساب الأخرين، فسيطروا على الحياة بالمدن، خاصة عن طريق الغش في تحصيل الضرائب. (أعلاه، ص 47—50).

(325) «الاكارون» هم الأشخاص الذين يستأجرون الضيع الشاسعة، خاصة ضيع الإمبراطور لمدة معينة (في الغالب خمس سنوات). انظر أعلاه، الفصل الأول.

(326) وكلاء الامبراطور : هم موظفون تعينهم إدارة الأملاك الامبراطورية، على رأس الضيعات التابعة لتلك الأملاك. وكان وكلاء الضيعات تحت إشراف نوع من إدارة إقليمية يرأسها وكيل عام مستقر بقرطاج. انظر أيضا أعلاه، الفصل الأول، ص ص 59.

شخصيا بأدائها بحيث لا يعفى منها حتى أهل بيتنا. وليخضع نساؤهم للغرامة الزوجية على انفراد. وهكذا، فسوف يتعرض كل من أصر (على البقاء في الدوناتية) ــ رغم الأحكام الصادرة عليه ــ لمصادرة كل ممتلكاته. وليبعد الرقيق Servi عن هذه الديانة المحظورة بإيداعهم سجن أسيادهم، والمزارعون (Coloni) بالعدد الكافي من الجلدات، وإلا فليسدد أسيادهم (domini) الغرامات المذكورة، حتى ولو كانوا كاثوليكيين... صدر بـ«رافنا»، في اليوم الثالث من غرة فبراير، تحت قنصلية هنوريوس للمرة التاسعة وثيدوسيوس للمرة الخامسة (30 يناير 412)».

هذه الإشارة إلى الدوارين في نص قانوني تبقى فريدة من نوعها إذا ما استثنينا إشارة أخرى في قانون للملك الوندالي «هونريك» Huneric ضد الكاثوليك في سنة 484، والتي هي نسخة منقولة نقلا شبه حرفي عن قانون هنوريوس الذي بين أيدينا[327].

كان للباحث الفرنسي صوماني Ch. Saumagne الفضل في جلب النظر إلى هذا القانون[328] بعد أن كان الباحثون يمرون عليه مر الكرام[329]. وقد تعرضنا في الفصل الثاني إلى النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة هذا النص[330].

تناول هذا القانون ــ بعد صوماني ــ عدد من الباحثين، كما اقترحت قراءتان جديدتان لبعض فقراته :

1 ــ «بريصون» J. Brisson رأى أن الجملة التالية :

«eos enim, quos nequaquam illata damna correxerint, facultatum omnim publicatio subsequentur».

«وهكذا سوف يتعرض كل من أصر (على البقاء في الدوناتية) ــ رغم الأحكام الصادرة عليه ــ إلى مصادرة كل ممتلكاته»، ان هذه الجملة لا تقصد الدوارين

---

(327) **- Saumagne, Ch., Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les circoncellions d'Afrique, A.H.E.S. t. VI, 1934, p. 353.**

(328) المقال المذكور في الهامش السابق.

(329) **- ibid, p. 353**

(330) أعلاه، ص 78 وما بعدها.

وحدهم — كما اعتقد صوماني[331] — ولكن تهم كل الفئات السابقة في الذكر للدوارين، كما تهم الدوارين أيضا[332]. لكن هذه القراءة لا تغير كثيرا من معنى النص، وسواء تعلق الأمر بالدوارين وحدهم أو بكل الفئات الحرة الأخرى، فيبقى أن الدوارين كانوا هم أيضا معرضين لمصادرة ممتلكاتهم، مما يعطي الدليل على أن القانون اعترف لهم ضمنيا بامتلاكها.

2 — «طنكشتروم» E. Tengström اقترح قراءة جديدة للجملة التالية :

«Qui nisi a conductoribus, sub quibus conmanent, uel procuratoribus executori exigendi fuerint praesentati, **ipsi** teneantur ad poenam...».

«وإذا لم يقدم «الأكارون» الدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم «الوكلاء» إلى المكلف بتنفيذ القانون كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها...». ويرى «طنكشتروم» ان الضمير ipsi في الجزء الأخير من الجملة، لا يعود على «الدوارين» كما قرأه «صوماني»[333] و«بريصون»[334]، ولكنه يعود على «الأكارين» و«الوكلاء»[335].

وتبدو هذه القراءة الجديدة أكثر تلاؤما مع سياق النص. وقد نالت رضا بعض

---

(331) وفي اعتقادي أنه ليس هناك ما يثبت أن «صوماني» قد قرأ الجملة على أنها تعني الدوارين وحدهم. إلا أنه في الفقرة التي يشير إليها بريصون كان بصدد استخلاص نتائج القانون على الدوارين، فكان من الطبيعي أن يذكر من بين تلك النتائج حتى التي كانت تهم كل الفئات (بما فيها فئة الدوارين). وعلى أي حال، فإن ترجمة صوماني لا تثبت ولا تنفي قول «بريصون» : - Saumagne, ibid., p. 356

(332) - Brisson, J.P., **Autonomisme et Christianisme...**, Paris, 1958, pp. 355-56

(333) «صوماني» نفسه كان قريبا من تبنيها حيث قال : ويتوقع المرء أن ينص القانون على عقوبة ما تطبق على الأكارين بسبب عدم تسليمهم الدوارين الموجودين تحت «رعايتهم» إلى منقذ القانون. غير أن النص لا يحتمل معنى آخر (غير الذي يقتضي مطالبة الدوارين بتسديد الغرامة) حسب ما يبدو لنا».
- Saumagne, op.cit., p. 355 et p. 358.

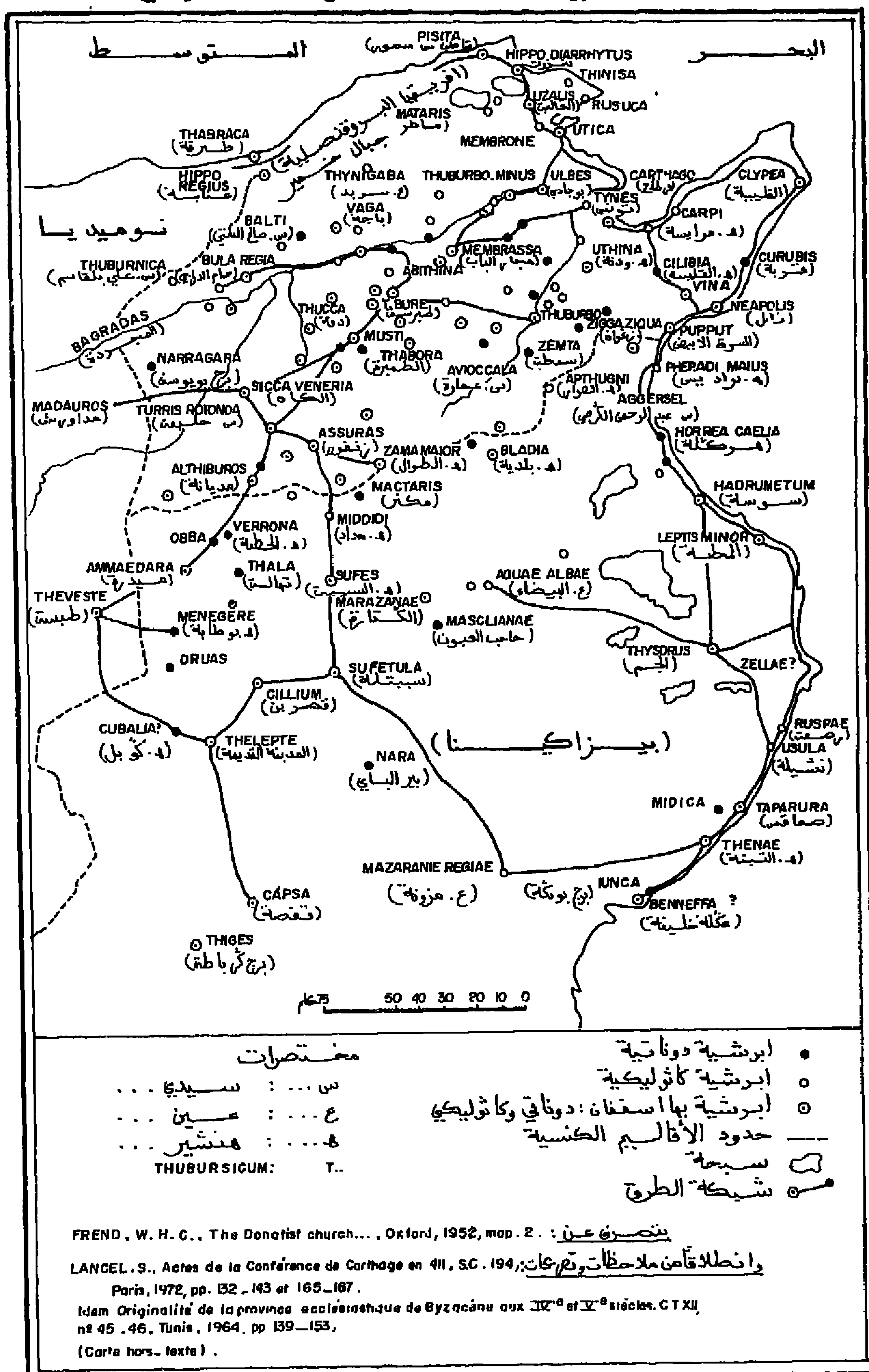
(334) - Brisson, J.P., op.cit., p. 334

(335) - Tengström, E., **Donatisten und Katholiken...**, Goteborg, 1964, pp. 27-31; ap. Lancel, S., C.R. de E. Tengström, **R.E.L.** 1965, p. 638.

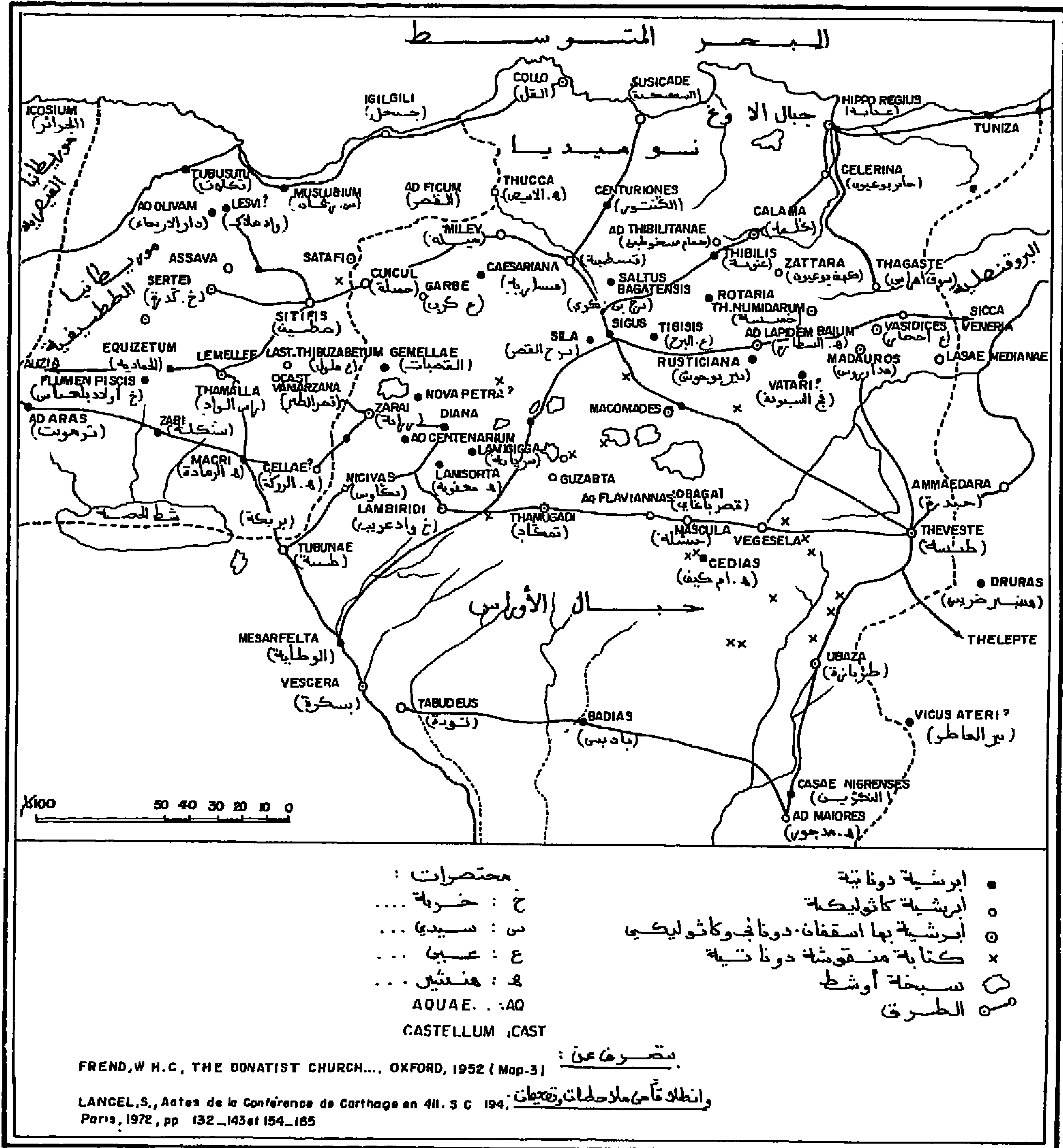
الباحثين[336]، ولكنها في الواقع لا تدخل تغييرا كبيرا على النص، إلا من حيث تركيزها على مسؤولية الأكارين والوكلاء في الضغط على الدوارين كي يتخلوا عن الدوناتية. وهذه المسؤولية واضحة، إذ أن هؤلاء الأخيرين هم المكلفون بـ«تسليم» الدوارين إلى منفذ القانون executor. لكنهم على أي حال ـــ سواء اعتمدنا قراءة «صوماني» أو تعديل «طنكشتروم» لها ـــ لم يكونوا مسؤولين عن تطبيق القانون مباشرة على الدوارين، كما هو الحال بالنسبة للعبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين للجلد أو السجن. بل تنتهي مهمة «الأكارين» و«الوكلاء» عند «ادلائهم» بالدوارين للسلطة. ولا تلحق بهم العقوبة إلى في حالة عدم ادلائهم بالدوارين الموجودين تحت مسؤوليتهم. عندئذ فقط، «يطالبون شخصيا بتسديد الغرامة مكان الدوارين».

(336) - Lancel, S., ibid, p. 638
- Calderone S., Circumcelliones, **Parola del Passato**, 1967, p. 89.

خريطة رقم ١ : الابرشيات الدوناتية والكاثوليكية في افرقيا البروقنصلية وبيزاكينا في مناظرة قرطاج (٤١١م)



خريطة رقم 2 : الابرشيات الدوناتية والكاثوليكية في نوميديا وموريطانيا السطيفية في مناظرة قرطاج (411م)



مختصرات :
خ : خربة ....
س : سيدي ...
ع : عين ...
ﻫ : هنشير ...
AQUAE. . :AQ
CASTELLUM :CAST

• ابرشية دوناتية
o ابرشية كاثوليكية
⊙ أبرشية بها اسقفان : دوناتي وكاثوليكي
× كتابة منقوشة دوناتية
سبخة أو شط
الطرق

بتصرف عن : FREND, W H.C, THE DONATIST CHURCH.... OXFORD, 1952 (Map-3)

وانطلاقاً من ملاحظات وتعليقات LANCEL, S., Actes de la Conférence de Carthage en 411. S C 194, Paris, 1972, pp 132-143 et 154-165

خريطة رقم 3 : محاولة لتحديد مجال حركة الدوارين في القرنين الرابع والخامس للميلاد .

البحر المتوسط

HIPPO DIARRHYTUS
UTICA
CARTHAGO (قرطاج)
HIPPO REGIUS (عنابة)
RUSICADE (السكيكدة)
IGILGILI (جيجل)
SALDAE (بجاية)
THUBURSICUM BURE (تبرسق)
CALAMA (قالمة)
THAGASTE (سوق أهراس)
MUSTI
MILEV (ميلة)
CIRTA (قسنطينة)
ASSURAS
MADAUROS (مداوروش)
SITIFIS (سطيف)
AUZIA (سور الغزلان)
HADRUMENTUM (سوسة)
NACTARIS (مكثر)
BAGAI (قصر باغاي)
THAMUGADI
MASCULA (خنشلة)
VEGESELA
THEVESTE (تبسة)
THYSDRUS (الجم)
SUFETULA (سبيطلة)
VESCRA (بسكرة)
CAPSA (قفصة)
BAGRADAS
NUTHUL

جبال البابور
م. القيصرية
م. الصطيفية
نوميديا
البروقنصلية
بيزاسينا
ج. الأوراس
ج. النمامشة
ج. زيبان
جبال الحضنة
شط الحضنة
شط الغرسة
شط الجريد
الاقليم الطرابلسي

200كم 150 100 50 0

---- الحدود الإدارية للولايات

اشارة صريحة إلى عمليات الدوارين :

- كلاما : Aug., C. Cresc., III, XLVI, 50 ss (النص 32)

- ثبورسيكوم - بوري : Aug, C Cresc, III, XLIII, 47 (النص 31)

- أسوراس : Aug., Gesta. c. Emerito, 9 (النص 44)

- باغاي وناحيتها : Optat III, 4 (النص الأول) - Aug, C Cresc III, XLIII 47 (النص 31)

- هيبوريجيوس وناحيتها : Aug, C Cresc, III, XLVIII, 53 - Aug. Ep. 108, 6, 18 (النص 33) الخ

مجال مفترض (فلك عند اشارة مركزية .

المصادر والمراجع

أولا ـــ المصادر :

Actes de la Conférence de Carthage en 411 ; Edition S. Lancel dans les «**Sources Chrétiennes**», Paris, Edition du Cerf, 1972-1975 :
— t.I : Introduction générale, **S.C.** n° 194, 1972.
— t.II : Texte et traduction de la Capitulation générale et des Actes de la première séance, **S.C.** n°195, 1972.
— t.III : Texte et traduction des Actes de la deuxième et de la troisième séance, **S.C.** n° 224, 1975.

AUGUSTIN, Saint, **Traités anti-donatistes,** publiés sous la direction des «Etudes Augustiniennes» dans la «**Bibliothèque Augustinienne**», Edition Desclée De Brouwer, Paris, 1963-1968 :
— **B.A.** 28 ; 1963 : Psalmus contra partem Donati. Çontra epistulam Parmeniani libri tres. — Textes de R. Anastasi et de M. Petschenig ; introductions et notes par Y.M.J. Congar ; traduction de G. Finaert et de G. Bouissou.
— **B.A.** 29, 1964 : De baptismo libri VII. — Texte de M. Petschenig introduction et notes de G. Bavaud ; traduction de G. Finaert.
— **B.A.** 30, 1967 : Contra litteras Petiliani libri tres. — Texte de M. Petschenig ; introduction et notes de B. Quinot ; traduction de G. Finaert.
— **B.A.** 31, 1968 : Contra Cresconium libri IV. De unico baptismo. Texte de M. Petschenig ; introduction de A.C. de Veer ; traduction de G. Finaert.
— **B.A.** 32, 1965 : Brevicus collationis cum donatistis. Ad donatistas post collationem. Sermo ad Caesariensis plebem. Gesta cum Emerito donatistarum episcope. Contra Gaudentium donatistarum episcopum libri duo. — Texte de M. Petschenig ; introduction et notes de E. Lamirande ; traduction de G. Finaert.
— **Epistulae,** éditées par Goldbacher dans **C.S.E.L.**, t.34 $^{1-2}$ (1895-98) (réimp. 1970), 44(1904), 57(1911) 58(indices, 1923).
Traduction française avec texte latin par Vérone et autres dans : «**Œuvres complètes de Saint-Augustin**», Paris, Librairie Louis de Vivès éditeur : t. IV(1873), V(1870), VI(1873).

AUGUSTIN ? Epistula ad catholicos de secta donatistarum, **B.A.** 28, pp. 501-707.

CODEX THEODOSIANUS, édition Th. Mommsen et P. Meyer, Berlin 1903.
Les lois relatives au Donatisme sont, pour la plupart, citées en notes dans :
Martroye, F., La répression du donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses successeurs en Afrique, **M.S.N.A.F.**, LXXIII, 1914, pp. 23-140.

OPTAT de Milev, **De schismate donatistarum**, édution Zisa, C., **C.S.E.L.**, t.XXVI, Vienne, 1893.

ثانيا ــ المراجع :

أحمد صفر، **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، تونس 1959.

شارل اندريه جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الاسلامي : 647م.**، تعريب محمد مزالي والبشير ابن سلامة، تونس، النشرة الثالثة، 1978.

روستوفتزف، م.، **تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، الجزء الأول، (المتن)، ترجمة ومراجعة : زكي علي ومحمد سليم سالم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ت (1957).

ALBERTINI, E., Epitaphe probablement donatiste de Barika, **R.A.**, 1927. pp. 99-101.
— Un témoignar de Saint-Augustin sur la prospérité relative de l'Afrique au IV^{e} siècle, **Mélanges P. Thomas.** 1930, pp.1-5.
— Actes de vente du V^{e} siècle, trouvés dans la région de Tebessa (Algérie), J.S., 1930, pp.24-40.
— Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, **C.R.A.I.**, 1939, pp. 100-103.

AUDOLLENT, A., La diffusion du christianisme en Afrique au sud des territoires soumis à Rome, après le V^{e} sicèle, **C.R.A.I.**, 1942, pp. 202-216.

BAINTON, R.H., **Early christianity**, New York, D. Van Nostrand, 1950.

BERTHIER, A., et autres, **Les vestiges du christianisme antique dans la Numidie centrale**, Alger, 1942.

BENABOU, M., **La résistance africaine à la romanisation**, Paris, Maspéro, 1976.

BRISSON, J.P., **Autonomisme et christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale**, Paris, E. de Boccard, 1958.

BÜTTNER, Th., et NERNER, E., Circumcellionen und Adamiten. Zwei formen mittelaterlicher haeresie, **Forschungen zur Mittelalterlicher Geschichte.** Band I, Berlin, 1959, pp. 1-72.

CAILLEMER, A., et CHEVALLIER, R., Les centuriations romaines de Tunisie, **A.E.S.C.**, 1957, pp. 275-286.

CALDERONE, S., Circumcelliones, **Parola del Passato,** XXII, 1967, pp. 94-109.

CAMPS-FABRER, H., **L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine,** Alger, 1953.

CAYREL, P., Une basilique donatiste de Numidie, **M.E.F.R.**, LI, 1934, pp. 114-142.

CHASTAGNOL, A., **Le Bas-Empire,** Paris, Colin, U², 1069.

CHEVALLIER, R., **Dictionnaire de la littérature latine,** Paris, Larousse, 1968.

COURCELLE, P., Une seconde campagne de fouilles à Ksar-el-Kelb, M.E.F.R. 1936, pp. 166-197.

COURTOIS, Chr., De Rome à l'Islam, **R.A.**, 1942, pp. 25-55.

— Saint-Augustin et le problème de la survivance du punique, **R.A.**, 1950, pp. 259-282.

— **Les Vandales et l'Afrique.** Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1955.

DANIELOU, J., et MARROU, H.I., **Nouvelle histoire de l'Eglise** t.I, Paris, 1963.

DARMON, J.P., Note sur le tarif de Zarai, **C.T.**, n° 47-48, 1964, pp. 7-23.

D'ESCURAC-DOISY, H., Note sur le phénomène associatif dans le monde paysan à l'époque du Haut-Empire, **A.A.**, t.I, 1967, pp. 56-71.

DESPOIS, J., La bordure saharienne de l'Algérie orientale, **R.A.**, 1942, p. 197-219.

— **L'Afrique du Nord,** 1949.

— L'«Atlas des centuriations romaines de Tunisie». Une question de méthode, **A.E.S.C.**, 1957, pp. 460-466.

DIESNER, H.J., **Kirche und staat im spätrömischen Reich, Aufsätze zur spätantike und zur geschichte der alten Kirche,** Berlin 1963.

DUCHESNE, L., Le dossier du Donatisme, M.E.F.R., 1890, pp. 589-650.

FEVRIER, P.A., Toujours le Donatisme, à quand l'Afrique ? (Remarques sur l'Afrique à la fin de l'Antiquité à propos du livre d'E. Tengström), **Rivista di Storia e Litteratura Religiosa,** II, 1966, pp. 228-240.

— Martyrs, polémique et politique en Afrique (IV^{e}-V^{e} siècles), **R.H.C.M.**, t.I, 1966, pp. 8-18.

FINLEY, M.I., **L'économie antique** (traduction française par Max Peter Higgs), Paris, Minuit, 1975.

FREDOUILLE, J.C., **Dictionnaire de la civilisation romaine**, Paris, Larousse, 1968.

FREND, W.H.C., The cellae of the african circumcellions, **J.T.S.**, New series, III, 1952, pp. 87-90.

— **The Donatist church. A movement of protest in roman North Africa**, Oxford, Clarendon Press, 1952. (2nd éd., 1971).

— The seniores laici and the origin of the church in North Africa, **J.T.S.**, XII, 2, 1961, pp. 280-284.

— Circumcenllions and monks, **J.T.S.**, XX, 1969, pp. 542-549.

— Heresy and schism as social and national movements, **Studies in Church History**, vol. 9, 1972, pp. 37-56.

GAGE, J., **Les classes sociales dans l'Empire Romain**, Paris, Payot, 2e ed. revue par A. Chastagnol, 1971.

GACIC, P., En Afrique romaine, classes et luttes sociales d'après les historiens soviétiques, **A.E.S.C.**, XII, 1957, pp. 650-661.

L'auteur résume quelques articles écrits en russe et parus dans la Revue d'Histoire Ancienne russe **(Vestnik Drevnèj Istorri)**.

— Machkine, M.A., Le mouvement révolutionnaire des esclaves et des colons dans l'Afrique romaine, **V.D.I.**, IV, 1949, pp. 51-62.

— Chtaerman, E.M., Les insurrections africaines au IIIe siècle, V.D.I., II, 1948, pp. 65-74.

— Dmitrev, A.D., Sur le problème de Agonistiques et des circoncellions **V.D.I.**, II, 1948, pp. 66-78.

— Machkine, N.A., Agonistici ou circoncellions dans le Code Théodosien, **V.D.I.**, 1938, p. 92ss.

GSELL, ST., Observations géographiques sur la révolte de Firmus, **B.S.A.C.**, XXXVI (Souvenir du cinquantenaire : 1853-1903), 1903, pp. 21-46.

— **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, 8 tomes, Paris, 1913-1928 (Reprint de la 1ere éd. par Otto Zeller Verlag, Onasbrück, 1979).

HAMMAN, A.G., **La vie quotidienne en Afrique au temps de Saint-Augustin**, Paris, Hachette, 1979.

JONES, A.H.M., Weret ancient heresies national or social movements in disguise ?, **J.T.S.**, New series, X, 1959, pp. 280-295.

KOLENDO, J., Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique, **R.E.A.**, LXV, 1963, pp. 80-103.

— Le problème du développement du colonat en Afrique romaine sous le Haut-Empire, dans : **Terres et paysans dépendants dans les sociétés antiques.** (Colloque international tenu à Besançon les 2 et 3 Mai 1974), Pris, C.N.R.S., 1979, pp. 391-417, et discussion pp. 419-439.

KOTULA, T., Le fond africain de la révolte d'Héraclien en 413, **A.A.**, t. 11, 1977, pp. 257-266.

LANCEL, S., Originalité de la province écclésiastique de Byzacène aux IV^e et V^e siècles, **C.T.**, XII, 1964, pp. 139-153.

— Aux origines du donatisme et du mouvement des circoncellions. **C.T.** XV, n° 58, 59, 60, 61 (Mélanges Ch. Saumagne), 1967, pp. 183-188.

LAROUI, A., **L'Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse**, t. 1, Paris, Maspéro, 1975.

LEPELLEY, C., Déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire, à propos d'une loi de l'empereur Honorius, **A.A.**, t. 1, 1967, pp. 135-144.

— «Juvenes et circoncellions : les derniers sacrifices humains de l'Afrique antique», **Ant. Afr.**, 15, 1980, 261-271.

— **L'Empire romain et le Christianisme**, Flammarion, 1969.

LESCHI, L., Recherches aériennes sur le «limès» romain de Numidie, **C.R.A.I.**, 1937, pp. 256-262.

— Basilique et cimetière donatistes de Numidie (Ain Ghorab), **R.A.**, 1936, pp. 27-42.

LORENZ, R., Circumcelliones — Cotopitae — Cutzupitani, **Zeitschrift für** Kirchengeschichte, LXXXII, 1971, pp. 54-59.

MANDOUZE, A., Encore le donatisme, problèmes de méthode posés par la thèse de J.P. Brisson, Autonomisme et Christianisme..., **Antiquité Classiques**, XXIX, 1960, pp. 61-107.

MARKUS, A., Christianity and dissent in Roman North Africa : changing perspectives in recent work. **Studies in Churhc History**, vol. 9, 1972, pp. 21-36.

MARROU, H.I., Survivances paiennes dans les rites funéraires des donatistes, **Latomus**, II, 1949, pp. 193-203.

MARTROYE, F., Une tentative de révolution sociale en Afrique, donatistes et circoncellions, **Revue des Questions Historiques**, 32, 1904, pp. 353-416 et 33, 1905, pp. 5-53.

— Saint-Augustin et la compétence de la juridiction ecclésiastique au V^e siècle, **M.S.N.A.F.**, X, 1911, pp. 1-78.

— Article «circoncellions» dans : **Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie**, III², 1914, col. 1962-1710.

— La répression du donatisme et la politique religieuse de Constantin et de ses successeurs en Afrique, **M.S.N.A.F.**, LXXIII, 1914, pp. 23-140.

MONCEAUX, P., L'épigraphie donatiste, **Revue de Philologie, de Littérature et d'Histoire Ancienne**, 38, 1909, pp. 112-161.

— L'église donatiste au temps de Saint-Augustin, **R.H.R., LXI**, 1910, pp. 20-77.

— L'église donatiste après Saint-Augustin, **R.H.R.**, LXIII, 1911, pp. 148-194.

— L'église donatiste, organisation et caractères, **R.H.R.**, LXIII, 1911, pp. 257-295, et LXIV, 1911, pp. 21-58.

— **Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne**, 7 volumes, Paris, 1901-1923, (réed. Bruxelles 1966) :
  — IV : **Le Donatisme**, 1912.
  — V : **Saint-Optat et les premiers écrivains donatistes**, 1920.
  — VI : **La littérature donatiste au temps de Saint-Augustin**, 1922.
  — VII : **Saint-Augustin et le Donatisme**, 1923.

MOREAU, M., La guerre de Firmus (373-375), **R.H.C.M.**, X, 1973, pp. 21-37.

Oxford Classical Dictionary, Oxford, Clarendon Press, 2nd éd., 1978.

PETIT, P., **Histoire générale de l'Empire Romain**, Paris, Seuil, 1974, 3 tomes :
  — I : **Le Haut-Empire** (27 av. J.C. — 161 ap. J.C.)
  — II : **La crise de l'Empire** (des derniers Antonins à Dioclétien : 161-284).
  — III : **Le Bas-Empire** (284-395).

PICARD, G.C., **La civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, PLON, 1959.

— **La Carthage de Saint-Augustin**, Paris, Fayard, 1965.

PIGANIOL, A., **L'Empire Chrétien** (325-395), Paris, P.U.F., 2e édition mise à jour par A. Chastagnol, Paris, 1972.

PONCEI, J., A propos des cultures en terrasses, **A.E.S.C.**, 1957, pp.455-460.

RACHET, M., **Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien**, Coll. Latomus, Bruxelles ; 1970.

RAYNAL, D., Culte des martyrs et propagande donatiste à Uppenna, **C.T.**, XXI, n° 81-82, 1973 ; pp. 33-72.

REMONDON, R., **La crise de l'Empire Romain**, Paris, Nlle Clio, 1970.

REITZENSTEIN, R., **Historia monachorum und Historia Lausiaca**, Göttingen, 1916.

SALAMA, P., **Les voies romaines de l'Afrique du Nord**, Alger, 1951.

SAUMAGNE, Ch., Sur la législation relative aux terres incultes de l'Afrique romaine, **R.T.**,1921, pp. 57-105.

— La crise de l'autorité en Afrique au début du IVe siècle de notre ère (observations relatives à quelques monnaies frappées à Carthage entre 305 et 312 après J.C.), R.T., 1921, pp. 133-142.

— Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers ? les circoncellions d'Afrique, **A.H.E.S.**, t.6, 1934, pp. 351-364.

— Un tarif fiscal du IV[e] siècle de notre ère, **Karthago**, I, 19[illegible], pp. 109-200.

— La survivance du punique en Afrique aux V[e] et VI[e] siecles, **Karthago**, IV, 1954, pp. 171-178.

— **Saint-Cyprien, évêque de Carthage, 'Pape' d'Afrique**, Paris, C.N.R.S., 1975.

SAUMAGNE, Ch., et autres, **Tablettes, Albertini. Actes privés, de l'époque vandale** (fin du V[e] siècle), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1952.

SIMON, M., Le Judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne, **Revue d'Histoire et de Philosophie religieuse**, XXVI, Strasbourg, 1946, pp. 1-31 et pp. 105-145.

— Punique ou Berbère ? note sur la situation linguistique dans l'Afrique romaine, **Mélanges Isidore Lévy**, Bruxelles, 1955, pp. 613-629.

SMITH, M.A., **The Church under siege**, Leicester, Inter-Varsity Press, 1976.

TENGSTRÖM, E., **Donatisten und Katholiken, soziale wirtschaftliche und politische Aspekte einer Nordafrikanischen Kirchenspaltung** (Studia Graeca et Latina Gothoburgensia, XVIII), Goteborg, 1964.

THOUVENOT, R., Les origines chrétiennes en Maurétanie Tingitane, **B.S.G.A.O** t. 56, fasc. 199, Oran, 1935. (article remanié et publié in **R.E.A.**, n° 3-4, 1969, pp. 354-378).

THÜMMEL, W., **Zur beurteilung des Donatismus**, Halle-Saale, 1893.

TOUTAIN, J., Culturae Mancianae, **Mélanges Fr. Martroye**, 1940, pp. 93-100.

VANNIER, O., Les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'après le texte d'Optat, **R.A.**, LXVII, 1926, pp. 13-28.

WARMINGTON, B.H., **The North African provinces from Diocletian to the vandal conquest**, Cambridge, 1954.

ZEILLER, J., Donatisme et Arianisme ; la falsification donatiste de documents du concile arien de Sardique, **C.R.A.I.**, 1933, pp. 65-73.

— Les hérésies en Afrique entre la paix constantinienne et l'invasion vandale, **Mélanges Fr. Martroye**, 1940, pp. 101-106.

ببليوغرافيا إضافية

تم إنجاز هذا العمل قبل تاريخ 1982/1981. و لم يصدر بعد ذلك ــ فيما توصلنا إليه ــ أي عمل جديد مخصص لحركة «الدوارين». غير أنه من الضروري الإشارة إلى صدور نشرات جديدة لبعض المصادر (خاصة أبطاتوس)، وكذا بعض الأعمال الحديثة ذات الصلة بالموضوع، فضلا عن بعض العناوين التي لم نتمكن من الاستفادة منها إبان تحرير العمل.

وقد يكون من المفيد أيضا الاطلاع على بعض مواقع «الإنترنيت» خاصة بالنسبة إلى المصادر صعبة المنال.

1 ــ المصــادر :

أ ــ القديس أبطاتوس :

أخيرا، صدرت نشرة جديدة لكتاب أبطاتوس الميلي بتحقيق «ميراي لابروس»، حيث يوجد النص المتعلق بالدوارين (Optat, III, 4) في الجزء الثاني، ص ص 36–46.

LABROUSSE (M.), **Traité contre les Donatistes, t. I (Livre I et II), Introduction, texte critique, traduction et notes; t. II (Livre III à VII), texte critique, traduction, notes et index, *S.C.*** 412–413, Paris, 1995–96.

ب ــ مناظرة قرطاج (411م) : صدر الجزء الرابع والأخير من نشرة «صيرج لنصيل».

Actes de la Conférence de Carthage en 411, éd. Lancel (S.), **t. IV : Additamentum criticum, notices sur les sièges et les toponymes, notes complémentaires et index,** Paris, S.C., n°374, 1991.

ج ــ القديس أغسطين :

• الرسائل الجديدة التي اكتشفها «ديفجاك» :

SAINT AUGUSTIN, **Epistolae ex duobus codicibus nuper in lucem prolatae,** recensuit Johannes Divjack, in **C.S.E.L.**, t. LXXXVIII, 1981 = **Lettres 1*–29*,** nv. édition du texte critique et introduction par Johannes Divjack, trad. Et commentaires par divers auteurs, **B.A.** 46 **B. Œuvres de saint Augustin,** 6e série, Paris, Etudes Augustiniennes, 1987.

• أعمال أخرى :

AUGUSTINUS, **Contra sermonem arrianorum praecedit sermo arrianorum,** edidit Max

Josef Suda, *De correptione et gratia*, edidit Georges Folliet, Corpus scriptorum ecclesiasticorum latinorum, vol. XCII, Verlage der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 2000.

SAINT AUGUSTIN, **Homélies sur l'Evangile de saint Jean LXXX-CIII**, Traduction, introduction et notes par M.-F. Berrouard, Bibliothèque augustinienne, Œuvres de Saint Augustin, 74, B. Institut des études augustiniennes, 1998.

AUGUSTINE, **The City of God against the Pagans**, Edited and Translated by R.W. Dyson, Cambridge Texts in the History of Political Thought, Cambridge U.P., 1998.

SAINT AUGUSTIN, **Les Confessions précédées de Dialogues philosophiques**, Œuvre, I, édition publiée sous la direction de Lucien Jerphagnon avec, pour ce volume, la collaboration de Sophie Astic, Jean-Yves Boriaud, Patrice Cambronne, Jean-Louis Dumas, Sophie Dupuy-Traudelle et Henri-Pierre Tardif de Lagneau, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, 1998.

SAINT AUGUSTIN, **De ordine – L'ordre**, Introduction, texte critique, traduction, notes complémentaires par Jean Doignon, Bibliothèque augustinienne, Œuvres de Saint Augustin, 4/2, Dialogues philosophiques, Institut des études augustiniennes, 1997.

SAINT AUGUSTIN, **La doctrine chrétienne, De doctrina christiana**, Texte critique du CCL, revu et corrig.; Introduction et traduction de Madeleine Moreau, Annotation et notes complémentaires d'Isabelle Bochet et Goulven Madec, Bibliothèque augustinienne, Œuvres de Saint Augustin, 11/2, Institut des études augustiniennes, 1997.

SAINT AUGUSTIN, **Homélies sur l'Evangile de Saint Jean LV-LXXIX**, Traduction, introduction et notes par M.-F. Berrouard, Bibliothèque augustinienne, Œuvres de Saint Augustin, 74A, Institut des études augustiniennes, 1993.

ت ـــ «ملف الدوناتية» : جمع فيه «مايير» أهم النصوص المتعلقة بالدوناتية مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية :

MAIER (J.-L.), **Le dossier du Donatisme, t. I : Des origines à la mort de Constance II (303 – 361); t. II : De Julien l'Apostat à Saint Jean Damascène (361 – 750)**, Text und Untersuchungen zur Geschichte der Altchristlichen Literatur, Band 134 – 135, Berlin, 1987 – 89.

ث ـــ قصص آلام الشهداء :

DOLBEAU (F.), **«Un sermon inédit d'origine africaine pour la fête des Saintes Perpétue et Félicite», An. Boll.**, 113, 1995, pp. 89 – 106 : Introd. : pp. 89 – 100; *«Omelia sancti Augusti de natale sanctarum Perpetuae et Felicitatis»* : pp. 101 – 106.

MASTANDREA (Paolo), **«Passio di Martiri Donatisti (B.H.L. 4473 e 5271)», An. Boll.**, 113, 1995, pp. 39 – 88 : Introd. : pp. 39 – 64; *Passio Marculi* : pp. 65 – 75; *Passio Isaac et Maximiani* : pp. 76 – 88.

2 ـــ بعض المراجع :

ACTES DE COLLOQUE, **Les lettres de Saint Augustin découvertes par Johannes**

divjak, Communications présentées au colloque des 20 et 21 septembre 1982, Paris, **Et. Aug.**, 1983, 390p.

DUVAL (Y.), **Loca sanctorum Africae, Le culte des martyrs en Afrique du IV^e au VII^e siècle**, Paris, C.E.F.R., 58, De Boccard, 1982.

FEVRIER (P.-A.), **Approches du Maghreb romain**, I et II, Aix-en-Provence, 1989 et 1990.

FREND (W.-H.-C.), «A note on religion and life in a Numidian village in the Later Roman Empire» **B.C.T.H.S.**, n.s., 17, fasc. B. (Afrique du Nord), 17, **C.T.H.**, 1984, pp. 261–271.

GUI (E.), DUVAL (N.), CAILLET (J.-P.), **Basiliques chrétiennes d'Afrique du Nord, I, Inventaire de l'Algérie, tome 1 : Texte; tome 2 : Illustrations** (rassemblées par Duval (N.), avec la participation de Caillet (J.-P.), Chevalier (P.), et Lorquin (A.), Paris, Collection des Etudes Augustiniennes, Institut d'Etudes Augustiniennes, 1992.

HOMBERT (Pierre-Marie), **Nouvelles recherches de chronologie augustinienne.** Collection des études Augustiniennes, Série Antiquité 163, Institut d'études Augustiniennes, 2000 (xiv + 667 pp.).

LANCEL (Serge), **Saint Augustin**, Fayard, 1999, (793 p.).

LANCEL. (S.), **«Le dossier du Donatisme»**, **R.E.L.**, 66, 1988, pp. 37–42.

LEPELLEY (Cl.), **Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire : t. 1 : La permanence d'une civilisation municipale, t. 2 : Notices d'histoire municipale**, Paris, Et. Aug. 1979–81.

MANDOUZE (A.), **Prosopographie chrétienne du Bas-Empire. t. I : Prosopographie de l'Afrique chrétienne (303–533)**, Paris, C.N.R.S., 1982.

MODERAN (Y.), «Gildon, les Maures et l'Afrique». **M.E.F.R.A.**, 101, 1989, 2, pp. 821–872.

3 ـ بعض مواقع الإنترنيت :

يوجد حاليا عدد يصعب حصره من المواقع المهتمة بالتاريخ القديم عموما بكل علومه المساعدة : إبيغرافيا، نوميات، أركيولوجيا، فسيفساء، الخ، ولكن عدة مواقع تعطي «الارتباطات» المناسبة : links, liens بمواقع أخرى :

1) الكتابات القديمة، بما فيها بعض الكتابات المسيحية (النص اللاتيني فقط) :

The Classics Page at Ad Fontes Academy (Latin Library) :
http://patriot.net/ - lilard/cp/

2) كتابات «آباء الكنيسة»، وضمنهم قبريانوس وأغسطين (الترجمة الإنجليزية فقط) :

Christian Classics in Etheral Library : traductions anglaises des œuvres des Pères de l'Eglise : **http://www.ccl.org/**

3) مجموعة هامة من أعمال أغسطين (النص اللاتيني والترجمة الإيطالية) :

http://www.augustinus.it/

4) بعض أعمال أغسطين (الترجمة الفرنسية) :

http://www.multimania.com/abbayestbenoit/augustin/index.htm

5) الجوامع القانونية، ومنها جامع «ثودوسيوس» (النص اللاتيني فقط) :

http://optev.newmail.ru/

6) النقائش اللاتينية :

1. Pr CLAUSS, Université de Frankfurt (CIL, ILAlg, ILT, IRT, IAM, AE, etc.) :
   http://www.rz.uni.frankfurt.de/ - claussInschriften/
2. The Inscriptions of Roman Tripolitania (avec photos des inscriptions):
   http://rubens.anu.edu.au/irt/records/
3. database de Heidelberg :
   http://www.uni-heidelberg.de/institute/sonst/adw/edh/search.html
4. Inscriptions d'Espagne (photos) :
   http://www2.alcala.es/imagines cilii/

المحتويات

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هَذا الكتاب :

تكاد معلوماتنا عن تاريخ شمال أفريقيا من بداية القرن الرابع الميلادي إلى غزو الوندال للبلاد ابتداء من سنة 429 م تتلخص في ما وصلنا من أخبار عن الصراع المتشعب في هذه الجهة من الإمبراطورية الرومانية بين الكنيستين الأفريقيتين : الدوناتية والكاثوليكية. يرجع ذلك دون مراء إلى المكانة البارزة التي احتلها هذا الصراع في تطور ماجريات تاريخ المنطقة في الفترة المذكورة. ذلك بأن أبرز الأحداث – سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية – كان لها ارتباط وثيق بذلك الصراع.

في خضم هذا الصراع برزت مجموعة من الناس عرف أصحابها في المصادر الكاثوليكية باسم "الدوارين" (Circumcelliones) الذين كانوا يشكلون رؤوس الدوناتية ضد الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك أصبح جزء كبير من الجدل القائم بين الدوناتيين والكاثوليك يدور حول العنف؛ فالكاثوليك يرون في عمل "الدوارين" اضطهاداً لكنيستهم، والدوناتيون يرون في تدخل الدولة إلى جانب خصومهم اضطهاداً لفريقهم.

وقد حاولنا أن نضع حركة الدوارين "تحت المجهر" في ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة. فتساءلنا : من هم الدوارون ؟ ما طبيعة حركتهم ؟ ما علاقتهم بالدوناتية ؟

ونريد لهذا البحث أن يكون مقاربة جديدة للدوناتية وإ لدراسة الظواهر الدينية والاجتماعية في شمال أفريقيا في هذه ا- الهامة من تاريخها القديم.

